رواية

فانيسا ديفينبو

لُغة الزُّهور

THE LANGUAGE OF FLOWERS

ترجمة
محمد أمين الشامي

مكتبة
٨٣٢

مكتبة | 832
سُر مَن قرأ

لغة الزهور

الكتاب:لغة الزهور

المؤلف: ڤانيسا ديفنباو

ترجمة: : محمد أمين جميل الشامي

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: يناير (كانون الثاني) 2021

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: 2 - 790 - 429 - 614 - ISBN: 978

مكتبة
t.me/t_pdf

٢٧ ٣ ٢٠٢٢

Copyright © [2011 by Vanessa Diffenbaugh]

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ مدارك. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي من مدارك.

ترجمات مزون

Madarek
Madarek Publishing House
مدارك
دار مدارك للنشر

رواية

فانيسا ديفينبو

لغة الزهور

THE LANGUAGE OF FLOWERS

ترجمة

محمد أمين الشامي

مكتبة | 832

سُر مَن قرأ

المحتويات

الجزء الأوَّل: شوك البلَّان ٧
الجزء الثَّاني: قلب بغو.............................. ١٤٧
الفصل الثالث: الطُّحلب ٣٠٧
الجزء الرابع: بدايات جديدة ٤١٧

الجزء الأوَّل

شوك البلَّان

(١)

لثماني سنوات وأنا يراودني حلم يعرض لحريق، فأرى الأشجار تستعر ما إن أمرُّ بها وتسجّر المحيطات. يعشِّش دخان سكَّري الرَّائحة في شعري أثناء نومي، وحين أنهض، تجلِّل الرَّائحة وسادتي كأنَّها غِلالة. لكن، ما إن راح فراشي يحترق حتَّى نفرت منه مذعورة. لم تكن الرَّائحة الكيماوية النفَّاذة تضاهي ذلك السَّائل الغامض الَّذي تفيض به أحلامي بحال من الأحوال. كان الاثنان مختلفين قدر اختلاف ياسمين كارولاينا والياسمين الهندي: **انفصال وارتباط**، فلا يمكن الخلط بينهما.

من موقعي في منتصف الغرفة استطعت تحديد مصدر النِّيران. كان صفّاً منتظماً من أعواد الثِّقاب يغطِّي رجل السَّرير وهو ما أشعل، عوداً بعد عود، سياجاً من أوتاد متَّقدة ممتدَّاً عبر قضبان الحافَّة. داهمني رعب لا يعدله حجم لهبها المتراقص، وأنا أتابع اشتعالها. أجمد للحظات لأعود ابنة عشر سنين مرَّة أخرى فيتنازعني شعور باليأس وآخر بالأمل في آن معاً. هي حالٌ ما مررت بها من قبل ولا أظنُّني أمرُّ بها من بعد.

لكنَّ الفراش الصِّناعي العاري لم يشتعل مثلما فعل شوك البلَّان أواخر تشرين الأوَّل ذاك، بل أطلق دخاناً كثيفاً ثم خمدت ناره.

إنّه يوم مولدي الثامن عشر.

في غرفة المعيشة تجلس الفتيات متجاورات، متململات على الأريكة المتداعية. تمسح نظراتهنَّ جسدي ثم تتركَّز على قدميَّ العاريتين اللَّتين لم تحترقا. بدت الرَّاحة على محيَّا إحداهنَّ فيما قطّبت أخرى. لو امتدَّ بي المقام أسبوعاً آخر لتذكّرت كلَّ تعبير ارتسم على قسماتهنَّ، ولكنت رددت لهنَّ الصَّاع صاعين، ولحشرت المسامير الصَّدئة في نعال أحذيتهن، أو دسست لهنَّ الحصى في أوعية الفلفل الحار. فذات مرَّة كويت كتف شريكتي في الغرفة بطرف مشجب معدني محمَّى بسبب اعتداء أقلَّ تهديداً من إضرام النّار. لكنَّني سأغادر في غضون ساعة من الزَّمن، والفتيات يعرفن ذلك، كلُّهن يعرفنه.

من وسط الجمع تنهض صبيَّة. كانت فتيَّة في الخامسة عشرة أو السَّادسة عشرة من عمرها على أبعد تقدير. بدت مليحة بشكل قلَّما رأيته: قوام ممشوق وبشرة نقيَّة وثياب جديدة. لم أتعرَّف عليها مباشرة، لكن، حين قطعت الغرفة، بدت مشيتها مألوفة لديَّ بذراعيها المحنيَّتين باستعداء. ومع أنَّها قدمت مؤخَّراً، لكنَّها لم تبد غريبة. راعني أنَّني عشت معها قبلاً في السَّنوات الَّتي تلت مرحلة اليزابيث، حينما كنت في أوج غضبي وعنفي.

تتوقَّف على بعد بضعة إنشات منّي وقد شمخت بأنفها ليصبح التَّحدّي سيِّد الموقف بيننا وتخبرني بهدوء: «الحريق من تدبيرنا جميعاً. عيد ميلاد سعيد».

تجتاح حالة من الارتباك صفَّ البنات الجالسات على الأريكة خلفها ما بين منكرة ومذعورة. يختلج نور الصَّباح المنعكس في العيون المطرقة فتبدو الفتيات فجأة أحداثاً وقد غُرِّر بهن. ما من طرق متاحة للتخلُّص من السَّكن الجماعي هذا إلَّا بالهروب، أو بلوغ السنِّ القانوني، أو التَّحويل إلى دور الرِّعاية. لم يكن أحد ليعرض تبنِّي فتيات في عمر الرَّابع عشر، ولذلك نادراً ما تلمُّهنَّ بيوت، هذا إن وجدنها أساساً. لقد أدركت تلكم الفتيات آفاق المستقبل الَّذي ينتظرهن. لم يندَّ عن عيونهنَّ إلَّا الخوف منِّي، ومن شريكاتهن في السَّكن، ومن الحياة الَّتي يقضينها أو وجدن أنفسهنَّ فيها. اعترتني شفقة مباغتة تجاههن، فأنا في طريقي لأن أغادر، وهنَّ لا يملكن خياراً آخر إلَّا البقاء.

حاولت المضيَّ متَّجهة صوب الباب لكنَّ الفتاة تحرَّكت جانباً واعترضتني.

مكتبة
t.me/t_pdf

آمرها قائلة: «ابتعدي».

تمدُّ صبيَّة، تعمل في الورديَّة المسائية، رأسها من المطبخ. ربَّما هي لم تبلغ العشرين بعد، لكنَّ الرُّعب مني يتملَّكها أكثر من أيِّ فتاة أخرى في الغرفة. تطلب بنبرة متوسِّلة: «إنَّه آخر يوم لها، فدعنها وشأنها».

أتريَّث وأنا متأهِّبة، فيما سدَّت الفتاة عليَّ الطَّريق وقد شدَّت بطنها، لتتكوَّر القبضات بإحكام. لكنَّها بعد هنيهة تهزُّ رأسها وتصدُّ عنِّي، فأكمل مسيري متخطِّية إيَّاها.

لا يزال لديَّ ساعة من زمن قبل أن تصل ميريديث لتقلّني. أفتح الباب الرَّئيسي وأخطو إلى الخارج. إنَّه واحد من صباحات سان فرانسيسكو الملفَّعة بالضَّباب. العتبة الاسمنتية كانت باردة على قدميَّ الحافيتين. أقف وفكري منشغل، أقلِّب خطط الرَّدِّ على فعلة الفتيات، ردٌّ مؤثِّر ومزلزل. لكنَّ إحساساً غريباً بالتَّجاوز يتملَّكني، قد يكون مردُّه إلى أنَّني بلغت الثَّامنة عشرة، ولأنَّ الوضع انتهى فجأة بالنِّسبة لي، ليعتريني هذا الشُّعور بالشَّفقة تجاه فعلتهن، فأحببت أن أقوم بشيء لتهدئة الرَّوع الَّذي يطلُّ من عيونهن، قبل مغادرتي.

أسير باتِّجاه شارع فيل ثمَّ أنعطف نحو مطعم ماركت. تتباطأ خطواتي ما أن أصل إلى تقاطع مزدحم وأنا أجهل وجهتي. لو كان يوماً غير هذا لتناولت المجلَّات من حديقة دوبوس، ولطوَّفت في باحة فندق بيج وبوكانن المكسوَّة بالزَّرع، أو لكنت سرقت الأعشاب من سوق الحي. على مدار عقد من الزَّمان وأنا أقضي كلَّ دقيقة متوافرة في حفظ معاني الأزهار وتوصيفاتها العلمية. لكنَّ هذه المعرفة ظلَّت حبيسة الصَّدر في معظم الأحيان. كنت أعاود تنسيق نفس الأزهار مراراً وتكراراً: باقة من المخمليَّة وتعني **الحسرة**، ودلو من البلَّان للدَّلالة على **بغض البشر**، إلى جانب قبضة من الحبق المجفَّف وتعني **الكراهية**. إنَّما، بين الحين والآخر، كانت رسائلي تحمل معانٍ مختلفة: فقد قدَّمت للقاضي باقة من القرنفل الأحمر عندما تيقَّنت أنَّني لن أعود مطلقاً إلى كرم

العنب، وصرت أقدِّم **ورد الحميد** لميريديث كلَّما عثرت عليها. والآن، وأنا أفتِّش في شارع ماركت عن بائع زهور، أقوم بنبش قاموس ذاكرتي.

بعد قطع ثلاثة مجمَّعات أصل إلى متجر يبيع المشروبات حيث طغى الذُّبول على الباقات الملفوفة بالورق في الدِّلاء المصفوفة تحت النَّوافذ المخطَّطة. أتوقَّف أمام المتجر. كانت معظم الباقات مختلطة التَّنسيق ومتداخلة المعاني، كما بدت تشكيلة الباقات المرصوصة محدودة: زهور معتادة باللَّونين الأحمر والزَّهري، باقة ذابلة من القرنفل المقلَّم، وأضمومة من الأضاليا القرمزيَّة، وتعني **الكرامة**، تبرز من مخروطها الورقي. أدرك لفوري أنَّها الرِّسالة الَّتي أودُّ توجيهها. أدسُّ الأزهار في معطفي وأطلق ساقيَّ للرّيح بعد أن أدير ظهري للمرآة المائلة المتوضِّعة فوق الباب.

أصل السَّكن لاهثة. كانت غرفة الجلوس فارغة فأدخل كي أفضَّ الورق عن الأزهار. بدا شكل الزُّهور النَّجمية مثالياً إذ تتالت طبقات البتلات القرمزية المبيضَّة الطَّرف وقد توزَّعت عن براعم متراصَّة عند المركز. أفرد الزُّهور بعد أن أقطع الرِّباط المطَّاطي بأسناني. لن تعرف الفتيات معنى الأضاليا أبداً، (فالدَّلالة نفسها تعبير غامض عن التَّشجيع). وعلى الرَّغم من ذلك، شعرت بإشراق روحي غير مسبوق يتملَّكني وأنا أعبر الصَّالة الطَّويلة لأدسَّ زهرة تحت باب كلِّ غرفة مغلقة.

أناول ما بقي من أزهار للموظَّفة الشَّابة الَّتي أنهت المناوبة المسائية وتقف بجانب نافذة المطبخ تنتظر بديلتها.

«شكراً لك»، قالتها لي حين سلَّمتها الباقة، وقد لوَّن الاضطِّراب صوتها، ثمَّ راحت تبرم السِّيقان الصلبة بين راحتيها.

وصلت ميريديث في العاشرة كما أخبرتني. كنت أنتظرها عند العتبة الخارجيَّة، وأنا أوازن علبة كرتونية فوق حضني. لثماني عشرة سنة بقيت أجمع الكتب في المقام الأوّل: **قاموس الأزهار**، و**دليل بيترسون لزهور ولايات منطقة المحيط الهادي**، وكلاهما أرسلتهما لي اليزابيث بعد شهر من تركي لبيتها؛ كتب عن علم النَّبات من مكتبات متوزِّعة على طول الخليج الشرقي؛ مجموعات رقيقة بأغلفة ورقية من الشِّعر الفيكتوري سرقتها من متاجر كتب يلفُّها السُّكون. غطَّت الكتبَ كدساتٌ من الثِّياب المطويَّة، هي مجموعة من الملابس المسروقة وتلك الَّتي عثرت عليها، بعضها يناسب مقاسي وأكثرها لا يناسبه. ستأخذني ميريديث إلى سكن مؤقَّت، هو دار تُجمع فيها الفتيات، يقع في حي آوتر صن ست. مذ كنت في سنِّ العاشرة وأنا مقيَّدة على قائمة الانتظار.

ما إن وضعت صندوقي على المقعد الخلفي لسيارتها حتَّى هنَّأتني ميريديث قائلة: «عيد ميلاد سعيد». لا أنبس ببنت شفة. كلتانا نعرف أنَّ هذا التاريخ قد يكون، وقد لا يكون، تاريخ مولدي الحقيقي. أوَّل تقرير صدر عن المحكمة بشأني قدَّر عمري

بثلاثة أسابيع، أمَّا تاريخ ومكان مولدي فكانا مجهولين، كما هو حال أبواي الحقيقيِّين. اختيار تاريخ الأوَّل من شهر آب لمولدي كان بقصد تأريخ الاستقلالية، وليس الاحتفالية.

أندسُّ في المقعد الأمامي المجاور لميريديث وأغلق الباب منتظرة إيَّاها كي تنطلق مبتعدة عن الرَّصيف. كانت أصابعها المغطَّاة بالأظافر الصِّناعيَّة تنقر على عجلة القيادة. أحكم تثبيت حزام الأمان، لكنَّ السَّيَّارة لم تتحرك، فأستدير كي أواجه ميريديث. لم أكن قد بدَّلت لباس نومي، فأرفع ركبتيَّ المغطَّاتين بالبنطال الخفيف إلى صدري وألفُّ ساقيّ بسترتي. تمسح عيناي سقف سيَّارة ميريديث وأنا أنتظر منها التَّحدُّث، فتسألني: «حسناً، هل أنت مستعدَّة؟».

أرفع كتفيَّ باستهجان.

فتردف: «كما تعلمين، هذه هي نهاية المطاف. حياتك تبدأ من هنا، فلا تلومي إلَّا نفسك من الآن فصاعداً».

ميريديث كومبس، موظَّفة الخدمة الاجتماعية، المسؤولة عن اختيار كمِّ العائلات الَّتي سعت لتتبنَّاني ثم نبذتني، تريد أن تملي عليَّ محاضرة عن اللَّوم.

مكتبة
t.me/t_pdf

(٢)

ألصقت جبهتي بالزُّجاج ورحت أرقب التِّلال المغبرَّة بفعل الصيف وهي تمرُّ بنا. سيَّارة ميريديث تعبق برائحة السجائر، وعلى شريط حزام الأمان يظهر عفن بسبب طعام سُمح لطفل آخر بتناوله. كنت في التَّاسعة من عمري حين جلست في المقعد الخلفي للسَّيَّارة بملابس نومي، وشعري المقصوص قصيراً مشعَّثٌ تماماً. لم يكن يبدو كما أرادته ميريديث أن يكون. قد اشترت لي ثوباً يليق بالمناسبة، ثوباً فضفاضاً سماويَّ اللَّون مطرَّزاً وله شريطة، لكنَّني رفضت ارتداءه.

كان نظر ميريديث مركَّزاً على الطَّريق أمامها فلم ترني وأنا أحلُّ حزام الأمان وأنزل النَّافذة ثمَّ أخرج رأسي منها حتى تلتصق ترقوتي بأعلى الباب. أرفع ذقني باتِّجاه الرِّياح وأنا أترقَّب أن تطلب منِّي الجلوس. رنت ببصرها نحوي دون أن تنطق بحرف. بقي فمها مطبقاً، ولم أستطع أن أرى أيَّ تعبير على وجهها بسبب النَّظارات الشَّمسية الَّتي تضعها.

بقيت على هذه الحال حتَّى كبست ميريديث زرَّاً على بابها جعل النَّافذة ترتفع مقدار بوصة دونما تنبيه. يضغط الزُّجاج السَّميك على رقبتي الممتدَّة فأتراجع بسرعة تجعلني أرتدُّ عن

المقعد وأنحدر إلى الأرضيَّة. تتابع ميريديث رفع النَّافذة حتى يحلّ السُّكون مكان التَّيَّارات المندفعة داخل السيارة دون أن تنظر وراءها. أتكوَّم فوق السَّجادة الوسخة وأسحب رضَّاعة أطفال نتنة من تحت مقعد الرُّكَّاب وأرمي ميريديث بها. تصيب كتفها وترتدُّ إليَّ مسرّبة بقعة محمِّضة على ركبتيّ. لكنَّ ميريديث لم تجفل.

توجِّه سؤالها إليَّ: «هل ترغبين ببعض الخوخ؟».

ما كان الطَّعام يوماً من الأشياء الَّتي أرفضها، وميريديث تعلم هذا.

«بلى».

«إذن، عودي إلى مقعدك وأحكمي إغلاق حزام الأمان وسأشتري لك كلَّ ما تشتهينه حال وصولنا إلى كشك بيع الفاكهة التَّالي».

أرتقي المقعد وأشدُّ حزام الأمان حول خصري.

تمضي خمس عشرة دقيقة قبل أن تركن ميريديث على جانب الطَّريق السَّريع. تشتري لي خوختين ونصف رطل من الكرز. رحت أعدُّ حبَّاته وأنا أزدردها.

ما إن عدنا إلى الطريق حتَّى بدأت ميريديث حديثها إليَّ. كانت كلماتها تخرج بطيئة، والجمل مشدودة كي يكون لها وقع. توقَّفت ورنت ببصرها إليَّ. أسرِّح ناظري إلى الخارج، وأوسِّد خدِّي

زجاج النَّافذة بلا تجاوب. «لا يجدر بي أن أخبرك بالآتي، لكنِّي أظنُّك تحتاجين معرفته. هذه فرصتك الأخيرة. إنَّها آخر فرصة متاحة لك فعليَّاً، هل تسمعيني يا فيكتوريا؟». لم أبد تجاوباً مع سؤالها. «عندما تصبحين في العاشرة، ستعلن المقاطعة أنَّك غير متبنَّاة، حتَّى أنا لن أتابع محاولاتي في إقناع العائلات كي يتبنُّوك. وعليه، ستتنقَّلين من سكن جماعي إلى سكن جماعي حتى تنعمي باستقلاليَّتك، إن لم ينفع ما نحن بصدده. عديني أنَّك ستفكِّرين بذلك».

أنزل النافذة وأتفل بذور الكرز في الهواء. قد أقلَّتني ميريديث من مكان تجربتي الأولى في الإقامة ضمن سكن جماعي منذ ساعة. إنَّما صدمتني فكرة أنَّ وضعي في السَّكن كان بهدف التَّحضير لهذه اللَّحظة الَّتي نحن فيها. لم أفعل شيئاً كي أطرد من آخر دار رعاية لي، ولمَّا يمض عليَّ في السَّكن الجماعي أكثر من أسبوع حين أتت ميريديث لتقلَّني إلى اليزابيث.

خطر لي أنَّ الأمر من تدبير ميريديث كي تجعلني أعاني فتثبت وجهة نظرها. كان القائمون على السَّكن الجماعي غلاظ القلوب. في كل صباح، كان الطبَّاخ يجبر فتاة سمراء على تناول الطعام وقد شمر قميصها حتى رقبتها لينكشف بطنها، كي تتذكَّر ألَّا تأكل كثيراً. ومن ثمَّ، تنتقي الآنسة غايل، المشرفة على السَّكن، واحدة منَّا كي تقف عند رأس المائدة الطَّويلة وتشرح سبب نبذ عائلاتنا لنا. اختارتني الآنسة غايل مرَّة واحدة فقط، ولأنَّني هجرت منذ

الـولادة، كنـت أتملَّـص بقـولي «لم ترغـب أمِّـي بطفـل». فيـما تقـصُّ الفتيـات الأخريـات حكايـا عـن الأفعـال المقيتـة الَّتـي كـنَّ يقمـن بهـا لترويـع إخوتهـنَّ، أو عـن تسـبُّبهنَّ في إدمـان أهلهـنَّ المخـدرات، وغالبـاً مـا كـنَّ يبكـين.

لكـن، إن قصـدت ميريديـث، مـن وراء إلحاقـي بالسَّـكن الجماعي، تربيتـي حتَّـى ينصلـح سـلوكي، فقـد خـاب فألهـا. فعـلى الرَّغـم مـن غلظـة القائمـين عليـه، إلَّا أنَّنـي أحببـت المـكان، فالوجبـات تقـدَّم في سـاعات محـدَّدة، وأنـام متدثِّـرة ببطَّانيَتـين، إضافـة إلى أنَّ أحـداً لم يـدّع محبَّتـي.

ألتقـم آخـر حبَّـات الكـرز وأتفـل البـذور على رأس ميريديـث مـن الخلف.

«فكِّـري بالأمـر وحسـب»، تكـرِّر المقـال. تركـن جانـب الطَّريـق، وتشـتري عـبر كـوَّة وجبـة مـن السَّـمك والبطاطـا يتصاعـد منهـا البخـار، إضافـة إلى مخيـض الحليـب بالشـوكولا، في محاولـة منهـا عـلى مـا يبـدو لرشـوتي كـي أعـاود التَّفكـير في الموقـف. أتنـاول الطَّعـام بسرعـة، وباسـتهتار، وأنـا أرقـب المنظـر الأجـرد للخليـج الشَّرقـي وهـو يتداخـل مـع عجقـة سـان فرانسيسـكو، لينفـرج، مـن ثـمَّ، عـن كـمٍّ هائـل مـن المـاء. مـع عبورنـا لجـسر البوَّابـة الذَّهبيـة كان ثـوب نومـي قـد تبقَّـع بالخـوخ والكـرز والكتشـب والمثلَّجـات.

تجاوزنـا في مسـيرنا حقـولاً جافـة، ومزرعـة أزهـار، ومـرآب

سيَّارات خالي، لنصل في النِّهاية إلى كرم عنب حيث انتظمت خطوط الدَّوالي على سفح التلِّ المتمادي. تضغط ميريديث المكابح بشدَّة ثمَّ تتَّجه يساراً لتمضي على درب ترابيَّة طويلة، وتزيد السُّرعة على الدَّرب الوعرة كما لو أنَّها لم تعد تطيق صبراً دقيقة أخرى حتَّى تخرجني من سيَّارتها. عدونا طاولات مخصَّصة للنزهات، وصفوفاً مخدَّمة بعناية من الدَّوالي ذات السُّوق الغليظة والنَّامية على أسلاك منخفضة. ثمَّ تخفِّض ميريديث من السُّرعة قليلاً لدى الوصول إلى منعطف قبل أن تعاود زيادة السُّرعة وهي تتَّجه نحو خميلة من الأشجار الباسقة تنمو في وسط العقار، ليلفَّ العجاج سيَّارتها.

حين توقَّفنا وانجلى الغبار، وقع نظري على منزل ريفيٍّ أبيض اللَّون. كان ارتفاعه طابقين وسقفه جملون، وله شرفة زجاجية، وستائر الدانتيل تغطِّي النَّوافذ. إلى اليمين كان هناك مقطورة معدنية منخفضة، وأكثر من حظيرة متداعية، وألعاب وأدوات، ودرَّاجات مبعثرة بينها. ولأنَّني عشت قبلاً في مقطورة، تساءلت على الفور إن كان لدى إليزابيث أريكة يمكن طيُّها، أو سيتوجَّب عليَّ مشاركتها غرفة نومها. كنت أمقت سماع صوت تنفُّس الآخرين.

لم تنتظر ميريديث لترى إن كنت سأغادر السَّيارة من تلقاء نفسي، بل فكَّت حزام الأمان عنِّي وأمسكت بي من تحت ذراعي وجرَّتني باتِّجاه البيت الكبير وأنا أرفس. توقَّعت أن تخرج اليزابيث

مـن المقطـورة لـذا أدرت ظهـري للشُّرفـة الأماميَّـة، فلـم أدر بهـا إلّا وهـي تضـع أصابعهـا النحيلـة عـلى كتفـي. أنفـر إلى الأمـام زاعقـة وأركـض حافيـة إلى الطَّـرف البعيـد مـن السَّـيَّارة لأتكـوَّم عـلى نفسـي بعـد ذلـك خلفهـا.

سـمعت ميريديـث تقـول لاليزابيـث بانزعـاج واضـح: «هـي لا تحبُّ أن يلمسـها أحـد، وقـد أخبرتـك بهـذا. عليـك أن تنتظـري حتَّـى تـأتي هـي إليـك»، فيغضبنـي أنَّهـا تعـرف ذلـك عنِّـي. أفـرك الجلـد حيـث أمسـكت بي اليزابيـث كـي أمحـو آثارهـا، وأبقـى متواريـة عـن الأنظـار خلـف السَّـيّارة.

يـأتي ردُّ اليزابيـث: «سـأنتظر. قلـت لـك سـأنتظر، فـلا نيِّـة لـديَّ في نكـث وعـدي».

أخـذت ميريديـث تـسرد القائمـة المعتـادة مـن الأسـباب الَّتـي تمنعهـا مـن البقـاء والمسـاعدة في تعريـف إحدانـا بالأخـرى: الجـدُّ المريـض، والـزوج القلـق، والخـوف مـن القيـادة ليـلاً. كانـت قـدم اليزابيـث تنقـر بجانـب الإطـار الخلفي تضجُّـراً وهـي تصغـي إليهـا. وسرعـان مـا تمـضي ميريديـث، تاركـة إيَّـاي مكشـوفة في العـراء. أحبـو إلى الخلـف وأنـا أقـرب إلى الأرض. وبعـد أن أثـب مختبئـة خلـف شـجرة جـوز أقـف وأطلـق العنـان لسـاقيّ هربـاً.

في نهايـة صـفِّ الأشـجار ألـج الصـفَّ الأوَّل مـن شـجيرات العنـب، متواريـة خلـف النبَّاتـات الكثيفـة. أسـحب الغصـون الرَّخـوة

والفُّها حول جسدي النَّحيل. من مربضي كنت أسمع خطوات اليزابيث وهي قادمة باتِّجاهي، وبتعديل الغصون استطعت رؤيتها تمشي إلى جانب صفٍّ من الصُّفوف. أتنفَّس الصُّعداء حين تجاوزت الصَّفَّ الَّذي أنا فيه.

أمدُّ يدي وأقطف حبَّة من العنقود الأقرب إليَّ، وأنشب أسناني في غشائها السَّميك. كانت حامضة المذاق فأبصقها وأبدأ بسحق باقي العنقود حبَّة حبَّة تحت قدمي، لينفر العصير من بين أصابع قدمي.

لم أسمع أو أر اليزابيث وهي تعود باتِّجاهي. لكن، ما إن بدأت بسحق العنقود التَّالي حتَّى وصلت إلى الدَّوالي وقبضت على ذراعي وسحبتني من مخبئي. تحملني قبالتها فتتدلَّى قدماي على ارتفاع بوصة من الأرض وهي تتأمَّلني.

تخبرني قائلة: «لقد ترعرعت هنا، وأعرف كلَّ الأماكن المناسبة للاختباء».

جاهدت كي أتخلَّص منها، لكنَّ اليزابيث أمسكت بكلتا ذراعيّ بقوة. توقفني بعدها على التُّراب دون أن تخفِّف من قبضتها. أركل التُّراب باتِّجاه قصبتي ساقيها، وعندما لم تفلت ذراعاي، أرفس كاحليها، لكنَّها لم تنثن.

أطلق زمجرة وأحاول أن أطبق بأسناني على ذراعها الممتدَّة،

لكنَّها فطنت لي فأمسكت بوجهي، ثمَّ عصرت خدَّاي حتى ارتخى فكيّ وبرزت شفتاي، فصرت أسحب نَفَسي بمشقَّة.

«بلا عض»، تنطقها ثمَّ تميل كما لو كانت تودُّ لثم شفتيَّ الورديَّتين البارزتين. لكنَّها تتوقَّف على بعد بوصات من وجهي، ونظرات عينيها الدَّاكنتين تغوصان عميقاً في عينيّ، وتصرِّح قائلة: «أحبَّ أن أُلمس، وعليك أن تعتادي على الأمر».

تبتسم لي ابتسامة تشفٍّ خاطفة وتفلت وجهي. «لن أفعل. لن أعتاد عليه أبداً»، هكذا أتوعَّدها، لكنِّي أقلع عن المقاومة وأتركها تجرُّني إلى الشُّرفة الأمامية، لتدخلني إلى البيت المعتم والهادئ.

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة

(٣)

تتجاوز ميريديث شارع صن ست بوليفارد، وتقود السَّيَّارة ببطء قاتل صوب شارع نوربيغا وهي تطالع كلَّ لافتة طرقية، ليتعالى من ورائنا زمُّور سيَّارة نفد صبر صاحبها.

مذ وصلنا شارع فيل وهي مسترسلة في حديثها دونما انقطاع تسرد على مسامعي قائمة الأسباب الَّتي تجعل من دوام الحال هكذا أمراً أقرب إلى المحال: بلا شهادة ثانوية، بلا دافع، بلا شبكة داعمين، مع انعدام تام لمهارات التَّواصل الاجتماعي. بدا طول القائمة يغطِّي نصف مدينة سان فرانسيسكو. تسألني بعدها عن مخطَّطي، وهي تطلب منِّي أن أفكِّر بأمر الاكتفاء الذَّاتي.

أتجاهلها.

لم تصل الأمور بيننا دائماً إلى هذا الحد. حين كنت طفلة كنت أصطبر على ثرثرتها المتفائلة، وأنا أجلس على حافَّة سرير وهي تمشِّط شعري البنِّي النَّاعم وتجدِّله، لتربطه بشريطة قبل أن تقدِّمني مثل هديَّة إلى أمٍّ جديدة وأبٍ جديد. لكن، مع تقادم الأيَّام، ومع قيام العائلات، واحدة إثر الأخرى، بردِّي، تقلَّصت مساحة الأمل في نفس ميريديث. وما كان يوماً تمشيطاً لطيفاً لشعري بات

اقتلاعاً يتوقَّف ويستأنف حسب وقع محاضرتها على مسامعي. تستفيض في سرد ما يتوجَّب عليَّ فعله مع كلِّ تغيُّر يطرأ على محلِّ إقامتي حتَّى بات وقعه يثقل أكثر فأكثر على مسامع الطِّفلة التي كنت عليها. احتفظت ميريديث في دفتر مواعيدها بقائمة تفيض بنقائصي، فكانت تتلوها على مسامع القاضي كما لو كانت إدانات جنائية: انعزالية، سريعة الغضب، صامتة أبداً، ولا تطلب الصَّفح. أتذكَّر كلَّ كلمة كانت تتفوَّه بها.

لكن، وعلى الرَّغم من تتالي حالات الإحباط لديها، أبقت ملفِّي تحت إشرافها. كما أنَّها رفضت تحويله من وحدة التَّبنِّي، صيف بلوغي الثامنة، حتَّى حين ألمح قاض، بلغ منه الضَّجر مبلغه، أنَّها فعلت ما بوسعها حيالي. لقد دأبت ميريديث على نفي هذا الادِّعاء دونما تراخٍ. وعلى حين بهجة وحيرة تملَّكانني للحظة، ظننت موقفها نابعاً من محبَّة مضمرة لي، لكن، حين حوَّلت ناظري إليها رأيت وجهها الشَّاحب يحمرُّ بسبب الإحراج. كانت هي المشرفة الاجتماعية عليَّ منذ ولادتي، فإذا ما اعتُبِرتُ فاشلة، سيعني هذا بالنَّتيجة أنَّها فاشلة هي الأخرى.

نتوقَّف أمام السَّكن المؤقَّت. كان عبارة عن منزل شاطئي سطحه مستوي، ومزيَّن بالجبصين، يقع ضمن صفٍّ من المنازل الشَّاطئية ذات السُّطوح المستوية والمزيَّنة بالجبصين.

«اثنا عشر أسبوعاً»، تعلنها ميريديث على مسامعي. «أريد أن أسمعك تردِّدينها. أريد أن أتأكَّد أنَّك تستوعبين الأمر. إقامة

مجّانيـة لمـدَّة اثنـي عـشر أسـبوعاً، وبعدهـا، إمَّـا أن تدفعـي الإيجـار أو تغـادري».

أتجاهلها.

تترجَّـل ميريديـث مـن السَّـيارة وتصفـق البـاب خلفهـا. كان صندوقـي قـد انـزاح فـوق المقعـد الخلفي بسـبب خضخضـة السَّـيارة، فاندلقـت ملابـسي عـلى المقعـد. أعيـد لململتهـا فـوق الكتـب، وألحـق بميريديـث عنـد الدَّرجـات الأماميـة، فـترنُّ الجـرس.

تمضي أكثر مـن دقيقـة قبـل أن يفتـح البـاب، وعندهـا تتجمَّـع ثلَّـة مـن الفتيـات عنـد البوابـة، فأزيـد صندوقـي التصاقـاً بصـدري.

تتقـدَّم فتـاة قصـيرة وثقيلـة الحركـة ذات شـعر أشـقر طويـل لتفتـح البـاب المعـدني عـلى مصراعيـه، وهـي تمـدُّ يدهـا مصافحـة وتقـول: «أنـا إيف».

تـدوس ميريديـث عـلى قدمـي لكنِّـي لم أتحـرَّك لأصافـح يدهـا الممـدودة. «هـذه فكتوريـا جونـز، وقـد بلغـت الثامنـة عـشرة اليـوم»، تقولهـا وهـي تدفعنـي إلى الأمـام.

تتعالى تمتمات التَّهنئة، فيما تتبادل فتاتان الإيماءات بحواجبهما.

«لقـد تـمَّ إخـلاء طـرف اليكسـيس الأسـبوع الفائـت، وأنـت سـتقيمين في غرفتهـا»، تعلمنـا إيـف بهـذا، وتسـتدير كـما لـو كانـت تريـد أخـذي إلى هنـاك. أتبعهـا عـبر صالـة مظلمـة مغطَّـاة بالسَّـجاد

تـؤدِّي إلى ممـر مفتـوح. مـا إن ولجتهـا حتَّـى صككـت البـاب خلفـي وأقفلتـه. كانـت الغرفـة ناصعـة البيـاض، ورائحـة الطِّـلاء تـدلُّ أنَّـه جديـد، فالجـدران مـا زالـت دبقـة عندمـا لمسـتها. إنَّـما الدَّهَّـان كان مسـتهتراً، فالسَّـجادة الَّتـي كان لونهـا يومـاً مـا أبيـض ومحَّـت لكثـرة الاسـتعمال قـد تبقَّعـت أطرافهـا بالدِّهـان. تمنَّيـت لـو تابـع الدَّهـان مهمَّتـه ودهـن السَّـجادة بأكملهـا، وكذلـك المرتبـة الوحيـدة المتوافـرة والمنضـدة الخشـبيَّة الدَّاكنـة. لـون البيـاض كان نظيفـاً وجديـداً، وقـد راقنـي أن لا أحـد قبـلي سـبقني إليـه.

يرتفـع صـوت ميريديـث مـن الصالـة وهـي تناديني، لتنقـر، مـن ثـمَّ، عـلى البـاب وتنقـر. أضـع صندوقـي الثَّقيـل في منتصـف الغرفـة وأخـرج منـه ملابـسي وأكوِّمهـا فـوق أرضيَّـة الخزانـة، ثـمَّ أكـدِّس كتبـي فـوق المنضـدة. عندمـا فـرغ الصُّـندوق قطّعتـه إلى شرائـط سـترت بهـا الفـراش العـاري ورقـدت فوقهـا. يتدفَّـق الضَّـوء مـن نافـذة صغيرة لترتـدَّ حرارتـه عـن الجـدران إلى الأجـزاء المكشـوفة مـن وجهـي ورقبتـي ويـديّ، فتسـخن. بـدت النَّافـذة تواجـه الجنـوب كـما لاحظـت، فكانـت بالتَّـالي تناسـب الزَّنبـق والنَّباتـات البصليَّـة.

تناديـني ميريديـث ثانيـة: «فيكتوريـا، أريـد أن أعـرف مـا تنويـن فعلـه. أخبريـني بمخطَّطـك وسـأدعك وشـأنك».

أغمـض عينـيّ متجاهلـة أصابعهـا ومـا تفعلـه عـلى الخشـب. لتقلـع أخـيراً عـن النَّقـر.

عندما فتحت عينيّ رأيت ظرفاً ملقى على السَّجادة قرب الباب، وفي داخله ورقة نقديَّة من فئة العشرين دولاراً، ورسالة تقول: اشتري طعاماً وجدي عملاً.

ابتعت بدولارات ميريديث العشرين خمس عبوات من الحليب كامل الدّسم. داومت على الشِّراء من دكَّان يقع على النَّاصية صباح كلِّ يوم، وعلى امتداد الأسبوع. كنت أعبُّ السَّائل الكريمي رويداً رويداً على مدار اليوم وأنا أتنقَّل بين مواقف السَّيَّارات وباحات المدارس، أستكشف النَّباتات المحلِّية. لم يسبق لي أن عشت بهذا القرب من المحيط، لذا توقَّعت أن تحمل الطَّبيعة شيئاً من التَّفرُّد. خطر لي أنَّ الضَّباب الصَّباحي الكثيف قد يمهِّد لظهور أصناف من النَّباتات لم تقع عليها عيني من قبل، خاصَّة أنَّه يلفُّ المكان حتَّى بضعة بوصات فوق التربة وحسب. لكنَّ ما أثار استغرابي هو أنَّني لم أجد ما يمكن اعتباره استثناءً إلَّا حواكير صبَّار الألوفيرا المنتشرة بكثرة عند حواف الماء، والزُّهور الحمراء المتطاولة نحو السماء. الغالب على الأحياء وجود نفس النَّباتات الدَّخيلة الَّتي شاهدتها في حدائق ومشاتل منطقة الخليج كلِّها، من نبتة أم كلثوم والمجنونة والباذنجانيَّة وانتهاءً بطرطور الباشا. التَّمايز الوحيد كان في شكل تعريشها وحسب. وبسبب رطوبة السَّاحل العكرة الَّتي تلفُّها، تنمو النَّباتات لتصبح أكبر حجماً وأجمل رونقاً، كما تغدو أشذَ عتوّاً وهي تبتلع السِّياجات المنخفضة والعشاش.

كنت إذا ما أنهيت عبوة الحليب أعود أدراجي إلى السَّكن،

لأقطعها من منتصفها بسكِّين وأنتظر هبوط الظلام. كانت التُّربة في حوض زهور الجيران غامقة وغنيَّة، فكنت أنقلها إلى أصصي الَّتي ابتدعتها بواسطة ملعقة طعام. وبعد أن أثقب قيعانها، أضع المستنبتات في منتصف غرفتي لتسقط عليها أشعَّة الشَّمس مباشرة في أوقات متأخِّرة من الصَّباح، ولمدَّة سويعات فقط.

عليَّ أن أبحث عن عمل، فقد أيقنت ضرورة الأمر. للمرَّة الأولى في حياتي تكون لي غرفة خاصة وباب يقفل عليَّ، دون أن يملي عليَّ أحد أين أذهب وماذا أفعل. لكن، قبل البحث عن عمل، قرَّرت إنشاء حديقة.

مع مضيِّ الأسبوع الأول، صار عندي أربعة عشر إناءً، وجلت في الأنحاء قاطعة ستَّة عشر مجمَّعاً بحثاً عن مبتغاي. اقتلعت شتلات بكاملها من الحدائق الخاصَّة والعامَّة والجنائن، مركِّزة اهتمامي على الزُّهور الَّتي تتفتَّح في الخريف. لطالما عدت وكفَّاي يحملان جذوراً يعلوها الطِّين، لكن، وفي أكثر من مناسبة، ينتهي بي المطاف تائهة، أو بعيدة جدَّاً عن السَّكن المؤقَّت، فكنت أنسلُّ حينها إلى أيِّ باص مزدحم من بابه الخلفي، وأشقُّ طريقي إلى أحد المقاعد، وأبقى على متنه حتَّى تظهر لي مشارف حيٍّ أعرفه. وهناك في غرفتي أمدِّد الجُذور المغتربة بلطف، وأغطِّيها بالتُّربة الغنيَّة بالغذاء، وأغدق عليها بالسِّقاية. راح الماء يتسرَّب من الأوعية إلى السَّجَّادة مباشرة، ومع مرور الأيَّام أخذت الأعشاب تنمو على

النَّسيج المتآكل، فكنت ألفُّ عليها مراقبة إيَّاها وأنتش المتطفِّل منها قبل أن يشقَّ طريقه من قلب العتمة.

في كلِّ أسبوع تأتي ميريديث لتتفقَّدني. عيّنها القاضي مسؤولة الارتباط الدَّائمة لأنَّ القانون المتعلِّق بالاستقلاليَّة يتطلَّب وجود مسؤولة ارتباط، ولم يستطيعوا العثور على أحد سواها في ملَّفي. وقد فعلت ما بوسعي لأتجنَّب لقاءها. فعندما كنت أعود من مشاويري كنت أمسح السَّكن المؤقَّت من عند النَّاصية، ولا أصعد الدَّرج الأمامي إلَّا عندما أتأكَّد أنَّ سيَّارتها البيضاء غير موجودة في الموقف الخاصِّ بالسَّكن. لكن، يبدو أنَّها فطنت إلى حيلتي هذه في النِّهاية، ففي منتصف أيلول فتحت الباب الخارجي لأجدها تجلس إلى طاولة الغداء، فأتساءل: «أين سيّارتك؟».

لتجيبني: «ركنتها خلف المبنى. لم أرك منذ أكثر من شهر، فأدركت أنَّك تتقصَّدين عدم لقائي. فهل من مبرِّر لهذا؟».

«لا يوجد مبرِّر». أمشي باتِّجاه الطَّاولة، وأنحِّي جانباً الأطباق القذرة الَّتي تركتها إحداهن، لأجلس وأضع على السَّطح الخشبي المخدوش الفاصل بيننا أضمومة من الخزامى كنت قطفتها من حديقة منزل في منطقة مرتفعات الهادي. «خزامى»، أقول وأنا أناولها فسيلة منها. هي دلالة على عدم الثقة.

أخذت ميريديث تدوّر النَّبتة بين السَّبَّابة والإبهام ثمَّ تركتها بعدم اهتمام، لتتساءل: «أهناك عمل؟».

«أيُّ عمل؟».

«هل حصلت على عمل؟».

«ولم؟».

تطلق ميريديث تنهيدة، وتلتقط الخزامى الَّتي أعطيتها إيَّاها، وتومئ بها باتِّجاهي. يتهدَّل رأسها كما لو كانت طائرة ورقية ضعيفة، فألتقطها من على الطاولة وأبدأ بتمسيد بتلاتها المشعَّثة بتأنٍّ بواسطة إبهامي.

تنفجر ميريديث: «سوف تجدين عملاً، إن بحثت وتقدَّمت بطلب، سيتمُّ توظيفك. فإن لم تفعلي، ستجدين نفسك في الشَّارع في غضون ستَّة أسابيع، ولن تجدي من يؤويك في ليلة باردة».

أنقل طرفي إلى الباب الخارجي، متسائلة كم من الوقت سيمرُّ قبل أن تغادر، فتردف ميريديث: «عليك أن ترغبي بالعمل، لا يسعني إلا الضَّغط في هذا الاتِّجاه. إنَّما في نهاية المطاف، عليك أن ترغبي به».

أرغب بماذا؟ دائماً ما أتساءل عندما تتفوَّه بذلك. أنا أرغب الآن أن تغادر. وأرغب في شرب الحليب، ذي العلامة التِّجاريَّة لورين، والمتوضِّع على الرفِّ العلويِّ من الثَّلَّاجة، لأضيف العبوة الفارغة إلى المجموعة المتراصَّة في غرفتي. كما أرغب في زرع الخزامى قرب وسادتي لأغفو وأنا أستنشق شذاها العليل المنعش.

تنهض ميريديث قائلة: «ستجدينني هنا الأسبوع المقبل، حينما سيكون مجيئي آخر ما تتوقَّعينه، وأريد أن أرى كومة معتبرة من طلبات العمل متوضِّعة في حقيبتك». تقف عند الباب وتردف: «سيكون صعباً عليَّ أن أرمي بك إلى الشارع. لكن، عليك أن تعرفي أنَّني سأفعلها».

لم أعتقد أنَّ الأمر سيكون صعباً.

أتوجَّه صوب المطبخ وأفتح الثَّلاجة، ثمَّ أبدأ بتفحُّص لفافات البيض وأكواز الذُّرة المتجمِّدة، إلى أن أسمع الباب يغلق.

قضيت آخر أسابيعي في السَّكن المؤقَّت وأنا أنقل حديقتي الَّتي أنشأتها في غرفتي إلى حديقة ميدان ماكينلي العامَّة، وهي متنزَّه عام صغير يقع في أعلى تلَّة بوتريرو. اكتشفته وأنا أجوب الشَّوارع أتسقَّط لافتات وضعها من يطلبون العون، ثم شغلني عنها المتنزَّه بتوليفته المثالية من شمس وظلٍّ وانعزال وأمن. تلَّة بوتريرو هو واحد من أكثر الأحياء دفئاً في المدينة، ويقع المتنزَّه منه على قمَّة تجعل إطلالته تكشف كلَّ الاتجاهات. في منتصف ساحة عشبيَّة مشذَّبة، هناك ملعب رملي صغير، لكن، من بعد هذا المربَّع يأخذ المتنزَّه شكل غابة متحدِّرة، تتدرَّج نزولاً ككتلة متداخلة من الشُّجيرات، ويطلُّ على المشفى العام لسان فرانسيسكو وعلى معمل مشروبات. وبدلاً من متابعة البحث عن عمل، قمت بنقل أصصي واحداً واحداً إلى البقعة المنعزلة. انتقيت مكان كلِّ غرسة بشكل مدروس، فالنَّباتات المحبَّة للظلِّ وضعتها تحت الأشجار

الباسقة، وتلك الَّتي تحتاج إلى الشَّمس وضعتها على بعد مائة بوصة من التلِّ، بعيداً عن الظِّلال.

في صباح اليوم الَّذي حدَّدته لمغادرتي أستيقظ قبيل الفجر. بدت غرفتي خاوية، فيما أرضيَّتها لاتزال رطبة ووسخة، تملؤها البقع حيث كانت الأصص متوضِّعة. لم يكن تشرُّدي الوشيك قراراً واعياً، لكن ما أدهشني هو أنَّني كنت بعيدة عن الشُّعور بالخوف وأنا أنهض لأرتدي ملابسي في الصَّباح الَّذي سيشهد انتقالي إلى الشَّارع. ومن حيث توقَّعت الخوف أو الغضب، جاءني شعور بالترقُّب الحذر، شعور مشابه لما كنت أمرُّ به وأنا طفلة تقف على عتبة تبنٍّ جديد. والآن، وقد صرت شابَّة، تنحصر أمنياتي البسيطة بشأن المستقبل في أن أبقى لوحدي، وأن تحوطني الزُّهور. ويبدو أنَّني حصّلت مبتغاي أخيراً.

فرغت غرفتي إلا من كومات ثلاث من الملابس، وحقيبة الظَّهر، وفرشاة أسنان، ومثبِّت للشَّعر، إلى جانب الكتب الَّتي أرسلتها لي اليزابيث. في اللَّيلة الفائتة، ومن سريري حيث استلقيت، أنصتّ إلى زميلات السَّكن وهنَّ يعثن في ما تبقَّى لي، كأنهنَّ حيوانات جائعة تتلقَّف البواقي. كان هذا الأمر معتاداً في بيوت الرِّعاية والسَّكن المؤقَّت، أقصد الإتيان على المخلَّفات الَّتي يتركها الأطفال المنتحبون بسبب الاستعجال. ولم تخرج زميلات السَّكن عن هذه العادة وقد ترك لهنَّ الحبل على غاربه.

مضت سنون، أظنها تسع، منذ أن شاركت في عملية نبش

للمخلَّفات، لكنَّ الرَّعشة الَّتي تسري جرَّاء العثور على شيء صالح للأكل، أو شيء قابل للبيع في المدرسة لقاء مبلغ زهيد، أو شيء مبهم أو شخصي، ما زالت تعشِّش في ذاكرتي. بدأت ألملم هذه الأشياء الصغيرة المنسيَّة، كما لو كانت كنزاً، مذ كنت في المدرسة الابتدائية: تعويذة فضِّية نقش عليها حرف «م»، سوار ساعة يد فيروزيِّ اللَّون مصنوع من جلد أفعى صناعي، علبة دواء بحجم قطعة معدنية تحوي ضرساً موشَّحاً بالدم. صرت أدسُّها في حقيبة شبكيَّة النَّسيج لها سحَّاب كنت قد سرقتها من غرفة غسيل أحدهم. وكانت الأغراض تبرز من الفتحات الصغيرة للنَّسيج الشبكي كلما امتلأت الحقيبة وثقلت.

ظللت لفترة قصيرة أعلِّل لنفسي أنَّني ما جمعت هذه الأغراض إلا لخاطر أصحابها الأصليِّين، لا لأرجعها إليهم، بل لأستغلَّها كرشاوى مقابل الطَّعام والدَّعم إن قدِّر لنا الاجتماع في نفس السَّكن مرَّة أخرى. لكن، ومع تزايدها، أخذت شهوة تملُّك مجموعتي تطغى عليَّ، فرحت أقصُّ على نفسي قصَّة كلِّ غرض مرَّات ومرَّات: فهذا مرتبط بيوم إقامتي مع مولي، الفتاة المولعة بالقطط، وذاك بشريكة الغرفة الَّتي سُرقت ساعتها منها وكُسر ذراعها، وذلك بشقَّة القبو حيث علمت سارة بحقيقة جنِّية الأسنان. لم يكن لارتباطي بالأغراض أيَّ صلة بعلاقتي بالأشخاص، فكثيراً ما كنت أتجنَّبهم، وأتجاهل أسماءهم وأوضاعهم وأمانيَّهم المستقبليَّة. لكن مع الوقت، بدت الأغراض وكأنَّها سلسلة من

الدَّلائل المرشدة إلى ماضيّ، كطريق تدلُّ عليه كسر الخبز، وقد اعترتني رغبة خفيَّة في الاسترشاد بها للعودة إلى المكان الَّذي كنت فيه قبل تشكُّل ذكرياتي. إنَّما، وبسبب الاستعجال والفوضى الَّتي ترافق حالة تغيير مكان الإقامة، كنت أجبر على ترك الحقيبة ورائي. ولسنوات تلت، بتُّ أرفض بعناد فكرة حزم متعلِّقاتي، فكنت أنتقل إلى كلِّ مكان رعاية جديد بأيد فارغة.

أخذت أرتدي الملابس بسرعة: قميصان بلا أكمام، فوقهما ثلاثة قمصان قصيرة، تعلوهم كنزة بغطاء رأس، وبنطال مطَّاطي بنِّي اللَّون، ثم الجوارب والحذاء. ولأنَّ غطائي الصُّوفي البنِّي لن يتَّسع في حقيبة الظَّهر، فقد طويته نصفين ولففته حول خصري، وقمت بتثبيت الطيَّة بدبُّوس عند كلِّ بوصة منه. أما نهايته فقد لمتها وشبكتها بدبابيس على شكل طيَّات لتبدو مثل تنُّورة تحتانية، ثم غطَّيت كلَّ هذا بتنُّورتين ذواتي أطوال متباينة، الأولى طويلة برتقاليَّة اللَّون ولها دانتيل، والثَّانية عاديَّة عنَّابيَّة اللَّون. أتفحَّص شكلي في مرآة الحمَّام وأنا أنظِّف أسناني وأغسل وجهي، فيرضيني ما رأيت من انعدام الجاذبية إنَّما بدون تنفير. اختفت تفاصيل جسدي جيِّداً تحت الملابس، فيما بدت عيناي الزَّرقاوان اللَّامعتان، وهما الميزة الملفتة الوحيدة في وجه عاديِّ الملامح، واسعتين بشكل ملفت، بل مرعب قياساً بالكمِّ الَّذي تحتلَّانه من وجهي، نتيجة قصَّة الشَّعر القصيرة جداً الَّتي قمت بها اللَّيلة السَّابقة. أبتسم راضية عمَّا عكسته المرآة، إذ لم تبد عليَّ ملامح التَّشرُّد، على الأقلِّ حتَّى الآن.

أتوقَّف عند عتبة غرفتي وقد توهَّجت أشعَّة الشَّمس على الجدران البيضاء، وأتساءل عمَّن ستأتي من بعدي، وكيف ستكون ردَّة الفعل تجاه الأعشاب الَّتي نبتت على السَّجَّادة قرب ساق السَّرير. لو خطر لي هذا لتركت للفتاة الجديدة عبوة حليب ملأى بنبات الشُّمرة. فالنَّبات ذو الزَّغب والرَّائحة الطَّيِّبة سيهدِّئ من روعها. لكنَّ الوقت تأخَّر جداً على هذا. أومئ مودِّعة الغرفة الَّتي لم تعد غرفتي، وشعور مفاجئ بالعرفان يغزوني تجاه ميول الشَّمس والباب ذي القفل والفرجة الضَّئيلة الَّتي أتيحت لي زماناً ومكاناً.

أسرع إلى غرفة المعيشة، لأبصر، من خلال النَّافذة، سيَّارة ميريديث متوقِّفة في معبر المنزل مطفأة المحرِّك. كانت تتملَّى في شكلها في المرآة الأمامية ويداها على المقود. أعود أدراجي لأنسلَّ خارجة من الباب الخلفي، ومنه إلى أوَّل حافلة تمرُّ بالشَّارع.

وبعدها، لم أقابل ميريديث مرَّة أخرى.

(٤)

تتصاعد الأبخرة من مصنع الجعة الواقع أسفل التلَّة نحو السَّماء ليل نهار كالدُّخان. كنت أرقب انتشار الغلالة البيضاء أثناء اقتلاعي للأعشاب الضارَّة، فيمزج المنظر سكينتي بشيء من الخيبة.

كان الطَّقس في نهاية تشرين الأوَّل في سان فرانسيسكو معتدلاً، والهدوء يخيِّم على منطقة ميدان ماكنلي. استطاعت شتلاتي تجاوز مرحلة إعادة الزَّرع، باستثناء نبتة الخشخاش الحسَّاسة، وفي أوَّل أربع وعشرين ساعة لي خمَّنت أنَّ بمقدوري القناعة بحياة لا كنه لها، وأنا أتدارى بالأمان الَّذي توفره لي الأشجار. كانت حاسَّة السَّمع عندي تستنفر وأنا أعمل، لأتوارى حالما يصل إلى مسامعي وقع أقدام غريبة. لكنَّ أحداً لم يتجاوز نطاق السَّاحة العشبيَّة، كما لم يدفع الفضول أحداً لاستكشاف الغابة حيث أربض. حتَّى الملعب يبقى خالياً حتَّى الدَّقائق الخمس عشرة الَّتي تسبق موعد المدرسة، حين يأتي جمع من أطفال، تحت رقابة لصيقة، ليتأرجحوا مرَّة ومرَّتين وثلاث مرَّات، ليتابعوا بعدها مسيرهم باتِّجاه أسفل التل. بحلول اليوم الثَّالث، استطعت تمييز أصوات الأطفال وأسمائهم. ميَّزت منهم من تطيع أمها (غينا)، ومن تحبُّها معلِّمتها (كلوي)،

ومن تودُّ أن تقبر حيَّة في السَّاحة الرَّملية على أن تقضي يوماً آخر في الصَّفِّ (غريتا، غريتا الصَّغيرة. لو كانت زهرة النَّجمة متفتِّحة، لتركت لها أضمومة منها في السَّاحة الرَّملية، فقد بدا صوتها يائساً جداً وهي ترجو أمَّها كي تستبقيها). لم ترني العائلات، وأنا بدوري لم أرهم. لكن، مع مرور الوقت صرت أترقَّب قدومهم. كنت أقضي صباحاتي وأنا أتساءل عن الفتاة الأكثر شبهاً بي لو كان لديَّ أمٌّ تأخذني إلى المدرسة كلَّ صباح. تخيَّلت نفسي مطيعة أكثر منِّي متنمرة، سريعة الابتسام لا متجهِّمة. وأتساءل إن كنت سأبقي على حبِّي للزهور، وإن كنت سأظلُّ أحنُّ إلى العزلة. أسئلة لا أجوبة لها تمور في فكري مثل المياه الَّتي تلفُّ عند جذور نبتة المسك الَّتي غالباً ما أسرف في سقايتها.

عندما يعضُّني الجوع بنابه حدَّ الإيلام، كنت أركب الحافلات باتِّجاه منطقة مارينا، أو شارع فيلمور، أو مرتفعات الهادي، لأبدأ جولة على المحلَّات الرَّاقية الَّتي تبيع الطَّعام، وأتباطأ عند طاولات العرض المصنوعة من الرُّخام الصَّقيل، أتذوَّق طعم الزَّيتون، أو أجرِّب نكهة شريحة من لحم العجل الكندي، أو قطعة من الجبن الدانماركي. كنت أطرح نفس الأسئلة الَّتي كانت اليزابيث تطرحها: أيٌّ من زيت الزَّيتون غير مصفًّى، ومتى وصل سمك التُّونة والسَّلمون وسمك موسى بالضَّبط، وهل البرتقال الدَّموي حلو الطَّعم؟ كما كنت أتقبَّل تذوُّق عيِّنات إضافية، متذرِّعة بالتردُّد. ثمَّ، وعندما يلتهي البائع مع زبون آخر، أنسلُّ خارجة من باب المتجر.

أما وقد أسكنت جوعي، أنطلق لأجوب الهضاب باحثة عن نباتات أضيفها إلى حديقتي المتنامية. كنت أفتِّش في الحدائق العامَّة والخاصَّة على حدٍّ سواء، وأتنقلُّ تحت ظلل من عرائش اللَّبلاب وزهرة الآلام. في واقعة نادرة الحدوث، جلست قرب نبتة لم أستطع التعرُّف عليها، فسرقت شتلة منها ومضيت بها مسرعة إلى مطعم مزدحم حيث انتظرت مغادرة زبونة لأحتلَّ مكانها إلى الطَّاولة. أجلس وأمامي الأطباق المتروكة من اللازانيا والريزوتو الَّتي أُكِل بعض ما فيها، وأضع البرعم البائس في كأس ماء متعرق ليتدلَّى عنقه الأخضر الواهن من فوق حافَّة الكأس. أتناول لقيمات قليلة مع الصَّلصة، وأنا أتصفَّح المرشد الطَّبيعي، وأتمعَّن في أجزاء النَّبات، وأجيب عن الأسئلة بمنهجيَّة: هل البتلات متعدِّدة أم غير واضحة؟ هل تبدو الأوراق مثل نصل السَّيف ينبثق بعضها من بعض، أم أنَّها تأخذ شكل قلب؟ هل للنَّبات عصارة حليبيَّة غزيرة، والمدقَّة تتدلَّى من أحد جوانبه، أم أنَّه بلا عصارة حليبيَّة، ومدقَّته منتصبة؟ بعدما أحدِّد عائلة النَّبات وأحفظ اسمه العلمي وذاك الشَّائع، أدسُّ الزَّهرة بين الصَّفحات وأنظر حولي راجية أن أجد طبقاً آخر نصف ما فيه فارغ.

في اللَّيلة الثّالثة جافاني النَّوم. تقرقر معدتي الخاوية، وللمرَّة الأولى تعجز زهراتي عن بثِّ الطُّمأنينة فيّ مجدداً. بل إنَّ ظلال الزَّهور الدَّاكنة راحت تذكِّرني بوقت كان عليَّ فيه البحث عن عمل، وقت مُنحته كي أبدأ حياة جديدة. أشدُّ البطَّانيَّة حول

رأسي أكثر وأغلق عينيّ، وأنا أتنقَّل بين اليقظة والغفوة، في تمنُّع منِّي عن التَّفكير بما سأفعله حين يحلُّ اليوم التَّالي، أو اليوم الَّذي يليه.

في منتصف اللَّيل، أستيقظ فزعة على رائحة مشروب نفّاذة، فأبحلق. كانت شجيرة الخلنج، الَّتي نقلتها من زقاق مقابل شارع ديفيساديرو، تمدُّ أذرعها الإبرية فوق رأسي. من بين البراعم المتفتِّحة حديثاً والمتألِّقة بشكلها الجرسي، يتراءى لي خيال رجل ينحني ويقتلع ساقاً من زهرة الهيلينيوم. مالت زجاجة المشروب مع انحناءته، فاندلق السَّائل منها على الشُّجيرة الَّتي تخفي جسدي. تمتدُّ يد فتاة كانت خلفه إلى القنِّينة، وقد افترشت الأرض مولية ظهرها لي، وترفع وجهها نحو السَّماء. يمدُّ الرَّجل يده بالزَّهرة، وفي ضوء القمر ميَّزت أنه كان فتى صغيراً، صغيراً على احتساء الكحول، وصغيراً حتَّى على البقاء خارج البيت بعد حلول الظلام. يمرِّر الزَّهرة من قمَّة رأس الفتاة نزولاً إلى طرف رأسها. «أقحوانة لغاليتي»، ينطق بها محاكياً اللَّكنة الجنوبية، وهو ثمل.

«إنَّها زهرة دوَّار الشَّمس أيُّها الأحمق»، تردُّ عليه الفتاة ضاحكة. كان شعرها الطَّويل، المربوط بشريطة تتماشى مع قميصها وتنُّورتها المكسَّرة، يتأرجح جيئة وذهابا. تنتش الزَّهرة من بين أصابعه وتشمُّها. كانت الزَّهرة البرتقاليَّة الصَّغيرة قد فقدت

نصف بتلاتها، فقامت هي ببعثرة ما تبقّى حتَّى نبق مركزها متمايلاً مع نسمات اللَّيل، لتنقفه بعدها باتِّجاه الغابة.

يجلس الفتى ملاصقاً لها، فتفوح منه رائحة عرق، وقد طغت عليها رائحة عطر رخيص. تطوِّح بالقنِّينة الفارغة إلى الشُّجيرات وتلتفت إليه.

راح الفتى يقبِّل وجه الفتاة، بلا توقُّف، كما لو كان يصفعها، ويداه تحت قميصها. يفتح فمها بلسانه حتَّى ظننتها ستتقيَّأ، لكنَّها تطلق تنهيدة وتتشبَّث بشعره المزيَّت. تفيض حموضة معدتي، حتَّى إنَّ قطعة من اللَّحم تصل إلى حنجرتي. وضعت يداً على فمي ويداً على عيني، لكنِّي بقيت أسمع صوتيهما. كانت قبلاتهما مخضلَّة وعنيفة، ويصل صوتها إلى حيث استلقيت تماماً، فيخيَّل إليَّ وكأنَّها أطراف أصابع نهمة تحفر شفتيّ وعنقي وصدري.

أتكوَّم ككرة صلبة، وسرير الأوراق يخشخش تحت ثقل جسدي، فيما يتابع الاثنان تبادل القبل.

في صباح اليوم التالي، ومن موقف الحافلات، أرى امرأة طويلة تحمل دلواً فيه زنبق أبيض وتدسُّ مفتاحاً في قفل محلِّ الزُّهور الموجود في الحي. ترفع القابس فينير المكان، وتبرز كلمة «نوار» المشكَّلة من سيقان مربوطة ببعضها، وقد توهَّجت على نافذة المحل الواسعة. أقترب منها بعد أن أعبر الشارع.

«في غير موسمها»، أتوجَّه إليها بالحديث وأنا أومئ إلى الزَّنابق.

ترفع المرأة عينيها. «عرسان»، تردُّ وتضع الدَّلو على الأرض، لتنظر إليَّ وكأنَّها تنتظر منِّي أن أتحدَّث.

يخطر في بالي العاشقان اللَّذان تعانقا تحت شجيرة الخلنج، وقد انهارا وهما أقرب إليَّ ممَّا ظننت، إذ دست على كتف الفتى قبل أن أحدِّد مكانهما بين الحراج. لم يتحرك أيٌّ منهما. توسَّدت شفتا الفتاة عنق الفتى كما لو أنَّها قضت وهي في خضمِّ قبلة، فيما برزت ذقن الفتى وهو يضغط برأسه على شتلات الهلينيوم المتداخلة فبدا وكأنَّه يستمتع بما يحدث. في لحظة، يتبدَّد وهم الأمان والانعزال الَّذي اعتراني.

تسألني المرأة: «هل أستطيع مساعدتك؟»، وتمرِّر أصابعها بنفاد صبر في شعرها الأشيب المدبَّب الأطراف.

خطر لي أنَّني نسيت وضع مثبِّت الشَّعر، فرجوت ألَّا تكون أوراق الشَّجر قد علقت بشعري. أومئ برأسي بتيقُّظ قبل أن أتحدَّث. «هل تحتاجين عمَّالاً؟».

تقيسني بنظراتها من قمَّة رأسي إلى أخمص قدميَّ ثمَّ تقول: «هل لديك خبرة؟».

أمرِّر إبهام قدمي في شقٍّ عميق في الرَّصيف الاسمنتي وأنا أزن خبرتي. إنَّ أوعية مربَّى ملأى بالبلَّان وشوكيات الصَّبر، المثبَّتة إلى بعضها بشرطان لاصقة لن تعني الكثير في عالم تنسيق الزُّهور.

يمكنني التَّشدُّق بالأسماء العلميَّة وسرد تواريخ عائلات النَّباتات، لكنِّي أشكُّ أن يؤثِّر عليها أيٌّ من هذا. «لا».

«إذن، لا». تنظر إليَّ ثانية. كانت نظرتها تحاكي، بثباتها، نظرة حدجتني بها اليزابيث يوماً. يجفُّ حلقي، فأتمسَّك بأعطاف البطَّانيَّة البنِّية الَّتي جعلت منها تنُّورة، خشية أن تنفكَّ وتسقط عند قدمي.

تردف قائلة: «سأنفحك خمسة دولارات إن أنت أفرغت شاحنتي». أعضُّ على شفتي وأومئ بالموافقة.

لا بدَّ أنَّها أوراق الشَّجر الَّتي لصقت بشعري، هكذا خطر لي.

(٥)

كان الحـمَّام جاهـزاً أصـلاً. أزعجتني فكـرة أنَّ اليزابيـث توقَّعـت حضـوري وأنـا متَّسـخة.

مكتبة
t.me/t_pdf

تسألني: «هل تحتاجين مساعدتي؟».

«لا». كان حـوض الاسـتحمام يـبرق بياضـاً، فيـما توضّـع لـوح الصَّابـون عـلى أصـداف البحـر في وعـاء معـدني عاكـس كالمـرآة.

«إذن، انـزلي حالمـا ترتديـن ملابسـك، وأسرعـي». عـلى طاولـة الزينـة ثمَّـة ملابـس نظيفـة رتِّبـت لأجـلي كـي أرتديهـا.

أنتظـر إلى أن تغـادر وأحـاول إقفـال البـاب خلفهـا لكنِّـي أكتشـف أنَّ القفـل قـد أزيـل. أسـحب كـرسيَّ طاولـة الزِّينـة الصَّغـير وأحـشره تحت أكـرة البـاب بشـكل يجعلني أسـمعها حين تـأتي، وذلـك أضعـف الإيـمان. أسرع بخلـع ملابـسي قـدر اسـتطاعتي وأغمـر نفـسي بالمـاء السـاخن.

عندمـا نزلـت، وجـدت اليزابيـث تجلـس إلى طاولـة الطَّعـام، وفوطتهـا عـلى حضنهـا، وطعامهـا لم يمـس. ارتديـت الملابـس الَّتـي اشـترتها لي، بلـوزة بيضـاء وبنطـالاً أصفـر. ترمقنـي اليزابيـث بنظـرة فاحصـة في محاولـة منهـا، ولا شـكَّ، لاسـتيعاب مقاسـها الكبـير. كنـت

قد لففت البنطال من الخصر، وكففت ساقيه، لكنَّه بقي متهدِّلاً بما يكفي لكشف ملابسي الداخلية، لولا أنَّ قميصي كان طويلاً كفاية. كنت أقصر من معظم قريناتي في صفِّي، كما أنَّني فقدت خمسة أرطال من وزني منذ بداية الصيف.

عندما أخبرت ميريديث بسبب فقداني لوزني نعتتني بالكاذبة، لكنَّها، بكلِّ الأحوال، سحبتني من السَّكن وأطلقت تحقيقاً رسمياً بالأمر. استمع القاضي إلى ادِّعائي وادِّعاء السيدة تابلي. «لن أجرم إن أنا رفضت الاستجابة للرَّغبات الغذائيَّة لأكول مزاجيَّة»، هكذا ذكرت في شهادتها. أعلن القاضي أنَّ الحقيقة مضيّعة في مكان ما بين الادِّعائين. كانت نظرته إليَّ صارمة ومغلَّفة بالاتِّهام، لكنَّه كان على خطأ. كانت السيِّدة تابلي تكذب، فعلى الرَّغم من وجود نقائص لديَّ أكثر ممَّا ذكرت ميريديث في تقرير المحكمة، لكنَّني لم أكن أكولاً مزاجيَّة.

طوال شهر حزيران، أرغمتني الآنسة تابلي على إثبات جوعي. حدث هذا من أوَّل يوم لي في سكنها، أي في اليوم الَّذي تلا انتهاء المدرسة. يومها ساعدتني في فرد حاجيَّاتي في غرفتي الجديدة، وسألتني بصوت لطيف بما يكفي ليثير شكوكي عن أكثر الأكلات الَّتي أحبها وتلك الَّتي آكلها على مضض. بكلِّ الأحوال أجبتها، وقد نال منِّي الجوع: البيتزا والبازلَّاء المجمدة. ليلتها، قدَّمت لي على العشاء زبديَّة مليئة بالبازلَّاء الَّتي لا تزال مجمَّدة، وقالت لي

لو أنَّني جائعة حقّاً فسآكلها. أغادر الطَّاولة، فتقفل الآنسة تابلي الثَّلاجة وكلَّ خزن المطبخ.

ظللت ليومين لا أبارح غرفتي إلَّا إلى الحمام.تأتيني روائح الطَّبخ من تحت الباب في أوقات منتظمة، ويرتفع صوت رنين الهاتف، ويأخذ صوت التلفاز يعلو وينخفض. لكنَّ الآنسة تابلي لم تتفقَّدني. بعد أربع وعشرين ساعة أتَّصل بميريديث، لكن، ما نقلته لها عن المجاعة الَّتي أقاسيها كان شكوى مكرَّرة، فلم تعاود الاتِّصال. كان العرق يتصبَّب مني، وكنت أرتجف حين عدت إلى طاولة المطبخ في اللَّيلة الثالثة. راقبت الآنسة تابلي ذراعيّ الخائرتين وهما تحاولان جرَّ الكرسي الثَّقيل بعيداً عن الطَّاولة. أحشر جسدي الهزيل في الفراغ الحاصل بين الطَّاولة وظهر الكرسي، مستسلمة. كانت حبَّات البازلَّاء قد تجعَّدت في الزِّبديَّة وقسيت. فتطلق الآنسة تابلي نظراتها السَّاخطة من وراء منديل مائدة فيما الشَّحم يتساقط على المدفأة، ثمَّ تلقي عليَّ محاضرة عن حال أكل الأطفال نزلاء دور الرِّعاية، كونهم لايزالون تحت تأثير الصدمة. «الطَّعام ليس للرَّفاهية»، تلقيها على مسامعي وأنا أضع أوَّل حبَّة من البازلَّاء في فمي. تتدحرج على لساني وتعلق في حلقي كأنها حصاة، فأجهد حتى ابتلعتها، وأتناول واحدة أخرى وأنا أحصي كلَّ حبَّة وهي تنحدر إلى معدتي. جعلتني رائحة الشَّحم وشيء آخر يقلى أتابع طعامي: ستٌّ وثلاثون، سبع وثلاثون. بعد الحبَّة الثامنة والثلاثين أتقيَّأ كلَّ الحبَّات في الوعاء. «كرِّري المحاولة»،

تقولها وهي تومئ إلى حبَّات البازلّاء شبه المهضومة. تجلس على كرسيٍّ مرتفع وتخرج من المقلاة قطعة لحم يتصاعد منها البخار، لتتناول منها لقماً حارَّة وهي تنظر إليَّ. أكرِّر المحاولة، ويستمر الحال على هذا المنوال لأسابيع حتَّى أتت ميريديث في زيارتها الشَّهريَّة. حينها، كنت قد خسرت وزني فعلاً.

تبتسم اليزابيث حال دخولي المطبخ.

«تبدين جميلة»، تقولها دون أن تحاول إخفاء نبرة الدَّهشة الَّتي تلوِّن صوتها. «كان من الصَّعب التنبُّؤ بجمالك بوجود كلِّ ذاك الكمِّ من الكتشب. هل تشعرين بالتَّحسُّن؟».

أردُّ: «لا»، مع أنَّها ليست الحقيقة. لم أستطع تذكُّر آخر سكن سُمح لي فيه باستخدام حوض الاستحمام. ربَّما كان لدى جاكي واحداً في طابقها، لكنَّ الأطفال في الطَّابق الثاني كانوا ممنوعين منه. قبل ذلك كان هناك صفٌّ طويل من المقصورات الصَّغيرة، حيث تكتظُّ رفوف الحمَّام الضَّيقة بأدوات التَّجميل، وطبقات من العفن. شعرت بالتَّحسُّن بعد الحمَّام السَّاخن، لكنَّني طفقت الآن أحسب حساب الثَّمن وأنا أنظر إلى اليزابيث.

أرتقي كرسيّاً وأجلس إلى طاولة المطبخ. ما مُدَّ عليها من طعام كان يكفي عائلة من ستَّة أفراد: زبديَّات كبيرة من المعكرونة، شرائح مكتنزة من اللَّحم، طماطم كرزية، تفَّاح أخضر، وجبنة أميريكية مكدَّسة في أغلفة بلاستيكيَّة شفّافة، كما كان هناك

ملعقة ملأى بزبدة الفستق موضوعة على منديل قماشي أبيض اللَّون. من الصَّعب عدُّ ما رُصَّ عليها من أصناف الطَّعام. باتت خفقات قلبي مسموعة، وتكوَّرت شفتاي داخل فمي، فأعضُّ على الشَّفتين العليا والسُّفلى معاً. قد تجبرني اليزابيث على تناول كلِّ ما هو موجود على الطَّاولة. لكنِّي للمرَّة الأولى منذ شهور لا أشعر بالجوع. أرفع نظري إليها بانتظار الأوامر.

تشير إلى الطَّاولة على استحياء وهي تقول: «طعام للأطفال. ما رأيك بما أنجزت؟».

لم أنطق بحرف.

عندما أدركت أنَّني لن أردَّ، تقول لي: «لا أتصوَّر أنك جائعة، ليس وقميص نومك يدلُّ على ما شهده عند الظهيرة».

أهزُّ رأسي.

فتردف: « كلي إذن ما تريدين وحسب. لكن ابقي معي عند الطَّاولة إلى أن أنهي طعامي».

أتنفَّس الصُّعداء وقد اعترتني راحة آنية. أخفِّض ناظريَّ إلى الطَّاولة لأرى أضمومة صغيرة من أزهار بيضاء رُصَّت إلى بعضها برباط من الخزامى ووضعت فوق زبديَّة المعكرونة. أتمعَّن في البتلات الدقيقة قبل أن أنقفها عن طعامي. كان رأسي يعجُّ بقصص سمعتها من أطفال آخرين، حكايا عن التَّسميم ودخول المشافي.

أجول بناظري في أنحاء الغرفة لأرى إن كانت النَّوافذ مفتوحة في حال اضطُّررت إلى الهرب. في الغرفة ذات الخزن الخشبيَّة البيضاء والمعدات العتيقة، كانت هناك نافذة واحدة، هي عبارة عن مربع صغير فوق مجلى المطبخ، ترتصُّ على حافَّتها قناني زجاجية صغيرة، زرقاء اللَّون، محكمة الإغلاق.

أشير إلى الزُّهور: «لا يمكنك تسميمي، أو إعطائي دواء لا أريده، أو ضربي، حتَّى لو كنت أستحقُّ الضَّرب. هذه هي القواعد». عندما قلت هذا أحدِّق بها، والطّاولة تتطاول بيننا، راجية أن يكون التَّهديد قد وصلها. كنت قد أبلغت عن أكثر من شخص لقيامه بصفعي على مؤخِّرتي. «لو كنت أودُّ تسميمك لقدَّمت لك زهرة الكشاتبين القمعيَّة، أو زهرة الكوبية، وربَّما شقائق النُّعمان، بحسب كمِّ الألم الَّذي أريدك أن تقاسيه، وبحسب الرِّسالة الَّتي أريد إيصالها».

يتغلَّب الفضول على شعوري بالنُّفور من النقاش. «ما الذي تتحدَّثين عنه؟».

تردُّ قائلة: «هذه زهور النَّجمة، وتعني التَّرحيب. عندما أقدِّم لك باقة من زهرة النَّجمة فأنا أرحِّب بك في منزلي، وفي حياتي». تلفُّ المعكرونة حول شوكتها ثم تنظر عميقاً في عينيّ دونما لمعة تدل على المزاح.

أردُّ بالقول: «إنها تبدو لي مثل الأقحوان. وما زلت أظنُّها سامَّة».

«هـي ليسـت بالسَّـامة، وليسـت بالأقحـوان. أتريـن كيـف أنَّ لهـا خمـس بتـلات فقـط لكنَّهـا تبـدو كـما لـو كانـت عـشرة؟ كلُّ زوج مـن البتـلات متَّصلـين مـن المركـز». ألتقـط باقـة الزُّهـور الصَّغـيرة وأتفحَّـص الأضمومـة البيضـاء. تنمـو البتـلات معـاً قبـل الاتِّصـال بالسَّـاق، لذلـك تأخـذ كل بتلـة شـكل القلـب».

عندمـا تـرى اليزابيـث أنِّي أفهـم مـا تقـول، تتابـع حديثهـا: «هـذه إحـدى ميِّزات العائلـة النَّجميـة. الأقحـوان اسـم شـائع ويدمـج عـدَّة عائـلات مختلفـة، لكـنَّ الزَّهـرات الَّتي نطلـق عليهـا الأقحـوان عـادة مـا تملـك بتـلات أكثـر، وتنمـو كلُّ بتلـة بشـكل مسـتقلٍّ عـن البقيَّـة. من المهـمِّ معرفـة الاختـلاف وإلَّا فسـتغيب عنك الدَّلالـة. الأقحـوان يعنـي الـبراءة، وهـي عاطفـة مختلفـة تمامـاً عـن الترحـاب».

أجيب: «مازلت أجهل ما تتحدَّثين عنه».

«هـل فرغـت مـن الطَّعـام؟»، تسـألني اليزابيـث وهـي تضـع شـوكتها مـن يدهـا. لم أكـن قـد التقمـت سـوى لقيـمات مـن اللَّحـم، لكنَّنـي أومـئ أن نعـم. «إذن، تعـالي معـي لأشرح لـك».

تنهـض اليزابيـث وتسـتدير لتقطـع المطبـخ، فأمـلأ أحـد جيـوبي بحفنـة مـن المعكرونـة وأفـرغ زبديَّـة الطَّماطـم الكرزيَّـة في الثَّـاني. تتوقَّـف اليزابيـث عنـد البـاب الخلفـي لكنَّهـا لم تسـتدر. أسـحب جـوربيّ الطويلـين وأصـفُّ شرائـح الجبنـة الأميركيـة بـين جـوربيَّ وبطَّنـي السَّـاقين. وقبـل أن أقفـز عـن الكـرسي، أتنـاول ملعقـة زبـدة

الفستق وأبدأ بلعقها ببطء وأنا ألحق باليزابيث. تنزل بنا أربع درجات خشبيَّة إلى حديقة زهور كبيرة.

تعلّق اليزابيث: «إنَّني أتحدَّث عن لغة الزُّهور، وهي تعود إلى الحقبة الفيكتورية، كما هو اسمك. فإذا ما قام رجل بتقديم باقة من الأزهار إلى سيِّدة، كانت تهرع إلى بيتها كي تفكَّ رموز دلالتها، وكأنَّها رسالة سرية. الزُّهور الحمر تعني الحب، والصَّفراء تعني الخيانة. لذا، كان يتوجَّب على الرَّجل انتقاء زهوره بانتباه».

«ما هي الخيانة؟»، أسألها ونحن ندخل درباً حيث حفَّت بنا الزُّهور الصَّفراء من كلِّ صوب.

تتوقَّف اليزابيث. حين أرفع رأسي ألحظ حزناً يعلو تقاسيمها. لوهلة ظننت أنَّ ما أزعجها هو شيء ما تفوَّهت به، لأدرك بعدها أنَّ نظرها كان متحوِّلاً إلى الزُّهور وليس إليَّ. فأتساءل عمَّن زرعها.

تنطق أخيراً: «إنها تعني أن يكون لديك أصدقاء، أصدقاء مقنَّعون، أصدقاء لا يفترض بك أن تتعرَّفي بهم».

لم أفهم مغزى تعريفها. كانت اليزابيث قد تحرَّكت فعلاً ومدَّت يدها إلى ملعقة زبدة الفستق لتجرَّني معها. أنتزع الملعقة ثانية وأتبعها عبر منعطف آخر.

«هذا إكليل الجبل، ويدل على الذِّكرى، وأنا هنا أقتبس من شكسبير، ستدرسينه في الثانويَّة. وهذه زهرة الحوض، وترمز إلى

الهجر؛ وهـذه شربـة الرَّاعـي، وتعنـي الحكمـة؛ والخزامـى وتعنـي انعـدام الثقـة». نتنـاول مـذراة في طريقنـا، وتنحنـي اليزابيـث لتفـادي غصـن متـدلي. أنهـي آخـر مـا تبقـى مـن زبـدة الفسـتق بلعقـة بطيئـة، ثـمَّ أرمـي الملعقـة بـين الشـجيرات وأقفـز إلى الأعـلى كـي أتأرجـح عـلى غصـن فـلا تهتـزُّ الشَّـجرة.

«هـذه شـجرة بنـدق. زهراتهـا الرَّبيعيـة ترمـز إلى الطَّيـش، أمـر لا يهمُّـك كثيراً معرفتـه. لكنَّهـا مـع ذلـك شـجرة جميلـة»، ثـمَّ تـردف قائلـة: « ولقـد اعتبرتهـا لفـترة طويلـة مكانـاً ملائـماً لبنـاء منـزل عليهـا. ولسـوف أطلـب مـن كارلـوس بنـاء واحـد».

«مـن هـو كارلـوس؟»، أسـألها وأنـا أقفـز نازلـة. كانـت اليزابيـث قـد سـبقتني عـلى الـدَّرب، فأطفـق أثـب للَّحـاق بهـا.

«إنَّـه ملاحـظ العـمَّال، وهـو يقيـم في المقطـورة بـين مخـازن الأدوات، لكنَّـك لـن تسـتطيعي رؤيتـه هـذا الأسـبوع لأنَّـه اصطحـب ابنتـه للتَّخييـم. عمـر بيرلا تسـع سـنوت، هـي في نفـس عمـرك، وهـي سـتحرص عليـك عندمـا تذهبـين إلى المدرسـة».

«لـن أذهـب إلى المدرسـة»، أجيـب وأنـا أجهـد للَّحـاق بهـا. كانـت اليزابيـث قـد وصلـت إلى منتصـف الحديقـة، وقفلـت عائـدة نحـو المنـزل. كانـت لاتـزال تشـير إلى النَّباتـات وتعـرِّف بمعانيهـا، لكنَّهـا كانـت تسـير بسرعـة أكـبر مـن مقـدرتي عـلى مجاراتهـا. أخـذت أهـرول حتَّـى لحقـت بهـا عنـد وصولهـا إلى درجـات الشُّـرفـة الخلفيَّـة. تجلـس القرفصـاء حتَّـى تـأتي العـين بالعـين.

«ستبدأ مدرستك بعد أسبوع من يوم الاثنين القادم. ستلتحقين بالصَّف الرَّابع، ولن تدخلي البيت مالم تجلبي لي ملعقتي».

ثمَّ تستدير وتدخل البيت وتغلِّق الباب خلفها.

(٦)

طفقت أطوف في الحيِّ بعد أن دسست في حمَّالة الصَّدر ورقة الخمسة دولارات الَّتي أعطتني إيَّاها منسِّقة الزُّهور. مازال الوقت مبكِّراً، والبارات المفتوحة أكثر من المقاهي في منطقة ميشين حيث كنت أتسكَّع. عند زاوية تقاطع شارعي الرابع عشر وألاباما، أعرِّج على كشك من البلاستيك الزهري حيث قضيت عنده ساعتين تناولت فيهما الكعك المحلَّى، بانتظار المحلَّات الصَّغيرة في شارع فالنسيا ريثما تفتح أبوابها. عند العاشرة، أحصي ما بقي معي من نقود: دولار وسبع وثمانون سنتاً. أمشي حتَّى أجد محلَّاً لبيع الأقمشة، فأشتري شريطة بطول نصف متر من الساتان الأبيض ودبُّوس تعلوه لؤلؤة.

أرجع إلى ميدان ماكينلي في وقت متأخِّر من الصباح، فأزحف إلى حديقتي فوق العشب السَّاكن. كنت أخشى أن يكون العاشقان لايزالان متمدِّدين فوق أزهاري، لكنَّهما كانا قد ذهبا. كلُّ ما بقي منهما هو الأثر الَّذي خلَّفه ظهر الفتى حين تمدَّد على نبتة الهيلينيوم، وقنِّينة الشَّراب النَّابقة من بين الشُّجيرات الكثيفة.

فرصة وحيدة هي كلُّ ما أتيح لي. كان واضحاً بالنِّسبة إليَّ أنَّ منسقَّة الزُّهور بحاجة إلى المساعدة، فوجهها كان يبدو شاحباً

ومجعَّداً مثل وجه اليزابيث في الأسابيع الَّتي تسبق موسم القطاف. لو استطعت إقناعها بإمكانيَّاتي ستوظِّفني، وبالنُّقود الَّتي سأكسبها سأستطيع استئجار غرفة بباب له قفل، وسأعتني بحديقتي فقط في ضوء النَّهار، حين أستطيع رؤية الغرباء وهم يقتربون. أدرس خياراتي وأنا أجلس في ظلِّ شجرة. زهور الخريف قد تفتحت تماماً: زهرة الملِّيسة، زهرة العود الذهبي، الأقحوان، وزهرة متأخِّرة التَّفتُّح. كانت أحواض المدينة المخدَّمة بعناية، والَّتي تحيط بالمتنزَّه، تحوي طبقات من نباتات متداخلة دائمة الخضرة، لكنَّ التَّنوُّع اللَّوني فقير.

شرعت أعمل، واضعة في بالي الارتفاع والكثافة والنَّسيج وتدرُّجات الرَّائحة، مع إزالة البتلات المتضرِّرة نتيجة المعس المتقصَّد. عندما انتهيت كانت زهرات الأقحوان البيضاء الحلزونية تفترش حشيَّة من زهر الملِّيسة الأبيض بلون الثَّلج، فيما التفَّت عناقيد من الزُّهور المتسلِّقة الباهتة حول حافَّة الباقة المغلَّفة بإحكام ونتأت عنها. ثمَّ نزعت كلَّ شوكة وجدتها. بدا بياض الباقة نقيّاً كزفاف، كتلاوة دعاء، كالحقيقة، ويوحي بقلب بغو، وما من واع له.

كانت المرأة تقفل محلَّها حين وصلت. ولم تكن الظَّهيرة قد حلَّت بعد.

«إن أتيت طمعاً بخمسة دولارات أخرى فقد تأخَّرت جداً»،

تبادرني بالكلام وهي تومئ برأسها إلى الشَّاحنة الَّتي كانت محمَّلة بالحاجيَّات الثقيلة. «كنت في حاجة إلى مساعدتك».

أمدُّ يدي بالباقة، فتسألني: «ما هذا؟».

أجيبها: «الخبرة»، وأسلِّمها الزُّهور.

تشمُّ زهور الأقحوان وبقية الزُّهور، ثمَّ تتلمَّس زهرات المِّليسة، لتتفحَّص بعدها رأس إصبعها، فبدا نظيفاً. تتحرَّك صاعدة التلَّ باتِّجاه شاحنتها وتشير إليَّ كي أتبعها.

تسحب من داخل شاحنتها باقة من الزُّهور البيضاء الصِّناعية مرصوصة إلى بعضها ومربوطة بشريط من الساتان الزَّهري. تضع الباقتين جنباً إلى جنب. لا مجال للمقارنة. ترمي الزُّهور البيضاء باتِّجاهي فألتقطها بيد واحدة.

«خذي هذه إلى محل سبيتاري في أعلى التلِّ، واسألي عن أندرو، وأخبريه أنَّني أنا من أرسلك إليه. سيجعلك تقايضين أزهارك بوجبة الغداء».

أومئ برأسي، فتركب شاحنتها وتدير المحرِّك. «اسمي هو ريناتا. إذا أردت العمل يوم السَّبت القادم فكوني هنا قبل الخامسة صباحاً. إن تأخَّرت دقيقة عن ذلك فسأتركك وأمضي».

انتابني شعور من هبط التلَّ بأقصى سرعة، وغمرني إحساس بالارتياح. لم يكن يهمُّني أنَّ الوعد بالعمل يغطِّي يوماً واحداً، أو

أنَّ المردود قد يكفي لاستئجار غرفة لعدَّة ليالي وحسب، بل إنَّ أمراً آخر كان هو المهمَّ لديَّ. إن استطعت إثبات نفسي فستدعوني إلى العمل ثانية. أبتسم وأنا أقف على الرَّصيف لتنثني أصابع قدمي في حذائي انفعالاً.

تبتعد ريناتا عن الرَّصيف وتخفِّض سرعتها حتَّى تتوقَّف، ثمَّ تنزل نافذتها وتسأل: «ما اسمك؟».

أجيبها وأنا أخفي ابتسامتي: «فيكتوريا، فيكتوريا جونز».

تهزُّ رأسها وتمضي.

في السَّبت التَّالي أصل إلى محلِّ الزُّهور بُعَيد منتصف اللَّيل. غفوت في حديقتي بعد أن أسندت ظهري إلى شجرة حمراء، للمراقبة، لأنتبه مذعورة بسبب صوت ضحكة تقترب. هذه المرَّة كانوا عصبة من شبَّان سكارى. ابتسم لي أقربهم إليَّ، وكان فتى ناضجاً بشعر منسدل إلى كتفيه، كما لو كنَّا عاشقين يلتقيان في مكان محدَّد سلفاً. أتجاهل نظراته وأسير بسرعة إلى أقرب عمود إنارة، ومن هناك أنزل التلَّ باتِّجاه محلِّ الزُّهور.

أبخُّ مزيل رائحة، وأضع مثبِّتاً على شعري بينما كنت أنتظر، وأقوم بذرع الحيِّ كي أجبر نفسي على البقاء مستيقظة. عندما تدخل شاحنة ريناتا الشَّارع، أتفحَّص صورتي في مرايا السَّيارات المتوقِّفة مرتين، وأقوم بترتيب هندامي ثلاث مرات. وعلى الرَّغم

مـن كلِّ هـذه الإجـراءات، كنـت متيقِّنـة مـن أنَّنـي صرت أبـدو مثـل المشرَّديـن، وتنـدُّ عنِّـي رائحتهـم.

تتوقَّـف ريناتـا وتفتـح قفـل البـاب مـن جهتـي وتشـير إليَّ كـي أركـب. أجلـس أبعـد مـا يمكـن عنهـا، وعندمـا أغلـق البـاب يصـدر صلصلـة بعدمـا اصطـدم بعظـم وركـي البـارز. تبـادر بتحيَّتـي: «صبـاح الخير. أنـت في موعـدك تمامـاً». تسـتدير بالعربـة وتنطلـق عـلى الطَّريـق الخاليـة مثلـما أتـت.

تسـألني: «هـل الوقـت مبكـرٌ جـداً حتَّـى تصبِّحـي علـيَّ؟». أومـئ بـرأسي، وأنـا أفـرك عينـي متظاهـرة بـأنّي قـد اسـتيقظت للتّـو. نتابـع طريقنـا في صمـت ونلـفُّ بالسَّـيَّارة حـول دوَّار. فوَّتـت ريناتـا منعطفهـا فلفَّـت الـدَّوَّار مرَّتـين. «أظـنُّ الوقـت مبكِّـراً قليـلاً حتَّـى بالنِّسـبة إليَّ».

تقـود السَّـيَّارة صعـوداً ونـزولاً في الطُّرقـات ذات الاتِّجـاه الواحـد جنـوبي السُّـوق، حتَّـى تلـج سـاحة مزدحمـة وتتوقّـف.

تتوجَّـه إليَّ بالتَّعليـمات وهـي تنـزل مـن السَّـيَّارة، وتناولنـي كدسـة مـن الـدِّلاء الفارغـة. «ابقـي قريبـة واتبعينـي. المـكان مزدحـم هنـاك، وليـس لـديَّ وقـت كـي أضيِّعـه في البحـث عنـك. لـديَّ زفـاف عنـد الثَّانيـة اليـوم، ويجـب تسـليم الزُّهـور بحلـول السَّـاعة العـاشرة. لحسـن الحـظِّ أنَّهـا زهـور دوَّار الشَّـمس وحسـب، فلـن يسـتغرق ترتيبهـا وقتـاً طويـلاً».

أتسـاءل مسـتغربة: «دوَّار الشَّـمس؟». هـي تعنـي الغنـى الـكاذب.

لـن تكـون اختيـاري لحفـل زفـافي، هكـذا خطـر لي، لأقلِّـب الفكـر في عبثيَّـة الكلـمات: حفـل زفـافي.

تجيبني: «ليس أوانهـا. أعـرف. لكـن، يمكنـك الحصـول عـلى مـا تريديـن، وفي أيِّ وقـت، مـن سـوق الزُّهـور. فـإذا مـا رمـى العروسـان بالمـال إليَّ، لـن أتذمَّـر». تشـقُّ طريقهـا عـبر المدخـل المزدحـم، فأتبعهـا كظلِّهـا وأنـا أتَّعتـع بسـبب الـدِّلاء والمرافـق والأكتـاف الَّتـي تحتـكُّ بجسـدي.

بـدا سـوق الزُّهـور مـن الدَّاخـل كالكهـف، مجوَّفـاً وبـلا شـبابيك، بسـقف معـدني وأرضيَّـة اسـمنتيَّة. كـمُّ الزُّهـور المعروضـة فيـه بـدا كالبحـر الزَّاخـر، لكـن، بـلا تربـة وبـلا ضـوء، ممَّـا اسـتفزَّ أعصـابي. غصَّـت المحـلَّات بزهـور الموسـم، كلُّ صنـف تفتَّـح في حديقتـي الخاصَّـة موجـود، لكنَّـه مقصـوص ومعـروض بشـكل حـزم. هنـاك تجَّـار آخـرون يبيعـون الزُّهـور الاسـتوائيَّة، الاوركيديـا والكركديـه ونباتـات غريبـة عجـزت عـن تسـميتها، قادمـة مـن مسـتنبتات تقـع عـلى بعـد مئـات الأميـال. أنتـش زهـرة مـن زهـور الآلام وأدسُّـها في حزامـي ونحـن نمـرُّ بهـا.

راحـت ريناتـا تقلِّـب زهـور دوَّار الشَّـمس كـما لـو كانـت تقلِّـب صفحـات كتـاب. جادلـت بخصـوص الأسـعار، ومضـت ثـم عـادت، فتسـاءلت عـمَّا إذا كانـت أميريكيـة، أو أنَّهـا نشـأت في مـكانٍ كانـت المسـاومات فيـه أسـلوب عيـش. كانـت تتمتَّـع بلكنـة لم أسـتطع تمييزهـا. يتقـدَّم الآخـرون ويسـلِّمون رزم النُّقـود أو بطاقـات البنـك ثـم

يغادرون ومعهم حزم الزُّهور، لكنَّ ريناتا داومت على المساومة. بدا أنَّ التُّجار معتادون عليها، فسايروها في مساومتها بفتور. بدوا وكأنَّهم موقنين أنَّها ستكسب في النِّهاية، وفي النِّهاية كسبت فعلاً. ملئت الدِّلاء الَّتي أحملها بزهور دوَّار شمس برتقالية بسيقان يبلغ طولها القدمين، ثم هرولت إلى المحلِّ التَّالي.

عندما لحقت بها كانت تحمل مجموعات تقطر ماء من زنابق الكالا ذات البتلات الورديَّة والبرتقالية المبرومة بإحكام. تتبلَّل الأكمام الرقيقة لبلوزتها القطنية بالمياه الَّتي تسيل من السِّيقان. ترمي الزُّهور باتِّجاهي وأنا أقترب، فحطَّ نصفها فقط في الدَّلو الفارغ، فانثنيت ببطء كي ألتقط ما تساقط من الأزهار.

تتوجَّه ريناتا إلى التَّاجر قائلة: «إنَّه يومها الأول، هي لا تفقه بعد معنى الأمر الملح. زنابقك ستنتهي بعد خمس عشرة دقيقة».

أدسُّ الزَّهرة الأخيرة في الدَّلو وأنهض. كان التَّاجر يبيع العشرات من أنواع الزَّنابق المختلفة: الزَّنبق المخطَّط، وزنبق النَّجم، والزَّنبق الملكي، وزنبق كازابلانكا الأبيض النَّقي. أزيل برفق كريَّة من غبار الطَّلع سقطت على بتلة زنبقة نجم متفتِّحة، وأنا أنصت إلى ريناتا وهي تفاوض على ثمن ما ابتاعت. كانت تطرح أرقاماً أقلَّ بكثير ممَّا دفعه الزَّبائن المحيطون بها، وبالكاد تلتقط أنفاسها لتسمع الردَّ، لتمسك فجأة عندما يوافق التَّاجر على طرحها. عندها رفعت ناظري.

تخرج ريناتا محفظتها وتلوِّح برزمة رقيقة من النُّقود في وجه البائع، لكنَّه لم يمدَّ يده ليتناولها. كان ينظر إليَّ. عيناه تتنقَّلان من قمة شعري المتيبس إلى وجهي، لتحوِّما حول كتفيّ، ولترفعا حرارة ذراعيّ قبل أن تستقر نظراتهما على غبار الطَّلع البنِّي اللَّزج المتجمِّع على بصمات أصابعي. بدا تحديقه وكأنَّه اكتساح، فأشدُّ قبضتي على حافَّة الدَّلو الَّذي أمسكه حتى تبيضَّ براجمي. تقتحم يد ريناتا جمود الموقف السَّاكن ونقودها تصطفق بنفاد صبر. «لو سمحت؟».

يمدُّ يده ليمسك بالنقود لكنَّه لم يكفَّ عن استكشافه الجريء لجسدي. يجيل النَّظر حتَّى في طبقات تنُّورتي، متفحِّصاً الجزء المرئي من السَّاق بين جوربي والبنطال المطاطي.

«هذه فيكتوريا»، تقولها وهي تشير برؤوس أصابعها باتِّجاهي. توقَّفت كما لو كانت تنتظر من مزارع الزُّهور أن يعرِّف بنفسه، لكنَّه لم يفعل.

عاودت عيناه النَّظر إلى وجهي، فالتقت نظراتنا. كان هناك شيء مربك فيهما، وميض يقدحه اهتمام أسر انتباهي. وأنا أقيسه بنظراتي، كان الانطباع الأوَّلي الَّذي خلَّفه فيّ أنَّه إنسان عارك الحياة بقدري، وإن بشكل مختلف. بدا يكبرني بخمس سنوات على الأقل، حسبما قدَّرت وقرَّرت، وتعلو وجهه سيما شغّيل يدوي ملفَّعة بالتُّراب. خيِّل إليَّ أنَّه يزرع ويرعى ويجني زهوره بنفسه، ونتيجة لذلك كان جسده نحيلاً ومفتول العضلات. لم يتحاش نظراتي المتفحِّصة كما

لم يبتسم لها. لابدَّ أنَّ بشرته الزَّيتونيَّة اللَّون مالحة الطَّعم. الفكرة جعلت قلبي يهوي بسبب شيء ما غير الغضب، شعور لم أدرك كنهه لكنَّه جعل جسدي يسخن من دواخله. قرضت شفتي من الداخل وعدت بناظري إلى وجهه.

يسحب من دلو زنبقة من النَّوع المخطَّط برتقاليَّة اللَّون.

يقول وهو يمدُّ يده بها إليَّ: «هاك واحدة».

فأردُّ: «لا، لا أحب الزَّنبق»، وناجيت نفسي أنِّي لست بملكة.

يردُّ: «بلى. إنَّها تليق بك».

«كيف لك أن تعرف ما يليق بي؟»، وبدون وعي أنتزع رأس الزَّنبقة الَّتي يحملها. يسقط التَّاج ذو البتلات السِّتِّ المدبَّبة، فأضحى وجه الزَّهرة يواجه الأرضية الصُّلبة.

تنأى ريناتا بنفسها.

فيقول: «لا أعرف».

«لا أظنُّ هذا». أهزُّ حزمة الزَّهر التي أحملها كلَّها، مبدِّدة الحرارة الَّتي تشعُّ من جسدي، فلفتت الحركة الانتباه إلى ذراعيَّ المرتجفتين.

التفت إلى ريناتا. «إلى الخارج»، تقولها وهي تشير إلى أوَّل البناء. انتظرت منها قول المزيد، وفكرة أن أطرد من المكان بعد أقلِّ من

ساعة من استلام مهام عملي الأوَّل تجعلني أغرق في دوَّامة من الخوف. لكنَّ عيني ريناتا كانتا مثبَّتتين على الطَّابور المتزايد على المحل المجاور. عندما نظرت ثانية ورأت أنَّني لم أتحرَّك، ينعقد حاجباها في حيرة، فتتساءل: «ماذا؟ اذهبي وانتظري بجانب الشَّاحنة».

أشقُّ طريقي نحو المخرج وأنا أدفع جمهرة غفيرة من النَّاس. التوت ذراعاي نتيجة لوزن الحزمة، لكنَّني حملتها عبر رحبة السَّيارات دون توقُّف للاستراحة. أنزل الحزمة على الاسمنت القاسي عند شاحنة ريناتا وأنا خائرة القوى ومنهكة.

(٧)

من وراء النَّوافذ الدَّاكنة، راحت اليزابيث تراقبني. كنت واثقة من ذلك، مع أنَّني لم أستطع تمييز طيف جسدها من وراء الزُّجاج. وبقي الباب الخلفي مقفلاً. أرقب الشَّمس وهي تغوص وتختفي عن الأنظار فتسري في جسدي قشعريرة. تبقَّى لي عشرة دقائق لا أكثر قبل أن أضطرَّ للبحث عن الملعقة في العتمة.

رُميت خارجاً من قبل، كان عمري في المرَّة الأولى خمس سنين. كان بطني البارز خاوياً في منزل يعجُّ بفائض من الأطفال وقناني الجعة. وأنا مفترشة أرض المطبخ، شاهدت كلبة صغيرة بيضاء اللَّون، من فصيل التشيواوا، تتناول طعامها من وعاء خزفي. دنوت منها أكثر وقد غلبتني الغيرة. لم أكن أنتوي تناول طعام الكلبة، لكن، عندما رآني الأب الرَّاعي لي ووجهي لا يبعد عن الوعاء إلا بسنتمترات قليلة، حملني من ياقتي من الخلف ورماني إلى الخارج قائلاً **إن تصرَّفت كالحيوان فستعاملين مثله**. ألصق جسدي بالباب الزُّجاجي المنزلق حتَّى امتصَّ حرارة المنزل، وأتابع العائلة وهي تتجهَّز للنوم. ما دار بخلدي أبداً أنَّهم سيتركونني هناك طوال اللَّيل، لكنَّهم فعلوا. يرتجف جسدي برداً وخوفاً، ولم يفارق خيالي منظر الكلبة الصَّغيرة وقد جفلت بسبب ما انتابها

من الرُّعب فراحت أذناها المثلَّثتان ترتجفان. تسلَّلت الأمُّ الرَّاعية لي إلى الأسفل في منتصف اللَّيل ورمت لي ببطَّانيَّة عبر نافذة المطبخ المرتفعة، لكنَّها لم تفتح الباب حتَّى الصباح.

جلست على درجات بيت اليزابيث ورحت أخرج المعكرونة والطَّماطم الكرزيَّة من جيوبي وآكلها، وأنا أزن أمر البحث عن الملعقة في فكري. إن أنا وجدتها وسلَّمتها إلى اليزابيث، قد تتركني أنام في الخارج رغم هذا. ما من ضمانة أن أحصل على ما وعدت به إن أنا فعلت ما طلب مني. لكنِّي كنت قد لمحت غرفتي وأنا نازلة وقد بدت أكثر راحة من الدَّرجات الخشبيَّة المتشقِّقة. لذا قرَّرت المحاولة.

أخذت أطوف بالحديقة ببطء إلى أن وصلت إلى البقعة الَّتي رميت منها الملعقة. انحنيت تحت شجرة البندق ورحت أتحسَّس المكان بكفيّ، وما إن وصلت إلى الشَّجر الكثيف حتى أخذت الأشواك تخز أصابعي. باعدت السِّيقان الطويلة، وانتزعت البتلات عن الشُّجيرات الحرجيَّة، مزَّقت أوراقاً وكسَّرت أغصاناً، لكن، لم أرها.

ناديت من يأسي: «اليزابيث»، لكنَّ المنزل كان ساكناً.

تشتدُّ العتمة وتثقل ليبدو الكرم وكأنَّه يتمادى في كلِّ اتِّجاه كما لو كان بحراً لا منجاة منه، وفجأة يعتريني إحساس بالرُّعب. أمدُّ كلتا يديَّ وأتشبَّث بجذع شجيرة ثخين وأدفعه بأقصى قوَّتي،

والشَّوك يخترق راحتيّ الطَّريَّتين. أجتثُّ النبات وأتابع نفس النَّهج، فرحت أقتلع كلَّ ما أمكنني الإمساك به حتى تجرَّد وجه الأرض. فوق التُّربة المنكوتة كانت الملعقة تستلقي وحيدة وهي تعكس ضوء القمر.

أمسح كفَّيّ الدَّاميتين ببنطالي وأتناول الملعقة ثمَّ أركض باتِّجاه المنزل وأنا أتعثَّر وأسقط وألتقط أنفاسي دون أن أفلت غنيمتي. صعدت الدَّرجات وثباً، ورحت أدقُّ بالملعقة المعدنيَّة الثَّقيلة على الباب الخشبيِّ بلا كلل. يدور القفل لتنتصب اليزابيث أمامي.

بقينا نتبادل النَّظرات في صمت لمدَّة دقيقة، زوجان من عيون محدِّقة لا تطرف، لأطوِّح بالملعقة بعدها إلى المنزل بكلِّ ما أوتيت ذراعاي النَّاحلتان من قوَّة. سدَّدت على النَّافذة الَّتي تعلو مجلى المطبخ، لتطير الملعقة بعيداً عن أذن اليزابيث بسنتمترات قليلة وترتفع إلى السَّقف وترتدَّ عن النَّافذة لتستقرَّ في المجلى الخزفي. تترنَّح إحدى القناني الزَّرقاء الصَّغيرة فوق حافَّة النَّافذة قبل أن تسقط وتتشظَّى.

أصرخ: «هاك ملعقتك».

بالكاد تتحكَّم اليزابيث بالنَّفس الَّذي أخذته قبل أن تندفع باتِّجاهي. تغوص أصابعها عميقاً أسفل القفص الصَّدري لتحملني إلى حوض المطبخ، لكنَّها لم ترمني داخله. تنكبس عظام حوضي على رخام المجلى ويتدلَّى وجهي قريباً جداً من الزُّجاج المتكسِّر، ولوهلة استحال العالم كلُّه أزرق في ناظري.

تزمجر اليزابيث وهي تدني وجهي أكثر من الزُّجاج: «هذه كانت لأمِّي». أبقت عليَّ ساكنة تماماً، لكنَّني شعرت بالغضب يسري حتَّى رؤوس أصابعها، ليبقى التَّهديد بالسُّقوط على الزُّجاج قائماً.

تسحبني من فوق الحوض بحركة مفاجئة وتنزلني، وقبل أن تصل رجلاي إلى الأرض تفلتني، فأسقط إلى الخلف. تنتصب أمامي، فأنتظر أن تهوي بكفِّها على وجهي. كلُّ ما يتطلَّبه الأمر هو صفعة واحدة لتعود ميريديث قبل أن يزول أثر الصَّفعة ويسدل السِّتار على التِّجربة الأخيرة. سيعتبرونني غير مؤهَّلة للتَّبني وستحجم ميريديث عن البحث عن عائلة لترعاني، وقد كنت جاهزة لهذا، ولما هو أبعد منه.

لكنَّ اليزابيث أسبلت يديها واستوت في وقفتها، ثمَّ خطت مبتعدة عني. «ما كنت لتعجبي والدتي»، قالتها وراحت تنكزني بإصبع قدمها حتّى وقفت. «اصعدي إلى الأعلى، وأوي إلى فراشك».

لم تحن النِّهاية إذن، هكذا قدَّرت وقد خاب فألي. تسري في أوصالي رهبة ظاهرة، غامرة وثقيلة على النَّفس. يجب أن ينتهي الأمر. لم أكُ أصدِّق بتوافر أدنى إمكانية لأن تطول إقامتي عند اليزابيث. أردت للأمر أن ينتهي في حينه، قبل قضاء ليلة واحدة في منزلها. خطوت باتِّجاهها رافعة وجهي في تحدٍّ لها وكلِّي أمل أن

يستفزَّها اقترابي منها، لكنَّ الفرصة فاتت. كانت اليزابيث تنظر إلى رأسي وتنفسُّها منتظم.

أمضي بخطى متثاقلة، فأصعد الدَّرج بعد أن أسحب شريحة لحم من على الطَّاولة. كان الباب المؤدِّي إلى غرفتي مفتوحاً، فأنحني بجسدي في الفراغ الحاصل لألقي نظرة على كلِّ ما سيصبح مؤقَّتاً لي: الأثاث الدَّاكن، البساط القماشي الدَّائري الشَّكل بلونه الوردي، المصباح ذو الزُّجاج الملوَّن والظِّلِّ اللُّؤلؤي. بدا كلُّ شيء جديداً، اللِّحاف الأبيض المنفوش ذو العراوي والسَّتائر المتماشية معه، الملابس المعلَّقة في صفوف مرتَّبة في الخزانة، وتلك المطويَّة والمكدَّسة في الدُّروج. أزحف إلى السَّرير وأبدأ بقضم شريحة اللَّحم. كانت مالحة ولها طعم معدني بسبب الدَّم النَّازف عليها من قبضة يدي. وبين القضمة والقضمة كنت أتوقَّف لأنصت.

حسبما أتذكَّر تنقَّلت للعيش في اثنين وثلاثين منزلاً، وكان العامل المشترك بينها هو الضَّجيج: صوت حافلات، وصوت مكابح، وصرير عجلات قطار شحن يمر. وفي الدَّاخل: الحروب المستعرة بين أجهزة التِّلفاز المتعدِّدة، صفير أفران الميكروويف وعبوات التَّسخين، رنين جرس البيت، اللَّعنات الَّتي تنطلق، وقرقعة قفل يدور. وكذلك هناك أصوات الأطفال الآخرين: رضَّع تصرخ، أخوة تبكي بسبب الفراق، زعقة حادَّة بسبب الحمَّام البارد، ونشيج شريكة غرفة بسبب كابوس دهمها. لكنَّ منزل اليزابيث كان مختلفاً. كان المنزل ساكناً مثل الكرم المتمادي

عند الغسق. طنين خافت وحادٌّ كان يسمع من النَّافذة المفتوحة ذكَّرني بأزيز الكهرباء في الأسلاك، لكن، في الرِّيف أتخيَّله يصدر عن شيء طبيعي ربما شلَّال ماء، أو سرب من النَّحل. أسمع أخيراً خطو اليزابيث على السَّلَّم فأشدُّ الأغطية فوق رأسي وألفُّها حول أذنيَّ كي لا أسمع وقع خطواتها. أحسست بها لدهشتي تجلس بخفَّة على حافَّة سريري. أبعد اللِّحاف قليلاً عن أذني لكنِّي لم أكشف وجهي.

تهمس اليزابيث قائلة: «أمِّي لم تكن تحبُّني أنا أيضاً». بدت لهجتها لطيفة، وفيها نفح اعتذار. تملَّكتني رغبة في اختلاس النَّظر إليها من تحت الأغطية، فالصَّوت الذي يشقُّ طريقه إلى مسامعي من تحت الغطاء مختلف تماماً عن ذلك الَّذي قرَّعني فوق المجلى حتى خيِّل إليَّ للحظة أنَّه ليس صوت اليزابيث.

«على الأقلِّ هناك قدر من التَّشابه بيننا». تستقرُّ يدها فوق ظهري بعد أن تنطق بتلكم الكلمات، فأقوِّس جسدي مبتعدة عنها دافعة إيَّاه باتِّجاه الحائط الَّذي يحدُّ جانب سريري، فتلتصق قطعة اللَّحم بوجهي. تتابع اليزابيث كلامها وهي تخبرني عن ولادة أختها الكبرى كاثرين، والسَّنوات السَّبع التَّالية الَّتي شهدت ولادة الأجنَّة الميِّتة، مجموعهم أربعة أولاد، كلُّهم ذكور.

«عندما ولدت، طلبت والدتي من الأطبّاء إبعادي عنها. أنا لا أذكر هذا، لكنَّ والدي أخبرني أنَّ أختي ذات السَّبع سنوات فقط

هي الَّتي كانت تطعمني وتحمِّمني وتغيِّر لي حتى كبرت كفاية كي أقوم بهذه الأعمال بنفسي». تسترسل اليزابيث في حديثها وهي تصف الاكتئاب الَّذي حلَّ بوالدتها وتفاني والدها في الاعتناء بها. تخبرني أنَّها حتَّى قبل أن تتعلَّم الكلام تعلَّمت أين تضع قدمها تماماً وهي تقطع الرُّدهات كي تتجنَّب صرير الأرضيَّات الخشبية المتداعية، فأمُّها لم تكن تتحمَّل الضَّجيج من أيِّ نوع كان.

أصغي إلى حديث اليزابيث. قد أغرتني العاطفة الَّتي وشَّت صوتها، فنادراً ما كان يتمُّ توجيه الحديث إليَّ على أنِّي قادرة على تفهُّم تجارب الآخرين. أبتلع لقمة من اللَّحم بينما تكمل اليزابيث: «مرض أمي كان بسببي. لم يخف أحد هذا السرَّ عنِّي. لم يرغب والداي بأنثى ثانية، فالفتيات، حسب الاعتقاد السَّائد، لا يملكن حُليمات التَّذوُّق اللَّازمة لتمييز طعم العنب النَّاضج لتحضير النَّبيذ. لكنِّي أثبتُّ أنَّهم على خطأ».

تربِّت اليزابيث على ظهري، فأعرف أنَّها أنهت سردها، لأتناول آخر لقمة من اللحم. تسألني: «هل أعجبتك قصَّة ما قبل النوم؟». بدا صوتها عالياً جداً في السُّكون الَّذي يغلِّف المنزل، وهي تدَّعي تفاؤلاً أعلم يقيناً أنَّها لا تمتلكه.

أستنشق الهواء بعد أن أخرج أنفي من تحت الأغطية، ثم أردُّ: «ليست جيدة».

تندُّ عن اليزابيث ضحكة وزفرة حادة. «أعتقد أنَّك قادرة على تخطئة أيِّ شخص أيضاً يا فيكتوريا. سلوكك محض اختيار، وهو لا يعبِّر عنك».

إن صدَّقت اليزابيث هذا حقاً، فلن يشهد مستقبلها شيئاً سوى الإحباط، هكذا خطر لي.

(٨)

أمضينا معظم النَّهار، أنا وريناتا، نعمل في صمت. كان للمحلِّ واجهة ضيِّقة لكن بمجال عمل أوسع في الخلف حيث قبعت منضدة طويلة من الخشب، وثلَّاجة واسعة. توضَّعت كراس ستّة حول الطَّاولة، فاخترت لنفسي الكرسي الأقرب إلى الباب.

وضعت ريناتا أمامي كتاباً عنوانه «أفراح مع دوَّار الشَّمس»، فخطر لي عنوان ثانوي ملائم يقول: كيف تبدأ زواجك وأنت غارق في قيم الغشِّ والمادِّيَّات. تجاهلت الكتاب وقمت بتصميم ستَّة عشر تنسيقاً للطَّاولات من ابتكاري باستخدام زهور دوَّار الشمس والزَّنبق وتجميعة من أوراق السرخس، فيما عكفت ريناتا على تنسيق باقات حفل الزَّفاف. عندما أنهتها بدأت بتصميم تمثال من الزَّهور في دلو معدني مموَّج أطول من ساقيها. كلَّما انفتح باب المحلِّ، تهرول ريناتا إلى غرفة العرض. كانت تعرف أسماء زبائنها وتنتقي لهم الأزهار بدون الرُّجوع إلى ملاحظاتهم.

عندما فرغت من مهمَّتي، وقفت أمام ريناتا أنتظر أن ترفع عينيها إليَّ. ألقت بنظرها إلى الطَّاولة حيث تصطفُّ المزهريَّات في صفٍّ مستقيم. تندُّ عنها إيماءة قبول، وتقول: «جيِّد. بل أكثر من جيِّد في الحقيقة. إنَّه مدهش. يصعب تصديق أنَّك لم تتعلَّمي هذا».

فأردُّ: «لم أتعلَّم».

«أعلـم». تقيسـني نظراتهـا بطريقـة لم تـرق لي. «حمِّليهـا عـلى الشَّـاحنة. سـأنهي عمـلي هنـا في غضـون دقيقـة». أحمـل المزهريَّـات إلى أعـلى التـلِّ، اثنتـين اثنتـين. عندمـا انتهـت ريناتـا، حملنـا المزهريَّـة الطَّويلة كلتانـا معـاً، ووضعناهـا بلطـف عـلى أرضيَّـة الشَّـاحنة الممتلئـة أساسـاً. حـين عـادت إلى المحـل أخـذت كلَّ النُّقـود الموجـودة في درج المكتـب، ثـم أغلقـت الـدرج وأقفلتـه. أنتظـر منهـا أن تدفـع لي أجـري، لكنَّهـا تدفـع إليَّ بورقـة وقلـم رصـاص بـدلاً مـن ذلـك وهـي تقـول: «سـأدفع لـك أجـرك عنـد رجوعـي، فمـكان حفـل الزَّفـاف يقـع أعـلى التـلِّ. أبـق المحـلَّ مفتوحـاً، وأخـبري زبائنـي أنَّ بمقدورهـم الدَّفـع في المـرَّة القادمـة». انتظـرت ريناتـا حتـى أومـأت بـرأسي، ثـمَّ غـادرت المحـل.

لم أكـن أعلـم مـا عـليَّ فعلـه وقـد بقيـت وحيـدة في محـلِّ الزُّهـور. أقـف لدقائـق خلـف طاولـة المحاسـبة وأنـا أتفحَّـص الدِّهـان الأخـضر المتقشِّر. بـدت حركـة الشَّـارع ضعيفـة. تمـر عائلـة دون أن تتوقَّـف ودون النَّظـر مـن خـلال الواجهـة. خطـر لي أن أفتـح البـاب وأخـرج بضـع دلاء مـن الزَّنبـق، لكنِّـي تذكَّـرت السِّـنين الَّتـي قضيتهـا وأنـا أسرق ممَّـا يتـمُّ عرضـه خـارج المحـلَّات، كـما أنَّ ريناتـا قـد لا يعجبهـا الأمـر.

بـدلاً مـن ذلـك أدخـل المشـغل وأجمـع السِّـيقان المتبقِّيـة مـن عـلى الطاولـة وأرمـي بهـا في سـلَّة المهمـلات، ثـمَّ أمسـح الطَّاولـة بخرقـة مبلولـة وأكنـس الأرض. عندمـا لم يخطـر لي شـيئ آخـر أفعلـه، أفتـح

الباب المعدني الثَّقيل للمقصورة وأنظر إلى الدَّاخل. بدا المكان معتماً وموحشاً وقد غطَّت الزُّهور الجدران. جذبني المكان إليه، ولم أكن أرغب بأكثر من حلِّ عرى البطَّانيَّة-التَّنُّورة البنِّيَّة اللَّون، وأن أستلقي بين الدِّلاء لأنام. كنت منهكة، فعلى امتداد أسبوع كامل وأنا أغفو على دفعات، إذ راحت الأصوات توقظني وتغزوني الكوابيس، أو يذهبان كلاهما معاً بنومي كلَّ فترة. كانت السَّماء دائمة البياض بسبب الأبخرة المتصاعدة من معمل الجعة والمتلاطمة فوق رأسي كما الموج. في كلِّ صباح تمرُّ عليَّ دقائق قبل أن أنتزع نفسي من الرُّؤى المرعبة والعابقة بالدُّخان المتناثر في السَّماء المعتمة مثل البخار. في رقدتي، أذكِّر نفسي أنَّني بلغت الثَّامنة عشرة من عمري، وأنِّي وحيدة، أي لم أعد طفلة، وليس لديَّ ما أخسره.

في الوقت الحالي، وفي الطُّمأنينة الَّتي يوفِّرها محلُّ الزُّهور الفارغ، أريد النَّوم. أغلق الباب خلفي وأتمدَّد على الأرض موسِّدة رأسي طرف دلو.

ما إن اتَّخذت الوضع المريح لي حتّى طرق مسامعي عبر المقصورة صوت واطئ ينادي: «ريناتا؟».

أنهض مباشرة وأمرِّر أصابعي في شعري وأمضي عابرة المقصورة وأنا أغمض عيني نصف إغماضة بسبب الضوء.

كان هناك رجل أشيب الشَّعر يستند إلى طاولة المحلِّ وهو ينقر عليها بأصابعه بنزق.

«أين ريناتا؟». يردِّد السُّؤال حين يراني.

أهزُّ رأسي وأجيبه: «إنها تسلِّم أزهاراً لحفل زفاف. هل أستطيع مساعدتك في شيء؟».

«أحتاج إلى أزهار. ما عساي أبغي من هنا سواها؟». يلوِّح بذراعه في فراغ الغرفة كما لو أنَّه يذكرني بوظيفتي. «ما سألتني ريناتا قطُّ عمَّا أريد، فما أنا بمن يفرِّق بين الزَّهر والفجل».

فأسأله: «فما المناسبة؟».

«إنه عيد الميلاد السَّادس عشر لحفيدتي. ولا يخامرني شكٌّ أنَّها لا تريد قضاءه معنا، لكنَّ والدتها تلحُّ عليها بذلك». ينتزع زهرة بيضاء من دلو أزرق ويشمُّها. «لا أتوقَع منها فعل ذلك، فتلك الفتاة قد صارت دائمة العبوس».

أستعرض بعقلي كلَّ الأزهار الموجودة في المقصورة، وأستقصي ما في غرفة العرض. هدية عيد ميلاد لفتاة عابسة: بدت كلمات العجوز كالمتاهة، لكنَّها شكَّلت تحدِّياً بذات الوقت.

أطرح عليه رأيي: «الورود البيضاء اختيار جيد كهديَّة لمراهقة. وربَّما نضيف بعضاً من زنبق الوادي، فما رأيك؟». أسحب زنبقة جرسية الشَّكل عاجيَّة اللَّون بساق طويلة.

فيردُّ: «افعلي ما ترينه مناسباً».

وأنا أرتِّب الزُّهور وألفُّها بورق بنِّي كما رأيت ريناتا تفعل،

يـراودني ذات الشـعور بـالإشراق الرُّوحـي حـين رحـت أمـرِّر زهـور الأضاليـا مـن تحـت أبـواب شريـكات السَّـكن في ذلـك الصَّبـاح الَّـذي شـهد عيـد ميـلادي الثَّامـن عـشر: متعـة المدلـول الغامـض، مـع الرِّضـا عـن النَّفـع الَّـذي تقدِّمـه. كان أمـراً طارئـاً، ومفرحـاً بالتَّأكيـد، أن يتملَّكنـي شـعور بـضرورة إخبـاره بنـوع الزُّهـور، وأن أشرح لـه معانيهـا الخفيَّـة.

أنطلـق بالـكلام محاولـة أن تكـون نـبرة صـوتي غـير متكلِّفـة وودودة، لكـنَّ الكلـمات كانـت تنحـشر في حنجـرتي بسـبب الانفعـال: «أتعلـم، البعـض يعتقـد أنَّ زنبـق الـوادي يولِّـد السَّـعادة مـن جديـد».

يقطِّـب العجـوز تعبـيراً عـن نفـاد الصَّـبر والإنـكار، فـيردُّ وهـو يهـزُّ رأسـه: «سـتكون معجـزة». أسـلِّمه الباقـة. «لا أظنُّنـي سـمعت ضحكـة تلـك البنـت مـذ بلغـت الثَّانيـة عـشر مـن عمرهـا. وأزيـدك مـن الشِّـعر بيتـاً، أشـتاق إلى ضحكتهـا».

يخـرج محفظتـه، لكنِّـي أرفـع رأسي وأقـول: «أخبرتنـي ريناتـا أنَّـه يمكنـك الدَّفـع لاحقـاً».

فـيردُّ وهـو يسـتدير ليمـضي: «حسـن. أخبريهـا أنَّ إيـرل قـد جـاء، وهـي تعـرف أيـن تجـدني». تتخضخـض الزُّهـور في دلائهـا بعـد أن يصفـق البـاب خلفـه.

حـين عـادت ريناتـا بعـد سـاعة، كنـت قـد لبَّيـت طلبـات نصـف دزِّينـة مـن الزَّبائـن، وسـجَّلت عـلى قطعـة الـورق الَّتـي أعطتنيهـا

المبيعات، وأسماء الزَّبائن، والزُّهور المستخدمة، وأصنافها، بشكل كامل. تلقي ريناتا نظرة سريعة على القائمة وتهزُّ رأسها كما لو كانت تعرف يقيناً من أتى إلى المحلِّ وما كان طلبه. تدسُّ الورقة في درج النُّقود وتخرج رزمة نقود من فئة العشرين دولاراً، وتعدُّ منها ثلاثة، ثمَّ تتوجَّه إليَّ بالكلام: «هاك، ستُّون دولاراً لقاء ستِّ ساعات عمل. أيرضيك هذا؟».

أومئ دون أن أتحرَّك. تنظر ريناتا في عينيّ وكأنَّها تنتظر منِّي أن أتكلَّم. «هل ستسأليني إن كنت سأحتاجك السَّبت القادم؟».

«هل ستحتاجين إليَّ؟».

فتردُّ: «بلى، عند الخامسة فجراً. ويوم الأحد أيضاً. لا أعرف لم قد يرغب أحدهم بالزَّواج يوم أحد في شهر تشرين الثَّاني، لكنِّي لا أسأل. عادة ما يكون هذا الوقت هو الأضعف نشاطاً من السَّنة، لكنَّني مشغولة أكثر من أيِّ وقت مضى».

«إلى الأسبوع المقبل إذن»، أودِّعها وأنا أغلق الباب بلطف، وأغادر.

بوجود النُّقود في حقيبتي بدت لي المدينة مختلفة. أتوجَّه صوب التلِّ، وأطفق أدقِّق في واجهات المحلَّات باهتمام، وأطالع لوائح الطَّعام، وأتفحَّص إيجارات الغرف في الفنادق الرَّخيصة الواقعة إلى الجنوب من ماركت. خلال مسيري، أقوم بمراجعة أحداث أوَّل يوم لي في العمل: مقصورة هادئة ملأى بالأزهار، واجهة

محلٍّ فارغة تقريباً، وربَّة عمل مباشرة، بتعاطٍ لا تعرف العاطفة إليه سبيلاً. هو العمل المثالي بالنَّسبة لي. لكنَّ أمراً واحداً فقط عكَّر عليَّ صفوي، وأعني به الجدل القصير الَّذي تبادلته مع تاجر الزُّهور. وتَّرتني فكرة أنِّي سأراه ثانية الأحد القادم، فقرَّرت الاستعداد ليوم اللِّقاء.

أترجَّل من الحافلة عند منطقة الشَّاطئ الشَّمالي. كان اللَّيل لا يزال في أوَّله، وقد هبط الضَّباب لتوِّه على منطقة التلِّ الرُّوسي فأحال مصابيح السَّيَّارات الأماميَّة والخلفيَّة إلى حلقات واهية من اللَّونين الأحمر والأصفر. رحت أمشي حتَّى وصلت إلى سكن شبابيٍّ قذر لكن رخيص. أفرش نقودي أمام سيِّدة تجلس إلى طاولة مكتب، وأنتظر.

تسألني: «كم ليلة ستبقين؟».

أومئ إلى النقود الموجودة على المكتب: «كم ليلة تتيح لي؟».

فتردُّ: «سأمنحك أربع ليالي، فقط لأنَّنا لسنا في الموسم». تملأ وصلاً وتشير إلى الرُّدهة. «مقام الفتيات يقع على اليمين».

لأربعة أيَّام استطعت النَّوم والاستحمام وأكل بقايا وجبات السُّياح في جادَّة كولومبس. وعندما انتهت أيَّام إقامتي في السَّكن، عدت ثانية إلى المنتزه، والقلق يتناهبني بسبب الفتى الضَّخم والعشرات ممَّن هم على شاكلته. لكنِّي كنت مدركة للخيارات القليلة المتاحة لي. أرتِّب حديقتي وأنتظر عطلة نهاية الأسبوع.

بقيت مستيقظة يوم الجمعة خشية أن تطول غفوتي فأفوّت موعد ريناتا. رحت أطوف في الشَّوارع اللَّيلة بأكملها، وكلَّما داهمني الإعياء، أذرع المكان خارج النَّادي اللَّيلي عند أسفل التلِّ جيئة وذهاباً، فيما تساير حركة جفنيّ المتهدِّلين إيقاعات الموسيقى الصَّادرة عنه. عندما ظهرت سيَّارة ريناتا كنت مستندة إلى الباب الزُّجاجي المقفل للمحلِّ في انتظارها.

بالكاد خفَّفت سرعتها كي أقفز داخل الشَّاحنة، لتستدير قبل أن أغلق الباب.

تبادرني بالكلام: «كان عليَّ أن أطلب منك انتظاري عند الرَّابعة، لكنِّي لم أراجع سجلَّ الطَّلبات. نحتاج اليوم زهوراً تكفي أربعين طاولة، والمدعوون إلى حفل الزَّفاف أكثر من خمسة وعشرين شخصاً. منذا الَّذي يقيم حفل زفاف بوجود عشرين وصيفة؟». لم أستطع التَخمين إن كانت توجِّه سؤالها إليَّ أم أنَّها تطرح سؤالاً تهكُّميَّاً وحسب. أبقى على صمتي، فتضيف: «إن تزوَّجت لن أدعو اثني عشر شخصاً حتَّى. على الأقل ليس في هذه البلدة».

أناجي نفسي **أمَّا أنا فلن أدعو أحداً، لا في هذه البلد ولا في غيرها**. تبطئ سرعتها عند الدَّوَّار لتتذكَّر المنعطف وتدخله.

تخبرني قائلة: «عرّج عليَّ إيرل، وطلب منِّي إخبارك بسعادة حفيدته. قال إنَّه من المهمِّ أن أعبِّر باستخدام كلمة «سعادة» وليس بأيَّة كلمة أخرى. وأكَّد أنَّك قمت بإنجاز ملفت عبر تلك الزُّهور حتَّى نبشت السَّعادة من دواخلها».

أبتسم وأسرِّح نظري خارج النَّافذة، بعيداً عن ريناتا. قد تذكَّر إذن. ولدهشتي، لم أندم على قراري إذ بحت بسرِّي، لكنَّني لم أرد أن أخبر ريناتا به، فأردُّ: «لا أعرف عمَّ يتحدَّث».

تنقِّل نظرها بين الطَّريق ووجهي فالطَّريق ثالية، وقد رفعت أحد الحاجبين دلالة على الاستغراب. بعد فترة من الصَّمت، تتابع كلامها: «حسن، إيرل عجوز خفيف الظِّل، محتدٌّ معظم الوقت، لكن، تعتريه أحياناً نعومة لا تتوقَّعينها بحال من الأحوال. أخبرني البارحة أنَّه قد شاخ كثيراً ليتجاهل اللهَّ ويلجأ إلى غيره».

«ما الَّذي عناه بهذا القول؟».

«أظنُّه يعتقد أنَّك استخرت الله قبل أن تختاري تلك الزُّهور في الأسبوع الماضي».

أنخر مستهجنة.

«حسن، أفهمك. لكنَّه أخبرني أنَّه سيأتي اليوم، ويريدك أن تنتقي زهوراً لزوجته».

تعتريني رعشة إزاء المهمَّة الجديدة الَّتي كُلِّفت بها للتوِّ.

أستفسر عن المرأة: «كيف تبدو؟».

تجيبني ريناتا وهي تهزُّ رأسها: «هادئة. لا أعرف عنها أكثر من هذا. أخبرني إيرل يوماً أنَّها كانت شاعرة، لكنَّها نادراً ما تتحدَّث

الآن، وقد أقلعت عن الكتابة تماماً. هو يشتري لها الزُّهور كلَّ أسبوع تقريباً. أظنُّه يفتقد ما كانت عليه يوماً».

تخطر لي زهرة البفتة، وتعني **الذِّكريات الدَّافئة**. من الصَّعب تنسيقها في باقة، لكنَّه ليس بالأمر المستحيل. سأُلفُّها بنبتة ساقها طويلة وقويَّة.

لم يكن السُّوق مزدحماً كما كان في الأسبوع المنصرم، لكنَّ ريناتا تقتحمه وكأنَّ آخر باقة من الزَّهر معروضة للبيع في مزاد. كنَّا بحاجة خمس عشرة دزِّينة من الزُّهور البرتقاليَّة، وكمِّيَّة تفوق ما يمكن لدلائي احتواءه من الزَّنبق الوردي. أحمل الزُّهور إلى الخارج وأعود لأخذ كمِّية ثانية. عندما تمَّ تأمين كلِّ شيء في الشَّاحنة، أعود أدراجي إلى البناء الصَّاخب بحثاً عن ريناتا.

وجدتها تقف عند المحلِّ الَّذي أحاول تجنُّبه، وهي تجادل بشأن ثمن أضمومة من زهور الحوذان ورديَّة اللَّون. على لوح أسود صغير، وبشكل بالكاد يقرأ، كتب بخطٍّ رديء سعر الجملة أربعة دولارات، فيما هي تلوِّح بورقة من فئة الدولار من فوق أصص الزُّهور. لم ينمَّ عن البائع أيُّ ردِّ فعل، حتَّى أنَّه لم ينظر في اتِّجاهها، بل راح يلاحقني بنظراته وأنا أعبر الممرَّ إلى أن وقفت أمامه.

أزعجني الموقف الَّذي حصل بيننا في الأسبوع الماضي، لذا مشَّطت منطقة ميدان ماكنلي حتَّى عثرت على الزَّهرة المناسبة

لتبديد اهتمامه غير المبرَّر. نزعت حقيبتي عن ظهري وسحبت منها ساقاً مورقة.

«الورديَّة»، أقولها وأضع الفسيلة على طاولة العرض الخشبيَّة أمامه. لم يكن عنقود الأكمام القرمزيَّة قد تفتَّح بعد، فيما البراعم المتَّجهة إليه ملفوفة بإحكام رغم سمِّيَّتها. كان فحوى الرِّسالة يقول: **احترس.**

يتملَّى في النَّبتة والتَّحذير الَّذي يسكن عينيَّ. وحين رنا بنظره بعيداً، أيقنت أنَّه فهم أنَّ الزَّهرة ليست هديَّة. يلتقطها بالإبهام والسَّبَّابة ويرميها في دلو القمامة.

كانت ريناتا تواصل مفاصلتها فيسكتها البائع بحركة سريعة من يده. لها أن تحصل على الزَّهور، كذا يعلمها بإيماءة متبرِّماً، وملوِّحاً لها كي تنصرف.

تستدير ريناتا كي تمضي فأتبعها.

عندما نصبح بعيدتين عن مجال التقاط السَّمع تسألني ريناتا: «ما كان ذلك يا فيكتوريا؟». أهزُّ كتفيّ وأتابع مسيري. تنقل ريناتا نظرها إلى المحلِّ، فإليَّ، ثمَّ ترجع بصرها إلى المحلِّ ثانية، والحيرة تلوِّن نظراتها.

في محاولة لتغيير الموضوع أخبرها: «أنا بحاجة للبفتة. لا يبيعونها مقصوصة السَّاق فهي نبات زاحف».

«أعـرف البفتـة»، تـردُّ عـليَّ وهـي تومـىء إلى جـدار في الخلـف حيـث تتوضَّـع نباتـات في دلاء بجـذور سـليمة. تسـلِّمني رزمـة مـن النُّقـود دون أن تطـرح أيَّ سـؤال آخـر.

عملنـا، أنـا وريناتـا، بشـكل محمـوم طـوال الصَّبـاح. كان الزَّفـاف في منطقـة بالـو التـو، وهـي ضاحيـة ثريَّـة تقـع جنـوب المدينـة عـلى مسـافة تبلـغ حـوالى خمسـة وثلاثـين ميلاً، فتوجَّـب عـلى ريناتـا القيـام برحلتـين كـي تسـلِّم الزُّهـور جميعهـا. تنقـل نصـف الكمِّيَّـة فيـما كنـت أجهِّـز النِّصـف الثـاني. أبقيـت البـاب مغلقـاً ومقفـلاً أثنـاء غيابهـا، وأطفـأت الضَّـوء في غرفـة العـرض، فيصطـفُّ الزَّبائـن في الخـارج في طابـور ينتظـرون عودتهـا، أمَّـا أنـا فكنـت أرفـل بالطُّمأنينـة في عتمـة العزلـة.

عندمـا عـادت كنـت مشـغولة بتفحُّـص نتاجـي، أنقـف غبـار الطَّلـع، وأشـذِّب المظهـر المنفِّـر لورقـة عارضـة بمقـصٍّ حـاد. تنظـر ريناتـا إلى باقـاتي وتومـئ إلى طابـور المنتظريـن خلفهـا.

«سـأبدأ بمتطلَّبـات حفـل الزَّفـاف، اعتـن أنـت بأمـور المحـلِّ». تسـلِّمني قائمـة أسـعار مطبوعـة، ومفتاحـاً ذهبيَّـاً صغـيراً لصنـدوق النُّقـود، وتنبِّهنـي: «إيَّـاك أن يخطـر لـك لثانيـة أنَّنـي لا أعـرف كـم مـن المـال هنـاك».

كان إيـرل قـد صـار عنـد الطَّاولـة، وهـو يلـوِّح لي، فأتوجَّـه إلى حيـث يقـف.

يخبرني بطلبه: «من أجل زوجتي. ألم تعلمك ريناتا؟ لديَّ بضع دقائق وحسب، وأريدك أن تنتقي لها شيئاً يجعلها سعيدة».

«سعيدة؟»، أتساءل وأنا أطوف بناظري في الزُّهور الموجودة في صالة العرض، فأشعر بخيبة أمل. «هلَّا أوضحت أكثر؟».

يرفع إيرل رأسه ويفكر لبرهة. «أتعلمين، وأنا أقلِّب الأمر في فكري، اكتشفت أنَّها لم تكن امرأة سعيدة قط»، يضحك لنفسه. «لكنَّها كانت شغوفة، وذكيَّة، ومبالية، ودائماً ما كان لها رأيها المستقلَّ، حتَّى في الأمور الَّتي لا تفقه فيها. وأنا أفتقد ذلك».

هو ذا الطَّلب الذي تجهَّزت له، فأجيبه «أفهمك»، وأباشر العمل. أشدُّ تفرُّعات البفتة عند الجذور حتَّى تتدلَّى على شكل جدائل طويلة ورخوة، وأمسك دزِّينة من الأقحوان المتسلِّق النَّاصع البياض وألفُّ البفتة بإحكام حول قاعدة الأقحوان كما نفعل بالشَّريط، ثمَّ أستخدم سلكاً رفيعاً لصنع أشكال زخرفية متتالية حول البروز المتعدِّد الطَّبقات للأقحوان من الزُّهور الزَّاحفة المورقة. كانت النَّتيجة تشبه الألعاب الناريَّة، مذهلة أخَّاذة.

«يا سلام. إنجاز سيترك أثراً ما بالتأكيد»، يؤكِّد إيرل وأنا أسلِّمه الزُّهور. يعطيني عشرين دولاراً ويقول: «احتفظي بالباقي يا عزيزتي». أتأكَّد من السِّعر المدرج في القائمة الَّتي سلَّمتها لي ريناتا، وأضع الدولارات في الدرج، ثم أسحب ورقة من فئة الخمسة دولارات لي.

أردُّ عليه: «شكراً لك».

فيصيح إيرل: «أراك الأسبوع المقبل».

لأجيبه: «أرجو ذلك»، لكنَّه كان قد خرج من الباب ليصفقه خلفه مغلقاً إيَّاه.

كان المحلُّ يعجُّ بالزَّبائن. أنتقل إلى الزَّبون التالي في الصَّفِّ بكل اهتمام. أنسِّق زهوراً وزنابق، أقحواناً من كلِّ الألوان، وأسلِّم باقات إلى أزواج، ونساء عجائز، ومراهقين تمَّ إرسالهم في مهمَّات خاصَّة. أثناء انشغالي، كنت أفكِّر بزوجة إيرل، وأحاول أن أرسم صورة للمرأة الَّتي كانت شغوفاً يوماً ما بوجهها المتعب والمنعزل واللَّامبالي. أتراها ستظهر أيَّ ردٍّ فعل على باقة الأقحوان والبفتة، **الحقيقة و الذِّكرى الدَّافئة**؟. يخالجني شعور باليقين فأتخيَّل ملامح الارتياح والعرفان ترتسم على محيَّا إيرل وهو يغلي الماء كي يحضِّر الشاي، ويستثير المرأة المتعنِّتة الَّتي يفتقدها، لتدخل في نقاش عن السِّياسة أو الشِّعر. تسرِّع الصُّورة الذِّهنيَّة تلك أصابعي، وتجعل حركاتي أكثر رشاقة وأنا أعمل.

عندما فرغ المحلُّ من الزَّبائن، كانت ريناتا قد انتهت من متعلِّقات حفل الزَّفاف، فتلقي بأوامرها إليَّ: «حمِّلي الشاحنة».

أحمل ما قدرت على حمله، وأنقله إلى الشَّاحنة بالسُّرعة الممكنة. كانت السَّاعة قد قاربت على الثَّانية، فتصعد ريناتا خلف المقود

وهي تملي عليَّ بتعليماتها بأن أبقي المحلَّ مفتوحاً حتَّى ترجع، فلن تغيب لأكثر من ساعة.

تطلَّب التَّسليم وقتاً أطول مما توقَّعت ريناتا. عند الخامسة والنِّصف تندفع داخلة إلى المحلِّ وهي تنفث غضبها على الزُّهور الَّتي يضعها العريس في عروة جاكيته، وربطات العنق الفراشية. بقيت هادئة، أنتظرها كي تدفع لي أجري لأمضي. لقد عملت لاثنتي عشرة ساعة ونصف بلا توقُّف، وأنا أحلم بغرفة تقفل عليَّ والاستحمام إن تمكنت. لكنَّ ريناتا لم تخرج محفظتها.

عندما انتهى حديث الذَّات المحبطة الَّذي أدارته، تفتح صندوق النُّقود وتبدأ تفتِّش بين الفواتير المكرمشة والصُّكوك والوصولات، لتقول: «ليس معي نقد يكفي. سأتوقَّف عند المصرف في طريقي إلى الغداء. رافقيني، فسنتحدَّث بشأن العمل».

كنت أفضِّل أن آخذ مالها وأهرب في العتمة، لكنَّني تبعتها إلى الخارج بكلِّ حال وأنا أدرك هشاشة موقفي.

تسألني: «أنتناول الطَّعام المكسيكي؟».

«بلى».

فتلفُّ باتِّجاه محلَّة ميشن.

تسألني ريناتا: «أنت لا تحبِّين التحدُّث كثيراً، أليس كذلك؟».

أهزُّ رأسي أن بلى.

فتكمل كلامها: «بداية لم أظنَّك من أهل البكور. أبناء إخوتي وأخواتي لا يباشرون أعمالهم قبل الظَّهيرة، إنَّما بعدها عليك أن تتوسَّلي إلى الله كي ينعم عليك بدقيقة من صمت».

تنظر إليَّ وكأنَّها تنتظر إجابة منِّي، فيكون ردِّي: «أوه».

فتضحك. «لدي دزِّينة من أبناء الأخوة والأخوات، لكنِّي نادراً ما أراهم. أعلم أنَّه عليَّ أن أعمل على ذلك، لكنِّي أتكاسل».

«صحيح؟».

تردُّ: «بلى. أنا أحبُّهم لكنِّي لا أستطيع التَّعامل معهم إلّا بشكل رسمي. كانت أمِّي دائماً ما تضحك منِّي وتقول إنَّني لم أرث جينات الأمومة منها».

فأسألها: «فما تلك؟».

«تعلمين، إنَّه ذلك الجزء من التَّكوين البيولوجي الَّذي يجعل المرأة ترقُّ عندما ترى رضيعاً في الشَّارع. لم يعترني ذلك الشَّعور في حياتي».

توقف ريناتا سيَّارتها أمام مطعم مكسيكي، لنجد امرأتين تناغشان طفلاً في عربة قرب الباب، فبدا كأنَّ الواقعة تثبت وجهة نظرها. تخاطبني: «اذهبي واطلبي ما تريدين. سأدفع الحساب حين أرجع من المصرف».

بقينا أنا وريناتا نأكل حتَّى السَّاعة الثَّامنة مساء. كان الوقت

كافياً لها كي تتناول وجبة «تاكو» وتحتسي ثلاث عبوات كبيرة من المياه الغازيَّة، كما كان كافياً لي لأتناول لفافة من الدَّجاج، ورغيفاً محشوَّاً باللَّحم والجبن، وبعضاً من صلصة الأفوكادو، إضافة إلى ثلاث عبوات من رقائق البطاطا. كانت ريناتا تتابعني وأنا آكل، فتعبر قسماتها ابتسامة رضا. تكسر حاجز الصَّمت الَّذي يلفُّنا بقصص عن طفولتها في روسيا، وهي تصف حال مجموعة من الإخوة يقطعون المحيط باتِّجاه أميركا.

عندما انتهيت من الأكل أسندت ظهري، وأنا أشعر بثقل الطَّعام في معدتي. نسيت المقدار الَّذي ينبغي أن أستهلكه، والارتخاء التَّام الَّذي يصيبني عندما أبالغ في الأكل.

تبادرني ريناتا بالسُّؤال: «والآن، ما السِّرُّ الَّذي تخفينه؟».

أغمض عينيّ نصف إغماضة مستفسرة، وأشدُّ كتفيّ. فتكمل سؤالها: «كيف تبقين نحيفة وأنت تأكلين هكذا؟».

أقول في نفسي بسيطة. جرِّبي أن تكوني مفلسة، ووحيدة وشريدة، تمضين الأسابيع وأنت تعتاشين على ما يفضل عن الآخرين، أو لا تتناولين شيئاً مطلقاً.

تتحدَّث لتبدِّد الصَّمت وكأنَّها لا تريد سماع إجابتي، أو أنَّها اكتشفتها بالفعل، فتقول: «دايت كولا. هذا هو سرِّي. كافيين بلا سعرات. وهذا سبب آخر لرفضي الخلفة. أيُّ طفل سينمو على ما ذكرت؟».

فأرد: «طفل جائع».

تبتسم ريناتا: «شاهدتك اليوم هناك وأنت تتعاملين مع إيرل. قد غادر مسروراً. ولسوف يعود، أسبوعاً بعد أسبوع، يسأل عنك، حسبما يتراءى لي». أتساءل في داخلي إن كنت سأتواجد؟ أتراه أسلوب ريناتا لتعرض عليَّ عملاً دائماً؟.

تكمل كلامها: «بهذا الأسلوب أسَّست لعملي. أن أعرف ما يريده زبوني حتَّى قبل أن يطلبه. أتوقَّعه، أنسِّق الزُّهور قبل أن يصل، وأخمِّن الأيَّام الَّتي سيكون فيها في عجلة من أمره، والأيَّام الَّتي يريد فيها أن يتملَّى ويتحدَّث. أظنُّك تملكين هذه الملكة في دواخلك، ذلك النَّوع من الحدس، إذا رغبت بذلك».

أرد بسرعة: «أرغب فعلاً».

تراودني كلمات ميريديث حينها في السَّكن المؤقَّت والَّتي لطالما تكرَّرت لمئات المرَّات قبلاً، «عليك أن ترغبي به». عليك أن تودِّي أن تصبحي ابنة، أختاً، صديقة، طالبة. لقد أخبرتني بهذا مراراً وتكراراً. ولم أكن أريد أيَّاً ممَّا ذكرت، ولم تغيِّر أيٌّ من وعود ميريديث، أو تهديداتها، أو رِشاها، قناعتي. لكن، فجأة، أدركت أنَّني أريد أن أكون منسِّقة زهور، وأنَّني أريد أن أمضي حياتي وأنا أنتقي الزُّهور للغرباء المثاليين، وأن أمضي أيامي بمثابرة وأنا أناوب التنقُّل ما بين برودة المقصورة وطقَّة صندوق الدَّفع.

تردُّ ريناتا: « سأدفع لك سرَّاً إذن، كلَّ يوم أحد. مائتا دولار

لقاء عشرين ساعة عمل، وتعملين كلَّما طلبت منك ذلك. اتفقنا؟».

أومئ بالموافقة، فتمدُّ ريناتا يدها وأصافحها.

في الصَّباح التَّالي، كانت ريناتا تنتظرني وهي مستندة إلى الأبواب الزجاجيَّة لسوق الزَّهور. أنظر في ساعتي، كنا كلتانا مبكِّرتين. زفاف ذلك اليوم كان صغيراً، بلا حفل، والمدعوُّون أقلُّ من خمسين، موزَعون على منضدتين طويلتين. نتسكَّع معاً نبحث عن تدرجَّات اللَّون الأصفر. كان ذلك طلب العروس الوحيد، حسبما أخبرتني ريناتا. أرادت أن تعكس أطياف الزُّهور سنا الشَّمس، في حال أنها أمطرت. بدت السَّماء جافَّة لكن مكفهرَّة. كان الأفضل لها أن تتزوَّج في حزيران.

«محلُّه يغلق أيَّام الآحاد»، تتحدَّث ريناتا ونحن نمشي وتشير باتِّجاه التَّاجر الغامض.

لكن، مع اقترابنا من محلِّه الفارغ، يظهر شبح مقنَّع، يجلس على مقعد ويستند إلى الجدار. يقف حين يراني منحنية فوق الدِّلاء الفارغة، وقد انعكست صورته في دوائر المياه الرَّاكدة. يخرج شيئاً أخضر اللَّون طويلاً من جيب قميصه، ويرفعه.

تلقي ريناتا عليه السَّلام ونحن نمرُّ به. سلَّمت بوجوده فقط عبر مدِّ يدي لتناول ما أحضره لي، وأبقيت ناظري مركَّزاً على الأرض. عند زاوية شعرت فيها بالأمان، وبعيداً عن الأنظار،

أطالـع مـا في يـدي: أوراق بيضويَّـة الشَّـكل، لونهـا بـين الأخـضر والرَّمـادي، تبـزغ مـن كتلـة مـن أغصـان جيريَّـة اللَّـون، وكـرات شـفافة تتـدلَّى عـن الأغصـان كقطـرات المطـر. كانـت الفسـيلة تناسـب تمامـاً حجـم راحـة يـدي، فيـما تخـز الأوراق الطَّريَّـة حيـث مسَّـت.

إنَّه نبات الدَّبق. **سأتجاوز كلَّ العوائق**، هكذا هو مدلوله.

(٩)

التأمت الجروح ليلاً فالتصقت بالملاءات القطنية الرَّقيقة. حين استيقظت، لم يتطلَّب الأمر منِّي وقتاً طويلاً حتَّى أحدِّد مكان الألم في جسدي، لكنَّه تطَّلب وقتاً أطول حتَّى استحضرت سبب الإصابة. أغلق عينيّ بشدَّة وأنا أترقَّب، فتداهمني ذكرى الأحداث كلِّها دفعة واحدة: الأشواك، والملعقة، والرِّحلة الطَّويلة، واليزابيث. أسحب يديّ من تحت الغطاء بعنف وسرعة، وأبدأ بتفحُّص راحتيَّ. كانت الجروح قد انفتحت مجدداً، وراح الدَّم ينزُّ منها.

لا يزال الوقت مبكِّراً، والعتمة طاغية. أتحسَّس طريقي وأنا أنزل إلى الصَّالة لأنتقل منها إلى الحمَّام. كانت راحتاي تخلِّفان وراءهما خطوطاً من الدَّم على الجدران حيث أتلمَّسها. في الحمَّام، كانت اليزابيث قد نهضت فعلاً وارتدت ملابسها. كانت جالسة إلى طاولة الزِّينة تحدِّق في المرآة وكأنَّها ستضع مساحيق التَّجميل، لكنَّ شيئاً منها لم يكن على الطَّاولة، اللَّهمَّ إلَّا برطماناً من المرهم نصفه فارغ. تغمس بنصرها في المرهم، بظفره المنبسط والقصير، وتدعك به أسفل عينيها البنِّيَّتين وصولاً إلى عظم الوجنة البارز، لتنزل به من ثمَّ إلى قصبة أنفها المستقيمة. لم تغز التَّجاعيد بشرة

اليزابيث الَّتي تورَّدت بفعل حرارة الصَّيف العالية، بل إنَّني لأجزم أنَّها أكثر صباً مما تبدو عليه في قميصها ذي الياقة العالية وشعرها المربوط بإحكام وقد فرقته نصفين.

التفتت عندما رأتني فانعكست ملامحها الجانبية الحادَّة في المرآة.

تسألني: «هل نمت جيداً؟».

أخطو إلى الأمام وأنا أمدُّ يديَّ قريباً جداً من وجهها فتضطَّر إلى إرجاع ظهرها إلى الخلف كي تستطيع التَّركيز. تشهق بقوَّة وتقول: «لم لم تعلميني بالأمر اللَّيلة الماضية؟».

أهزُّ كتفيَّ باستهجان.

تتنهَّد اليزابيث وتقول: «حسناً، هاتي يديك. لا أريدهما أن تتقرّحا».

تربِّت على حضنها كي أجلس، فأتراجع. تسحب وعاء صغيراً من تحت الحوض، وتملؤه بالبيروكسيد، وتمسك كفيّ وتغمسهما واحداً واحداً في المستحضر. تطالع وجهي كي تتابع تعابير الألم وهي تعلوه، لكنَّني رحت أكزُّ على أسناني وأبقيت وجهي جامداً تماماً. بدت الجروح بيضاء سطحية. تفرغ اليزابيث الوعاء وتعيد ملأه لتغمر يديَّ فيه مرة أخرى.

تصرِّح اليزابيث قائلة: «لن أقبل أن تفرِّطي بأيِّ شيء موجود

هنا، لكن، حين لم تستطيعي العثور على الملعقة بعد بحثك الحثيث عنها، كنت سأتقبَّل منك اعتذاراً صادقاً». بدت نبرتها واثقة ومباشرة، فأخذت أتساءل عمَّا إذا كانت نبرتها اللَّطيفة ليلة الأمس مجرد حلم راودني وحسب، بسبب التَّشوُّش الَّذي يصيب المرء عند استيقاظه في الصَّباح الباكر.

تغمس كفَّاي مرة أخرى، وهي تتابع ظهور الفقاقيع البيضاء الصَّغيرة للمرَّة الثَّالثة، ثمَّ تشطف يداي بالماء البارد وتجفِّفهما بفوطة بيضاء نظيفة. بدت القطوع الصَّغيرة عميقة ومفرَّغة كما لو أنَّ البيروكسيد قد تسبَّب في تآكل اللَّحم على شكل دوائر تامَّة. أخذت تلفُّ معصميَّ بضماد أبيض، ومنهما انتقلت ببطء إلى أصابعي.

تحدِّثني اليزابيث وتقول: «لعلمك، عندما كنت في سنِّ السَّادسة، تيقَّنت أنَّ الطَّريقة الوحيدة لإخراج أمي من سريرها كان التَّمثيل. كان سلوكي منكراً لدرجة كانت تجعلها تقوم لتعاقبني. وعندما صرت في العاشرة من عمري، بلغ يأسها منِّي أن أرسلتني إلى مدرسة داخلية. لكنَّ الأمور لن تجري معك هكذا. مهما فعلت لن أبعدك عنِّي، أيَّاً كان سلوكك. لذا، فبإمكانك متابعة تجريبي، ولك أن تطوِّحي بأوعية أمِّي الفضِّيَّة في أرجاء المطبخ، إن كان ذلك يرضيك، لكن، عليك أن تعرفي أنَّ ردَّة فعلي لن تتغيَّر أبداً: سأظلُّ أحبُّك، وسأحافظ عليك. فهمت؟».

أنظر إلى اليزابيث والرِّيبة تأخذ منِّي كلَّ مأخذ، كما ضاق نَفَسي

من بخار الحمَّام. ما حدث كان عصيّاً على فهمي. فحديثها، وهي تتصدَّى للأمر بعزم، بدا إجراءاً شكلياً لا عهد لي به قط، بجمله الحاسمة إنَّما المفكَّكة. لكن، خلف كلماتها تتوارى لطافة يصعب التنبُّؤ بها. ولمستها أيضاً بدت مختلفة، كما دقَّتها في تنظيف يداي، دونما اللُّجوء إلى إثقال كاهلي بالمنّ الصَّامت الَّذي لوَّن أفعال كلِّ أمَّهاتي الرَّاعيات. لهذا لم أطمئنَّ إلى الوضع.

يسود الصَّمت بيننا. تدسُّ اليزابيث خصلة من الشَّعر وراء أذني وتنظر عميقاً في عينيَّ بحثاً عن الرَّد.

أجيب في النِّهاية: «اتفقنا»، فقد أدركت أنَّها الطَّريقة الأسرع لحسم النِّقاش والتَّخلُّص من وهج الحمَّام.

تنفرج أسارير اليزابيث، وتقول: «هيَّا بنا إذن. اليوم هو الأحَّد. وفي يوم الأحَّد نذهب إلى سوق المزارعين».

تدير جسدي وتعود بي إلى غرفة النَّوم. تخرج يديَّ المضمَّدتين من رداء النوم وتلبسني ثوباً صيفياً أبيض فضفاضاً. في الطَّابق السُّفلي، تطهو بيضاً مخفوقاً وتطعمني منه لقيمات بواسطة ملعقة تماثل في الشَّكل تلك الَّتي طوَّحت بها عبر الغرفة في اللَّيلة الماضية. أخذت أمضغ الطَّعام وأبتلعه، بحسب التَّعليمات، متابعة محاولتي في موازنة نبرَتي اليزابيث المتناقضتين، وأفعالها المتقلِّبة. لم تفتح أيَّ نقاش على الفطور، بل تابعت ترحيل البيض من الملعقة إلى فمي ومنه إلى بلعومي وحسب. عندما أنهت إطعامي، تناولت صحناً

صغيراً من البيض حضَّرته لنفسها، ثم غسلت ونشَّفت الصُّحون وحملتها بعيداً، لتسألني بعدها: «هل أنت جاهزة؟».

فأرفع كتفيَّ.

لدى خروجنا، نتجاوز السَّاحة المفروشة بالحصى لتساعدني بعدها على الدُّخول إلى شاحنتها الرَّمادية الصغيرة والقديمة. كان التَّنجيد البلاستيكي الشَّفاف قد تقشَّر عن الحافَّة المدوَّرة، كما اختفت أحزمة الأمان. تتخبَّط الشَّاحنة على الطَّريق فتثير زوبعة من الغبار والرِّياح ودخان العادم على جانبي المقصورة. تقود اليزابيث لأقلَّ من دقيقة قبل أن تلفَّ باتِّجاه ما بدا لي سابقاً ساحة توقُّف فارغة عندما مررت بها وقد أقلَّتني سيَّارة ميريديث. لكنَّها الآن ممتلئة بالشَّاحنات، ومنصَّات عرض الفواكه، والعائلات الَّتي تتسكَّع بين الأجنحة جيئة وذهاباً.

أخذت اليزابيث تنتقل من منصَّة إلى منصَّة وكأنَّها نسيت وجودي، وتقوم بدفع النُّقود لقاء أكياس مثقلة بالأغراض: فاصولياء مخطَّطة بالأبيض والوردي، يقطين ضارب إلى الصُّفرة بأعناق طويلة، بطاطا أرجوانية مختلطة بالأصفر والأحمر. وفيما كانت منشغلة بدفع ثمن كيس من الدُّراق، اختطفت بأسناني عنقود عنب أخضر من فوق منضدة غصَّت بالعناقيد.

«من فضلك»، يصيح رجل قصير ملتحي لم أنتبه إليه، ويتابع: « هاك عيِّنة. إنَّه لذيذ. لقد نضج بشكل رائع». يقتطع عنقوداً من العنب ويوسِّده يديَّ المضمَّدتين.

«قولي شكراً»، تنكزني اليزابيث، لكنَّ فمي كان ملآناً بحبَّات العنب.

تشتري اليزابيث ثلاثة أرطال من العنب، وستَّ حبَّات من الخوخ، وكيساً من المشمش المجفَّف.

نجلس سويَّة على مقعد قبالة حقل طويل يغطِّيه العشب. تمسك بحبَّة من الخوخ الأصفر وتقرِّبها من فمي. أميل إلى الأمام وأنهشها من يدها، فيتقاطر عصيرها من ذقني ومنها إلى ثوبي.

عندما لم يتبقَّ إلَّا البذرة، تطوِّح اليزابيث بها إلى الحقل. تحدِّق في الطَّرف البعيد من السُّوق، ثمَّ تسألني: «أترين منصَّة عرض الزُّهور هناك، آخر واحدة في الصَّف؟». أومئ أن نعم. كان هناك فتى يجلس على الأرضيَّة المكشوفة لشاحنة صغيرة وقد انتعل جزمة ثقيلة تتدلَّى فوق الأسفلت. وعلى طاولة أمامه توضَّعت الزُّهور وقد لُفَّت بإحكام على شكل باقات.

تتابع اليزابيث كلامها: «هذه منصَّة أختي. أترين الصَّبي؟ يبدو وكأنَّه يقترب من سنِّ الشَّباب. إنَّه ابن أختي، غرانت. لم نلتق أبداً».

«ماذا؟ ولم؟»، أصيح مندهشة، وقد أحسست من قصَّة اليزابيث الَّتي روتها لي قبل النَّوم أنَّ الشَّقيقتين كانتا على خصام.

«إنَّها قصَّة طويلة. لم تتحدَّث إحدانا إلى الأخرى منذ خمسة

عشر عاماً إلَّا عندما تقاسمنا الإرث بعد وفاة والديّ. أخذت كاثرين مزرعة الزُّهور، واحتفظت أنا بكرم العنب». يقفز الفتى عن ظهر الشَّاحنة ليبيع زبوناً. يتهدَّل شعره البنِّي الطَّويل على وجهه، فيزيحه عن عينيه قبل أن يصافح رجلاً عجوزاً. كان بنطاله قصيراً بشكل ملفت، فيما بدت لي أطرافه الطَّويلة والنَّحيلة عامل الشَّبه الوحيد بينه وبين اليزابيث، آخذة بالحسبان المسافة الَّتي تفصل بين مكان جلستنا وبينه. بدا أنَّه يدير منصَّة الزُّهور لوحده، فاستغربت عدم وجود كاثرين هناك.

«الغريب في الأمر أنَّني اليوم، ولأوَّل مرَّة منذ خمسة عشر عاماً، أفتقدها»، تخبرني اليزابيث وهي تتابع تحرُّكات الفتي بعينيها.

يرمي الفتى بالباقة المتبقيَّة إلى زوجين كانا يمرَّان به، فتلتفت اليزابيث إليَّ، وتزحف ذراعها إلى ظهري وتقرِّبني إلى حيث مجلسها على المقعد. أتلوَّى لأبتعد عنها لكنَّها تتشبَّث بي وتبقيني ساكنة.

(١٠)

مكتبة
t.me/t_pdf

أمـدِّد زهـرة الدَّبـق فـوق عظـام صـدري وأتأمَّـل في ترتيبهـا غـير المنتظـم. مـذ أدركـت المعنـى الَّـذي أراده الغريـب مـن ردِّه المسـتلقي فـوق راحـة يـدي لم ترجـع ضربـات قلبـي، ولا تنفُّسي، إلى طبيعتهـم.

لا أعـي مـا فعلـت بـدلاء الزُّهـور الصَّفـراء. لا بـد أنَّني فعلـت شـيئاً مـا بهـا، عـلى الرَّغـم مـن كلِّ شيء، لأنَّهـا، كانـت قـد اسـتقرَّت عـلى ظهـر شـاحنة ريناتـا بحلـول الظَّهـيرة، فبـدت كباقـات مـن أشـعَّة الشَّـمس تتراكـض عـلى الطَّريـق السَّريـع لتـشرق في زفـاف إحداهـنَّ والشِّـتاء يـدقُّ الأبـواب.

أسـتلقي عـلى الطَّاولـة إذ كنـت لوحـدي. طلبـت منِّـي ريناتـا إبقـاء المحـلِّ مفتوحـاً، لكـنَّ أحـداً لم يـأت. عـادة مـا تغلـق المحـلَّ أيَّام الآحـاد، ولهـذا أبقيت المحلَّ مفتوحـاً، لكنِّي أطفـأت أنـواره. تقنيـاً، لم أعـص أمـر ريناتـا، لكنِّـي، فعليـاً، لم أكـن أجتـذب الزَّبائـن أيضـاً.

يبلِّـل العـرق جبهتـي مـع أنَّ الصَّباح بـارد. كنت مأخوذة بالرِّسـالة حـدَّ الانصعـاق فبـدوت كالمذعـورة. لسـنوات عـدَّة وزهـوري المحمَّلة بالرَّسـائل يتـمُّ التَّغـاضي عنهـا فعليَّـاً. ذاك هـو الأسـلوب الَّـذي يريحنـي في التَّواصـل مـع الآخريـن. فـلا الشَّـغف ولا الاتِّصـال ولا الخـلاف

ولا الرَّفض كانت واردة في لغة لا تثير ردَّ فعل. لكنَّ غصيناً من الدَّبق غيَّر كلَّ المعادلة، اللَّهمَّ إن كان واهبه يعلم دلالته.

حاولت أن أهدِّئ من روعي عبر تسويغ نظريَّة الصُّدفة، فالدَّبق يعتبر نباتاً ذا مدلول رومانسي. يبدو أنَّ لديه صوره الَّتي ربطها بي مثلما ربطها بشريط أحمر إلى الإطار الخشبي في محله، ويتخيَّلني تحت الإطار بوضع يمكِّنه من الحصول على قبلة. لم تكن معرفته بي كافية لتجعله يدرك أنَّني لن أسمح بتقارب كهذا مطلقاً. لكن، وعلى الرَّغم من أنَّنا لم نتبادل سوى بضعة جمل، فأنا لم أستطع أن أطرد عنِّي الشُّعور بأنَّه يعرفني فعلاً بشكل ما، وبما يكفي لأن يستوعب أنَّ القبلة ليست محلَّ نقاش.

عليَّ أن أردَّ. إن قدَّم لي مرة أخرى زهرة تحمل ذات المعنى تماماً، فلن أقدر على تفنيد فهمه للأمر.

ترتجف قدماي حين أترك الطَّاولة، فأتهادى في مشيتي باتِّجاه المقصورة. أجلس بين الدِّلاء وأبدأ أفكِّر في كيفيَّة ردِّي.

عادت ريناتا وراحت تلقي أوامرها عليَّ في المقصورة. كان هناك عمل آخر، عمل بسيط، لتسليمه أسفل التلِّ. سحبت مزهريَّة من الخزف الأزرق فيها أخذت ألملم بقايا الزُّهور الصَّفراء.

«بكم؟»، أسألها لأنَّ السِّعر يحدِّد نوعيَّة تنسيقنا.

«لا يهم. لكن، أعلميها أنَّه لا يمكنها أن تحتفظ بالمزهريَّة. سأمرُّ

لأخذها الأسبوع القادم». تمرِّر ريناتا لي قصاصة من الورق بعد أن أنهي عملي، كتب عليها العنوان كالخربشات، وتقول: «أوصليها أنت».

في طريقي نحو الباب، وذراعاي تتأبَّطان المزهريَّة الثَّقيلة، أشعر بريناتا وهي تدسُّ شيئاً في حقيبة ظهري. ألتفت لأجدها قد أقفلت باب المحلِّ بعد خروجي وتَّتجه نحو شاحنتها.

تعلمني وهي تلوِّح لي بيدها مودعة: «لن أحتاج إليك حتَّى الأحد القادم، عند الرَّابعة صباحاً. جهِّزي نفسك ليوم عمل طويل بلا انقطاع».

أومئ برأسي وأتابعها وهي تركب شاحنتها وتمضي بها بعيداً. عندما لفَّت المنحنى، أنزل المزهريَّة وأفتح حقيبتي لأجد داخلها ظرفاً فيه أربعمائة دولار، ورسالة تقول: هذه دفعة لقاء أوَّل أسبوعين لك. لا تخيِّبي أملي. أطوي النقود وأدسُّها في حمَّالة الصَّدر.

أوصلني العنوان إلى ما بدا وكأنَّها عمارة تحوي مكاتب، تقع على بعد مجمَّعين من المحلِّ أسفل التلِّ. كان زجاج الواجهة داكناً فلم أستطع أن أتبيَّن إن كان هناك من عمل، وهم مغلقون بسبب عطلة الأحد، أو أنَّه لا يوجد عمل على الإطلاق. عندما طرقت الباب يتعالى صرير مفصَّلات الأبواب المعدنية.

تنفتح نافذة في الطَّابق الثاني، ليصلني صوت دون ظهور

صاحبته: «دقيقة وأكون عندك. لا تبرحي مكانك». أجلس على الرَّصيف والأزهار عند قدمي.

بعد مرور عشر دقائق يفتح الباب ببطء. لم يكن نَفَس المرأة الَّتي فتحته يتقطَّع. تمدُّ يديها لاستلام الزُّهور وهي تقول: «مرحباً يا فيكتوريا، أنا ناتالي». كانت تشبه ريناتا ببشرتها الحليبية الفاتحة ولون عينيها المعدني، لكنَّ شعرها كان مصبوغاً بصبغة وردية ويقطر ماء.

أسلِّمها الزُّهور وأستدير كي أمضي، فتباغتني بسؤالها: «لو تغيِّرين رأيك؟».

«عفواً؟».

تخطو ناتاليا إلى الخلف وكأنّها تفسح لي مجالاً لأمرَّ عبر الباب. «بشأن الغرفة. طلبت من ريناتا أن تخبرك أنَّها خزانة بالمعنى الحرفي. لكنَّها أكَّدت أنَّك لن تمانعي».

غرفة، والنُّقود في حقيبتي. لقد رتَّبت ريناتا أمر الوساطة دون أن تظهر أنَّها تعرف. غريزتي تدفعني إلى المضيِّ بعيداً عن الباب المفتوح، لكنَّ الحقيقة الَّتي لا يمكن نكرانها هي أنَّه لا يوجد مكان أذهب إليه.

أتراجع وأنا أسأل: «كم أجرتها؟».

«مائتان في الشهر، وسترين السَّبب بنفسك».

أقيس الطَّريق بناظري من أوَّله إلى آخره، لا أعرف بما أرد. عندما استدرت، كانت ناتاليا قد قطعت المدخل بالفعل وبدأت تصعد الَّدَّرجات المرتفعة. تصيح بي: «سواء أردت القدوم أم لا، أغلقي الباب».

آخذ نفساً عميقاً وأزفر الهواء عبر شفتيّ تضجُّراً، وأدخل.

بدت الشَّقة الَّتي تعلو المدخل، بغرفة النَّوم الوحيدة، وكأنَّها صمِّمت لتكون فسحة لمكتب، بسجَّادة تجاريَّة رقيقة ممدودة فوق بلاطات اسمنتية، ومطبخ بمنضدة طويلة وثلّاجة قصيرة. كانت النَّافذة الموجودة أعلى المطبخ مفتوحة، وتطلُّ على سطح شقَّة مقابلة.

«لا يمكنني تأجير هذه الغرفة بشكل قانوني»، تصرِّح ناتالي وهي تشير إلى باب صغير تموضع في الجدار قرب أريكة غرفة المعيشة. بدا وكأنَّه يؤدي إلى حيِّز واطئ، أو إلى سخَّان ماء صغير. تسلِّمني ناتاليا سلسلة تحوي ستَّة مفاتيح كلُّها تحمل أرقاماً، وتقول: «رقم واحد».

أجثم وأفتح الباب الخفيض ثم أحبو إلى الدَّاخل. كانت الغرفة معتمة جداً لأتفحَّصها. ترشدني ناتاليا بقولها: «انهضي. هناك خيط يتدلَّى من الضَّوء». أتحسَّس ما حولي في العتمة إلى أن أشعر بالخيط يلامس وجهي، فأسحبه.

يضيء مصباح عار غرفة زرقاء فارغة، زرقاء مثل لوح ألوان

لرسَّام على متن زورق في عرض البحر، وبرَّاقة مثل المياه الَّتي ينفذ منها النُّور. السَّجَّادة من فراء أبيض بدا وكأنَّ الحياة تدبُّ فيه. وما من نوافذ. بدت الغرفة كبيرة بما يكفي للاستلقاء، لكنَّها ليست واسعة كفاية لاستقبال سرير أو خزانة ملابس، حتَّى لو وجدت واحدة يتَّسع لها الباب. على واحد من الجدران يمتدُّ صفٌّ من الأقفال النُّحاسية، وعندما دقَّقت النَّظر وجدت أنَّ ألسنة الأقفال تمتدُّ في الفراغ الواقع ما بين الجدار وباب بالحجم الكامل، فيما الضَّوء يرشح من خلال الشق. كانت ناتاليا على حق، فالغرفة كانت خزانة بالمعنى الحرفيِّ للكلمة.

«آخر شريكة في السَّكن كانت مصابة بالفصام المصاحب بعقدة الاضطِّهاد»، تخبرني ناتاليا وهي تومئ إلى الأقفال المركَّبة. «يؤدي الباب إلى غرفتي. وهذه مفاتيح الأقفال جميعاً». تشير إلى سلسلة المفاتيح الَّتي بيدي.

أردُّ عليها: «سأستأجرها». أمضي إلى غرفة المعيشة وأضع مائتي دولار على ذراع الأريكة. أغلق الباب الصَّغير بعدها وأدير القفل، لأستلقي وسط الزُّرقة.

(١١)

بـدت السَّـماء أرحـب في مزرعـة اليزابيـث وهـي تتقـوَّس في امتدادهـا بـين أفـق قريـب وأفـق آخـر، لتنسـاب الزُّرقـة عـلى التِّـلال المجدبـة فتكمـد صفـرة الصَّيـف. تنعكـس الزُّرقـة عـلى السَّـطح المـوَّج للحظـيرة الموجـودة في الحديقـة، والمقطـورة المعدنيَّـة المـدوَّرة، وفي بؤبـؤي اليزابيـث. يضفـي اللَّـون الشُّـعور بقدَريتـه، كـما أنـاخ بثقلـه كصمتهـا المفاجـئ.

أجلـس عـلى كـرسيٍّ قـماشي في أحـد دروب الحديقـة، أنتظـر عـودة اليزابيـث مـن المطبـخ. قامـت بتحضـير فطائـر بالخـوخ والمـوز في وقـت مبكِّـر مـن الصَّبـاح، فظللـت آكل منهـا حتَّـى دخـت وتداعيـت فـوق طاولـة المطبـخ، عاجـزة عـن الحـراك. لكـن، بـدلاً مـن طوفـان الأسـئلة المعتـاد، والَّتـي كنـت أردُّ عـلى بعضهـا وأتجاهـل الباقـي، حافظـت عـلى هدوئهـا بصـورة ملفتـة. بقيـت تتنـاول طعامهـا بهـدوء، فتخـرج الخـوخ المشـوي وتـترك الباقـي مـن فطيرتهـا منقوعـاً.

أغمضـت عينـيّ، ورحـت أصغـي إلى صريـر كـرسي اليزابيـث وهـو يدفـع إلى الـوراء، وإلى قدميهـا المغطّاتـين بالجوربـين وهمـا تعـبران الأرضيَّـة الخشـبيَّة، وصحوننـا المكوَّمـة وهـي تسـتقرُّ في حـوض المجلى. لكـن بـدلاً مـن سـماع الصَّـوت المعتـاد للميـاه المتدفِّقـة، أسـمع صـوت

تـكَّات مفاجـئ، وعندمـا أنظـر، أرى اليزابيـث مسـتندة إلى خزائـن مطبخهـا وقـد انصبَّ تركيزهـا عـلى هاتـف قديـم الطـراز. كانـت قـد لفَّـت الشَّريـط الَّـذي يصـل مـا بـين السَّـماعة وقاعـدة الجهـاز وأخـذت تحـدِّق بالقـرص وكأنَّهـا نسـيت الرَّقـم. بعـد قليـل، راحـت تديـر القـرص ثانيـة، لكنَّهـا تتوقَّـف عنـد الخانـة السَّادسـة وتـزمُّ شـفتيها وتغلـق السَّـمَّاعة بعنـف.

ترتـدُّ اليزابيـث مسـتنفرة، وعندمـا تسـتدير تبـدو متفاجئـة إذ رأتنـي أجلـس هنـاك، وكأنَّهـا في تركيزهـا عـلى المكالمـة الَّتي لم تسـتطع القيـام بهـا قـد نسـيت وجـودي تمامـاً. تنزلنـي عـن كـرسيِّ المطبـخ وهـي تزفـر، وتخرجنـي إلى الحديقـة حيـث رحـت أنتظـر.

تخـرج مـن البـاب الخلفـيِّ وهـي تحمـل بيـد مجرفـة يعلوهـا الطِّـين وباليـد الأخـرى كوبـاً يتصاعـد منـه البخـار.

تمـدُّ إليَّ يدهـا بالكـوب وهـي تقـول: «اشربيـه. سيسـاعد عـلى تنظيـم عمليَّـة الهضـم لديـك».

أمسـك بالكـوب بـين كفـيّ المضمَّدتـين. قـد مـرَّ أسـبوع مـذ نظَّفـت اليزابيـث جراحـي وضمَّدتهـا، وقـد رحـت أعتـاد عـلى انعـدام الحيلـة الَّتـي يفرضهـا الضـماد. تمـرُّ الأيَّـام واليزابيـث تطبـخ وتنظِّـف وأنـا جالسـة لا أفعـل شيئاً. وعندمـا تسـألني كيـف حـال يـديَّ أجيبهـا أنَّهـما أسـوأ حـالاً.

أنفخ على الشَّاي وأرشف منها رشفة حذرة ثم أبصقها.

«لا أستسيغها»، أمدُّ يدي بالكوب وأميله فينسكب السَّائل الَّذي فيه على الممرِّ أمامي حيث جلست.

تردُّ اليزابيث عليَّ: «جرِّبيه ثانية وستعتادين على طعمه. أزهار النَّعناع تعني **دفء المشاعر**».

آخذ رشفة أخرى. أبقيها في فمي لوقت أطول هذه المرة قبل أن أبصقها من فوق ذراع الكرسي. «تعنين دفء الطَّعم الكريه».

«بل دفء المشاعر»، تصحِّح لي اليزابيث. «تعلمين ذاك الشُّعور بالخدر الَّذي ينتابك حين ترين شخصاً تحبِّينه».

لم أختبر ذلك الشعور، فأردُّ: «دفء القيء».

تخبرني اليزابيث قائلة: «لغة الزَّهور يا فيكتوريا لا تحتمل الجدال فيها»، ثم تستدير مبتعدة وترتدي قفَّازي الشُّغل. تلتقط المجرفة وتبدأ بتجهيز التُّربة حيث انتزعت عشرات النبتات من جذورها خلال بحثي عن الملعقة.

آخذ رشفة من شاي النَّعناع وأبتلعها، ثمَّ أكشِّر في انتظار معدتي كي تستقر، وأسألها: «ماذا تعنين لا تحتمل الجدال فيها؟».

«يعني أنَّ هناك تعريفاً واحداً فقط، معنى واحداً لكلِّ زهرة، مثل إكليل الجبل الَّتي تعني..»

فأقاطعها: «**إحياء الذِّكرى**، من أقوال شكسبير، كائناً من كان هذا».

تردُّ اليزابيث مندهشة: «صحيح، و زهرة الحوض ..»

«الهجر»

«شربة الرَّاعي؟»

«الفراسة»

«الخزامى؟»

«الرِّيبة»

تـترك اليزابيـث أدوات الفلاحـة، وتنـزع قفَّازيهـا، ثـمَّ تقعـي إلى جانبـي. كانـت نظراتهـا ثاقبـة، فأتراجـع في جلسـتي حتـى يبـدأ الكـرسيُّ القـماشي ينقلـب مـن تحتـي إلى الخلـف. تمتـدُّ يـد اليزابيـث بسرعـة لتمسـك بكاحـلي.

تسـألني: «لم أخبرتنـي ميريديـث أنَّـك لا تقدريـن عـلى الدِّراسـة والتَّعلُّـم؟».

فـأردُّ: «لأنِّي لا أقـدر». تمسـك بذقنـي وتـبرم لي وجهـي حتـى تلتقـي النَّظـرات.

تجيبنـي بـكلِّ بسـاطة: «غـير صحيـح. قضيـت أربـع سـنوات في الابتدائيـة ولم تتعلَّمـي التَّهجئـة، كـما نبَّهتنـي ميريديـث. أخبرتنـي أنَّـه مـن الأفضـل لـك أن تلتحقـي بصفـوف التَّعليـم الخـاص، هـذا إن تجـاوزت المدرسـة العامَّـة أصـلاً».

في غضون أربع سنين أعدت مرحلة الرَّوضة مرَّتين والصفَّ الثَّاني مرَّتين. لم أكن أتظاهر بعدم المقدرة على التَّعلم، بل لم يسألني أحد قطُّ عن حالي. بعد السَّنة الأولى، بلغت سمعتي كمزاجيَّة صامتة مبلغاً جعلهم يهمِّشونني في كلِّ صفٍّ أدخله. علَّمتني كدسات من أوراق المراجعة المنسوخة الأحرف والأعداد وعمليَّات الحساب البسيط. وتعلَّمت القراءة من كلِّ كتاب مصوَّر يسقط من حقائب أقراني أو أسرقه من رفوف الصَّف.

مرَّ عليَّ وقت حسبت فيه أنَّ المدرسة قد تختلف. من يومي الأول وأنا أجلس في مقعد صغير، في صفٍّ ضيِّق، فأدرك أنَّ الهوَّة بيني وبين بقيَّة الأطفال لم تكن ظاهرة. نطقت معلِّمة الرَّوضة، الآنسة إليس، اسمي برقَّة، مشدِّدة المقطع المتوسِّط فيه، وراحت تعاملني كما تعامل الجميع. جعلتني رفيقة لفتاة كانت أرقَّ منّي، فكان معصمها النَّحيل يحتكُّ بمعصمي ونحن نمشي في الطَّابور من الصَّفِّ إلى ساحة اللَّعب ثم نعود. آمنت الآنسة إليس بأهميَّة تنمية العقل فكانت تقوم يوميَّاً، بعد الاستراحة، بوضع كأس ورقية وعليها سمكة سردين على كلِّ مقعد. بعد أن نأكل السَّمكة، تطلب منَّا قلب الكأس لنرى الحروف الَّتي كتبت على قعرها، فإن استطعنا أن نحزر اسم الحرف وصوته، كافأتنا بسمكة ثانية. حفظت كلَّ الأحرف وأصواتها في الأسبوع الأول، فكنت أحصل دائماً على سردينة ثانية.

بعد خمسة أسابيع من المدرسة نقلتني ميريديث لأعيش مع

عائلة أخرى، في ضاحية مختلفة، فكنت كلَّما تذكَّرت الأسماك الزَّلقة ينتابني الغضب. وكان غضبي يدفعني إلى قلب المقاعد، وشقِّ السَّتائر، وسرقة علب الغداء، فكنت أعاقب بالفصل، وأُنقل، لأعاقب بالفصل ثانية. ومع نهاية العام الأوَّل ذاك، صار العنف صنواً لتوقُّعاتهم بشأني، وتمَّ تجاهل تعليمي.

تعصر اليزابيث وجهي، وعيناها تطالبان بالإجابة.

فأجيب: «أستطيع القراءة»

تتابع اليزابيث تفحُّص وجهي، كما لو أنَّها مصمِّمة على اكتشاف كلِّ كذبة أنطق بها. أغمض عينيّ حتَّى تركت وجهي.

وتقول: «حسن، من الجيِّد معرفة هذا». تهزُّ رأسها وتعود إلى عملها، فتلبس قفَّازيها قبل أن تضع النَّباتات الَّتي كنت انتزعتها في الحفر الضَّحلة. تابعتها وهي تعمل وتقلِّب التربة السَّطحية وتربِّت بلطف حول كلِّ جذع. عندما انتهت رفعت نظرها ووجَّهت حديثها إليَّ: «طلبت من بيرلا أن تأتي لتلعبا معاً. أنا أحتاج للرَّاحة، وسيكون من المفيد لك أن تجدي صديقة قبل أن تبدأ المدرسة غداً».

أردُّ عليها: «لن تصبح بيرلا صديقتي».

فتجيب اليزابيث بحنق: «لم تقابليها بعد حتَّى تتأكدي. كيف تعرفين إن كانت ستصبح صديقة لك أم لا؟».

كنت أعرف أنَّ بيرلا لن تصبح صديقتي لأنَّني، وعلى مدار تسع سنوات، لم أحصل على صديقة قط. لا بدَّ أنَّ ميريديث أخبرت اليزابيث بذلك إذ سبق لها وأخبرت كلَّ أمَّهاتي الأخريات الرَّاعيات لي بذلك ممَّا دفعهنَّ إلى تنبيه أبنائهنَّ أن يأكلوا بسرعة وينامو ويدسُّوا حلواهم عميقاً في وسائدهم.

«والآن تعالي معي. على الأغلب هي الآن تنتظرنا بجانب البوَّابة».

تقودني اليزابيث عبر الحديقة إلى سياج أبيض منخفض مكوَّن من أوتاد خشبية ويقع عند الطَّرف البعيد. وجدنا بيرلا تستند إليه وهي تنتظرنا. كانت قريبة منَّا جدَّاً بحيث كان بإمكانها أن تسمع كلَّ كلمة تلفَّظناها، لكنَّها لم تك تبدو منزعجة، بل متفائلة. بدت أطول منِّي ببوصة أو اثنتين، جسدها ناعم ومدوَّر. كان قميصها القطني ضيِّقاً وقصيراً أكثر من اللَّازم. ينمطُّ النَّسيج اللَّيموني اللَّون حول بطنها لتنتهي حاشيته قبل أن يبدأ خطُّ الخصر لبنطالها. التفَّت حول ذراعيها خطوط عميقة حمراء خلَّفتها الحاشية المرنة للأكمام القصيرة، قبل أن ترفعها لتختفي تحت إبطيها. تخرج الحواشي وتشدُّ الأكمام واحداً تلو الآخر.

تبادرها اليزابيث بالتَّحية قائلة: «صباح الخير. هذه ابنتي فيكتوريا. وهذه بيرلا يا فيكتوريا». سماعي لجرس كلمة «ابنتي» جعل معدتي تتلبَّك مجدَّداً، فأركل الغبار باتِّجاه اليزابيث حتَّى

داست كلتا قدميَّ بحذائها الأيمن، فيما كانت أصابعها تضغط على رقبتي من الخلف، فأحسُّ ببشرتي تحترق بتأثير لمستها.

تردُّ بيرلا بخجل: «مرحباً فيكتوريا». تلتقط شريطة سوداء سميكة من حيث استقرَّت فوق كتفها وتبدأ بمضغ نهاياتها المبلَّلة أساساً.

وكأنَّ كلمات بيرلا الهادئة وصمتي العنيد قد أسَّسا لشيء ما، إذ توجِّه اليزابيث كلامها إلينا: «طيِّب. سأمضي إلى المنزل كي أرتاح. ابقي هنا يا فيكتوريا والعبي مع بيرلا حتَّى أستدعيك».

بدون انتظار لجواب تمضي إلى المنزل. نحدِّق أنا وبيرلا في الأرض وقد بقينا وحدنا. بعد برهة، تمدُّ يدها بتردد وتلمس مقدَّم كفَّي المضمَّدين بإصبع سمين. «ماذا حدث؟».

أنقضُّ على الشَّاش بأسناني وقد داهمتني رغبة عارمة في استخدام يديّ من جديد. أجيبها: «الأشواك. فكِّي الضِّماد عنها».

تحلُّ بيرلا أطراف الرباط، فأتحرَّر من القماش بهزَّة منِّي. بدا الجلد، وقد انكشف، باهتاً ومجعَّداً، وبدت قشور الجروح كدوائر صغيرة ويابسة. أنكش بظفري قشرة منها فتنسلخ بسهولة وتتهاوى على الأرض.

تبادر بيرلا بالكلام: «سنكون في نفس الصَّفِّ من المدرسة غداً، إذ لا يوجد سوى صفٍّ رابع واحد».

لا أردُّ. تظنُّ اليزابيث أنَّني سأذهب إلى المدرسة. قد ظنَّت أنَّني سأكون ابنتها، وظنَّت أنَّها ستجبرني على أن أتَّخذ صديقة، والحقيقة أنَّها مخطئة بشأن كلِّ ما ذكر. أسير باتِّجاه حظيرة الحديقة، فتتبعني بيرلا بخطوها الثَّقيل. لم أكن أعرف ما أفعل، لكنَّني أردت فجأة أن تدرك اليزابيث تماماً مدى خطأ حساباتها بشأني. أختطف سكيناً ومقلِّمة أظافر من على رفٍّ قريب من الحظيرة، وأنسلُّ من طرف الحديقة.

على الجانب الآخر من شجرة اللَّوز أتتبَّع خطَّاً من النَّباتات النَّضرة بلونها الأخضر الضَّارب إلى الرَّمادي حتَّى يتلاشى على الحصى. هناك، حيث تعامد الطَّريق التُّرابي والمغبر بالحديقة الخضراء تنتصب نبتة صبَّار كثيفة ومتشابكة، بدت أضخم من سيَّارة ميريديث. كان الجذع بنِّيَّاً أجرب المنظر كما لو أنَّه تجرَّح مراراً وتكراراً بشوكه ذاته. وبدت بنية كلِّ غصن كمجموعة من الأكفِّ المنبسطة الَّتي يبزغ أحدها من الآخر، يمين فيسار فيمين ثانية، فيتوازن كلُّ غصن بما يكفي كي ينمو مستقيماً ويتطاول. هنا عرفت ما عليَّ فعله.

أشير إلى الصَّبار فتقول بيرلا: «نبات الصَّبر».

«تين شوكي»

«ماذا؟»

«تين شوكي. أترين الثَّمرة في الأعلى؟ في المكسيك يبيعونها في

الأسواق. إنَّها لذيذة، المهمُّ أن تقشِّريها جيداً». ألقي إليها بأوامري: «اقطعيه».

تجمد بيرلا. «ماذا؟ كلَّها؟»

أهزُّ رأسي أن لا. «الغصن فقط. ذاك الَّذي يحمل كلَّ الثِّمار. أريده كي أقدِّمه إلى اليزابيث. لكن، عليك قطعه، وإلَّا فسأؤذي يداي». لم تتحرَّك بيرلا لكنَّها نظرت إلى الصَّبار الَّتي كانت أطول منها بمرَّتين. بدت الثِّمار الحمراء تنمو مثل الأصابع المنتفخة على قمَّة كلِّ ورقة مسطَّحة منها. أحرِّك السِّكِّين باتِّجاهها، ونصلها المثلَّم متَّجه نحو بطنها.

تمدُّ بيرلا يدها وتختبر حدة النصل على إصبعها الغض ثم تخطو مقتربة منِّي أكثر وتحمل السِّكِّين من مقبضها.

تسأل بيرلا بهدوء: «أين؟». أشير إلى مكان يعلو الجذع البنِّي مباشرة حيث نمت ورقة خضراء طويلة. تضع بيرلا النَّصل على الصَّبَّار وتغمض عينيها قبل أن تميل إلى الأمام بثقل جسدها بأكمله. كانت القشرة قاسية، لكن، ما إن قطعت الطَّبقة الخارجيَّة حتى انغرزت السِّكِّين بسهولة إلى أن هوى الغصن على الأرض. أشير إلى الثِّمار فتقطف بيرلا كلَّ ثمرة منها. ارتمت الثِّمار على الأرض وعصير أحمر يخرج منها.

آمرها بالقول: «انتظري هنا»، وأهرع عابرة الحديقة إلى حيث نزعت الشَّاش القذر.

عندما عدت كانت بيرلا تقف تماماً حيث تركتها. أحمل الثِّمار بواسطة الشَّاش، ثمَّ ألتقط السِّكِّين، وبحذر أنزع الأشواك من على كلِّ ثمرة وكأنَّني أسلخ حيواناً ميتاً. أمدُّ يدي بالثَّمرة النَّاضجة الصَّالحة للأكل إلى بيرلا.

«هاك»، أضيّفها فتنظر إليَّ بحيرة ثمَّ تسألني: «أظنُّك قلت أنَّك تريدينها لتقدِّميها إلى اليزابيث؟».

فأجيبها: «إذن، احمليهم إليها إن أردت. هذا هو الجزء الَّذي أريده». ألفُّ القشور الشَّوكية بالشَّاش.

أطلب منها المضيَّ: «اذهبي الآن إلى منزلك».

تضع بيرلا الثَّمرة في يدها وتمشي مبتعدة ببطء، وهي تتنهَّد، وكأنَّها كانت تتوقع منِّي أكثر من هذا مقابل فعل الولاء الَّذي قامت به.

لم أكن أملك شيئاً لأقدِّمه إليها.

(١٢)

ناتاليا هي الأخت الصُّغرى لريناتا. هم ستَّ، كلهنَّ شقيقات إناث. تأتي ريناتا الثَّانية في الترتيب، وناتاليا الأخيرة. تطلَّب منِّي جمع هذه المعلومات الأسبوع بأكمله، وكنت ممنونة لهذا. في معظم الأيَّام تبقى ناتاليا نائمة حتَّى الظُّهر، وعندما تستيقظ تحافظ على هدوئها. أخبرتني مرَّة أنَّها لا تحبِّذ هدر صوتها، فلم يؤثِّر فيَّ أمر اعتبارها الكلام معي مضيعة لصوتها بتاتاً.

وناتاليا مغنِّية في فرقة مغمورة لم يتعدَّ صيتها، حسب اعترافها هي، عشرين مجمَّعاً انطلاقاً من الشَّقَّة. للفرقة مريدون ينشطون في الأبرشيَّة، وبضعة معجبين مبعثرون حول حديقة دولوريس، لكنَّ أحداً من القاطنين في الأحياء المجاورة أو المدن الأخرى لم يسمع بها. كانوا يجرون تدريبهم في الأسفل، فمكاتب المجمَّع الأخرى إمَّا مؤجَّرة أو فارغة، لكنَّ الكلَّ يغلق عند الخامسة. تعطيني ناتاليا صندوقاً من سدادات الآذان وكومة من المخدَّات. وباستخدام الطَّرفين كان بمقدوري تخفيف وقع الموسيقى إلى مجرَّد اهتزازات صوتيَّة تعكسها سجَّادة الفراء، ممَّا ينفخ فيها بعضاً من روح. في معظم اللَّيالي لا تبدأ الفرقة تدريبها إلَّا بعد منتصف اللَّيل، ممَّا يتيح لي فرصة الإغفاء لبضع ساعات قبل نهوضي.

لم أعمل حتَّى السَّبت التَّالي، لكنِّي كنت أجد نفسي في كلِّ صباح من ذلك الأسبوع أتسكَّع في الشَّوارع المحيطة بسوق الزُّهور، أتابع باعة الجملة وهم يقودون شاحناتهم بحمولاتها الزَّائدة إلى ساحة المرآب المزدحمة ليركنوها هناك. لم أكُ أبحث عن تاجر الزُّهور الغامض، أو هكذا أقنعت نفسي على الأقل. إنَّما لمَّا رأيته دخلت أحد الأزقَّة ورحت أركض حتَّى تقطَّع منِّي النَّفس.

بحلول يوم السَّبت أقع على الردِّ، زهرة فم السَّمكة، أي **الوقاحة**. أصل إلى سوق الزُّهور عند الرَّابعة صباحاً، أي قبل موعد ريناتا بساعة، ومعي ورقة من فئة خمسة دولارات، وأنا أعتمر قبَّعة صوفيَّة لونها بلون الخردل وقد خفَّضتها حتَّى حاجبيَّ.

كان البائع منحنياً ينقل حزم الزَّنبق والورود والحوذان إلى أحواض بلاستيكيَّة بيضاء. لم يلحظ اقترابي، فاستغلَّيت الوقت كي أردَّ له نظرته الوقحة الَّتي مرَّرها على جسدي حين التقينا لأوَّل مرَّة، وتفحَّصته من نقرته نزولاً إلى جزمته الَّتي يعلوها الطِّين. كان يرتدي نفس الكنزة السَّوداء ذات القبَّعة الَّتي كان يرتديها في أول يوم التقينا فيه، لكنَّها بدت أكثر قذارة هذه المرَّة، مع بنطال للشُّغل مرقّط بالأبيض. كان من ذلك الطِّراز الَّذي يحوي عروة لتعليق المطرقة، لكنَّ العروة بدت خالية. حين نهض كنت أقف قبالته بالضَّبط وذراعيَّ مغطَّاتان بزهرة فم السَّمكة. أنفقت خمسة دولارات ثمناً للنَّبتة، وبسعر الجملة اشتريت ستَّ شتلات على شكل باقة مختلفة الألوان، القرمزيَّة والورديَّة والصَّفراء. رفعت

ذراعيَّ بباقة الزَّهر عالياً حتّى صارت بداية النَّبتة عند قمَّة قبعتي فاختفى وجهي تماماً خلفها.

شعرت بكفِّه تعبث بنهايات سيقان النَّبتة، وعندما لمست أصابعه أصابعي، كانت برودة صباحات شهر تشرين الثّاني تسري فيها. اجتاحتني رغبة عابرة في تدفئتها، لا بيديَّ، إذ لم تكونا أحسن حالاً، بل بقبعتي وجواربي، بشيء يمكن أن أخلِّفه ورائي. يسحب الزُّهور فأنكشف أمامه. ترتفع حرارتي فتنعكس على وجهي لطخاً ورديَّة، فأستدير بسرعة وأمضي.

كانت ريناتا تنتظرني عند الباب بادية الاضطراب والعصبيَّة. لديها حفل زفاف آخر كبير، والعروس، كالخارجة من فيلم هوليودي، لجوجة ومزعجة. تسلِّم ريناتا قائمة من عدَّة صفحات تحوي أنواع الزُّهور الَّتي تحبُّها وتلك الَّتي تكرهها، وتحدِّد فيها عيِّنات اللَّون والقياسات بالسَّنتميتر، فقامت ريناتا بقصِّ القائمة إلى نصفين، لتسلِّمني نصفاً وظرفاً يحوي نقوداً.

أنطلق على عجل فتنادي عليَّ: «لا تدفعي الثَّمن كاملاً. أخبريهم أنَّها لي».

في الصَّباح التَّالي ترسلني ريناتا إلى سوق الزُّهور لوحدي. قمنا بتنسيق الزُّهور حتَّى السَّاعة الخامسة، وبقينا نرتِّب الباقات الصَّغيرة لزفاف السَّاعة السَّادسة، فدفعها ضغط العمل إلى التمدُّد على السَّرير للاسترخاء. من الآن فصاعداً تقرِّر فتح المحلِّ أيَّام

الأحد. وضعت لافتة جديدة وأخبرت عملاءها الدَّائمين أنَّني سأكون موجودة في المحل. تسلِّمني نقوداً، وتعهد إليَّ ببطاقة البيع بالجملة العائدة لها، ومفتاحاً. تلصق رقم تلفون المنزل على ماكينة الدَّفع وتطلب منِّي عدم إزعاجها لأيِّ سبب كان.

عندما وصلت إلى السُّوق كانت السَّماء لا تزال مظلمة فلم أره يقف إلى يمين المدخل. كان ساكناً، ولا يحمل أزهاراً، وقد أحنى رأسه لكنَّه رفع ناظريه بانتظاري. سرت بخطى جدِّيَّة باتِّجاه الباب وعيناي مركَّزتان على القبضة المعدنية. عادة ما تلفُّ السُّوق ضوضاء الشُّغل والصَّخب، لكنَّ الصَّمت كان يغلِّفه تقريباً من الخارج. يمدُّ يده بورقة ملفوفة مربوطة بشريط أصفر لدى مروري. آخذ اللُّفافة منه كما يتلقَّف متسابق الجري العصا من رفيقه دون أن يكسر إيقاع جريه، وألج الباب. تستقبلني ضجَّة السُّوق كهدير مشجعين. أختلس نظرة شزراً، لأجده قد مضى.

كان محلَّه في الدّاخل فارغاً، فأتكوَّر داخل الخشب الأبيض وأفكُّ الشَّريط لأفتح اللُّفافة. كانت الورقة بادية القدم وقد اصفرَّت جوانبها وتآكلت، لذا كان صعباً تمسيدها. أثبِّت الزَّاويتين السفليَّتين بإبهامَي قدميَّ وأمسك الزَّاويتين العلويَّتين بأصابعي.

كانت الورقة تحوي رسماً بالفحم قد بهت، لا يصوِّر زهرة بل جذع شجرة، وقد تشقَّق لحاؤه وتقشَّر. أمرِّر رأس إصبعي على اللِّحاء. صحيح أنَّ الورقة مسطَّحة، لكنَّ الرَّسم كان واقعياً حتَّى

خيِّل إليَّ أنَّني أحسُّ بعقده الخشنة. في أسفل الصَّفحة من الزَّاوية اليمنى تظهر كلمات «شجرة حور بيضاء» وقد كتبت بخطٍّ مائل.

شجر الحور الأبيض. لم تكن من النَّباتات الَّتي أحفظها عن غيب. أنزل حقيبتي عن ظهري وأسحب منها قاموس الزُّهور. أبحث في الكلمات الَّتي تبدأ بحرف الحاء، ثمَّ تلك الَّتي تبدأ بحرف الألف، لكنِّي في الحالين لم أجد الاسم مدرجاً. لو كان لها من معنى فلن أستطيع اكتشافه في قاموسي. أعيد لفَّ اللُّفافة وأربط الشَّريط، لكنَّني أتوقَّف في منتصف الطَّريق وأنا أجتاز القوس.

على الجانب الآخر من الشَّريط، وبيد مخربِشة ميَّزتها من أثمان الزُّهور الَّتي خطَّتها على لوح أسود، تظهر كلمات: الاثنين، الخامسة مساءً، تقاطع شارعي السَّادس عشر وميشن، مطعم دونتس، للغداء. تفشَّى الحبر الأسود على الحرير فغدت الكلمات بالكاد مقروءة، لكنَّ الزَّمان والمكان كانا واضحين.

في ذلك الصَّباح اشتريت الزُّهور بلا تركيز، وعندما فتحت المحلَّ بعد ساعة، فوجئت بما كنت أحمل.

مرَّ الصَّباح بطيئاً، وكنت ممتنَّة لذلك. جلست على كرسيٍّ مرتفع بلا ظهر خلف صندوق الدَّفع ورحت أقلِّب في دليل سميك لأرقام الهواتف. كانت هناك رسالة صوتيَّة طويلة للرَّقم المذكور للمكتبة العموميَّة لسان فرانسيسكو. أنصت إليها مرتين

وأنا أدوِّن على عجل مواعيد وأماكن على ظاهر كفِّي. في أيَّام الآحاد تغلق المكتبة الرئيسة عند الخامسة، كما نفعل نحن في المحل، لذا توجَّب عليَّ الانتظار حتَّى الاثنين. عندها، وبناء على المعنى الَّذي سأكتشفه، سأقرِّر إن كنت سأقابله لنتناول الكعك المحلَّى سويَّة أم لا.

مع انتهاء يوم العمل، وما إن أنهيت نقل الأزهار المعروضة عند الواجهة إلى المقصورة، حتى فتح الباب الخارجي. في فراغ المكان تقف امرأة بمفردها بادية الارتباك.

أسألها بنفاد صبر وأنا أستعدُّ للإغلاق: «كيف أستطيع مساعدتك؟».

«أأنت فيكتوريا؟».

أومئ برأسي.

«أرسلني إيرل إليك. طلب منِّي أن أخبرك أنَّه يريد نفس الطَّلب، نفسه بالضَّبط». تسلِّمني ثلاثين دولاراً وتكمل: «ويقول لك احتفظي بالباقي».

أضع النُّقود على الطَّاولة وأتَّجه صوب المقصورة غير واثقة من وجود ما يكفي من الشَّبث. ارتفع صوت ضحكتي حين وقع نظري على الباقة الضَّخمة الَّتي اشتريتها صباحاً. ما تبقَّى من البفتة كان منسيَّاً على الأرض حيث تركته من أسبوع مضى، فلذلك بدا جافاً إذ لم تسق ريناتا الزَّرع، لكنَّه لم يمت.

ما إن أباشر بتنسيق الباقة حتَّى أسألها: «لمَ لم يأت إيرل؟».

كانت نظرات المرأة تتنقَّل ما بين عملي والواجهة، فبدت بحركاتها كعصفور حبيس.

«أرادني أن أقابلك».

لم أنبس ببنت شفة ولم أرفع ناظري حتَّى. لكن، ومن خلال نظرة عابرة، رأيتها تمسِّد شعرها البنِّيَّ المائل إلى الحمرة من جذوره. يبدو أنَّ اللون يغطِّي ما أظنُّه خصلات شيب.

«يعتقد أنَّ بمقدورك تنسيق باقة لي تحمل لمسة مميزة».

«لأيِّ غرض تريدينها؟».

تتمهَّل وتسرِّح نظرها عبر النافذة مرَّة أخرى. «أنا عزباء، ولا أريد أن أبقى على هذه الحال».

أنظر حولي. نجاحي مع إيرل أكسبني الثِّقة. أتَّخذ قراري بحاجتها إلى زهور حمراء وليلك، ولم أشتر أيَّاً منها، بل تقصَّدت تجنُّبها.

«هل تستطيعين القدوم السَّبت القادم؟».

أومأت برأسها بالموافقة. «يعلم الله أنَّ الانتظار ديدني»، تقولها وهي ترفع عينيها. تتابع بصمت أصابعي وهي تحوِّم حول الشَّبث. بعد عشرة دقائق، ونحن نخرج من الباب، بدت أكثر

إشراقاً وهي تقطع المكان مهرولة باتِّجاه مسكن إيرل كامرأة أكثر شباباً.

أركب الحافلة إلى المكتبة الرَّئيسة صباح اليوم التَّالي، وأنتظر عند درجات السُّلَّم حتَّى فتحت أبوابها. لم يطل بي الوقت حتَّى عثرت على مطلبي. الكتب الَّتي تتناول لغة الزُّهور كانت في الطَّابق العلوي، محشورة بين مجموعات شعراء العصر الفيكتوري ومجموعة واسعة من كتب البستنة. وجدت أكثر ممَّا توقعت، وكانت تتراوح ما بين الكتب القديمة المتهالكة ذات الغلاف القاسي مثل الَّذي أحمله معي، والكتب المصوَّرة ذات الغلاف الورقي والَّتي تبدو وكأنَّها جمعت من فوق طاولات المقاهي العتيقة. ميزة واحدة جمعت كلَّ هذه الكتب: أن يداً لم تمتدَّ إليها منذ سنوات. أخبرتني اليزابيث أنَّ لغة الزَّهور كانت فرعاً معرفياً شائعاً في وقت من الأوقات، ودائماً ما يدهشني تراجعها إلى مصافِّ المجهول والافتراضي. أكدِّس من الكتب ما استطاعت حمله ذراعاي المرتجفتان.

عند أقرب طاولة أفتح مجلَّداً بغلاف جلدي، وما كان عنواناً مذهَّباً في يوم من الأيام تحوَّل إلى ما يبدو كغبار ذهبي مبعثر. آخر تاريخ ختم على البطاقة التَّعريفية الموجودة في الجيب الدَّاخلي يعود إلى ما قبل مولدي. يحتوي الكتاب على تاريخ كامل للغة الزُّهور، فينطلق من القاموس الأساسي للزُّهور، والَّذي نشر في فرنسا في القرن التَّاسع عشر وتضمَّن قائمة طويلة من العائلة الملكية الَّتي

تواصَل أفرادها بلغة الزُّهور، موضِّحاً بالتَّفصيل الأكاليل الَّتي تبادلوها. تصفَّحت الكتاب حتَّى نهايته حيث يعرض لقاموس مختصر عن الزُّهور. لكنَّ الحور الأبيض لم يكن مدرجاً فيه.

تصفَّحت نصف دزِّينة إضافية من الكتب، وراح فضولي يزداد مع كلِّ كتاب أمرُّ على محتواه. كنت متهيِّبة من اكتشاف مغزى ردِّ الغريب، لكنِّي كنت أكثر تهيُّباً من عدم التَّوصل إلى التَّعريف المطلوب وبالتَّالي الجهل التَّامَّ بما أراد قوله. بعد مضيِّ عشرين دقيقة من البحث، أقع أخيراً على ما كنت أبحث عنه، سطر وحيد محشور قبل كلمتي خوخ وخشخاش. الحور الأبيض: **الزَّمن**. أتنفَّس الصُّعداء وقد انتابتني راحة ممزوجة بالارتباك.

أغلق الكتاب وأسند رأسي إلى غلافه البارد. الزَّمن مقابل الوقاحة. كان هذا أكثر تجريداً ممَّا أملت نفسي، **الزَّمن كفيل بكشف المخبوء؟، امنحيني الوقت الكافي؟** بدا ردُّه غير محدَّد. من الواضح أنَّه لم يتعلَّم من اليزابيث. أقلِّب الكتب، كتاباً تلو الآخر، والأمل يحدوني في إيجاد تعريف أعمق لمعنى الحور الأبيض، لكنَّ البحث في المجموعة كلِّها كان بلا طائل إذ لم يكشف عن مدلول آخر. لم أندهش لهذا، إذ ليس للحور، وهي شجرة، أن تصبح خياراً، كنبتة، لبدء تواصل رومانسي، فإهداء عصي خشبية لن يشعل شرارة الشَّغف، كذلك لن تفعل القشور الطّويلة للِّحاء.

كنت على وشك إعادة الكتب إلى الرُّفوف حين وقعت عيني على كتاب جيب تظهر على غلافه أزهار مرسومة ضمن شبكة

مـن مربعـات صغـيرة، وبطباعـة دقيقـة ينـدرج تعريـف أسـفل كلِّ صـورة. في الصَّـفِّ السُّـفلي تظهـر رسـومات جميلـة العـرض لزهـور بتدرُّجات لـون مختلفـة. وأسـفل الزَّهـرة ذات اللَّـون الأصفـر الباهـت تظهـر كلمـة غـيرة.

لـو كانـت أيَّ زهـرة ثانيـة لما لفـت نظـري التَّعـارض. لكنَّـني لـن أنسـى مـا حييـت الحزن الَّـذي اكتسـى وجـه اليزابيـث عندمـا أشـارت إلى شـجيراتها ذات الزُّهـور الصَّفـراء، أو الحـرص الَّـذي تبديـه وهـي تقـصُّ كلَّ برعـم حديـث البـزوغ في الرَّبيـع، لتتركهـا تيبـس وهـي مكوَّمـة قـرب سـور الحديقـة. استبدال عـدم الإخـلاص بالغـيرة غـيَّر المعنـى بكلِّيتـه، فـالأوَّل فعـل، والثَّـاني مجـرَّد شـعور. أفتـح الكتـاب الصَّغـير وأتصفَّـح صفحاتـه، ثـم أضعـه جانبـاً وأنتقـل إلى كتـاب آخـر.

تنقـضي سـاعات وأنـا أمـرُّ عـلى مئـات مـن الصَّفحـات المـلأى بالمعلومـات الجديـدة. أتجمَّـد في مقعـدي، فيـما صفحـات الكتـب هـي مـن يتقلَّـب. كلَّـما مـررت بزهـرات أقاطـع كلَّ مـا أحفـظ بـما حوتـه القواميـس المكدَّسـة عـلى الطاولـة.

لم يطـل بي الأمـر حتَّـى أدركـت أنَّ اليزابيـث كانـت عـلى خطـأ بشـأن لغـة الزُّهـور، كـما كانـت عـلى خطـأ بشـأني.

(١٣)

على الدَّرجات الأمامية تجلس اليزابيث وهي تغمس قدمها في إناء فيه ماء. بدت لي صغيرة الحجم من حيث وقفت عند موقف الحافلة، وبدا كاحلاها المكشوفان شاحبين.

ترفع نظرها حين أقترب منها، فتتنبَّه أعصابي. لم تكن قد راقت تجاهي، هذا أمر أعرفه. في ذلك الصباح، أعلنت صرخة اليزابيث اكتشافها لشوك الصبَّار، تلاها صوت طرق عالي لكعب خشبي يضرب الأرضيَّة المشمَّعة. نهضت ولبست واستعجلت النُّزول على الدرج، لكن، حين دخلت المطبخ كانت قد جلست إلى الطَّاولة تتناول وجبة الشُّوفان بهدوء. لم ترفع ناظرها عندما دخلت الغرفة، كما لم تنطق بكلمة حين جلست إلى الطاولة.

أغضبني انتفاء ردُّ الفعل لديها فأصرخ **ماذا ستفعلين بي؟**، ليباغتني ردُّ اليزابيث. تخبرني، وعيناها ممتلئتان تهكُّماً، أنَّ الصَّبَّار يعني الحبَّ المتَّقد. وعلى الرَّغم من أنَّ حذاءها قد لا يُصلح أبداً، إلَّا أنَّها صرَّحت بتقديرها للعاطفة. أهزُّ رأسي كثيراً، لكنَّ اليزابيث ذكَّرتني بما سبق وشرحته لي في الحديقة، أنَّ لكلِّ زهرة معنى واحداً لتجنُّب تضارب المعاني. أتناول حقيبتي وأتوجَّه نحو الباب، لكنَّ اليزابيث تلحقني، لأحسَّ بباقة تلتصق بنقرتي. تسألني **ألا تريدين**

رؤية ردِّ فعلي؟، فأستدير لأجدني في مواجهة بتلات قرمزية رقيقة. تخبرني عنها قائلة «هذه زهور الحمحميَّة، أي **العاطفة الصَّادقة**».

لم أتوقَّف حتَّى للتنفُّس، لكنَّ ما صدر عنِّي بعدها بدا كالحسيس. «الصبَّار يعني أنِّي أكرهك»، أقولها وأنا أصفق الباب في وجهها.

يمضي يوم مدرسي ويهمد غضبي، بل يتحوَّل إلى ما يشبه الأسى. لكنَّ اليزابيث تبسَّمت حين رأتني وعلت تقاسيمها أمارات التَّرحيب كما لو أنَّها نسيت تماماً تصريح الكراهية الَّذي أطلقته تجاهها منذ ساعات خلت.

تسألني: «كيف كان يومك الأوَّل في المدرسة؟».

فأجيبها: «فظيع». أصعد الدَّرج درجتين درجتين ورجلاي تمتدان على كامل طولهما في محاولة منِّي لتجاوز اليزابيث، لكنَّ أصابعها الهزيلة تطير وتطبق على كاحلي.

تأمرني بقولها: «اجلسي». عطَّلت قبضتها المحكمة محاولتي للهرب، فأستدير وأجلس على درجة أخفض من درجتها كي أتجنَّب عينيها، لكنَّها تسحبني من ياقتي حتَّى صرنا وجهاً لوجه.

«هكذا أفضل»، تقولها وهي تناولني طبقاً فيه شرائح من الأجاص وفطيرة. «كلي الآن، لديَّ مهمَّة لك قد تستغرق وقت الظَّهيرة كله، وستبدئين بها حالما تنتهين من تناول هذا».

ما يغيظني هو أنَّ اليزابيث طاهية ماهرة. هي تهتمُّ بغذائي كثيراً، لكنِّي فوق ذلك أعود طلباً للجبنة الأميركية المخبَّأة في درج طاولتي. كانت قطع الأجاص مقشَّرة ومنزوعة البذر، والفطيرة محشوَّة بقطع ساخنة من الموز ورقائق زبدة الفستق المذابة. ألتهم كلَّ شيء، وعندما أنتهي أناولها الطَّبق وأتناول كأساً من الحليب منها.

«حسن. يفترض بك الآن القدرة على العمل بغضِّ النَّظر عن الوقت الَّذي يتطلَّبه إزالة كلِّ شوكة من داخل حذائي». تحدِّثني وتناولني قفَّازين جلديين أكبر بكثير من مقاس كفيّ، إضافة إلى ملقط ومصباح يدوي. «وعندما تنتهين، ستلبسينه في قدميك وستصعدين به الدَّرجات وتنزلينها ثلاث مرات، إلى أن أحكم بنجاحك في المهمَّة».

أطوِّح بالقفَّازين من على الدَّرج فيهويان على التُّراب ككفَّين نسيهما الزمن. أقحم يديَّ العاريتين في ظلمة حذائها لتبدأ أصابعي رحلة البحث عن الشَّوك المغروز في الجلد الأملس. أعثر على شوكة فأنتشها بظفريّ وأسحبها ثم أنقفها إلى الأرض.

تتابع اليزابيث عملي بتركيز وصمت: ابتدأت بالجلد من الدَّاخل، ثمَّ انتقلت إلى الجوانب، لأنتهي بالمقدِّمة حيث انتهى الأمر بإبهام القدم. كان الحذاء الَّذي انتعلته اليزابيث هو الأقسى، وبسبب وزنها دكَّت الأشواك في جلده، فرحت أنتزع كلَّ واحدة بالملقط كجرَّاح تنقصه الخبرة.

تسألني اليزابيث وقد شارفت على إنهاء عملي: «إذاً، إن لم يكن يعني الحبَّ المتَّقد، فماذا يعني؟ إن لم يكن إخلاصك التَّام والتزامك العاطفي لي فلمن هو؟».

أجيبها: «أجبتك قبل ذهابي إلى المدرسة. الصَّبَّار يعني أنَّني أكرهك».

تردُّ اليزابيث عليَّ بحزم: «لا، يمكنني أن أدلَّك على زهرة الكراهية إن أردت، لكنَّ كلمة «كراهية» كلمة عامة. هي يمكن أن تكون انفعالاً أو تمرُّداً، ويمكن أن يسبِّبها النُّفور، وكذلك الخوف. لو تخبريني كيف تشعرين بالضَّبط، لأمكنني مساعدتك في إيجاد الزَّهرة الصَّحيحة الَّتي تبلِّغ رسالتك».

أنفجر قائلة: «لا أحبُّك، لا أحبُّ رميك لي خارج البيت، أو إلقاءك لي في حوض الجلي. لا أحبُّ لمسك لظهري أو إمساكك لوجهي أو إجبارك إيَّاي على اللَّعب مع بيرلا. لا أحبُّ زهورك أو رسائلك أو أصابعك الهزيلة. لا أحبُّ أيَّ شيء يخصُّك، كما لا أحبُّ أيَّ شيء يخصُّ العالم أيضاً».

بدت اليزابيث منبهرة فعلاً بمونولوجي الطَّافح بالكراهية: «هذا أفضل بكثير. الزَّهرة الَّتي تبحثين عنها هي بوضوح زهرة الشَّوك المعروفة، وهي ترمز إلى بغض بني البشر، أي كراهية النَّاس أو انعدام الثقة بهم».

«هل بنو البشر تعني كلَّ النَّاس؟».

«بلى».

رحت أتفكَّر في هذا، بغض بني البشر. لم يسبق لأحد قط أن وصف مشاعري بعبارة واحدة. أخذت أكرِّرها بيني وبين نفسي حتَّى توثَّقت من أنَّني لن أنساها.

«هل لديك زهرة منها؟».

« طبعاً. أنهِ عملك وسنبحث سويَّةً عنها. لديَّ مكالمة هاتفية، ولن أغادر المطبخ حتَّى أجريها. وعندما ننتهي كلتانا من واجباتنا، سنمضي معاً لنبحث عن الشّوك».

تمضي اليزابيث إلى الدَّاخل وهي تعرج، وعندما تصدر عن باب المنخل تكَّة الإغلاق، أهرول صاعدة الدَّرجات وأجثم تحت النَّافذة. أمرِّر يدي على الجلد الأملس للحذاء باحثة عن أيِّ شوكة قد أكون تجاوزتها. إذا كانت اليزابيث ستجري أخيراً المكالمة الهاتفية الَّتي تحاول منذ أيَّام القيام بها، فأنا أريد التنصُّت عليها. فأن تجد اليزابيث صعوبة في قول شيء، وهي الَّتي لم يبد أنها تلعثمت قطُّ بكلمة واحدة، لهو أمر مثير للاهتمام. أسترق النَّظر عبر النَّافذة فأجدها تجلس إلى طاولة المطبخ. تدير القرص سبع مرات بسرعة ثم تنصت للرَّنَّة الأولى ربما، لتقطع المكالمة بعدها. تدير القرص ثانية ببطء، وهذه المرَّة تضع السَّماعة على أذنها. من حيث جلست خارج النَّافذة استطعت أن أراها وقد حبست أنفاسها. تنصت لفترة طويلة.

تنطق أخيراً. تضغط بيدها على السَّماعة ويندُّ عنها صوت هو بين النَّحيب والنَّشيج وهي تقول: «كاثرين»، لأراها تمسح مآقيها. تقرِّب السَّمَّاعة من فمها مجدَّداً وتقول: «أنا اليزابيث». تصمت ثانية، فيما كنت أصغي بتركيز محاولة سماع الصَّوت القادم من الطَّرف الآخر، لكنَّني أعجز. تابعت اليزابيث الحديث بصوتها المتهدِّج: «أعلم أنَّ خمس عشرة سنة قد مرَّت، وأعلم أنَّك لربَّما ظننت أنَّك لن تسمعي صوتي ثانية. ولكي أكون صادقة معك أنا أيضاً اعتقدتُّ أنَّك لن تسمعي صوتي ثانية. لكن، صار لديَّ ابنة الآن ولا أستطيع منع نفسي من التَّفكير بك».

أيقنت حينها أنَّ اليزابيث كانت تتحدث إلى المجيب الآلي وليس إلى شخص حقيقي. تتدفَّق الكلمات منها تباعاً وقد اكتسبت زخماً، فتقول: «تعرفين، أوَّل شيء تفعله كلُّ النِّساء اللَّواتي يصبح لديهنَّ أطفال هو الاتِّصال بأمَّهاتهن. يردن أمَّهاتهن إلى جانبهن، حتَّى اللَّائي يكرهن أمَّهاتهن». تضحك اليزابيث عندها، فيسترخي كتفاها اللَّذان كانا مشدودين تقريباً حتَّى أذنيها، وتتلاعب أصابعها بشريط الهاتف. «أتعرفين هذا؟ استوعبت الأمر الآن، إنَّما بطريقة مختلفة تماماً. أما وقد رحل أبوانا فلم يبق لي إلَّاك. أنت لا تبارحين ساحة تفكيري طوال الوقت، لدرجة أنَّني لا أستطيع التَّفكير بشيء آخر». تسكت اليزابيث، ربَّما لتقلِّب في فكرها ما ستقوله تالياً، أو كيف ستقوله. «لم أنجب طفلاً، ما عنيته هو أنَّني كنت سأتبنَّى واحداً، لكن، انتهى المطاف بي مع

فتاة عمرها تسع سنوات. يوماً ما سأقصُّ عليك كامل القصَّة، عندما ألقاك، وأرجو أن ألقاك. بكلِّ الأحوال، عندما ستقابلين فيكتوريا ستفهمين، فلها تلك العينان الوحشيَّتان اللَّتان كنت أملكهما في صغري، بعد أن اكتشفت أنَّ الأسلوب الوحيد لإخراج أمِّنا من غرفتها كان بإشعال النَّار في الدُّهن على المدفأة، أو بتحطيم المعلَّبات الحافظة لموسم الدُّرَّاق كاملاً». تعاود اليزابيث الضَّحك وتمسح عينيها. استطعت أن ألحظ أنَّها تبكي، مع أنَّها لم تبد حزينة. «هل تذكرين؟ حسن، أنا أتَّصل كي أخبرك أنَّني سامحتك عمَّا حدث. لقد مرَّ زمن طويل، بل حياة بأكملها مرَّت في الحقيقة. كان عليَّ الاتِّصال قبل عدَّة سنوات، وإنِّي لأشعر بالنَّدم إذ لم أفعل. أرجو أن تتَّصلي بي، أو أن تأتي لزيارتي، فقد اشتقت إليك. كما أنِّي أريد رؤية غرانت، أرجوك». تترقَّب اليزابيث منصتة، ثم تضع السَّمَّاعة بهدوء، حتَّى أنَّني بالكاد سمعت تكَّتها وهي تغلقها.

أهرول نازلة الدَّرج وأبدأ التَّحديق في حذاء اليزابيث باهتمام والأمل يحدوني أنَّها لن تعرف أنَّني كنت أسترق السَّمع. تظهر في النِّهاية من المطبخ وتنزل الدَّرج وهي تعرج. كانت قد جفَّفت دموعها، لكنَّ عينيها لا زالتا تترقرقان. بدت أكثر حيوية، وحتَّى أكثر سعادة من أيِّ حال رأيتها عليه يوماً. تخاطبني قائلة: «الآن، دعيني أرى مقدار نجاحك في مهمَّتك. جرِّبي الحذاء على قدميك».

ألبس حذاءها، وأخلعه لأقتلع شوكة من تحت إبهام قدمي

كنت قد غفلت عنها، ثمَّ أعاود انتعاله. أصعد وأنزل الدَّرج ثلاث مرات.

«سلمت»، تتوجَّه بها إليَّ وهي تنتعل فردة الحذاء في قدمها السَّليمة، ثمَّ تتنهَّد بسعادة: «أفضل بكثير جداً»، وتنهض ببطء. «اركضي الآن إلى المطبخ وأحضري مرطبان مربَّى فارغاً من الخزانة الَّتي تحوي الكؤوس، مع فوطة تجفيف أطباق، والمقصَّ الموجود على طاولة المطبخ».

فعلت كما طلبت، وعندما عدت وجدتُّها تقف عند آخر درجات الدَّرج تجرِّب تأثير ثقل وزنها على قدمها المصابة. نقّلت نظرها بين الطريق وحديقتها فالطَّريق ثانية، وكأنَّها تحاول تحديد وجهتنا.

تتحدَّث قائلة: «الشَّوك موجود في كلِّ مكان. وهذا ما يفسِّر ربَّما سبب قسوة القلب المنتشرة بين البشر بلا هوادة تجاه بعضهم البعض». تخطو خطوتها الأولى باتِّجاه الطَّريق وتكشِّر. «عليك مساعدتي وإلَّا فلن ننجز مهمَّتنا أبداً»، تقول ذلك وهي تمدُّ يدها باتِّجاه كتفي.

أسألها وأنا أروغ عن لمستها: «أليس لديك عكَّاز أو ما شابه؟».

تطلق اليزابيث ضحكة وتردُّ: «لا، هل لديك أنت؟ لست عجوزاً على الرَّغم ممّا تظنِّين». تمدُّ يدها نحوي فلا أبتعد عنها هذه المرَّة. كانت طويلة جداً فتوجَّب عليها الانحناء كي تتكئ

علـى كتفـي. بدأنـا نخطـو ببـطء باتِّجـاه الطريـق. توقَّفـت مـرَّة واحـدة لتعـدِّل حذاءهـا ثـم واصلنـا مسـيرنا. أحـسُّ بكتفـي يكـوى بنـار قبضتهـا.

عندمـا وصلنـا إلى الطَّريـق تطلـق اليزابيـث كلمـة: «هنـا». تفـترش الحصـا وتستند إلى القائـم الخشـبيِّ لصنـدوق البريـد. «أتريـن؟ موجود في كلِّ مـكان». تشـير إلى الخنـدق الَّـذي يفصـل الطَّريـق الرَّئيـس عـن صفـوف الكـرم. كان عمقـه يعـادل طـولي، مليئـاً بالنَّباتـات اليابسـة الميتـة، دون أن تظهـر زهـرة في المـكان.

يخيب أملي فاقول: «لا أرى شيئاً».

فـتردُّ علـيَّ: «انـزلي إلى هنـاك». ألـفُّ وأنزلـق فـوق الجنـب الـتُّرابي المنحـدر. تناولنـي البرطـمان والمقـصَّ. «فتِّـشي عـن زهـرات بحجـم حجـر النـرد، كان لونهـا أرجوانيـاً يومـاً. المرجَّـح أن تـذوي في هـذا الوقـت مـن السَّـنة ليتحـوَّل لونهـا إلى البنِّـي، مثلهـا مثـل كلِّ شيء في كاليفورنيـا الشـمالية. إبرهـا حـادة، لـذا اقطفيهـا بحـذر حـين تجدينهـا». آخـذ البرطـمان والمقـص وأتكـوَّم بـين الأعشـاب. كانـت الأجمة كثيفـة ذهبيَّـة اللَّـون، ورائحتهـا تذكِّـر بانقضـاء فصـل الصَّيـف. أقطـع نبتـة جافَّـة مـن جذرهـا. كانـت متطاولـة في مكانهـا وتحفُّهـا الأعشـاب مـن كلِّ جانـب حولهـا فتدعـم وقفتهـا. أفصلهـا وأرميهـا في حضـن اليزابيـث متسـائلة: «أهـذه هـي؟».

«نعم هي، لكن هذه بلا أزهار. تابعي البحث».

أتسلَّق بضعة سنتيمترات قليلة من جانب الخندق علَّني أحظى برؤية أفضل، لكنِّي لا ألمح شيئاً بلون أرجواني. ألتقط حجراً وأقذفه من يأسي بقوة قدر استطاعتي، فيرتطم بالجانب المقابل ويرتدُّ باتِّجاهي ليجبرني على الزَّيغ من طريقه، فتضحك اليزابيث.

أثب مجدَّداً بين الأعشاب وأفرِّق جمعها بيديّ متفحِّصة كلَّ ساق يابسة. أخيراً تنطلق منِّي كلمة «وجدتها»، وأقتلع برعماً بحجم البرسيم وأرمي به في البرطمان. بدت الزَّهرة مثل سمكة نفاخ صغيرة ذهبية اللَّون بخصلة ذاوية من شعر أرجواني اللَّون. أتسلَّق الخندق باتِّجاه اليزابيث لأريها الزَّهرة التي كانت تتخبَّط داخل البرطمان كما لو أنَّ الرُّوح دبَّت فيها. أسدُّ فم البرطمان بكفِّي خشية انفلاتها.

«الشَّوك»، أقولها وأسلِّمها البرطمان، ثم أضيف: «من أجلك». أمدُّ يدي باتِّجاهها على نحو أخرق وأربِّت على كتفها تربيتة واحدة. لربَّما كانت هذه المرَّة الأولى في حياتي كلِّها الَّتي أبادر فيها إلى إقامة اتِّصال مع إنسان آخر، على الأقل حسبما أذكر. أخبرتني ميريديث أنَّني كنت طفلة تهوى التشبُّث، فكنت أمدُّ يدي وأتشبَّث بالشَّعر، أو بالأصابع إن وُجدت، أو بشرائط مقعدي في عربة الأطفال إن لم أقع على غيرها، مستعملة قبضتيَّ الأرجوانيَّتين الخافقتين كالأجنحة. لكنِّي لا أذكر أيّاً من هذا. أدهشني فعلي، أعني الاتِّصال السَّريع الَّذي وقع بين راحتي وكتف اليزابيث.

أتراجع وأنا أزورها كما لو أنَّها هي من دفعني إلى فعل ما فعلت.

لكنَّ اليزابيث تبسَّمت وحسب. تخاطبني قائلة: «لو أنَّني لا أعرف معناها لتهت طرباً. أظنُّه ألطف ما بدر منك تجاهي، وكلُّ هذا لتعبِّري عن كرهك وانعدام ثقتك بالبشر». للمرَّة الثانية في تلك الظهيرة تغرورق عيناها، وكما في المرَّة السَّابقة، لم تظهر عليها علامات الأسى.

تمدُّ يدها كي تضمَّني، لكن، قبل أن تتمكَّن من جرّي إليها أتملَّص من ذراعيها ومنه إلى الخندق.

(١٤)

أخـذت الحالـة الصُّلبـة للكـرسي الَّـذي أجلـس عليـه في المكتبـة تتحـوَّل إلى سـائلة. ودونـما وعـي منِّـي حيـال هـذا، أجـدني منسـدحة عـلى أرض المكتبـة والكتـب تتحلَّـق مـن حـولي. كلَّـما قـرأت، كلَّـما شـعرت بـأنَّ مـا فهمتـه عـن الدُّنيـا مـن حـولي ينقشـط عنِّـي. فهـا هـي زهـرة الحـوض ترمـز إلى **الهجـر والحماقـة** كليهـما؛ وبـات الخشـخاش يـدلُّ عـلى **الخيـال والتَّهـور** معـاً. وتلكـم زهـرة اللَّـوز الَّتـي ترمـز إلى **الطَّيـش** في قامـوس اليزابيـث، يظهـر لهـا مدلـول في قواميـس أخـرى بمعنـى **الأمـل**، ونـادراً مـا تعنـي **التَّسـرُّع**. لم تكـن التَّعريفـات مختلفـة وحسـب، بلـه متناقضـة غالبـاً. حتَّـى الشَّـوك، الَّـذي هـو قـوام تواصلي، ظهـر أنَّـه يعنـي **بغـض البشر**، فقـط عندمـا لا يعـرف بأنَّـه رمـز **القسـوة**.

مـع ارتفـاع الشَّـمس، ترتفـع درجـة الحـرارة في المكتبـة. وعنـد وصـول الظَّهـيرة إلى فـترة الـزَّوال، كان العـرق يـزرب منِّـي، فـصرت أمسـح جبهتـي بكفّـي المبلَّلـة كـما لـو كنـت أحـاول مسـح الذِّكريـات مـن فكـر مضنـى. قدَّمـت لميريديـث ورد الحميـد، التـي تعنـي **الغضـب**، لكـن، ظهـر أنَّهـا تعنـي **الخـزي** أيضـاً. أعـترف أنَّ معنـى الخـزي أقـرب إلى الاعتـذار بمدلولـه عـمَّا أملـت يومـاً أن أحصـل عليـه مـن ميريديـث. فـإن كانـت لتفعـل شـيئاً، فعليهـا أن تأتينـي بباقـات وباقـات مـن ورد

الحميد، وتجلِّل أغطية السَّرير بورد الحميد، وتخبز الكعك المغطَّى بورد الحميد. وإذا ما أسيء فهم المعنى الَّذي تحمله زهرة ورد الحميد، فكم من مرَّة، ومع كم من شخص، أخطأت في الحديث؟ جعلت الفكرة معدتي تتقلَّص.

تأرجحت خياراتي بشأن تاجر الزَّهور فبدت كأنَّها إنذار مجهول. ارتبطت الورديَّة بشدَّة بمعنى **التَّحذير** في كلِّ قاموس موجود أمامي، لكن هناك ربَّما مئات، إن لم نقل آلاف، القواميس المتداولة. كان من المستحيل معرفة كيفيَّة تأويله لرسائلي، أو ما يجول في خاطره وهو جالس في محلِّ بيع الفطائر. لقد تجاوزت السَّاعة الخامسة، ولابدَّ أنَّه ينتظر وعيناه معلَّقتان على الباب.

عليَّ الانصراف. أترك الكتب مبعثرة على أرضيَّة المكتبة، وأقطع درجات السَّلالم الأربعة وثباً، وأخرج، لتستقبلني سماء سان فرانسيسكو المعتمة.

حين وصلت محلَّ الفطائر كانت السَّاعة قد قاربت السَّادسة. أدفع البابين الزُّجاجيَّين لأجده يجلس وحيداً في مقصورة وأمامه نصف دزِّينة من الفطائر موضوعة في صندوق ورديِّ اللون.

أتَّجه صوب الطاولة إنَّما دون أن أجلس.

أسأله، كما فعلت يوماً اليزابيث: «الوردية»

«**التَّنبيه**»

«الدَّبق»

«أتجاوز كلَّ المعيقات»

أومئ وأتابع: «فم السَّمكة»

مكتبة
t.me/t_pdf

« تباه»

«الحور الأبيض»

«الزمـن». أومـئ ثانيـة وأنثـر بـين يديـه الأشـواك القليلـة الَّتـي جمعتهـا أثنـاء تسـكُّعي في المدينـة، فيقـول «الشَّـوك المعـروف يعنـي بغـض البـشر».

أحتلُّ مكاني إلى الطَّاولة. كان ذلك اختبار وقد نجح فيه. لكنَّ ارتياحي افتقر إلى التَّجانس مع إجاباته الخمس الصَّحيحة. يدهمني شعور مفاجئ بالجوع فأتناول من الصُّندوق فطيرة جافَّة كعود من الخشب. لم أكن قد تناولت شيئاً طوال النَّهار.

يسألني وهو يتناول واحدة بالشوكولا من الطَّرز المألوف: «لم الشَّـوك؟».

بـين لقمتـين كبيرتـين أردُّ عليـه: «لأنَّ هـذا كلّ مـا تحتـاج إليـه لتعرفنـي».

ينهـي فطيرتـه ويبـدأ بتنـاول واحـدة ثانيـة. يهـزُّ رأسـه ويقـول «غـير ممكـن».

أتناول فطيرة مغطَّاة بطبقة لَّاعة، وأخرى مرشوشة بقطع سكَّر ملونة، وأضعهما على منديل. كان يأكل بسرعة كبيرة فخشيت أن يفرغ الصُّندوق قبل أن أنهي قطعتي الأولى.

أسأله وفمي ملآن: «حسن، وماذا أيضاً؟».

يتوقَّف ثم ينظر في عينيَّ.

«أين قضيت السَّنوات الثَّماني الماضية؟».

يصدمني سؤاله.

أتوقَّف عن المضغ، أحاول بلع ما في فمي، لكنِّي كنت قد حشوته بلقمة بالغة الكبر. أبصق كرة بنِّية في منديل وأرفع ناظري.

تتبدَّى لي الأمور دفعة واحدة. كان الاكتشاف صادماً لوضوحه بقدر حقيقة أنَّنا التقينا ثانية. لا أصدِّق أنَّني لم أعرفه مباشرة. الصَّبي الَّذي كان عليه يتوارى في الرَّجل الَّذي أصبح عليه. مازالت عيناه عميقتين وقلقتين، وجسده، الَّذي امتلأ الآن، مازال مقوَّساً عند الكتفين، تحسُّباً. تعود بي الذَّاكرة إلى المرَّة الأولى الَّتي رأيته فيها، فتى طويلاً ونحيلاً يستند إلى ظهر شاحنة ويرمي الزُّهور.

«غرانت».

يومئ بالإيجاب.

غريزتي تدفعني إلى الهرب. لقد أمضيت سنوات طويلة وأنا

أحاول أن لا أفكِّر بما فعلت، كما أحاول أن لا أتذكر كلَّ ما فقدت. لكن، بقدر رغبتي في الهرب، كانت رغبتي بمعرفة ما حدث لاليزابيث وللكرم أقوى.

أغطِّي وجهي بكلتا راحتي فتندُّ عنهما رائحة الفطائر. من فرجة بين أصابعي أطلق سؤالي همساً، غير واثقة على الإطلاق أنَّه سيجيب: «فماذا عن اليزابيث؟».

يبقى صامتاً. أتلصَّص عليه من بين الخطوط اللَّحمية. لم يبد عليه الغضب كما توقَّعت، بل الأسى. يسحب خصلة من الشَّعر فوق أذنه، فيما الجلد يتمادى بعيداً عن فروة رأسه: «لا أعرف، لم أرها منذ ...».

يصمت. ينظر إلى النَّافذة ثم ينظر إليَّ. أنزل يديَّ عن وجهي، وأنتظر انفجار غضبه. لكن، بدا الألم على محيَّاه وحسب. ويتكاثف الصَّمت بيننا.

أنطق في النِّهاية: «لا أعرف لم طلبت منِّي أن نتقابل هنا بعد كلِّ ما جرى».

يزفر غرانت، وقد تلاشى التوتُّر عن حاجبيه. «كنت أخشى أن لا ترغبي في رؤيتي».

يلعق إصبعه. ينير ضوء المصباح الأبيض عينيه، وينعكس من على لحيته الخفيفة. عموماً أنا غير معتادة على الذُّكور كوني قضيت

فترة مراهقتي في سكن جماعي للإناث، مع ظهور عابر لطبيب أو لمدرِّس، ولا أذكر أنِّي كنت قريبة على هذا النَّحو من رجل شابٍّ وسيم. كان غرانت مختلفاً عن كلِّ شخص عرفته، من حجم يديه الثَّقيلتين فوق الطَّاولة، إلى صوته المنخفض والهادئ الَّذي يتردَّد في جنبات الصَّمت المقيم بيننا.

أسأله وأنا أشير إلى الشَّوك المبعثر: «أهي والدتك الَّتي علَّمتك؟».

يومئ بالإيجاب. «ماتت منذ سبع سنين. فم السَّمكة كانت أوَّل زهرة تحمل رسالة أتلقَّاها منذ وفاتها. أدهشني أنَّني لم أنس المعنى».

«آسفة بشأن أمك». لم تبد كلماتي صادرة من القلب، إنَّما يبدو أنَّ غرانت لم ينتبه إلى هذا. يهزُّ كتفيه ويسأل: «أهي اليزابيث الَّتي علَّمتك؟».

أومئ برأسي وأجيب: «علَّمتني ما تعرف، لكنَّها لم تك تعرف كلَّ شيء».

«ماذا تعنين؟».

«لغة الزُّهور يا فيكتوريا لا تحتمل الجدال»، أقولها بنبرة تماشي نبرة صوت اليزابيث. «اليوم، في المكتبة، عرفت أنَّ هناك ثلاثة معانٍ متضاربة لزهرة اللَّوز».

« **الطَّيش**».

«نعم ولا».

أخبر غرانت أنَّ الحور الأبيض لم يكن مدرجاً في القاموس الَّذي معي، وأخبره عن رحلتي إلى المكتبة ورؤيتي للوردة الصَّفراء.

«**الغيرة**»، يخبرني غرانت بعد أن وصفت له الرَّسم الموجود على غلاف الكتاب.

أجيبه: «هذا بالضَّبط ما يقوله، لكن، ليس هذا ما تعلَّمته». أنهي تناول آخر فطيرة فألعق أصابعي وأخرج قاموسي المهترئ من حقيبة الظَّهر. أفتح على باب الواو وأمسح الصَّفحة بحثاً عن كلمة وردة بلون أصفر وأشير إليها.

« **الخيانة**». تتَّسع عيناه «ماذا؟».

«هذا يغيِّر كلَّ شيء، صحيح؟».

يردُّ: «طبعاً. يغيِّر كلَّ شيء».

يمدُّ يده إلى حقيبته ويخرج كتاباً بغلاف قماشيٍّ أحمر وصفحات أخيرة خضراء كسيقان النَّباتات. يفتح على فصل الورد الأصفر ويضع القاموسين جنباً إلى جنب. **الغيرة والخيانة**. هذا التَّعارض البسيط، وكيفيَّة قلب الوردة الصَّفراء لحياتينا، بقيت معلَّقة بيننا. لربَّما كان غرانت يعرف التَّفاصيل، لكنِّي لم أعرف، ولم أسأل. كان

يكفيني وجودي معه، فلا رغبة لديَّ في الغوص في مآلات الماضي أبعد من هذا.

لم يبد على غرانت، هو الآخر، الرَّغبة في نبش الماضي. يغلق علبة الفطائر. «أأنت جائعة؟».

أنا دوماً جائعة، لكن، ما هو أدهى من الجوع أنَّني غير مستعدَّة للوداع. لم يكن غرانت غاضباً. وجودي معه جعلني أشعر بنفحة غفران أردت التَّعلُّق بها، أن آخذها معي، أن ألاقي يومي التَّالي بنفسيَّة أقلَّ تأزُّماً، وأقلَّ كراهية.

آخذ نفساً وأقول: «أتضوَّر».

«وأنا كذلك». يغلق كلا القاموسين، ويمرِّر قاموسي إلى حيث قبعت حقيبتي. «لنتناول الطَّعام ونقارن. هذه هي الطَّريقة الوحيدة».

قرَّرنا أنا وغرانت أن نتناول الطَّعام في مطعم ماري لأنَّه يقدِّم خدماته طوال اللَّيل. هناك مئات الصَّفحات عن الزُّهور لنقارن معانيها، وحول كلِّ تعارض، كنَّا نتجادل بشأن المعنى الأمثل. اتَّفقنا أنَّ الخاسر منَّا سيقوم بمحو التَّعريف القديم من قاموسه وسيكتب التَّعريف الجديد.

علقنا عند أوَّل زهرة. قاموس غرانت عرَّف الأكاسيا **بالصَّداقة**، وقاموسي عرَّفها **بالحبِّ الخفي**.

«الحبُّ الخفي. التَّالي».

«التَّالي؟ هكذا؟ لم تتعبي نفسك بمراجعة الحالة».

«إنَّها شائكة وجرابيَّة الثَّمر. تمايل الشَّجرة هو ما يجعلك تفكِّر في الرِّجال زائغي النَّظر في محلَّات البقالة، غير أهل للثِّقة».

يسألني: «وما العلاقة بين غير أهل للثِّقة والحبِّ الخفي؟».

فأردُّ على سؤاله بسؤال: «وكيف لا توجد علاقة؟».

لم يبد غرانت واثقاً من كيفيَّة الإجابة لذا اختار مساراً مختلفاً. «الأكاسيا، من فصيلة الميموزيات، عائلة: القرنيَّات. خضرية. مصدر للرِّزق، للطَّاقة، وتمنح الرِّضا. الصَّديق الجيد يفعل الشَّيء ذاته».

أردُّ عليه: «كلام فارغ، خمس بتلات، صغيرة جَّداً لدرجة أنَّها تختفي تحت السَّداة الضَّخمة. تختفي، تختبئ. السَّداة أي ممارسة الحب». يحمرُّ وجهي حين أنطق بهذا، لكنِّي لم أدره، وكذلك غرانت.

«نعتمد تعريفك»، يقرِّر في النِّهاية ويمدُّ يده إلى قلم اللَّوح الأسود الموضوع على الطَّاولة بيننا.

أمضينا الوقت على هذا النَّحو ساعة إثر ساعة، ونحن نأكل ونتجادل. كان غرانت الشَّخص الوحيد الَّذي أقابله ويكون قادراً أن يردَّ لي الصَّاع بالصَّاع، وبدا مثلي تتنبَّه أعصابه عن آخرها. مع

شروق الشَّمس، كنَّا قد طلبنا وتناولنا ثلاث وجبات لكلٍّ واحد، وقد وصلنا عند منتصف الزُّهور الَّتي تبدأ بحرف التَّاء.

يعلن غرانت استسلامه بشأن معنى زهرة الحوض ويغلق قاموسه بعنف. لم أعطه فرصة للفوز ولو لمرَّة واحدة. «أعتقد أنَّني لن أذهب إلى السُّوق اليوم»، يقولها وهو يرمقني بنظرة لائمة.

أنظر في ساعتي، إنَّها السَّادسة صباحاً. ريناتا هناك بالتَّأكيد، ترنو باستغراب إلى محلِّ غرانت الفارغ. أهزُّ كتفي. «في شهر تشرين الثَّاني يتباطأ العمل. وكذلك الأمر في يوم الثُّلاثاء، فخذه إجازة».

يسألني: «وماذا أفعل فيه؟».

«كيف لي أن أعرف؟». يداهمني التَّعب فجأة والرَّغبة في البقاء بمفردي.

أنهض وأتمطَّى ثم أضع قاموسي في حقيبتي. أمرِّر الفاتورة إلى غرانت عبر الطاولة وأمضي خارجة من المطعم دون إلقاء تحيَّة الوداع.

الجزء الثَّاني

قلب بغو

(١)

كان غرانت عصيّاً على النِّسيان، مثله مثل اليزابيث، فالأمر يتجاوز مجرَّد تقاطع ماضي كلٍّ منَّا مع الآخر، ويتعدَّى رسمة الحور الأبيض بغموضها الَّذي قادني إلى الوصول إلى حقيقة لغة الزُّهور. بل إنَّ الأمر ارتبط بغرانت تحديداً، بالجدِّية الَّتي يتعامل بها مع الزُّهور، أو رنَّة صوته عندما يجادل، رنَّة تحمل خليطاً من الشَّفاعة والإقدام بآن معاً. هزَّ كتفيه عندما عبَّرت عن تعاطفي معه حيال وفاة أمه، وهذا بدوره جعلني أراه آسراً أيضاً. ماضيه كان غامضاً بالنَّسبة لي، باستثناء اللَّحظات الَّتي عشتها كطفلة. عادة ما تبوح المقيمات في السَّكن الجماعي بماضيهنَّ باسترسال، ونادراً ما قابلت من هي غير مستعدَّة للكشف عن تفاصيل طفولتها، فذلك يعتبر ضرباً من ضروب التَّفريغ. شعرت أنَّ الحال مختلف مع غرانت. فبعد ليلة واحدة فقط أردت أن أعرف المزيد.

داومت لمدَّة أسبوع على الاستيقاظ مبكِّرة وقضاء ساعات دوام المكتبة وأنا أقارن التَّعريفات. كنت أملأ جيوبي بحصى صقيل حصَّلته من واجهة عرض مقابل بيت الشَّاي الياباني في منطقة متنزَّه البوَّابة الذَّهبيَّة كي أستخدمها كأثقال للأوراق. أرتِّب القواميس فوق طاولتين وأفتح الاثنين على نفس الباب، ثم

أضع الحجارة على زوايا الصَّفحات، لأتنقَّل من كتاب إلى كتاب وأنا أقارن المواد زهرة زهرة. وعندما أقع على تعريفات متعارضة، أقوم بالمجادلة مع غرانت بشأنها مطوَّلاً في داخلي، ونادراً ما كنت أرجِّح رأيه.

أصل إلى سوق الزُّهور يوم السَّبت قبل ريناتا. أسلِّم غرانت لفافة الورق الَّتي ابتكرتها، وهي قائمة بتعريفات زهور في باب الجيم، كما تتضمَّن مراجعات قمت بها على القائمة الَّتي عملنا عليها سويَّة. عندما عدت وريناتا إلى محلِّ غرانت بعد ساعة من الزَّمن، كان لا يزال يقرأ اللُّفافة. يرفع نظره ليجد ريناتا تعبث بزهوره، فيسألها: «حفل زفاف لليوم؟».

تومئ برأسها. «بل اثنان، لكنَّهما ململمان. أحدهما زفاف ابنة أختي الكبرى. ستهرب، أخبرتني بالأمر لأنَّها أرادت أن أؤمِّن لها زهوراً»، وتقلب ريناتا عينيها. «تستغلُّني كألعوبة».

يسأل غرانت وهو ينظر إليَّ: «ستغلقين مبكراً إذن؟».

«ربَّما. الأمر متوقِّف على شطارة فيكتوريا. أودُّ لو أغلق المحلَّ عند الثَّالثة».

يلفُّ غرانت أزهار ريناتا ويرجع لها من الباقي أكثر ممَّا تستحق، فتحجم عن مساومته، إذ لم تعد هناك حاجة لذلك. نستدير كي نغادر.

يأتينا صوته من الخلف: «نلتقي عندها إذن».

أستدير والدَّهشة تتقافز من عينيَّ. كان يشير بثلاثة أصابع.

يتَّسع الفراغ الواقع تحت قفصي الصدري. تسكن البهجة تلك المساحة وقد امتلأت بفائض من الأكسجين. أركِّز على الزَّفير وأنا أتبع أوامر ريناتا دون تفكير. حملنا كلَّ شيء في شاحنة ريناتا قبل أن أتذكَّر وعدي في الأسبوع السابق.

«انتظري»، تنطلق منِّي وأنا أصفق باب الشَّاحنة خلفي تاركة ريناتا خلف المقود.

أركض عبر السُّوق باحثة عن زهور حمراء وليلك. كان لدى غرانت باقات وباقات منها، لكنَّني تجاوزته دون أن أرفع نظري. في طريق عودتي إلى الشَّاجنة، مررت به ثانية. أغطِّي وجهي بسيقان اللَّيلك الأبيض وأختلس النَّظر إلى حيث وقف. يرفع ثلاثة أصابع مرَّة أخرى ويفترُّ ثغره عن ابتسامة خجولة. أشعر بحرارة وجهي تزداد تأجُّجاً. كنت آمل ألَّا يحسب الزُّهور الَّتي في يدي من أجله.

***

عملت طوال النهار وأنا مشوَّشة وقلقة. فتح الباب وأغلق مراراً، زبائن أتت وزبائن غادرت، لكنِّي لم أرفع رأسي أبداً.

عند الواحدة والنِّصف تكشف ريناتا شعري عن جبهتي، وعندما أرفع رأسي كانت عيناها تبعدان عن عينيَّ بسنتمترات قليلة.

تخاطبني: «مرحباً. ندهتك ثلاث مرَّات. هناك سيِّدة تنتظرك».

ألتقط الزُّهور الحمراء واللَّيلك من المقصورة وأمضي إلى غرفة العرض. كانت المرأة تقف أمام الباب كما لو أنَّها تهمّ بالرحيل، وقد تهدَّل كتفاها.

ما إن رأيتها حتَّى قلت: «لم أنس»، فتستدير.

«أخبرني إيرل أنَّك لن تنسي». تراقبني وأنا أعمل، وأرتِّب الليلك الأبيض حول الزُّهور الحمراء حتَّى توارى اللَّون الأحمر. ألفُّ أغصان إكليل الجبل، الَّذي عرفت من المكتبة أنَّه يعني الالتزام كما يعني الذِّكرى، حول السِّيقان مثل الشَّريط. كان إكليل الجبل غضَّاً وطريَّاً فلم يتكسَّر عندما ربطته على شكل عقدة. أضيف شريطة بيضاء كنوع من التَّدعيم، وألفُّ الجميع بورق بنِّي اللَّون.

أتوجَّه بالكلام إليها وأنا أسلِّمها الباقة: «**أولى مشاعر الحبِّ، الحبُّ الحقيقي، والالتزام**». تناولني أربعين دولاراً، فأخرج الفرق من صندوق الدَّفع، لكن، عندما رفعت نظري كانت قد مضت.

أعود إلى طاولة العمل فترميني ريناتا بنظرة فاحصة ترافقها شبه ابتسامة. «ماذا كنت تفعلين هناك؟».

أردُّ عليها: «أقدِّم للنَّاس ما يطلبون»، وأدوِّر عينيَّ بنفس الطَّريقة التي قامت بها ريناتا في أوَّل يوم التقينا فيه، عندما وقفت على الرَّصيف ومعها عشرات الزَّنابق في غير موسمها.

تصدِّق ريناتا على كلامي: «كلَّ ما يطلبون»، وتقوم بنزع صفٍّ من الأشواك من على وردة صفراء. الوردة الصَّفراء هي لزفاف ابنة أختها الهاربة، الَّتي ستفرُّ خطيفة مع عشيقها، والمستغلَّة. إنَّها تعني الغيرة، الخيانة، لكن، ليس لخصائص التَّعريف أيُّ أهمِّية في هذه الحالة، هكذا خطر لي. لم تبد النَّتيجة جيِّدة. أنهي تنسيق آخر باقة توضع على الطَّاولة، وأنظر إلى السَّاعة، إنَّها الثَّالثة إلا عشرة دقائق.

«سوف أحمِّل هذه في الشاحنة»، أخبر ريناتا وأقوم بنقل ما أستطيع نقله من المزهريَّات الَّتي كانت ممتلئة زيادة، فيتسرَّب الماء إلى قميصي إذ كان يقطر من رؤوسها.

تردُّ ريناتا: «لا تهتمي لأمرها. غرانت ينتظر عند المنحنى منذ ساعتين. أخبرته أنَّه إن كان سيبقى جالساً هناك فمن الأفضل ألَّا يروِّع زبائني. وبالمقابل سوف ينقل الأشياء الثَّقيلة عنِّي».

«فهل وافق؟».

تومئ برأسها فأضع المزهريَّات أرضاً. أتنكَّب حقيبتي وألوِّح لريناتا مودِّعة، متجنِّبة النَّظر في عينيها. كان غرانت يجلس على الرَّصيف وقد أسند ظهره إلى الحائط الآجرِّي الَّذي دفَّأته الشَّمس. يفزُّ حين أخرج من الباب ويقفز واقفاً على قدميه.

«ماذا تفعل هنا؟»، تفاجئني رنَّة الاتِّهام في صوتي.

«أريـد أخـذك إلى مزرعتـي. هنـاك تعريفـات لا أتَّفـق معـك بشـأنها، وسـتقدرين عـلى الفهـم أكثـر وزهـوري بـين يديـك. تعرفـين أنِّي فاشـل في المجادلـة».

أنقِّل نظري بين أعلى وأسفل التلِّ. أودُّ الذَّهاب مع غرانت، لكنَّ وجودي معه يصيبني بالتَّوتُّر. الأمر غير مشروع، ولست واثقة إن كان هذا الشُّعور قد ترسَّب عندي من أيَّام إقامتي مع إليزابيث، أم أنَّه كان نزعةً أقرب من اللَّازم إلى الرُّومانسية أو الصَّداقة، وهما الشَّيئان اللَّذان أمضيت حياتي وأنا أحوم حول حماهما. أفترش زيق الرَّصيف وأقلِّب الأمر في فكري.

«جيِّد»، يقولها وكأنَّ جلوسي يدلُّ فعلاً على الموافقة. يحمل مفاتيحه ويشير إلى الشَّارع. «يمكنك الانتظار في الشَّاحنة إن أردت ريثما أحمّل زهور ريناتا. لقد اشتريت طعاماً للغداء».

ذكر الغداء جعلني أتغلَّب على تردُّدي فآخذ مفاتيحه. في الشَّاحنة، توضَّع كيس ورقي أبيض على المقعد الثّاني. ألتقطه وأطلع كي أدخلها. كانت الشَّاحنة تعجُّ بمخلَّفات الزُّهور: قلامة سوق الزُّهور الَّتي وسَّخت الأرضيَّة، والبتلات الذَّابلة الَّتي تعشَّقت في التَّنجيد. أغوص في المقعد وأفتح الكيس. كان فيه لفافة من رغيف خبز فرنسي سميك تحوي لحم ديك رومي ولحماً مقدَّداً وبندورة وأفوكادو ومعجون الثُّوم. آخذ منها لقمة.

في الشَّارع كان غرانت يحمل المزهريَّات اثنتين اثنتين إلى

أعـلى التـلِّ في كلِّ مـرة. توقَّـف مـرَّة واحـدة فقـط أعـلى التـلِّ لينظـر إلى الأسـفل حيـث أجلـس في الشَّـاحنة المتوقِّفـة. يبتسـم ويحـرِّك فمـه متسـائلاً أهـي لذيـذة؟.

فأخفي وجهي خلف اللُّفافة.

(٢)

ما إن صعدت حافلة المدرسة حتى ازورَّ السَّائق منِّي. انتبهت إلى النَّظرة الَّتي ارتسمت على محيَّاه، وقد كانت مزيجاً من أسى ونفور، وأكثر بقليل من الخوف، فأخبط حقيبة الظَّهر على المقعد الخالي وأنا أجلس. أن أضطرَّ إلى النَّظر إلى رأسه الأصلع القبيح طوال الطَّريق إلى المدرسة هو الدَّافع الوحيد كي يشعر بالأسى الحالي، هذا ما خطر لي في سَورتي.

تجلس بيرلا في نفس الصَّفِّ، والممرُّ يفصل بيننا، فتناولني شطيرة اللَّحم حتَّى قبل أن يتاح لي المجال كي أطالبها بها. مضى علينا شهران في المدرسة، وقد استوعبت الوضع الآن. أقتطع قطعاً كبيرة وأدسُّها في فمي وأنا أفكِّر في اليزابيث وكيف أسرعت بمغادرة المنزل ذلك الصَّباح وتركتني بمفردي لأضع طعامي في حقيبتي وأجد ملابسي. لم تكن لديَّ رغبة في الذَّهاب إلى المدرسة، وقد توسَّلت كي أبقى في البيت في أوَّل أيَّام القطاف، لكنَّها تجاهلت مناشداتي، حتَّى عندما تحوَّلت إلى العنف. قلت لها لو كنت تحبِّينني لرغبت في بقائي إلى جانبك، وأرمي كتاب الرِّياضيات باتجاه رأسها وهي تهرع خارجة من الباب. لم أكن سريعة بما يكفي. تختفي من الممرِّ، وتسرع هابطة درجات السُّلَّم،

حتَّى دون أن تلتفت إلى صوت الكتاب وهو يصدم إطار الباب. من أسلوب مشيها أستطيع أن أخمِّن أنَّها لم تكن تفكِّر بي، بل لم أخطر في بالها طيلة الصَّباح. كان ضغط القطاف قد استحوذ على تفكيرها، وهي بدورها تنتظر مغادرتي والتّخلُّص منِّي. لأوَّل مرَّة أشعر أنَّني أفهم اليزابيث، وفي نوبة الغضب الَّتي اجتاحتني أصرخ فيها أنَّها لا تختلف عن أيٍّ من أمَّهاتي الرَّاعيات السَّابقات. أتجاهل نظرات العمَّال الَّذين وصلوا على متن الشَّاحنة وأنا أتهادى في مشيتي نحو موقف الحافلة.

كان سائق الحافلة يرمقني من خلال المرآة الَّتي أمامه، بعد كل لقمة أزدردها من الشَّطيرة، بنفس العينين اللَّتين ينبغي أن يتابع بهما الطَّريق. كنت أفتح فمي وأنا أمضغ الطَّعام، فكان وجه السَّائق ينقبض اشمئزازاً.

أصرخ في وجهه بعد أن أقفز واقفة: «اغضض من بصرك إن كان الأمر مقرفاً بالنَّسبة إليك. لا تنظر وحسب». ألتقط حقيبتي والغموض يغلِّف فكرة القفز من الحافلة وهو يسير، لأتابع الطَّريق إلى المدرسة سيراً على الأقدام، لكنِّي أطوِّح بالحقيبة عالياً في الهواء بدلاً من ذلك، فتسقط على الرَّأس الملتمع للسَّائق. كانت الضَّربة عنيفة سيَّما وأنَّ التُّرمس المعدني اصطدم بجمجمته بكامله، مما أشمتني به. تنحرف الحافلة عن مسارها، فينطلق السَّائق يشتم، وتتعالى صرخات الأطفال ذعراً حدّاً يُطرِش. تناهى لي

صوت بيرلا المنخفض وهو يشقُّ طريقه وسط تداعيات الفوضى يرجوني كي أرعوي، ثمَّ طفقت تبكي.

«انقلعي»، يصرخ بي السَّائق. كان انتفاخ كبير قد بدأ يظهر على رأسه، فراح يضغط براحة يده عليه بينما امتدَّت اليد الثَّانية إلى جهاز الاتِّصال. أحمل حقيبتي على ظهري وأنزل من الحافلة. يلفُّني غبار الطَّريق وأنا أرسل ناظري عبر الأبواب المفتوحة.

يسأل السَّائق وهو يشير إليَّ: «اسم والدتك».

فأجيبه: «ليس لديَّ أمٌّ».

«فاسم الوصيِّ عليك إذن».

«ولاية كاليفورنيا».

«اللَّعنة، فمع من تقيمين إذن؟». يخشخش جهاز الاتِّصال بكلمات فظَّة فيطفئه السَّائق. يسود الصَّمت التَّامُّ الحافلة، حتَّى بيرلا تقلع عن البكاء وتجلس كالتِّمثال.

أجيبه: «اليزابيث اندرسون. ولا أعرف رقم هاتفها أو عنوانها». رفضت في سنوات طفولتي كلِّها فكرة حفظ أرقام الهواتف، لهذا ما كان بمقدوري الرَّدُّ على أسئلة من هذا القبيل.

يرمي السَّائق جهاز الاتِّصال على الأرض مغضباً. يحدِّق بي فأبادله التَّحديق في تحدٍّ له. تمنَّيت لو أنه يتركني على قارعة الطَّريق لوحدي ويمضي. كنت أفضِّل أن يتركني على أن أكمل

إلى المدرسة. استحوذت عليَّ فكرة طرده من عمله لتركه إيَّاي. يضغط على الزَّمُّور بأصابعه، فيتمادى حدسي بطول الطَّريق الخالي.

حينها، تنهض بيرلا وتتقدم حتَّى تقف أمام السائق وتقول: «يمكنك الاتِّصال بوالدي، وسيأتي ليأخذها».

أنظر إليها بشزر، فتحوِّل نظرها عنِّي.

يصل كارلوس ليأخذني. يستمع إلى السَّائق وهو يروي الأحداث كما تراءت له، ثمَّ يركبني في الشَّاحنة ويعود بي إلى الكرم بصمت. كنت أنظر من النَّافذة أثناء القيادة، وأنا أدقِّق في كلِّ تفصيل كما لو أنَّني أرى المنظر للمرَّة الأخيرة. لن تبقيني اليزابيث عندها، ليس بعد ما حدث، فتنقبض معدتي.

لكن، عندما أخبر كارلوس اليزابيث بما فعلت، شدَّ بيده الخشنة على مؤخِّرة رقبتي مجبراً إيَّاي على مواجهتها، وكانت هي تضحك. كان الأمر غير متوقَّع ومرَّ سريعاً لدرجة أنَّني ظننتني تخيَّلته حالما سكتت.

تعلو وجه اليزابيث الجدِّية وهي تقول: «شكراً لك يا كارلوس». تمدُّ يدها فتصافحه وتسحبها سريعاً، وقد حملت الملامح امتنانها واستخفافها في الحال. يستدير كارلوس بسرعة كي يمضي، فتسأله اليزابيث وهو في طريقه: « هل يحتاج العمَّال إلى أيِّ شيء؟». يهزُّ كارلوس رأسه. «سأعود في غضون ساعة أو أكثر. انتبه إلى القطاف من فضلك ريثما أعود».

«أفعل»، يردُّ عليها كارلوس وهو يختفي وراء الحظائر.

تتَّجه اليزابيث إلى شاحنتها مباشرة. عندما تلتفت وترى أنَّني لا أتبعها، تعود أدراجها إلي حيث وقفت. «ستأتين معي، الآن»، تقولها وتخطو باتِّجاهي. أتذكَّر كيف حملتني إلى داخل المنزل منذ شهرين مضيا. لقد كبرت من حينها، واسترجعت ما فقدت من وزني، لكنِّي لم أشك أنَّها لا تزال قادرة على رميي داخل الشَّاحنة إن شاءت ذلك. أتبعها إلى مقصورة القيادة وأنا أتخيَّل ما سيلي: ستتوجَّه إلى مبنى الخدمات الاجتماعية، إلى الغرفة ذات الجدران البيضاء، وستتركني اليزابيث حتَّى قبل أن يتأكَّد موظَّف الخدمة الاجتماعية من ورود اسمي في النِّظام. سبق وأن حدث كلُّ ذلك معي من قبل. أنظر من النَّافذة وقبضتاي مطبقتان بإحكام.

لكن، ما إن تحرَّكت الشَّاحنة بنا على الممر، حتى فاجأتني كلمات اليزابيث وهي تخبرني قائلة: «سوف نزور أختي. لقد مرَّ على هذه القطيعة زمن طويل بما يكفي، ألا تظنين ذلك؟».

يتجمَّد جسدي. تنظر إليَّ اليزابيث وكأنها تنتظر ردّاً، فأومئ متصنِّعة إيَّاه. حقيقة ما تفوَّهت به بدأت تتَّضح لي.

سوف تحتفظ بي.

اغرورقت عيناي بالدُّموع، اختفى ذلك الغضب الَّذي شعرت به صباحاً تجاه اليزابيث، وحلَّت محلَّه الصَّدمة. لم أصدِّق اليزابيث للحظة عندما قالت إنَّه لا يوجد ما بمقدوري فعله

لجعلها تعيدني. لكن، هأنذا أصغي إلى اليزابيث وهي تتحدَّث عن شقيقتها، بعد دقائق وحسب من إرجاعي من المدرسة إلى المنزل، الأمر الَّذي قد يلحقه فصل مؤقَّت من المدرسة، إن لم نقل طرداً منها. في داخلي، يعتمل شعور بالحيرة، وشعور آخر غير متوقَّع، ربما كان الاطمئنان، أو حتَّى الفرح. أخذت أمصُّ شفتيّ محاولة أن لا أظهر ابتسامتي.

تحدِّثني اليزابيث قائلة: «لن تصدِّق كاثرين أنَّك أصبت سائق الحافلة في رأسه وهو يقود. أعني أنَّها لن تصدِّق الأمر لأنَّني فعلت الشَّيء ذاته أنا أيضاً، نفس الفعل تماماً. أظنُّني كنت في الصَّفِّ الثاني؟ لا أذكر. بأيِّ حال، في لحظة كان يقود الحافلة، في لحظة تالية كان يحدِّق بي من خلال المرآة، وقبل أن أتمالك نفسي كنت قد غادرت مقعدي وأنا أصرخ: «أبق نظرك على الطَّريق أيُّها السَّمين اللعين. والحقُّ أنَّه كان سميناً».

أخذت أضحك. وما إن بدأت بالضَّحك حتَّى استعصى عليَّ التَّوقُّف. انطويت على نفسي وأسندت رأسي إلى لوحة العدَّادات. أخذت الضِّحكة تصدر عنِّي على شكل سلسلة من الغصَّات بدت وكأنَّها شهقات. أغطِّي وجهي بكفيّ، وأخبرها، بعد أن هدأت بما يكفي لأتكلَّم: «سائق حافلتنا ليس سميناً، لكنَّه قبيح».

أعود إلى الضَّحك ثانية، لكنَّ صمت اليزابيث يلجمني.

«لا أريدك أن تفهمي أنَّني أشجِّعك. ما فعلته كان خطأً جليّاً.

لكنَّني أشعر بالذَّنب لأنَّني تجاهلت غضبك وأرسلتك إلى المدرسة وأنت على تلك الحال. كان عليَّ توضيح موقفي بشكل أفضل، وأن أحتويك».

لقد تفهَّمت اليزابيث الأمر.

أرفع جبهتي عن لوحة العدادات وأوسِّد رأسي حضنها، وأنا أشعر للمرَّة الأولى في حياتي كلِّها أنَّ نسبة شعوري بالوحدة هي في حدودها الدنيا. كانت عجلة القيادة تكاد تلاصق أنفي، وقد أقحمت يافوخي في معدتها. وإن أدهشتها عاطفتي المفاجئة، إلَّا أنَّ اليزابيث لم تظهر ذلك. تنقل يدها من ناقل الحركة إلى شعري، مداعبة صدغي نزولاً إلى قصبة الأنف.

«أرجو أن تكون في البيت»، أدركت من قولها أنَّ أفكارها عادت لتطوف بكاثرين. تشغِّل غمَّاز الشَّاحنة وتنتظر مرور ركب من السَّيارات قبل أن تنتقل من المعبر إلى الطَّريق العام.

لم تتوقَّف اليزابيث عن التَّفكير بأختها طيلة الأسابيع الَّتي سبقت القطاف. عرفت هذا من مكالمات الهاتف، العشرات منها، ومن كلِّ الرَّسائل الَّتي تركتها على المجيب الآلي. شابهت الرَّسائل القليلة الأولى تلك الَّتي تنصَّتُّ عليها من على الشُّرفة: دقائق من الحنين المبعثر، يتلوها تأكيد على المسامحة. لكنَّ رسائلها الأخيرة بدت مختلفة، حافلة بالكلام وطويلة، بل طويلة جداً في بعض الأحيان لدرجة أنَّ المجيب الآلي كان يقطعها، ممَّا يضطرُّها إلى

معاودة الاتِّصال. كانت تتحدَّث بشكل متقطِّع عن دقائق حياتنا اليوميَّة، وهي تصف عمليَّات التذوُّق الَّتي لا تنتهي للعنب، وتروي كيفيَّة تنظيف سلال القطاف. وغالباً ما كانت تحكي عمَّا تطبخ وهي تطبخه، ليلتفَّ حولها شريط الهاتف الطَّويل وهي تنتقل من الفرن إلى رفِّ البهارات ومنه إلى الفرن ثانية.

كلَّما استغرق حديث اليزابيث إلى كاثرين، أو بعبارة أدق، إلى المجيب الآلي لهاتف كاثرين، المزيد من الوقت، كلَّما صدمتني ندرة تحدُّث اليزابيث إلى أيِّ شخص آخر. كانت تغادر العقار لتذهب إلى سوق المزارعين، أو الخضري، أو بائع الأواني المعدنيَّة، وأحياناً إلى مكتب البريد، وحسب. الهدف من هذه الزِّيارات كان لجلب نباتات تطلبها عبر البريد من دليل للبستنة فقط، إذ لم تكن ترسل أو تتلقَّى رسائل قط. كان واضحاً أنَّها تعرف الجميع في مجتمعها الصَّغير، فكانت تطلب من الجزَّار أن يبلِّغ زوجته تحيَّاتها، وعندما كانت تقترب من الباعة الواقف كلٌّ منهم في موقعه من سوق المزارعين، كانت تحيِّي كلَّ واحد منهم باسمه. لكنَّها لم تك تجري أحاديث مع هؤلاء الأشخاص. في الحقيقة يتهيَّأ لي أنِّي لم أشهدها تجري حديثاً واحداً طيلة الوقت الَّذي أمضيته برفقتها. كانت تتحدَّث إلى كارلوس عند الضَّرورة، ولم تكن المحادثة تتعدَّى جوانب محدَّدة حيال زراعة وجني العنب، كما لم تتطرَّق محادثاتهم إلى أيَّة قضايا أخرى خارج إطار هذا الموضوع.

في طريقنا إلى منزل كاثرين، ورأسي يتوسَّد حضن اليزابيث،

قمت بمقارنة حياتي الهادئة في منزل اليزابيث بكلِّ المناحي الَّتي ظننت سابقاً أنَّها تصوغ الحياة: العائلات الكبيرة، البيوت الصَّاخبة، مكاتب الرِّعاية الاجتماعية، المدن المزدحمة، والسَّورات العنيفة. لم أكُ أرغب بالعودة، فلقد أحببت اليزابيث. أحببت زهورها، وعناقيدها، وانتباهها المركَّز. أدركت أخيراً أنَّني وجدت مكاناً أريد أن أقيم فيه.

تتَّجه اليزابيث إلى جانب الطَّريق، لتوقف الشَّاحنة وتأخذ نفساً عميقاً، يشوبه التَّوتُّر.

أسألها، وقد اعتراني اهتمام مفاجئ بطريقة لم أعهدها في نفسي من قبل: «ماذا فعلت لك؟».

لم يبد على محيَّا اليزابيث الاندهاش من سؤالي، لكنَّها لم تجبني مباشرة. ربَّتت على جبهتي وخدِّي وكتفي. وعندما تحدثت في النِّهاية، كانت تهمس بالكلمات همساً: «لقد زرعت الزُّهور الصَّفراء».

ثمَّ تسحب الفرامل اليدوي وتمدُّ يدها إلى مقبض الباب وتخاطبني قائلة: «هيَّا بنا، قد حان الوقت كي نلتقي بكاثرين».

(٣)

يقطع غرانت وسط المدينة. كان يبطئ شاحنته الكبيرة عند المنعطفات الضيِّقة والتَّقاطعات المزدحمة.

أحدثه متسائلة: «غرانت؟».

«نعم؟».

أفتِّش عن الكيس الورقي الأبيض المكرمش لأضع فيه كسر الخبز، لكنِّي لا أجده. «لا أريد أن أرى اليزابيث».

«المعنى؟».

بدا ردُّه مائعاً مثل معنى شجرة الحور.

«معنى ماذا؟».

«المعنى، إذا لم ترغبي برؤيتها، فلا تريها».

«ألن تأتي إلى المزرعة؟».

« لم تزرها منذ أن قدمت معها، أي من حوالى كم؟، عشر سنين تقريباً؟».

ينظر غرانت باتِّجاه الماء فلم أستطع رؤية وجهه، لكن، عندما

عـاد وتحـدَّث كان في صوتـه شيء مـن غضـب. «لم تحـضر جنـازة أمِّي، أو تظنِّين أنَّهـا ستفعل اليـوم لأنَّـك هنـا؟».

ينزل النَّافذة، فتبني الرياح جداراً بيننا.

لم يكـن هنـاك تواصـل بـين غرانـت واليزابيـث؛ أخـبرني بهـذا ونحـن نتنـاول الفطائـر، لكنِّـي لم أصـدِّق أنَّ هـذا ممكنـاً. يجـب أن يعلـم غرانـت الحقيقـة، فلـو كان يعلمهـا، مـا الَّـذي منعـه مـن إخبـار اليزابيـث بهـا؟. أقلِّـب الأمـر محاولـة إيجـاد تفسير طـوال مـا بقـي مـن طريـق، وإلى حـين توقُّفنـا عنـد البوَّابـة الحديديَّـة المقفلـة، لم أكـن قـد توصَّلـت إلى أيِّ شيء. يتوقَّـف وينـزل كـي يفتـح البوَّابـة، ليعـود بعدهـا إلى السَّـيارة ويقودهـا عابـراً الفتحـة المشرعـة عـلى مصراعيهـا.

يستحوذ منظـر الزُّهـور عـلى لبِّـي. أقفـز مـن السَّـيارة وأهـوي عـلى ركبتـي إلى جانـب الطَّريـق. مـن المؤكَّـد وجـود سـياج كحـدٍّ للعقـار في مـكان مـا، لكنَّـه لم يكـن باديـاً للعيـان فبـدا امتـداد الزُّهـور بـلا أفـق. عـلى وتـد في غيضـة، يكتـب بخـطٍّ رديء الاسـم العلمـي الَّـذي لم أعرفـه، وهـو يعـرِّف بنـوع وصنـف النَّبـات الأقـرب. أمسـك بقبضـة مـن الزُّهـور الصَّغـيرة الصَّفـراء وأقرِّبهـا إلى وجهـي كمـن يجـد مـاء في الصَّحـراء بعـد أيَّـام قضاهـا هنـاك. يعلـق غبـار الطَّلـع بخـدودي وتتسـاقط البتـلات عـلى صـدري وبطنـي وفخـذاي.

يضحـك غرانـت، ويسـتقلُّ الشَّـاحنة مجـدَّداً وهـو يقـول: «معـك دقيقـة. عندمـا تنتهـي مـن هنـا اتَّجهـي إلى خلـف المنـزل». تتطايـر الأتربـة نتيجـة حركـة الشَّـاحنة مـا إن يعتـلي بهـا الطَّريـق.

أجلس بين الصُّفوف فوق التُّراب، وقد تواريت عن الأنظار.

أجد غرانت خلف المستودع يجلس إلى طاولة نزهات بهت لونها. على الطَّاولة هناك علبة شوكولا وكأسان من الحليب، إضافة إلى اللُّفافة الَّتي سلَّمتها له في الصَّباح. أجلس قبالته وأومئ برأسي إلى الصَّحيفة الورقية.

«والآن، ما المشكلة؟».

أمدُّ يدي إلى مجموعة الشوكولا وأنا أعاينها: شوكولا داكنة، معظمها بالبندق والكراميل. هي تماماً ما يروق لي.

يمرِّر غرانت إصبعه فيتوقَّف عند سطر وينقر على كلمة لم أستطع قراءتها في الوضع المقلوب.

«البندق يعني **الوفاق**، فلم لا يعني **السَّلام**؟»، يسألني، فأفسِّر له السَّبب: «بسبب تاريخ فصيلة البتوليات الَّتي انقسمت لقرون إلى عائلتين: البتوليَّات والبندقيَّات. مؤخراً فقط تمَّ دمج العائلتين كمجموعتين فرعيَّتين من نفس الفصيلة. الاندماج يعني الوفاق».

يخفِّض غرانت نظره إلى الطَّاولة، ومن تعابيره قدّرت أنَّه يعرف تاريخ الفصيلة فعلاً. «لن أحقِّق أيَّ انتصار عليك، أليس كذلك؟».

أردُّ قائلة: «تعلم أنَّك لن تفعل. فهل أحضرتني إلى هنا كي تجرِّب؟».

ينظر إلى المنزل، ثمَّ ينقل نظره إلى الحقول.

يعترف قائلاً: «لا، ليس الأمر كذلك». يلتقط حفنة من الشوكولا وينهض. «كلي من الشوكولا. سأعود في الحال، ثمَّ سنقوم بنزهة».

أتجرَّع الحليب. عندما عاد غرانت كان يعلِّق حول عنقه شريطاً مزخرفاً يحمل آلة تصوير قديمة سوداء اللَّون وثقيلة الوزن. كانت تبدو كما لو أنَّها تعود للحقبة الفيكتورية، مثلها مثل لغة الزُّهور.

يخلع آلة التَّصوير ويسلِّمها لي قائلاً: «من أجل قاموسك». أدركت المغزى مباشرة. سأؤلِّف قاموسي الخاص، وستكون أزهاره بمثابة الصُّور التَّوضيحيَّة. «أريد نسخة لي حتَّى لا نقع أبداً في سوء فهم».

خطر لي، وأنا أستلم آلة التَّصوير، أنَّ كلَّ ما يجري هو عبارة عن سوء فهم. أنا لا أركب الشَّاحنات مع الشُّبَّان، ولا أجلس إلى طاولات الرَّحلات لأتناول الشوكولا. كما لا أحتسي الحليب ونحن نناقش وضع العائلات، عائلات الزُّهور، وخلافه.

يمضي غرانت فأسير خلفه. يقودني إلى طريق ترابي يتَّجه غرباً، والشَّمس تغرب خلف التِّلال أمامنا. بدت السَّماء متردِّدة في تعاقب اللَّونين البرتقالي والأزرق على صفحتها، خلف الغيوم الرعديَّة المقتربة، والمنذرة بمطر غزير. ألفُّ ذراعيّ حولي بإحكام وأبطئ خطوة عنه. يشير غرانت إلى جهة اليسار حيث ظهر صفٌّ

طويلٌ من الحظائر الخشبيَّة، كلُّها مقفلة. يشرح لي قائلاً أنَّ مشروعاً لتجفيف الزُّهور كان قائماً لكنَّه أوقفه حين مرضت والدته. لم يكن مهتماً بمومياوات لكائنات كانت يوماً على قيد الحياة. في جهة اليمين تمتدُّ مساحات من الدَّفيئات المنارة، حيث امتدَّت خراطيم طويلة عبر أبواب مفتوحةٍ مواربةً. يقترب غرانت من إحداها ويشرع الباب ممسكاً إيَّاه من أجلي، فأندسُّ داخلها.

يخبرني وهو يومئ إلى رفوف عليها أصص مسنَّدة: «هذه زنابق. ليست جاهزة للبيع بعد». لم يكن هناك برعم واحد واضح للعيان.

يخطو خارجاً ويمضي فوق الدَّرب الَّذي يصعد طرف التَّل ويهبط من الجهة الأخرى. عند نقطة ما خلف حقول الزُّهور تبدأ كروم العنب، لكنَّ حدود العقار أبعد من أن تراها العين. في المحصِّلة، يتلوَّى الدَّرب حول مساحات الدَّفيئات ويؤوب من خلال الحقول المفتوحة لنجد أنفسنا نقف مجدَّداً أمام المستودع.

يقودني غرانت حتَّى أعبر منحدراً عاديَّاً كي نصل إلى حديقة زهور. كانت حديقة صغيرة تمَّت رعايتها بعناية، فبدت وكأنَّها ملحقة بالمنزل لا بالمزرعة. كانت يد غرانت تصطدم بيدي ونحن نسير، فأخطو مبتعدة عنه.

«هل قدَّمت لأحد ما وردة حمراء في يوم من الأيام؟». يسألني غرانت، فأحدِّق به كما لو كان يجبرني على تناول القمعيَّة، فيكمل: « زهرة الطحلب؟ الآس؟ القرنفل؟».

« **اعتراف بالحبِّ؟ الحبُّ؟ الحبُّ العذريُّ؟**»، أسأله كي أتأكَّد من أَنَّنا نتشارك نفس المعاني فيهزُّ رأسه.

«لا، لا، ولا».

أقطف برعماً أحمر اللون، باهتاً، وأقتلع البتلات واحدة واحدة.

أخبره قائلة: «أنا فتاة من صنف الشَّوك، وورد الحميد، والرَّيحان».

يرد غرانت: « **بغض البشر، والغضب، والكراهية**»، ثمَّ يهمهم.

أستدير مبتعدة وأنا أقول: «أنت من سأل».

«أليس هذا من دواعي السُّخرية»، يتساءل وينظر إلى الزُّهور من حولنا. كانت كلُّها مزهرة، لكن، ولا واحدة منها صفراء. «انظري إلى حالك، مغرمة بلغة رومانسية، لغة اخترعت ليتواصل من خلالها العشَّاق، وأنت تستغلِّينها لنشر العداء».

أتجاهل ملاحظته وأتساءل: «لم كلُّ الأشجار مزهرة؟». كان الموسم في أواخره بالنِّسبة للزُّهور.

«علَّمتني أمِّي أن أقلِّم الشُّجيرات بعناية في الأسبوع الثَّاني من تشرين الأول، وبناء عليه يكون لدينا ما يلزم من الزُّهور لعيد الشُّكر».

«وهل تطبخ عشاء عيد الشُّكر؟»، أسأله وأنا أطلق ناظري باتِّجاه المنزل الريفي. لا يزال زجاج الجملون المدبَّب مكسوراً، على الرَّغم من مرور كلِّ هذه السنين. لكن، هناك من سدَّه بألواح خشبية.

«لا. كانت أمِّي تجهِّزه عندما كنت يافعاً، قبل أن تبدأ في تمضية معظم وقتها طريحة الفراش. كنت أقلِّم زهورها دائماً كما علَّمتني، مؤمّلاً أن يجتذبها المنظر من غرفتها فتدخل المطبخ. نجح الأمر مرَّة واحدة وحسب. كان ذلك في عيد الشُّكر الَّذي سبق وفاتها. أمَّا الآن وقد رحلت، فأنا أحضِّره من باب العادة لا أكثر».

حاولت تذكُّر ما إذا كان أوان عيد الشُّكر قد مضى أو أنَّه سيحلُّ الأسبوع القادم. قليلاً ما أهتمُّ بشأن العطلات، مع أنَّه من الصَّعب تجاهلها وأنت تعمل في مجال الزُّهور. لا بدَّ أنَّه قادم، كذا خطر لي. عندما رفعت عينيّ كان غرانت ينظر إليَّ وكأنَّه ينتظر ردَّاً. أسأله: «ماذا هناك؟».

«هل تعرفين من هي أمُّك الحقيقيَّة؟».

أهزُّ رأسي بالنَّفي، فراح يسأل عن أمر آخر، لكنَّني قاطعته. «لا تضيِّع وقتك في طرح الأسئلة، أنا فعلاً لا أعرف عنها أكثر ممَّا تعرف أنت». أبتعد وأنحني على الأرض، رافعة آلة التَّصوير إلى عيني. ألتقط صورة مشوَّشة لخشبة قديمة كثيرة العقد، وأطراف جذور عميقة.

«إنَّها يدويَّة. هل تعرفين كيفيَّة استخدامها؟». أهزُّ رأسي أن لا. يشير إلى الأزرار والأقراص ويعلمني بإجراءات التَّصوير كشيء لم أسمع به من قبل. كنت متنبِّهة للمسافة بين أصابعه والآلة المعلَّقة برقبتي. فكان كلَّما اقترب من صدري أكثر من اللَّازم أتراجع خطوة.

عندما انتهى غرانت من الشَّرح قال لي: «جرِّبي الآن». أرفع آلة التَّصوير ثانية وأدير قرصاً إلى اليسار. تنتقل صورة البرعم الوردي المتفتِّح من الغباشة إلى التَّشوُّه. يعلمني غرانت: «إلى الجهة الثانية». أدير القرص إلى اليسار مرَّة أخرى وقد عكّرني صوته القريب جداً من أذني.

تطبق يده على يدي، فنديرُ سويَّة القرص إلى اليمين. كانت يداه ناعمتين، ولا تكويان ما تقعان عليه. «نعم، هكذا». يرفع يدي الثَّانية إلى أعلى آلة التَّصوير ويضغط بسبَّابتي على زرٍّ معدني مدوَّر. أشعر بقلبي يتوقَّف ثم يعاود الخفقان. تنفتح العدسة مطقطقة وتلتقط الصُّورة.

يسحب غرانت يديه لكنِّي لم أنزل آلة التَّصوير. لم أكن واثقة مما ارتسم على وجهي. لم أدر إن كان سيرى الكراهية أم المتعة ترتع في ناظري؛ لم أدر إن كان سيقرأ الخوف أم السَّعادة وقد انطبع على خديّ المحمرَّين. لم أكن أعي ما أشعر اللَّهمَّ إلا انقطاع أنفاسي.

يطالبني قائلاً: «لفِّي الفيلم لتلتقطي صورة أخرى»، لكنِّي لم أتحرك. فيسألني: «أتريديني أن أريك كيف تفعلين ذلك؟».

أتراجع وأقول: «لا، هذا يكفي».

فيتساءل غرانت: «كثير من المعلومات في يوم واحد، أليس كذلك؟».

فأردُّ: «بلى». أنزع الآلة عن رقبتي وأسلِّمها له وأنا أردِّد: «كثير جداً».

نقفل عائدين إلى المنزل. لم يدعُني غرانت إلى الدُّخول، بل مضى مباشرة إلى شاحنته وفتح لي الباب، وهو يمدُّ يده إليَّ. أتلكَّأ ثم آخذها. يساعدني في دخول المقصورة ثمَّ يغلق الباب.

نعود إلى المدينة والصَّمت يلفُّنا. يبدأ الغيث ينهمر، خفيفاً في البداية، ثم يشتدُّ هطوله بشكل غير متوقَّع حتَّى أنَّه حجب الرُّؤية. تتوقَّف السَّيارات إلى جانب الطَّريق لحين هدوء العاصفة، لكنَّها بدت تشتد أكثر. كانت أولى هطولات المطر الشَّديدة الَّتي يشهدها الخريف. تبتلع الأرض الماء الَّذي انتظرته طويلاً مطلقة رائحة تشبه رائحة المعدن. يسوق غرانت الشَّاحنة ببطء مسترشداً بحفظ ذاكرته للمنحنيات أكثر من رؤيته للطَّريق. بدا جسر البوَّابة الذَّهبية مقفراً. وأخذ منسوب ماء الخليج يرتفع بنفس قوَّة ذاك الهاطل من السَّماء، فرحت أتخيَّل الماء وهو يتسرَّب إلى السَّيارة ويبدأ منسوبه بالارتفاع فوق أقدامنا ثمَّ ركبنا وبطوننا حتَّى يبلغ حناجرنا، ونحن نمضي على الطَّريق.

طلبت من غرانت أن ينزلني أمام محلِّ الزُّهور فقد أقلقني أن

أدلَّه على موقع شقَّة ناتاليا. كانت لا تزال تمطر عندما توقَّف أمام المحل. لا أعرف إن لوَّح لي مودِّعاً أم لا، إذ لم أستطع أن أراه من خلال الماء السَّارح على الزُّجاج الأمامي.

كانت ناتاليا وفرقتها يخرجون آلاتهم عندما فتحت الباب، فأومؤوا لي برؤوسهم وأنا أنسلُّ صاعدة الدَّرج. أخرج مفاتيحي من حقيبة الظَّهر وأفتح بابي الواطئ لأزحف من خلاله وأتكوَّر على نفسي فوق الأرض. تمتصُّ سجَّادة الفراء الماء الَّذي سقى ملابسي فأضحى العالم كلُّه رطوبة وزرقة وبرودة. أرتجف وعيناي مفتوحتان عن آخرهما. لن يعرف النَّوم طريقاً إليَّ اللَّيلة.

(٤)

تسألني اليزابيث: «هل أنت جاهزة؟».

فاجأني قصر المسافة الَّتي قطعناها. تتوقَّف اليزابيث في ممرٍّ عند بوَّابة معدنيَّة مقفلة. إلى يميننا تقع الرَّحبة حيث ينعقد سوق المزارعين، ومن وراء ذلك يمتدُّ الكرم. أدركت أنَّه في نقطة ما وراء المدى الواسع للأسفلت يتَّصل العقاران على الأرجح.

تنزل اليزابيث من الشَّاحنة وتخرج من جيبها مفتاحاً لكلِّ الأبواب. تدخل المفتاح في القفل فتنفتح البوَّابة مترنِّحة. انتظرت عودتها إلى الشَّاحنة لكنَّها أشارت إليَّ للنزول.

عندمَّا صرت بجانبها قالت: «لنمش. منذ زمن طويل لم أطأ بقدمي هذه الأرض».

تمشي ببطء على الممر باتِّجاه المنزل، لتتوقَّف وتنتش زهوراً ذابلة وتغوص بإبهامها بضعة سنتيمترات في التُّربة. صدمني قدر الشِّقاق الَّذي تراءى لي بين الأختين، وأنا محاطة بالزُّهور. لم يخطر في بالي شيء يمكن أن يشعل غضب اليزابيث بما يكفي حتَّى تدير ظهرها لا لأختها وحسب، بل ولكلِّ هذه المساحات اللَّامتناهية من الزُّهور طيلة هذه المدة. لا بدَّ وأنَّها كانت من أسوأ صور الخيانات.

تسرِّع اليزابيث من خطوها عندما تقترب من المنزل. بدا أصغر من بيتنا، أصفر اللَّون، لكن له نفس سطح الجملون الَّذي لمنزلنا. ونحن نصعد درجات السُّلّم، أحسُّ بليونة الخشب وكأنه لم يجفَّ بعد من مطر الرَّبيع الماضي، والدِّهان يتقشَّر في أماكن واسعة قرب الباب الرئيسي. أمَّا المزراب فكان يخبط كونه غير مثبَّت، ويتدلَّى قريباً من الدَّرجة العليا. تتفاداه اليزابيث وهي تعبر من تحته.

عند أعلى السُّلَّم تقترب من الباب الأمامي. تبرز عن الخشب الأزرق المدهون نافذة ضيِّقة مثلَّثة الشَّكل، فتنحني إلى الأمام. أدسُّ رأسي في الفراغ الَّذي تشكَّل تحت ذقن اليزابيث وقد وقفت على رؤوس أصابعي، لنشرع كلتانا ندقِّق النَّظر في الدَّاخل. كان الزُّجاج مغبَّشاً وقذراً، فيبدو المنظر من خلاله وكأنَّما تراه من خلال مياه البحر. بدت حوافُّ المفروشات ملطَّخة، والصُّور في الإطارات تظهر وكأنَّها تحلِّق فوق رفِّ المدفأة. وبسبب بخار أنفاسنا على الزجاج اختفت السَّجَّادة المورَّدة الرَّقيقة. أستوعب فراغ الغرفة، لم يكن هناك أحد، لا أطباق ولا جرائد ولا أيَّ دليل على وجود نشاط بشري.

لكنَّ اليزابيث دقَّت الباب بكلِّ الأحوال. في البداية دقَّت بلطف، ثمَّ دقَّت بشكل أقوى، وانتظرت. عندما لم يظهر أحد أخذت تدقُّ بشكل متتابع. بدت نقراتها متقطِّعة وقد لفَّتها الخيبة. لكن، لم يظهر أحد عند الباب.

تستدير اليزابيث وتنزل الدَّرج. أنزل خلفها على رؤوس أصابعي وأنا أتخيَّل الدَّرج ينوء من تحتي. بعد عشرة خطوات تستدير وتشير إلى الجزء الأعلى من الجملون، حيث كانت النَّافذة مغلقة إنَّما بلا ستائر.

تسألني اليزابيث: «أترين تلك النَّافذة؟ هناك كانت العلِّيَّة حيث كنَّا نلعب في طفولتنا. عندما أرسلت إلى المدرسة الدَّاخلية كنت في العاشرة من عمري، وكاثرين في السَّابعة عشرة، وقد حوَّلتها إلى مرسم لها. كانت موهوبة، جدٌّ موهوبة. كان متاحاً لها الالتحاق بأيٍّ مدرسة فنٍّ في البلاد، لكنَّها لم ترغب في ترك والدتنا». تتوقَّف اليزابيث عن الكلام، لننظر كلتانا إلى النَّافذة. تنعكس أشعَّة الشَّمس عن بقع الماء والغبار الَّتي لطَّختها. لم أستطع رؤية ما في الغرفة. تكمل اليزابيث كلامها: «إنَّها هناك الآن، أعلم أنَّها هناك. أتظنِّين أنَّها لم تسمع نقرنا؟».

لو كانت في الدَّاخل لسمعت النَّقر. ومع أنَّ هناك طابقين، إلَّا أَنَّ البيت ليس واسعاً. الأمل يملأ عيني اليزابيث، فلم أرغب في إخبارها بالحقيقة، وأقول: «لا أدري. ربَّما».

تصيح اليزابيث: «كاثرين؟»، لكنَّ النَّافذة لم تفتح، ولم أر أيَّ حركة في الدَّاخل. «ربَّما هي نائمة».

أشدُّ كمَّها وأقول: «دعينا ندخل وحسب».

«ليس قبل أن نتأكَّد من رؤيتها لنا. إن كانت رأتنا ولم تنزل، فهذا يعني أنَّها حزمت أمرها بوضوح».

تستدير اليزابيث، وتضرب بقدمها التُّراب الموجود أمام أقرب صفٍّ من الزُّهور. تنحني وتلتقط حجراً خشناً ومدوَّراً بحجم حبَّة البندق. تسدِّد باتِّجاه النَّافذة وترمي الحجر بلطف. يرتدُّ عن السَّطح الخشبي للجملون ويسقط على الأرض، على بعد خطوات من مكان وقوفنا. تلتقطه وتعيد الكرَّة مراراً دون أن يتحسَّن تسديدها رغم التَّكرار.

بدأ صبري ينفد، فألتقط حجراً وأرميه باتِّجاه نافذة الدَّرج. يصيب هدفه ويمضي مخترقاً إيَّاها، وصوت كصوت الطَّلقة ينتقل عبر الزُّجاج مخلِّفاً كسراً بشكل دائريٍّ محكم في المركز. تغطِّي اليزابيث أذنيها بيديها وقد كزَّت على أسنانها وأغمضت عينيها، ثمَّ تقول ورنَّة ألم تلوِّن صوتها: «أوَّاه يا فيكتوريا، هذا أكثر من اللَّازم. أكثر من اللَّازم بكثير».

تفتح عينيها وترفع وجهها صوب النَّافذة، فأتابع نظرتها. في الدَّاخل، ترتفع يد رقيقة وشاحبة وتطبق أصابع على مجموعة من الحبال. يرتمي ظلٌّ خلف الزُّجاج المتشظِّي. إلى جانبي، تتنهَّد اليزابيث، فيما عيناها ما زالتا مثبَّتتين حيث ظهرت اليد.

أشدُّها من كوعها وأقول: «هيَّا بنا». تتحرَّك قدماها ببطء كما لو كانت تخوض في الرِّمال، فأجرُّها برفق باتِّجاه الطَّريق. أساعدها في ركوب الشَّاحنة، ثمَّ أستدير وأغلق البوَّابة الحديديَّة.

(٥)

تمنَّع النَّوم عنِّي فبقيت متعطِّلة لأسبوع كامل. ظلَّت سجَّادة الفراء مبلَّلة لأيَّام عدَّة، وفي كلِّ مرَّة أستلقي فوقها كان البلل يمتدُّ إلى قميصي كيدي غرانت، وكأنَّه يدأب على تذكيري بلمسته. عندما غفوت حلمت بآلة التَّصوير وقد تحوَّلت إلى بشرتي المكشوفة وأطبقت على معصميّ والقسم السُّفلي من عظم الفك، وأمسكت مرَّة بحلمتيّ. وفيما أمرُّ في الشَّوارع المقفرة كنت أسمع تكَّة مصراع آلة التَّصوير وتكتكة دورانها فأظنُّها خطوات غرانت تتبعني، لكن، لم يكن هناك أحد قط.

لم يخف على ريناتا عجزي عن تشكيل جمل مترابطة، أو فشلي في استخدام صندوق الدَّفع. إنه أسبوع عيد الشُّكر، وواجهة المحلِّ مزدحمة نتيجة لذلك، لكنَّها عزلتني في الغرفة الخلفيَّة حيث الدِّلاء تفيض بالزُّهور البرتقالية والصَّفراء والسِّيقان الطَّويلة للأوراق المجفَّفة بألوان الخريف البرَّاقة. تعطيني كتاباً مصوَّراً عن كيفيَّة تنسيق الزُّهور للمناسبات، لكنَّني لم أفتحه. لم أكن يقظة تماماً، لكنَّ تنسيق الزُّهور بات أمراً أقوم به وأنا نائمة. راحت تأتيني بالطَّلبات المستعجلة مكتوبة على عجل، وتعود إليَّ عندما أنهيها.

بحلول يوم الجمعة، كانت حمَّى المناسبة قد مرَّت، فترسلني

ريناتـا إلى المشغل كـي أكنس الأرض وأنظِّف بـورق الزُّجاج الطَّاولـة الَّتـي انحنـت وتشـقَّقت بتأثـير المـاء ووطـأة سـنين العمـل. عندمـا حضرت ريناتـا بعـد سـاعة لتطمئنَّ عـلى سـير العمـل وجدتنـي نائمـة وقـد غفـوت منبطحـة وتوسَّـد خـدِّي السَّـطح الخشـن.

توقظنـي بهـزَّة منهـا. لا يـزال ورق الزُّجـاج في يـدي، وأصابعـي الَّتـي اتَّـكأت عليهـا مطبقـة بإحـكام عـلى الـورق. «لـو لم أكـن بأمـسِّ الحاجـة إليـك لطردتُّـك»، تنطـق ريناتـا وفي صوتهـا رنَّـة عبـث، لا غضـب. أتسـاءل إن كانـت تظـنُّ الهـوى قـد سـفعني، لكـنَّ الحقيقـة، كـما دار لي، أكثـر تعقيـداً مـن هـذا.

تأمرني ريناتـا: «انهضي. نفـس السَّـيدة تطلبـك». أتنهَّـد، إذ لم يعـد هنـاك المزيـد مـن الـورود الحمـراء.

كانـت المـرأة منحنيـة فـوق طاولـة العـرض وقـد أسـندت كوعيهـا المطويـين عليهـا. كانـت ترتـدي معطفـاً مطريـاً أخـضر بلـون التُّفـاح، وبرفقتهـا سـيِّدة أخـرى، أكثـر شـباباً وجمـالاً منهـا، وهـي تقـف إلى جانبهـا مرتديـة معطفـاً أحمـر مـن نفـس الطِّـراز ذي الحـزام. كان حذاءاهمـا الأسـودان مبتلَّـين. أرنـو إلى الخـارج فأجـد الغيـث قـد عـاود الهطـول. بالـكاد جفَّـت ملابـسي وغرفتـي مـن مطـرة الأسـبوع الفائـت، فـتصيبني قشـعريرة. تتحـدَّث المـرأة وهـي تومـئ باتِّجاهـي قائلـة: «هـا هـي فيكتوريـا الشَّـهيرة. هـذه أختـي آنّـا ماريَّـا يـا فيكتوريـا. وأنـا بيثـاني». تمـدُّ يدهـا إليَّ فأصافحهـا. أحـسُّ بعظامـي تفـرط تحـت وطـأة قبضتهـا القويَّـة.

أبادرها: «كيف حالك؟».

فتردُّ بيثاني: «أنا بأحسن حالاتي على الإطلاق. قضيت عيد الشُّكر في منزل راي. لم يسبق لأحد منَّا أن جهَّز عشاء عيد الشُّكر، فانتهى المطاف بنا نرمي الدِّيك الرُّومي الَّذي لم ينضج، ونسخِّن حساء الطَّماطم المعلَّب. كان لذيذاً». بدا واضحاً من أسلوب حديثها إلى أنَّها تشير إلى ما هو أبعد من العشاء، فتتذمَّر أختها.

أسألها: «من هو راي؟». تظهر ريناتا عند الممرِّ تحمل المكنسة، فأتجاهل نظرتها المتسائلة.

«شخص أعرفه من العمل. لم يكن بيننا ما نتشاطره سوى الشَّكوى من بيئة العمل. لكن، وجدته يوم الأربعاء عند طاولتي يدعوني إلى زيارته».

تخطِّط بيثاني لقضاء ليلة ثانية مع راي، فأرادت شيئاً لشقَّتها، شيئاً يغوي، كما قالت، وقد احمرَّ وجهها خجلاً، لكنَّ الأمر يبدو أبعد ممَّا هو عليه، ثمَّ تكمل: «لا أريد الأوركيد»، وكأنَّ الزهرة رمز للجنس وليست رمزاً للجمال الرَّقيق.

أسألها: «فماذا عن أختك؟». بدا على آنا ماريَّا الامتعاض، لكنَّها لم تعترض حين أخذت أختها تصف تفاصيل حياتها الزَّوجية.

تخبرني بيتاني وهي تشدِّد لفظ الكلمة، وكأنَّ إيجاد أصل

مشكلة آنّا ماريّا يكمن في تعريف الكلمة: «هي متزوِّجة. لكن، ما يقلقها أنَّ زوجها لم يعد منجذباً إليها أبداً، وهو أمر لا يخلو من سخافة. انظري إليها. إنَّهما لا يتواصلان، تفهمين ما أعني. ولم يتواصلا منذ مدَّة طويلة». ترنو آنّا ماريّا ببصرها من خلال الواجهة دون أن تدافع عن زوجها أو زواجها.

أسجِّل كلَّ شيء ثمَّ أقول: «حسن. للغد؟».

تجيب بيتاني: «بحلول الظَّهيرة. سيستغرق منِّي تنظيف الشَّقَّة فترة ما بعد الظهيرة كلَّها».

«هل وقت الظَّهيرة مناسب لك يا آنَّا ماريَّا؟».

لم ترد آنّا ماريّا مباشرة. راحت تشمُّ الزُّهور والأضاليا وبقايا الزُّهور الصَّفراء والبرتقالية. عندما رفعت نظرها بدت لي عيناها فارغتين بطريقة فهمتها. تومئ وتجيب: «بلى، من فضلك».

«أراكما غداً»، قلتها حين استدارتا كي تغادرا.

عندما أغلق الباب، رفعت رأسي لأرى ريناتا لاتزال في الممر وبيدها المكنسة. تتحرَّش بي قائلة: «فيكتوريا الشَّهيرة. أمنح النَّاس ما يطلبون».

أهزُّ كتفيّ وأسير متجاوزة إيَّاها. أتناول معطفي من على المشجب، وأستدير كي أمضي.

أسـألها: «غـداً؟». لم تعطنـي ريناتـا جـدولاً للـدَّوام أبـداً. كنـت أعمـل عندمـا تطلـب منّـي العمـل.

فتردُّ: «في الرَّابعة صباحاً. زفاف بعد الظَّهيرة، مائتا دولار».

***

أمـضي المسـاء جالسـة في الغرفـة الزَّرقـاء، أقلِّـب الفكـر في أمـر آنَّـا ماريَّـا. كنـت أعـرف حـقَّ المعرفـة المفهـوم المضَّـاد للحميميَّـة: زهـرة الكوبيَّـة، وتعنـي **الفتـور**، ولوقـت طويـل كانـت مـن الزُّهـور المفضَّلـة لـديَّ. هـي تتفتَّـح في الحدائـق المشـذَّبة في سـان فرانسيسـكو لسـتَّة شـهور في السـنة. وكانـت مفيـدة في تنفـير زميـلات السَّـكن والعاملـين في السَّـكن الجماعـي. لكـنَّ الحميميَّـة والقـرب والمتعـة الجنسـيَّة كانـت مـن الأمـور الَّتـي لا مـبرر لـديَّ للخـوض فيهـا أبداً. جلسـت لسـاعات تحـت المصبـاح المكشـوف الَّـذي لـوَّن ضـوؤه الأصفـر صفحـات قامـوسي المبقَّعـة بالمـاء، وأنـا أبحـث عـن زهـور تفـي بالغـرض.

كان هنـاك شـجرة الزَّيزفـون الَّتـي تـدلُّ عـلى الحـبِّ بـين الزَّوجـين، لكنَّهـا لم تبـد الخيـار الصائـب. بـدا التَّعريـف توصيفـاً للـماضي أكثـر منـه تلميحـاً للمسـتقبل. إضافـة إلى صعوبـة تحديـد شـجرة الزَّيزفـون مـع اقتطـاع غصـن صغـير وإفهـام آنَّـا ماريَّـا بـضرورة عـرض الفـرع عـلى طاولـة الطَّعـام بـدلاً مـن باقـة زهـور. اتَّخـذت قـراري بالإعـراض عـن الفكـرة. شـجرة الزَّيزفـون لـن تنفـع.

في الطَّابـق أسـفل منـي تبـدأ فرقـة ناتاليـا تدريبهـا، فألتقـط زوجـاً

من سدادات الآذان لي، وتأخذ صفحات الكتاب تتراقص في حضني. وجدت زهوراً للشَّغف، وللشَّهوة، وللمتعة، لكنَّ أياً منها لم يبد معبِّراً بما يكفي عن عيني آنَّا ماريَّا الخاويتين. بدأ اليأس يغزوني، فقد وصلت إلى آخر زهرة في الكتاب ورجعت إلى بدايته. فكَّرت أنَّ غرانت ربَّما يعرف لكن، لا يمكنني سؤاله، فالسُّؤال وحده سيلمِّح إلى الحميميَّة أكثر.

وفيما كنت أبحث، خطر لي أن أعطي آنَّا ماريَّا باقة من أيِّ شيء يحمل معنى الجرأة والإبهاج، وأكذب بالنِّسبة لمعناه في حال لم أجد الزُّهور المناسبة. ليس الأمر وكأنَّ الزُّهور نفسها تحمل في طيَّاتها بعداً تعريفياً مجرَّداً لواقع ملموس. بل على العكس، يبدو أنَّ إيرل، ومن ثم بيتاني، مضيا إلى المنزل يحملان باقة من الزُّهور وهما يتوقَّعان التَّغيير، والاعتقاد نفسه في إمكانيَّة حدوث الأمر هو ما حرَّض وقوع ذلك التَّغيير. الأجدى أن ألفَّ الأقحوان بورقة بنيَّة اللَّون كتصريح بإنجاز الفعل الحميمي، على سؤال غرانت عن رأيه بالأمر، هكذا قرَّرت.

أغلق الكتاب، وأغمض عينيَّ، وأحاول النوم.

بعد ساعتين، أنهض وألبس لأتوجَّه إلى السُّوق. كان الطَّقس بارداً. حتَّى وأنا أبدل ملابسي وأرتدي معطفي كنت أعرف أنَّني لا يمكن أن أعطي آنَّا ماريا الأقحوان. لم يكن لديَّ انتماء إلى شيء إلَّا إلى لغة الزُّهور، فإذا ما بدأت بالتَّلاعب في معانيها، فلن يعود في حياتي شيء جميل أو حقيقي. أهرع خارجة من الباب وأهرول

قاطعـة المجمَّعـات السَّـكنيَّة الاثنـي عـشر البـاردة، مؤمِّلـة أن أسـبق ريناتـا.

كان غرانـت لايـزال في سـاحة المـرآب يفـرغ حمولـة شـاحنته فانتظرتـه كـي يناولنـي الـدِّلاء لأنقلهـا إلى الدَّاخـل. في محلِّـه مقعـد واحـد لا ظهـر لـه، فجلسـت عليـه بينـما استند غرانـت عـلى الفاصـل الخشـبي.

يتوجَّه إليَّ بكلامه: «أنت مبكِّرة».

أنظـر في ساعتي، كانـت تشير إلى الثَّالثة والنِّصف فجراً. «وأنـت أيضاً».

«لم أسـتطع النَّـوم»، يعلِّـق عـلى ردِّي. وأنـا لم أسـتطع النَّـوم أيضـاً، لكنِّـي لم أعلمـه بشيء.

أخـبره قائلـة: «قابلـت امـرأة». أعـدِّل مقعـدي مبتعـدة عـن غرانـت وكأنِّي سـأمدُّ يـد العـون إلى زبـون مـا عـبر الواجهـة. لكـنَّ السُّـوق كان شـبه خـالي.

يردُّ: «حقّاً؟ فمن تكون؟».

فأجيبـه: «إحداهـن. جـاءت إلى المحـلِّ البارحـة. كنـت قـد سـاعدت شـقيقتها في الأسـبوع المـاضي. تقـول أنَّ زوجهـا لم يعـد يرغـب بهـا. أقصـد، في ...». أصمـت، وقـد عجـزت عـن الاسترسـال.

تنـدُّ عـن غرانـت همهمـة. شـعرت بعينيـه تلتهـمان ظهـري، لكنَّنـي

لم أستدر كي أواجهه. «هذا وضع صعب. في المرحلة الفيكتوريَّة لم يكن الحديث عن الجِّنس يتم بأريحيَّة، تدركين ذلك؟».

لم يخطر هذا الأمر لي. نتابع السُّوق وهو يمتلئ في صمت. ستلج ريناتا الباب في أيَّة لحظة، ولن ينصبَّ اهتمامي إلَّا على زهور زفاف شخص آخر، ولعدَّة ساعات.

ينطق غرانت أخيراً: «الرَّغبة، سأجرِّب موضوع الرَّغبة. أعتقد أنَّها أقرب ما تكون لغرضك».

لم أكن أعرف معنى الرَّغبة. «كيف هذا؟».

يردُّ غرانت: «زهرة النَّسرين. إنَّها من نوع النَّرجس. هي تنمو في البرِّية في الولايات الجنوبيَّة. لديَّ بعض منها لكنَّ البراعم لن تزهر قبل الرَّبيع».

لن يحلَّ الرَّبيع قبل عدَّة أشهر، ولا يبدو أنَّ آنَّا ماريَّا يمكن أن تنتظر كلَّ هذا الوقت. «أما من طريقة أخرى؟».

«يمكننا أن نحفِّز البراعم في الدَّفيئة. عادة لا أفعل هذا، فالزُّهور مرتبطة بشكل وثيق بالرَّبيع. ولا يوجد طلب عليها في السُّوق حتى نهاية شباط. لكن، يمكننا المحاولة إن أردت».

«كم سيستغرق الأمر؟».

«ليس كثيراً. أراهن أنَّك سترين الزُّهور في منتصف كانون الثَّاني».

«سأعرض الأمر عليها، شكراً لك»، أقولها وأمضي، لكنَّ غرانت يوقفني بوضع يده على كتفي، فألتفت إليه.

يسألني: «بعد الظهر؟».

كنت أفكِّر في الزُّهور وآلة التَّصوير وقاموسي، فأجيبه: «سأنهي عملي في الثَّانية».

«سآتي لأقلّك».

أردُّ عليه وأنا أمضي: «سأكون جائعة».

يضحك ويقول: «أعرف».

بدت آنَّا ماريَّا مرتاحة أكثر منها محبطة عندما أخبرتها بالوضع. كانون الثاني جيِّد، بل أكثر من جيِّد، كما قالت. كانت أيام العطلات مزدحمة، والشَّهر ينقضي كلمح البصر. سجَّلت رقم هاتفها، فأحكمت لفَّ حزام معطفها الأحمر حول جسدها وخرجت من المحلِّ لاحقة ببيتاني الَّتي كانت قد قطعت نصف الطَّريق باتِّجاه المجمَّع. كنت قد أعطيتها الحوذان ويعني: السِّحر يشعُّ منك.

وصل غرانت مبكِّراً كما فعل في الأسبوع المنصرم. تدعه ريناتا إلى الدُّخول، فيجلس إلى الطَّاولة يراقبنا ونحن نعمل، وهو يتناول الدَّجاج بالكاري من عبوة فلِّينية يتصاعد منها البخار، فيما توضَّعت عبوة أخرى دون أن تفتح إلى جانبه. عندما انتهيت من تنسيقات الطَّاولة أعلمتني ريناتا أنَّ بمقدوري المغادرة.

أسـألها وأنـا أنظـر في الصُّنـدوق حيـث كانـت ترتِّـب باقـات الوصيفـات: «مـاذا عـن ورود العـروة؟».

تجيبنـي: «يمكنني إنهاؤهـا. لـديَّ الكثير مـن الوقـت، فامـض في سـبيلك». تلـوِّح لي بيدهـا مودِّعـة عنـد البـاب.

يسـألني غرانـت وهـو يناولنـي شـوكة بلاسـتيكيَّة ومنديـلاً: «هـل تودِّيـن أن تـأكلي هنـا؟».

«بـل في العربـة. لا أريـد أن أفـوِّت النُّـور». تنظـر إلينـا ريناتـا بفضـول دون أن تسـأل. كانـت أقلَّ شـخص فضـوليٍّ يمرُّ عليَّ، فأشـعر بموجـة مـن المـودَّة تغمـرني تجاههـا وأنـا ألحـق بغرانـت خارجـة مـن المحـل.

تتغبَّـش النوافـذ بسـبب بخـار الطَّعـام وأنفاسـنا خـلال الرِّحلـة الطَّويلـة إلى بيـت غرانـت. مضينـا في صمـت، فيـما كانـت الضَّجَّـة الوحيـدة تصـدر عـن الصـوت المكتـوم لنظـام مانـع الغبـاش. كان الطَّقـس رطبـاً في الخـارج، لكنَّـه بعـد الظَّهـيرة تحـوَّل إلى الانقشـاع. عندمـا فتـح غرانـت البوَّابـة وقـاد السَّيارة باتِّجاه المنزل، كانـت السَّـماء قـد صـارت زرقـاء. مـضى إلى الدَّاخل ليجلـب آلـة التَّصوير، فيفاجئني إذ رأيتـه يدخـل البنـاء المربَّـع ذا الطَّوابـق الثَّلاثـة وليـس المنـزل.

«مـا هـذا؟». أسـأله حينـما عـاد وأنـا أشـير إلى البنـاء الَّـذي عـاد منـه لتوه.

يردُّ: «إنَّه برج ماء، وقد حوَّلته إلى شقَّة. هل تودِّين رؤيته من الدَّاخل؟».

«النُّور»، أردُّ وأنا أنظر إلى حيث بدأت الشَّمس تميل.

«حسن».

«ربَّما فيما بعد».

«طيِّب. هل تريدين درساً آخر؟». يسألني غرانت ويخطو باتِّجاهي ويعلِّق شريط آلة التَّصوير حول عنقي، فتمسح يداه نقرتي.

أهزُّ رأسي بالنَّفي، وأقول وأنا أدير الأقراص وأكرِّر نفس المفردات الَّتي ألقاها على مسامعي في الأسبوع المنصرم: «سرعة المصراع، الفتحة، البؤرة. سأعلِّم نفسي بنفسي».

فيجيب: «حسن، أنا سأكون في الدَّاخل». يستدير ويعود أدراجه إلى برج الماء. انتظرت حتى شاهدت النُّور يضيء نافذة الطَّابق الثَّالث، فأتَّجه صوب حديقة الزُّهور.

أبتدئ بالزُّهور البيضاء، فقد شعرت به منطلقاً معقولاً. أجلس أمام شجيرة مزهرة وأسحب دفتراً فارغاً من حقيبة الظَّهر. سأقوم بتعليم نفسي التَّصوير عبر توثيق نجاحاتي وإخفاقاتي. فإن ظهَّرت الصُّور في الأسبوع القادم ووجدت أنَّ صورة واحدة

فقط هي الواضحة، فسأحتاج لأن أعرف ما فعلته بالضَّبط لأخذ الصُّورة. أرقِّم ورقة بيضاء من الواحد حتى الستَّ والثَّلاثين.

ألتقط صوراً لنفس البرعم الأبيض شبه المتفتِّح في الضَّوء الَّذي بدأ يخبو، وأسجِّل بعبارات وصفيَّة تفتقد إلى التَّخصُّص قراءة عدَّاد الإضاءة والمواضع الدَّقيقة للأقراص والأزرار المختلفة. سجَّلت مقاييس البؤرة وميل الشَّمس وزوايا الظِّلال؛ وقمت بقياس المسافة بين آلة التَّصوير والزَّهرة بشبري؛ وعندما نفد منّي الوقت والصُّور، توقَّفت.

عندما عدت، كان غرانت يجلس إلى طاولة مطبخه. كان الباب مفتوحاً وبرودة الدَّاخل تعادل مثيلتها الَّتي في الخارج. غابت الشَّمس وغاب معها كلُّ الدفء، فأفرك كفيَّ ببعضهما.

«شاي؟»، يسألني وهو يمدُّ يده بكوب يتصاعد منه البخار.

«يا حبذا». أدخل وأغلق الباب ورائي.

نجلس قبالة بعضنا إلى طاولة خشبيَّة مخصَّصة للنُّزهات، قد ترك الطَّقس عليها آثاره. هي طبق الأصل عن تلك الَّتي في الخارج، وقد توضَّعت إلى جانب نافذة صغيرة تطلُّ على المزرعة: صفوف منحدرة من الزُّهور، والحظائر، والدَّفيئات، والمنزل المهجور. ينهض غرانت ليعدِّل غطاء طنجرة الرُّزِّ الَّذي ينزُّ ماء من فتحة صغيرة، ثمَّ يفتح خزانة ويخرج عبوة صلصة الصُّويا ويضعها على الطَّاولة بسطحها اللَّا مستوي.

يقول لي: «الطَّعام شبه جاهز». أنظر إلى الفرن، لا يوجد ما يطبخ إلا الرُّز. «أتودِّين القيام بجولة؟».

أهزُّ كتفيَّ وأنهض.

«هذا هو المطبخ». كانت الخزائن مدهونة باللَّون الأخضر الباهت، وللمجلى سطح مغطَّى بالفورميكا الرَّمادية بحوافَّ فضِّيَّة. لا يبدو أنَّ لديه لوح تقطيع، فسطح المجلى بدا مشطَّباً ومجوَّراً بسبب التَّقطيع. وهناك فرن غاز أثري مطلي بالكروم واللَّون الأبيض، وله رفٌّ قابل للطي، وعلى الرَّفِّ يتوضَّع صفٌّ من المزهريَّات الزُّجاجيَّة الخضراء الفارغة، مع ملعقة خشبيَّة. على رأس الملعقة لصاقة بهت السِّعر الَّذي تشير إليه مما دفعني إلى الظَّنِّ أنَّ الملعقة لم تستعمل مطلقاً، أو أنَّها لم تغسل البتَّة. بكلتا الحالين، ما كان الفضول يحثُّني لأتذوَّق طبخه على وجه الخصوص.

في زاوية الغرفة هناك سلَّم معدني أسود اللَّون يلتفُّ داخل فتحة مربعة صغيرة. أخذ غرانت يتسلَّقه، فتبعته. في الطَّابق الثاني توجد غرفة المعيشة. تتَّسع مساحتها لاحتواء أريكة ثنائيَّة من القطيفة برتقاليَّة اللَّون، ومكتبة تصل السَّقف بارتفاعها. يؤدِّي باب مفتوح إلى حمَّام أبيض الكسوة، فيه حوض استحمام بركائز مثل المخالب. لم أر جهاز تلفزيون أو مسجِّلة. كما لم أر أثراً لهاتف حتَّى.

عاد غرانت إلى السُّلَّم وقادني إلى الطّابق الثَّالث، والَّذي

كان يغطي مساحته فراش سميك من الإسفنج الصِّناعي. كان بالإمكان رؤية الإسفنج المفتَّت حيث تقشَّرت قطع منه عند الحواف. توضَّعت الملابس أكواماً في ركنين، كومة مطوية والثَّانية لا، فيما احتلَّت كدسات من الكتب ما كان يجب أن تحتلَّه الوسائد.

يخبرني غرانت: «غرفة نومي».

فأسأله: «فأين تنام؟».

«في الوسط، عادة أقرب إلى الكتب منِّي إلى الثِّياب». يعتلي المرتبة ويطفئ ضوء القراءة. أتشبَّث بالإفريز وأنزل عائدة إلى المطبخ.

«مكان لطيف وهادئ».

«أحبُّه على هذه الحال. فيه أنسى أين أنا، أتصدِّقين؟».

أصدِّق بالتَّأكيد. في برج غرانت المائي حيث تنتفي المظاهر الحياتيَّة التِّقنيَّة والرَّقمية، من السَّهل أن تسلو الزَّمان، لا المكان وحسب.

أخبره قائلة: «الفرقة المتخلِّفة لشريكتي في السَّكن يتدرَّبون طيلة اللَّيل أسفل الشَّقَّة».

«يبدو هذا مريعاً».

«هو كذلك بالفعل».

يتَّجه نحو المجلى ويملأ زبديَّتي حساء خزفيتين كبيرتين بالرُّزِّ السَّاخن والمخبوص. يناولني زبديَّة وملعقة، ونشرع بالأكل. يلدع الرُّزُّ فمي وحنجرتي ومعدتي، لكنَّه كان ألذَّ بكثير ممَّا توقَّعت.

أتطلَّع حولي وأسأله: «ألا يوجد هاتف؟». لطالما ظننتُني الفتاة الوحيدة في العالم الحديث الَّتي لا تملك جهاز اتِّصال. يهزُّ غرانت رأسه بالنَّفي. فأتابع تساؤلاتي: «ولا أقارب لك؟».

يهزُّ غرانت رأسه بالنَّفي ثانية. «غادر أبي عائداً إلى لندن قبل مولدي، فلم أقابله قط. عندما ماتت أمِّي تركت لي الأرض والزُّهور ولا شيء سواهم». يتناول لقمة أخرى من الرُّزِّ.

أسأله: «هل تفتقدها؟».

يصبُّ غرانت مزيداً من صلصة الصويا. «أحياناً، أفتقد ما كانت عليه حين كنت طفلاً، عندما كانت تطبخ الطَّعام كلَّ مساء وتَصُرُّ لي طعامي وشطائري مع زهور قابلة للأكل. لكنَّها صارت تخلط بيني وبين والدي في أواخر أيامها، فكانت تنتابها نوبات غضب وتطردني خارج البيت. ثمَّ، عندما كانت تسترجع ما فعلت كانت تعتذر لي وتقدِّم لي الزُّهور».

«ألهذا السَّبب أنت تقيم هنا؟».

يومئ غرانت برأسه. «لطالما أحببت البقاء بمفردي. لا يمكن لأحد أن يستوعب هذا».

أنا أفعل.

ينهي طبقه ويقوم ليسكب طبقاً آخر، ثمَّ يأخذ طبقي ويملؤه أيضاً، لنكمل الوجبة صامتين.

ينهض غرانت فيغسل طبقه ويضعه بالمقلوب على رفٍّ معدني كي يجفَّ. أغسل طبقي وأفعل مثله. يتوجَّه إليَّ بالسُّؤال: «هل أنت جاهزة للذَّهاب؟».

«الفيلم؟». أتناول آلة التَّصوير من حيث علَّقها، وأعطيها له. «لا أعرف كيف أخرجه».

يلفُّ الفيلم إلى أولَّه ثمَّ يخرجه من الآلة، فأدسُّه في جيبي.

«شكراً».

نصعد شاحنة غرانت ونستلم الطَّريق. كنَّا في منتصف طريق العودة إلى المدينة حين تذكَّرت طلب أناماريا. شهقت. فيسألني: «ما الخطب؟».

«نسيت النَّرجس».

«زرعته حين كنت في حديقة الزُّهور. إنَّها في صندوق ورقيٍّ في الدَّفيئة. البصيلات تتطلَّب العتمة إلى أن تبزغ الأوراق. يمكنك تفحُّصها السَّبت القادم».

السَّبت القادم. وكأنَّنا اتَّفقنا على موعد ثابت. أراقب غرانت

وهـو يقـود. كان طـرف وجهـه يبـدو قاسـياً لا يبتسـم. سـأتفحَّصها السَّـبت القـادم. بـدت عبـارة بسـيطة لكنَّهـا غـيَّرت كلَّ شيء، تمامـاً كاكتشـاف معـاني الـوردة الصَّفـراء: **الغـيرة، الخيانـة، الوحـدة، والصَّداقـة.**

(٦)

كانـت العتمـة قـد حلَّـت حـين وصلـت لأتنـاول الطَّعـام. المنـزل مضـاء، واليزابيـث لوحدهـا تجلس إلى طاولـة المطبـخ، حسبما أظهـرت عـوارض البـاب المفتـوح. لقـد حـضَّرت حسـاء الدَّجـاج، فقـد وصلتنـي الرَّائحـة وأنـا في الكـرم، وزكاوتهـا جذبتني بكلِّيَّتـي. كانـت منحنيـة فـوق طبقهـا وكأنَّهـا تعايـن انعـكاس رسـمها في المـرق.

أبادرها بالسُّؤال: «لم لا يوجد لديك أصدقاء؟».

نـدّت الكلـمات عنِّـي بتلقائيـة. ظللـت لأسـبوع أتابـع اليزابيـث وهـي تدبِّـر أمـر القطـاف كاسـفة كئيبـة، ثـمَّ جـاء منظرهـا وهـي تجلـس إلى طاولـة المطبـخ بمفردهـا وأثـر الوحـدة بـادٍ عليهـا، ممَّـا اسـتفزَّ الكلـمات الَّتـي بـدرت عنِّـي.

تنظـر اليزابيـث إلى حيـث وقفـت، فتنهـض بهـدوء وترجـع محتويـات طبقهـا إلى طنجـرة الحسـاء، ثـمَّ توقـد حلقـة النَّـار الزَّرقـاء تحتهـا مسـتخدمة عـود ثقـاب.

تلتفت إليَّ قائلة: «وأنت، لم لا يوجد لديك أصدقاء؟».

«لأنِّي لا أريـد أيَّ صديـق». إلى جانـب بـيرلا، الأطفـال الوحيـدون الَّذيـن أعرفهـم كانـوا رفـاق صفِّـي في المدرسـة. كانـوا ينعتونني بالبنت

اليتيمة، واستمرَّ الحال هكذا حتَّى صرت أشكُّ أنَّ معلمتي نفسها تتذَّكر اسمي.

تتابع اليزابيث بإصرار: «ولم لا؟».

أردُّ بصوت بدأ يمزجه القلق: «لا أعرف»، لكنَّني كنت أعرف.

تمَّ فصلي مؤقَّتاً لخمسة أيَّام عقاباً لي على اعتدائي على سائق حافلة المدرسة. ولأوَّل مرة في حياتي لم أشعر بالتعاسة. أغناني التَّواجد في المنزل مع اليزابيث عن الجميع. صرت ألحق بها كلَّ يوم وهي تدبِّر أمر القطاف، فترشد العمَّال إلى العناقيد النَّاضجة، وتصدُّهم عن تلكم الَّتي تحتاج إلى يوم آخر أو يومين كي تنضجها الشَّمس. كانت تدسُّ حبَّات العنب في فمها ومن ثمَّ في فمي، ثمَّ تتلَّفظ بأرقام مقترنة بنسبة النُّضوج: ٧٤/ ٦، ٧٣/ ٧، و٧٥/ ٦. «هو ذا ما عليك تذكُّره. هذا الطَّعم بالتَّحديد، الحلاوة عند الخامسة والسَّبعين، والحموضة عند السَّبعة»، هذا ما دأبت على قوله كلَّما وقعنا على عنقود ناضج. وبنهاية الأسبوع، كنت قد علكت وبصقت حبَّاتٍ من كلِّ غرسة تقريباً، حتَّى راحت الأرقام تحضرني قبل أن تدخل الحبَّات إلى فمي، وكأنَّ لساني كان يقرؤها ببساطة قراءتنا للأرقام الظَّاهرة على طابع بريد.

بدأ الحساء يغلي، فراحت اليزابيث تحرِّكه بملعقة خشبية. توجِّه كلامها إليَّ: «اخلعي حذاءك واغتسلي، فالحساء قد سخن».

على الطَّاولة، وضعت اليزابيث طبقين وأرغفة من الخبز بحجم البطِّيخ الأصفر. أقسِّم الرغيف نصفين وأفرغ الجزء الداخلي الأبيض الطريَّ ثمَّ ألكّه في المرق السَّاخن.

تبادرني اليزابيث بالقول: «كان لديَّ صديقة يوماً. أختي كانت هي صديقتي. كان لديَّ شقيقتي وعملي وحبِّي الأول، وما كان في العالم حينها شيء غير هذا أرغب به. ثمَّ، وبطرفة عين، كلُّ ما تبقّى لي هو عملي. ما فقدته كان لا يعوَّض. لذلك سخَّرت كلَّ لحظة من نهاري في سبيل تأسيس عمل ناجح وإنتاج أكثر أنواع العنب طلباً في المنطقة لصنع النَّبيذ. كان الهدف الَّذي حدَّدته طموحاً للغاية، واستهلك الكثير من الوقت حتَّى إنَّه لم يتح لي المجال للتَّفكير في كلِّ ما سبق أن فقدته».

أدركت أنَّ تبنِّيها لي قد غيَّر هذا. كنت التَّذكار الدَّائم للعائلة وللحبِّ، فأتساءل إن ندمت على قرارها.

يداهمني سؤال اليزابيث: «فيكتوريا، هل أنت سعيدة هنا؟».

أهزُّ رأسي بالإيجاب وقد بدأت دقَّات قلبي بالتَّسارع فجأة. لم يطرح أحد عليَّ مثل هذا السُّؤال أبداً دون أن يلحقه مباشرة بكلام من عيِّنة: **لأنَّك إن كنت سعيدة وإن كان لديك الإحساس لتدركي كم أنت محظوظة لوجودك هنا، لما كنت تصرَّفت على هذا النَّحو أيَّتها الصَّغيرة الجاحدة الشَّقية**. عندما ارتسمت في النِّهاية، تبدَّت ابتسامة اليزابيث كالسَّلوى. تردُّ قائلة: «هذا جيِّد، فأنا سعيدة

لوجودك معي. الحقيقة أنَّني لا أودُّ منك الذَّهاب غداً إلى المدرسة. وجودك في البيت أراحني. لقد خفَّفت عنِّي قليلاً. ولأوَّل مرَّة يبدو عليك الاهتمام بشيء، وبينما يتوجَّب عليَّ الاعتراف بغيرتي من الكروم، فإنَّه ليدخل السُّرور على قلبي رؤيتك تقتحمين أوار الحياة».

أصرِّح قائلة: «أنا أكره المدرسة». مجرَّد لفظ الكلمة جعل حسائي يبقبق في مؤخِّرة حنجرتي، مولِّداً لديَّ شعوراً مزعجاً ومقزِّزاً. «هل تكرهين المدرسة حقّاً؟ فأنا أعلم أنَّك لا تكرهين التَّعلُّم».

«أنا فعلاً أكرهها». أبتلع رشفة ثمَّ أخبرها بما ينعتونني، كما أخبرتها أنَّها مثلها مثل كلِّ مدرسة ذهبت إليها، أبقى وحيدة، ومصنَّفة خطرة، وأخضع للمراقبة، ولا يتمُّ تعليمي أبداً.

تتناول اليزابيث آخر لقمة من الخبز ثمَّ تحمل طبقها إلى الحوض.

«سنسحبك غداً والحال هذه. يمكنني تعليمك هنا أكثر ممَّا يمكن لأيِّ مدرسة فعله. ولو تريدين رأيي فأنت قد عانيت في حياتك بما يكفي». تعود إلى الطَّاولة، فتصلِّح طبقي وتملؤه من جديد حتَّى الحافَّة.

تمادى ارتياحي حتَّى أنهيت الطَّبق الثاني، وأتبعته بالثَّالث. ومع ذلك، كان هناك خفَّة تلفُّ دواخلي وتنذر بانتزاعي من مكاني لأقذف، كالدَّوَّامة، إلى أعلى السَّلالم ومنها إلى السَّرير.

(٧)

بدت الصُّور الَّتي التقطتها مزرية. كانت سيِّئة لدرجة جعلتني ألقي باللَّائمة على المخبر حيث ظهّرتها فأخذت الصُّور السَّالبة إلى مخبر متخصِّص. كانت اللَّوحة الَّتي تحتل واجهة المحلِّ تقول أنَّهم يظهِّرون أعمال المحترفين فقط. استغرق تظهيرها لديهم ثلاثة أيَّام، وعندما استلمتها بدت بنفس السّوء، بل أسوأ. كانت أخطائي أكثر جلاءً، فاللُّطخ الخضراء والبيضاء بدت أكثر بروزاً في الخلفيَّة الطِّينيَّة. أطوِّح بالصُّور في الميزاب ثمَّ أفترش الرَّصيف خارج محلِّ التَّظهير وأنا أجترُّ الهزيمة.

«أتجرِّبين التَّجريد؟». ألتفت. تظهر امرأة شابة تقف خلفي وهي تنظر إلى الصُّور الَّتي تغطِّي وجه الشَّارع. كانت ترتدي مئزراً وتدخِّن لفافة تبغ، وقد انتشر الرَّماد حول الصُّور فتمنَّيت لو أنها تشتعل وتحترق.

أردُّ عليها: «لا، بل أجرِّب الفشل».

فتسألني: «أهي كاميرا جديدة؟».

«لا، بل أنا طارئة على التَّصوير».

«فما الَّذي تودِّين معرفته؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

ألتقط واحدة من الصُّور المرميَّة على الطَّريق وأناولها لها، قائلة: «كلَّ شيء».

تدوس لفافتها وتنظر بتمعُّن في الصُّورة. تقول وهي تومئ كي أتبعها: «أعتقد أنَّ الأمر يتعلَّق بسرعة الفيلم». تقودني إلى عارضة الأفلام، وهي تشير إلى أرقام موجودة على زوايا العلب لم ألحظها حتَّى. كانت سرعة المغلاق بطيئة جداً، وسرعة الفيلم لم تكن تتماشى مع الضَّوء الخافت لآخر النَّهار، حسبما شرحت لي. أسجِّل كلَّ ما قالته على قفا الصُّور ثم أدسُّ الكدسة في حقيبة الظَّهر.

كنت متلهفَّة إلى التَّخلُّص من العمل في السَّبت التَّالي. بدا المحلُّ فارغاً، ولم يكن لدينا حفل زفاف. ريناتا تقوم ببعض الأعمال الورقيَّة فلم ترفع رأسها عن طاولتها طيلة الصَّباح. عندما زهقت من انتظارها كي تصرفني أقف بجانب طاولتها وأبدأ أنقر بقدمي على الأرضيَّة الاسمنيَّة.

توجِّه كلامها لي وهي تلوِّح مودِّعة: «حسن، انصرفي». استدرت وعند منتصف المسافة إلى الباب سمعتها تضيف: «ولا تأتي غداً، ولا الأسبوع القادم، ولا الَّذي يليه».

أتوقَّف وأتساءل: «ماذا؟».

«قد اشتغلت ضعف المدَّة الَّتي دفعت لك أجرتها، عليك أن تعرفي هذا». لم أكن أحتفظ بسجلٍّ لعدد ساعات عملي. ولم

يبد الوضع وكأنَّني حصلت على عمل، وحتَّى لو رغبت بذلك، لا أملك شهادة ثانوية عامّة، ولا شهادة جامعية، ولا أيَّ صنعة. خمَّنت أنَّ ريناتا تعرف ذلك عنِّي فاستغلَّتني قدر ما تحتاج. ولم أك أشعر بالامتعاض.

«المعنى؟».

«خذي أجازة لعدَّة أسابيع. تعالي يوم الأحد بعد القادم، وسأدفع لك أجرك كما لو كنت تعملين، فأنا مدينة لك بالنُّقود. سأحتاج إليك لعيد الميلاد، وعندي زفافان يوم رأس السَّنة». تسلِّمني مظروفاً يحوي نقوداً، وهو الَّذي كان يجب أن تعطنيه غداً، فأدسُّه في محفظة الظَّهر.

«حسن. سلمت. أراك بعد أسبوعين».

***

عندما وصلت، كان غرانت في مرآب السُّوق يحمِّل دلواً يحوي الأزهار الَّتي لم تباع. أقترب وأنا أرفع الصُّور المغبَّشة، وقد نشرتها على شكل مروحة. يسألني مستبشراً: «هل تريدين درساً الآن؟».

«لا». أصعد وأدخل الشَّاحنة.

يهزُّ رأسه. «تريدين وجبة صينيَّة أم تايلنديَّة؟».

«أريد شيئاً ظاهر البهار»، ثمَّ أنادي من خلال النَّافذة المفتوحة: «مع الرّوبيان».

كنت قد اشتريت عشرة أفلام ملوَّنة ذات سرعات مختلفة، وقرَّرت أن أبدأ بالفيلم ذي السُّرعة ١٠٠ في ضوء الظَّهيرة، ثمَّ أتابع العمل وصولاً إلى الفيلم ذي السُّرعة ٨٠٠ بعد المغيب. يجلس غرانت إلى طاولة النُّزهات وأمامه كتاب، وينظر في اتِّجاهي كلَّما انتهى من قراءة بضع صفحات، وأنا بالكاد أنتقل من حالة التَّقوقع رابضة بين شجيرتي ورد أبيض. كلُّ الورود بدت متفتِّحة، أي أنَّها ستذبل في غضون أسبوع. وكما فعلت الأسبوع الفائت، قمت بترقيم كلِّ صوري ودوَّنت ملاحظاتي بشأن كلِّ زاوية ووضعيَّة. كنت مصمِّمة على القيام بالعمل على وجهه الصَّحيح.

عندما كادت الظُّلمة تسدل أستارها نزعت آلة التَّصوير عنِّي. لم يكن غرانت جالساً إلى طاولة النُّزهات، فمن نوافذ برج الماء يتسرَّب الضَّوء من خلال غلالة سميكة من البخار. كان غرانت يطبخ، وكنت أتضوَّر جوعاً. أدسُّ الأفلام العشر كلَّها في حقيبتي وأمضي باتِّجاه المطبخ.

«جائعة؟». شاهدني وأنا أغلق سحَّاب حقيبتي، وأتنشَّق الرَّائحة بعمق.

«أأنت جادٌّ في سؤالك؟».

يبتسم غرانت. أمضي إلى الثَّلاجة وأفتح بابها. كانت فارغة إلّا من اللَّبن وعبوة عصير عضوي. أمسك بعبوة العصير وأعبُّ منها مباشرة.

«البيت بيتك، فخذي راحتك».

«سلمت». أعبُّ جرعة أخرى ثم أجلس إلى الطَّاولة. «ماذا تجهِّز؟».

يشير إلى عبوات ستٍّ من الرافيولي المحشوة باللَّحم، فأقطِّب وجهي مبوِّزة.

يسألني: «أترغبين في الطَّبخ؟».

«لا أجيد الطَّبخ. في السَّكن الجماعي كان هناك من يطبخ لنا، ومن وقتها وأنا آكل فقط».

«هل أمضيت حياتك في المساكن الجماعيَّة؟».

أردُّ عليه بالقول: «مذ تركت اليزابيث. قبل ذلك عشت مع أناس عدَّة، منهم من كان طبَّاخاً ماهراً، والبعض الآخر لا».

يتمعَّن فيَّ وكأنه يرغب في سماع المزيد، لكنَّني لم أزد. جلسنا وأمامنا أطباق الريفيولي. بدأت تمطر في الخارج ثانية. كان المطر يتهاطل بشكل يهدِّد بتحويل الطُّرق الترابية إلى أنهار.

حين أنهينا طعامنا، غسل غرانت طبقه وصعد إلى الأعلى. جلست إلى طاولة المطبخ أنتظر نزوله ليقلَّني إلى البيت، لكنَّه لم يظهر. احتسيت المزيد من العصير ورحت أرقب المنظر في الخارج. عندما داهمني الجوع ثانية رحت أفتِّش في الخزانة حتَّى وجدت عبوة مختومة من البسكويت فأتيت عليها كلَّها، ولم يظهر غرانت

بعد. جهزت إبريق شاي ووقفت أراقبه وأنا أدفّئ كفيّ على اللَّهيب الأزرق، إلى أن أخذ الإبريق بالصَّفير.

ملأت كوبين، ووضعت فيهما أكياس شاي وجدتُّهما في علبة على الطَّاولة، وصعدت السُّلَّم.

كان غرانت في الطَّابق الثَّاني جالساً على المقعد المزدوج يقرأ كتاباً مفتوحاً في حضنه. أعطيه الكوب وأفترش الأرض أمام المكتبة. كانت الغرفة صغيرة جدّاً لدرجة أنّه كان باستطاعته لمس ركبتي بإصبع قدمه إن مدَّ ساقه، مع أنَّني جلست بعيدة عنه قدر المستطاع. ألتفت إلى المكتبة. في أسفلها هناك كدسة من الكتب الضَّخمة، أغلبها كتب عن البستنة، متداخلة مع كتب في علم الأحياء وعلم النَّبات.

«علم الأحياء؟». أتساءل وأنا أتناول كتاباً وأفتحه على رسمة علميَّة للقلب. «التحقت بصفٍّ في كليَّة محليَّة. بعدما ماتت والدتي فكَّرت لفترة في بيع المزرعة والالتحاق بكليَّة. لكنَّني انسحبت من الصفِّ في منتصف الطَّريق. لم تعجبني قاعات المحاضرات. كانت مكتظَّة جدَّاً، وليس فيها ما يكفي من الزُّهور».

يخرج عن القلب وعاء أزرق سميك منحني. أتتبَّعه بإصبعي ثمَّ أنظر إلى غرانت. «ما الَّذي تقرؤه؟».

«غيرترود شتاين».

أهزُّ رأسي. لم أسمع بها قط.

يسأل مستفسراً: «الشَّاعرة؟ ألا تعرفين: الوردة هي وردة وتبقى وردة؟».

أهزُّ رأسي ثانية.

«في السَّنة الأخيرة من حياتها باتت أمّي مهووسة بها. قضت معظم حياتها تقرأ الشِّعر الفيكتوري، وعندما وقعت على غيرترود شتاين أخبرتني أنَّها أضحت سلواها».

أسأله: «ماذا يعني الوردة هي وردة وتبقى وردة؟». أصفق كتاب الأحياء مغلقة إياه، ليطلع في وجهي الهيكل العظميَّ للإنسان، فأنقر على محجر العين الفارغ.

يجيبني: «يعني أنَّ الأشياء هي ما هي عليه».

«الوردة هي وردة».

«وتبقى وردة»، ينهي المقطع ويرتسم على محيَّاه آثار ابتسامة خفيفة.

رحت أفكّر بكلِّ الزُّهور الَّتي في الحديقة بالأسفل، وتدرُّجات ألوانها وتفتُّحها، فأردف: «باستثناء تلكم الصُّفر، أوالحمر، أوالورديّة، أو الَّتي لم تتفتَّح، أو الذَّابلة».

يردُّ غرانت: «هذا ما كنت أفكِّر فيه على الدَّوام. لكنَّني أمنح الآنسة شتاين فرصة لإقناعي»، ويعود إلى كتابه.

أسحب كتاباً آخر من رفٍّ أعلى. كان كتاباً رقيقاً من الشّعر لاليزابيث باريت براوننغ. كنت قد قرأت معظم أعمالها في سنوات مراهقتي المبكِّرة عندما تعرَّفت إلى الشُّعراء الرومانسيين، والَّذين لطالما أشاروا إلى لغة الزُّهور، فقرأت كلَّ ما وقعت يدي عليه. كانت صفحات الكتاب موسومة بملاحظات كتبت بخطٍّ رديء على الهامش. القصيدة الَّتي فتحت عليها تألَّفت من أحد عشر مقطعاً، كلُّها تبدأ بعبارة أحببني، فأدهشني ذلك. أنا متأكدة من أنَّني قرأت القصيدة، لكنَّني لم أعد أذكر عشرات التَّلميحات الَّتي تحويها عن الحبِّ، بل التَّلميحات عن الزُّهور وحسب. أعيد الكتاب وأسحب آخر، ليتلوه آخر. كلُّ هذا الوقت وغرانت جالس يقلِّب الصَّفحات بصمت. نظرت في ساعتي، كانت تشير إلى العاشرة وعشرة دقائق.

يرفع غرانت ناظره، ينظر في ساعته ثم يحدج بنظره من النافذة. لا يزال المطر ينهمر. «أتودِّين العودة إلى البيت؟».

الطُّرقة مبللَّة، والقيادة ستكون بطيئة، وسأشبع بللاً إن سرت بين التَّجمُّعين السَّكنيَّين الفاصلين بين محلِّ الزُّهور وغرفتي الزَّرقاء، وسأجد فرقة ناتاليا تتدرَّب. كما أنَّ ريناتا لا تنتظر قدومي إلى العمل غداً. لا، أدركت أنَّني لا أريد العودة إلى المنزل على وجه الخصوص.

أسأله: «وهل هناك خيار آخر؟ لن أنام معك في نفس المكان».

«لـن أبقـى هنـا. يمكنـك أن تنامـي عـلى سريـري. أو يمكنـك أن تنامـي عـلى الأريكـة، أو في أيِّ مـكان».

«كيف لي أن أتأكَّد من أنَّك لن ترجع في منتصف اللَّيل؟».

يخـرج غرانـت سلسـلة مفاتيحـه مـن جيبـه ويفصـل المفتـاح الخـاصَّ بـبرج المـاء. يسـلِّمني إيَّـاه ويهبـط نـازلاً السـلَّم، فألحـق بـه.

في المطبـخ، يخـرج كشَّـاف ضـوء مـن أحـد الـدُّروج ويتنـاول سـترة مـن الصُّـوف النَّاعـم مـن عـلى المشـجب. أفتـح البـاب فيخـرج وهـو يمـشي الهوينـى عابـراً حاجـب العتبـة الخارجيَّـة. كان مـاء المطـر ينسـكب حـول العتبـة المحميَّـة كالمـلاءة. يتوجَّـه إليَّ بالتَّحيَّـة: «تصبحين عـلى خـير».

فأسأله: «هل من مفتاح احتياطي؟».

يتنهَّـد غرانـت ويهـزُّ رأسـه، لكنَّـه كان يبتسـم. ينحنـي ويلتقـط رشَّـاش مـاء صـدئ قـد امتـلأ نصفـه بـماء السَّـماء. يفـرغ المـاء من خلال الزَّلُّومـة وكأنَّـه يسـقي الحـصى المشـبعة بالبلـل. هنـاك في قاعـه اسـتقرَّ مفتـاح. «يحتمـل أنـه صـدئ ولا يعمـل. لكـن، هـاك، تحسُّـباً». يسـلِّمني المفتـاح، فتتعانـق كفّانـا حـول المعـدن المبلَّـل.

أحيِّيـه قائلـة: «شـكراً لـك، وتصبـح عـلى خـير». بقـي واقفـاً فيـما كنـت أدفـع البـاب ببـطء حتَّـى أغلقتـه وأدرت القفـل.

أتنفَّـس الصُّعـداء في بهـو بـرج المـاء وأصعـد السُّـلَّم. عنـد الطَّابـق

الثَّالث أسحب البطَّانيَّة من فوق سرير غرانت وأعود أدراجي إلى المطبخ، لأتكوَّم على نفسي تحت طاولة النزهات. من هناك، إن فتح الباب سأمعه.

لكن، كلُّ ما سمعته طوال اللَّيل كان صوت المطر.

عند العاشرة والنِّصف من صباح اليوم التَّالي يقرع غرانت الباب. كنت لا أزال أغطُّ في النَّوم تحت الطَّاولة. نمت اثنتي عشرة ساعة، فأحسُّ بجسدي قد تخدَّر، فأبطئ بالنُّهوض. توقَّفت عند الباب واستندت إلى الخشب المصمت ورحت أفرك عينيَّ وكرسيَّي خديَّ ونقرتي، ثمَّ فتحت الباب.

كان غرانت يقف مرتدياً الملابس ذاتها الَّتي كان يرتديها في اللَّيلة السَّابقة، لكنَّه فقط بدا أكثر يقظة مما حسبت. يدخل المطبخ متثاقلاً، ثمَّ يجلس إلى الطَّاولة.

كانت العاصفة قد مرَّت وانتهت، فبدت الزُّهور من خارج النَّافذة تلمع تحت السَّماء الصَّافية. إنَّه يوم مثالي للتَّصوير.

يسألني: «أتذهبين إلى سوق المزارعين؟ في أيَّام الأحد أبيع على الطَّريق بدلاً من البيع في السُّوق. فهل ترغبين بالمجيء؟».

تذكَّرت أنَّ كانون الأول يعتبر أواناً سيئاً من السَّنة بالنِّسبة إلى الفواكه والخضار، كالبرتقال والتُّفاح والبروكولي والملفوف. لكن، حتَّى لو كان الأوان منتصف الصَّيف فلن أرغب بالذَّهاب

إلى سوق المزارعين. لم تكن لديَّ الرَّغبة بالمخاطرة ورؤية اليزابيث. «في الواقع، لا. أريد أن أصوِّر».

«طيِّب، تعالي معي وابقي بانتظاري في الشَّاحنة حتَّى أبيع فضلة البارحة، ثم سأقلُّك إلى متجر استهلاكي».

يبدِّل غرانت ملابسه في الأعلى، فيما أنظِّف أنا أسناني مستخدمة المعجون وإصبعي. أبلِّل وجهي وشعري بالماء ثم أمضي لأنتظر في الشَّاحنة. بعد دقائق قليلة، يلحق بي غرانت إلى الشَّاحنة وقد حلق لحيته وارتدى قميصاً سميكاً نظيفاً رمادي اللَّون، وبنطالاً من الجينز متَّسخاً قليلاً. لايزال الإرهاق بادياً على محيَّاه، وقد سحب الطَّاقية على رأسه وهو يقفل باب برج الماء.

بدت الطَّريق مغمورة بالماء في بعض الأماكن، لذا قاد غرانت ببطء. وراحت شاحنته تتمايل كزورق يمخر عباب البحر، فأغمض عينيّ.

بعد مضي أقلَّ من خمس دقائق يوقف الشَّاحنة. عندما فتّحت عينيّ كنَّا في رحبة مكتظَّة، وحين نطّ غرانت خارجاً غصت أنا في مقعدي. يُنزل غرانت الدِّلاء من شاحنته وقد خفَّض طاقيَّته حتَّى جبهته. أغمض عينيّ وأسند أذني إلى الباب المقفل في محاولة لصدِّ ضجيج السُّوق المزدحم عن طرق مسامعي، وحتَّى لا ترجعني الذِّكرى إلى المرَّات العديدة الَّتي أتيت إليه فيها وأنا طفلة. وأخيراً يعود.

يسألني: «جاهزة؟».

يمضي غرانت إلى أقرب متجر استهلاكي، متجر البلدة، والَّذي يحوي معدَّات صيد إلى جانب الأدوية. ينتابني توتُّر إذ خرجت إلى مكان قريب من مقرِّ إقامة اليزابيث.

أتوقَّف، ويدي على باب الشَّاحنة: «ماذا عن اليزابيث؟».

«لن تكون هنا. لا أعرف من أين تتسوَّق، لكنِّي لم ألتق بها على الرَّغم من مجيئي إلى هنا طوال ما يزيد على عشرين سنة».

يريحني جوابه فأمضي إلى الدَّاخل وأتوجَّه مباشرة إلى نضد التَّصوير لأفرد محتويات علبي الصَّغيرة في ظرف وأدفع به من خلال فتحة.

«أيمكن أن أستلمها بعد ساعة؟»، أسأل موظَّفة ترتدي مئزراً أزرق ويبدو عليها الضَّجر.

تردُّ عليَّ: «بل أقل. منذ أيَّام لم أستلم فيلماً واحداً للتَّطهير».

أندسُّ في أقرب جناح إليَّ. كان المخزن يعلن عن تنزيلات على القمصان القطنية، الثَّلاثة بخمسة دولارات. أتناول أوَّل ثلاثة على وجه الكدسة المتعالية وأرميهم في سلَّتي مع علب الأفلام، وفرشاة أسنان، ومزيل رائحة. ينتظر غرانت عند طاولة الحساب وهو يأكل قطعة حلوى ويتابع تنقُّلاتي بين الصُّفوف، جيئة وذهاباً. أخرج رأسي من الجناح، وعندما أرى المخزن فارغاً، أنضمُّ إليه عند الطَّاولة.

«أهو الإفطار؟»، أسأله فيومئ برأسه. أتناول إصبع حلوى بالبندق، فأنقر البندق منها وآكله، فلا يتبقّى منها إلا المادَّة الدَّبقة.

«الجزء الألذُّ»، يقول غرانت ويومئ إلى الكراميل. أعطيه إيَّاها فيزدردها بسرعة وكأنَّه يخشى أن أتراجع عن رأيي فأسترجعها. يتوجَّه بكلامه إليَّ قائلاً، وهو يبتسم ساخراً: «يبدو أنَّك تحبّينني أكثر من مسايرتي».

ينفتح الباب، ويدخل منه زوجان عجوزان وهما يسيران باتِّجاهنا وقد تشابكت كفَّاهما. كان ظهر المرأة منحنياً إلى الأمام، فيما بدت ساق الرَّجل اليسرى متيبِّسة، فظهرت المرأة وكأنَّها تجرُّه عبر الباب. يقيسني الرَّجل بنظرة من رأسي حتَّى أخمص قدمي، لترتسم على وجهه ابتسامة متصابي، فتبدو متناقضة مع بشرته الَّتي رقَّطها التَّقادم في العمر.

يقول، وهو يغمز بعينه ويومئ باتِّجاهي: « تربت يداك يا غرانت، تربت يداك يا ولدي».

يردُّ غرانت وعيناه في الأرض: «بوركت يا سيِّدي». يتهادى الرَّجل وهو يتجاوزنا، وبعد خطوات قليلة يتوقَّف ويصفع زوجته على مقعدتها، ليستدير بعدها ويغمز لغرانت.

ينقل غرانت نظره بيني وبين العجوز ويهزُّ رأسه. «كان أحد أصدقاء والدتي»، يخبرني عندما يصبح الزَّوجان بعيدين كفاية عن نطاق السَّمع. «يظنُّنا سنصبح هكذا بعد ستِّين عاماً».

أقلب عينيَّ مستهجنة وأتناول إصبعاً آخر من الحلوى، ثم أمضي لأنتظر عند نضد التَّصوير. أن نشبك يدينا أنا وغرانت بعد ستِّين عاماً هو الاحتمال الأبعد والَّذي لن يشهده العالم. تسلِّمني الموظَّفة الفيلم الأول، والَّذي تمَّ طبعه توّاً، كما تمَّ قصُّ الشَّريط السَّالب وسوِّي في ظرف شفَّاف، فأقوم بترتيب الصُّور على النُّضد الأصفر اللَّمَّاع.

الصور العشرة الأولى بدت مهزوزة. فعلى منوال التَّجربة الأولى، كانت الصور مغبِّشة، وليس بقعاً بيضاء لا يمكن تمييزها. مع الوصول إلى الصُّورة الحادية عشرة بدأت الصُّور تتَّضح بشكل مقبول، لكن، ليس فيها ما يدعو للتَّباهي. تابعَتْ الموظَّفة تسليمي الأفلام واحداً إثر الآخر، وتابعتُ ترتيب الصُّور وأنا حريصة على الحفاظ على التَّرتيب.

يقف غرانت على مقربة منِّي وقد جعل من العبوات الفارغة لخمس من قطع الحلوى مروحة له. أتجاوزه وأرفع الصُّورة. كان ترتيبها السَّادس عشر من الفيلم الثَّامن: بدت الزَّهرة البيضاء مثالية، لامعة وواضحة، والتَّباين مع الخلفيَّة الدَّاكنة يشكِّل إطاراً طبيعياً. ينحني غرانت فوقها وكأنه سيتشمَّم رائحتها، ثمَّ يهزُّ رأسه إعجاباً ويقول: «جميلة».

فأردُّ: «هيَّا لنمضي». أدفع ثمن المشتريات الَّتي في سلتي، وأغلفة حلوى غرانت، وأمضي خارجة من الباب.

يسألني غرانت، وقد توقَّف وراح ينظر إلى بحر الصُّور الَّذي خلَّفته ورائي على نضد الصُّور: «فماذا عن صورك؟».

فأجيبه، وأنا أمسك بالصُّورة الوحيدة: «هذا كلُّ ما أحتاج».

(٨)

أنصت إلى خبطة خرقة التَّنظيف الَّتي تستخدمها اليزابيث وظهري يستند إلى جذع كرمة سميك. المفروض أنَّني في الخارج لأقوم بنزهتي الصَّباحية، لكن، لم أكن في مزاج يدفعني للمشي. فتحت اليزابيث كلَّ شبابيك المنزل ليستقبل أولى هبَّات الهواء الرَّبيعي الدَّافئة، ومن موقعي في الصَّفِّ الأقرب إلى المنزل كنت أستطيع سماع كلِّ حركة تقوم بها.

مضى عليَّ الآن ستَّة شهور وأنا في المنزل مع اليزابيث، وقد اعتدت على مفهومها للمدرسة المنزليَّة. لم أكن أملك مقعداً، كما أنَّ اليزابيث لم تشتر سبُّورة، ولا كتباً، ولا بطاقات تعليميَّة. بدلاً عن كل هذا، وضعت جدولاً على باب الثَّلاجة، هو عبارة عن ورقة رقيقة اقتطعت من صحيفة كالورق وعليها كتابات ناعمة، وزواياها تلتفُّ حول مغناطيسات مدوَّرة فضِّيَّة اللَّون، وكانت واجباتي هي النَّشاطات والوظائف المعتادة الموجودة على الورقة الرَّقيقة.

كانت قائمة اليزابيث مفصَّلة، ومضبوطة، لكنَّها لم تتغيَّر ولم تتبدَّل. كلَّ يوم، وبعد الفطور والقيام بنزهتي الصَّباحيَّة، أقوم بالكتابة في دفتر اليوميَّة المغلَّف بالجلد الأسود، الَّذي اشترته

لي. كنت أكتب بشكل جيِّد وأهجِّئ بصورة ممتازة، لكنِّي كنت أتعمَّد ارتكاب الأخطاء كي تبقى اليزابيث إلى جانبي وهي تنطق الكلمات وتصحِّح الصَّفحات. وعندما أنتهي، كنت أساعدها في تحضير الطَّعام، فنقوم بمعايرة وسكب ومضاعفة الوصفات ومن ثمَّ تنصيصها. أضحت الآنية المعدنية المتكدِّسة واللَّامعة كسوراً، وأكواب البازلَّاء الجافَّة باتت حالات لفظيَّة مركَّبة. وباستخدام التَّقويم الَّذي تتابع حالة الطقس من خلاله، علَّمتني حساب المتوسط والنِّسب المئوية والاحتمالات.

مع نهاية كلِّ يوم، صارت اليزابيث تقرأ لي. كانت لديها رفوف مكتظَّة بقصص الأطفال ذات الأغلفة القاسية والمغبرَّة، وعناوينها محفورة بالذَّهب: الحديقة السِّرِّية، المتفائل، شجرة بروكلين. لكنِّي كنت أفضِّل كتبها الَّتي تتناول زراعة الكروم، فصور النَّباتات والمعادلات الكيماوية توثِّق العالم المحيط بي. حفظت كلمات مثل ارتشاح النترات، احتباس الكربون، المعالجة المتكاملة للآفات، ورحت أستخدمها في المحادثات العادية بجدِّية كانت تدفع اليزابيث إلى الضَّحك.

قبل المضيِّ إلى السَّرير، كنَّا نضع إشارة فوق كلِّ يوم يمضي على تقويم موجود في غرفتي. خلال كانون الثاني، خربشت إشارة x باللَّون الأحمر في المربَّع الواقع تحت التَّاريخ، لكن، مع نهاية شهر آذار، صرت أسجِّل درجات الحرارة العظمى والصغرى، كما كانت اليزابيث تفعل على تقويمها، إضافة إلى ما تناولنا على

الغداء، وأدوِّن نشاطات اليوم. كما قامت اليزابيث بقصِّ كومة من اللُّصاقات، حجم الواحدة منها يعادل حجم مربَّعات التَّقويم، فكنت أملأ خمسة أو ستَّة مربَّعات في كثير من المساءات قبل أن آوي إلى الفراش.

صار التَّقويم ضرباً من العدِّ التَّنازلي أكثر منه طقساً مسائياً. الثَّاني من آب، اليوم الَّذي يلي يوم مولدي المفترض، كان بارزاً، فالمربَّع كلُّه كان ملوَّناً بالوردي. وبالقلم الأسود، سجَّلت اليزابيث السَّاعة الحادية عشرة صباحاً، الطَّابق الثالث، الغرفة ٣٠٥. ينصُّ القانون على أن أقضي مع اليزابيث عاماً كاملاً قبل البدء بإجراءات التبنِّي. كانت ميريديث قد جدولت موعد محكمتنا قبل سنة بدءاً من يوم وصولي.

أنظر في السَّاعة الَّتي أعطتني إياها اليزابيث. ما زال هناك عشرة دقائق قبل أن تدعوني إلى الدُّخول. أسند رأسي المنحني إلى الأغصان العارية للكرمة. كانت أولى الأوراق الخضر اللَّامعة قد خرجت من الأكمام المحكمة، فرحت أتأمَّلها. بدت صوراً تامَّة التَّكوين، بحجم ظفر الإصبع، مقارنة بما ستغدو عليه.

أتشمَّم واحدة وأقضم طرفها وأنا أفكِّر في ذكر طعم الكرمة في سجلِّي قبل أن تثمر. أنظر في ساعتي ثانية، باقي خمس دقائق.

أسمع صوت اليزابيث يشقُّ الهدوء المحيط. كان واضحاً ومليئاً بالثِّقة، فخيِّل إليَّ أنَّها تناديني. أهرول عائدة إلى المنزل لأتوقَّف في

منتصف الطَّريق وقد أدركت أنَّها تتحدَّث عبر الهاتف. على الرَّغم من عدم إتيانها على ذكر شقيقتها منذ زيارتنا إلى مزرعة الزُّهور، لكنّي عرفت مباشرة أنَّها اتَّصلت بكاثرين. أجلس على التُّراب تحت نافذة المطبخ وأنا مصدومة.

سمعتها تقول: «محصول جديد وسليم. لست بسكِّيرة لكنَّني أشعر بمزيد من التَّعاطف تجاه أبي. أستطيع أن أتفهَّم التماس الاستيقاظ على رشفة من مشروب، «لهدهدة المخاوف من الصَّقيع»، كما اعتاد أن يقول». كان توقُّفها قصيراً، فأدركت أنَّها كانت تتحدَّث مجدَّداً إلى المجيب الآلي لهاتف كاثرين. «على كلِّ حال، أعلم أنَّك رأيتني ذلك اليوم من شهر تشرين الأول. هل رأيت فيكتوريا؟ أليست جميلة؟ بدا واضحاً أنَّك لم تكوني ترغبين في رؤيتي. وأنا وددت احترام ذلك، كي أمنحك المزيد من الوقت، لذلك لم أتَّصل من حينها. لكن، لم أعد أطيق صبراً على الانتظار أكثر. لقد قرَّرت البدء بالاتِّصال بك مجدداً، كلَّ يوم. ولربَّما أتَّصل أكثر من مرَّة في اليوم، حتى تقبلي التحدُّث إليَّ. أنا بحاجتك يا كاثرين، ألا تفهمين؟ فأنت كلُّ عائلتي».

أغمض عينيّ مع كلمات اليزابيث. «**أنت كلُّ عائلتي**». لثمانية أشهر ونحن نقيم معاً، نتناول الوجبات الثَّلاث معاً كلَّ يوم على طاولة المطبخ، ونعمل جنباً إلى جنب. وبعد أقلِّ من أربعة شهور ستتمُّ إجراءات التبنِّي، وعلى الرَّغم من هذا، اليزابيث لا تعتبرني عائلتها. بدلاً من الحزن اعتراني الغضب، وعندما سمعت

نقرة إغلاق الهاتف، يتلوها صوت تدفُّق الماء الوسخ في المجاري، اجتزت الدَّرجات الأمامية، ثمَّ رحت أخبط على الباب بقبضتيَّ المحكمتين محاولة تحطيمه. أردت أن أصرخ «**فلماذا أكون أنا إذن؟ لم لا نتوقَّف عن التَّكلُّف؟**».

لكن، حين فتحت اليزابيث الباب وتمعَّنت في وجهها الَّذي علته الدَّهشة، رحت أبكي. لا أتذكَّر أبداً أنَّني بكيت قبلاً. بدت الدُّموع نوعاً من الخيانة لغضبي، فرحت ألطم وجهي حيث أخذت الدُّموع تنهمر كالجداول. وكان الألم الَّذي تسبِّبه كلُّ لطمة يدفعني إلى بكاء أمرّ.

لم تسألني اليزابيث عن سبب بكائي، بل سحبتني إلى المطبخ وحسب. جلست على كرسيٍّ خشبيٍّ فجرَّتني غصباً إلى حضنها. بعد بضعة شهور سأبلغ العاشرة. بتُّ أكبر من أن أجلس في حضنها، أكبر من أن أُحمل وأُهدهد،

كما كنت أكبر من أن تتمَّ إعادتي. اعتراني الخوف فجأة من إلحاقي بسكن جماعي، كما أدهشني نجاح تكتيك ميريديث التَّرهيبي. أدفن وجهي في رقبة اليزابيث، فأنوح وأنوح، لتضمُّني كأنَّها تعتصرني. انتظرتها كي تطلب منِّي أن أهدأ، لكنَّها لم تفعل.

تمرُّ الدَّقائق. يصدر عن موقِّت موضوع على فرن المطبخ صوت تنبيه، لكنَّ اليزابيث لم تنهض. عندما رفعت رأسي في النِّهاية، كان المطبخ يعبق برائحة الشوكولا. لقد حضَّرت اليزابيث

كيكـة السـوفليه للاحتفـال بتغـيُّر الطَّقـس. بـدت الرَّائحـة زكيَّـة وطيِّبـة. أمسـح عينـاي عـلى كتـف بلوزتهـا وأجلـس، ثـمَّ أدفـع نفسي إلى الخلـف كـي أنظـر إليهـا. عندمـا التقـت عيوننـا وجدتهـا تبكـي هـي أيضـاً. تجمَّعـت الدُّمـوع ثـمَّ سـالت مـن أسـفل خدهـا.

«أحبُّك»، تقول اليزابيث، فأشرع بالبكاء مجدَّداً.

في الفرن، راحت كيكة السوفليه تحترق.

(٩)

في الصَّباح الباكر من يوم الأحد ينطلق غرانت إلى سوق الزُّهور دون أن أرافقه. عندما استيقظت بعد ساعات دهشت إذ لم أكن لوحدي في المكان. كان هناك رجال منتشرين بين الصُّفوف يصيح واحدهم للآخر، فيما انحنت نسوة على التُّربة النديَّة لاقتلاع الأعشاب. راقبت كل ما يحدث من النَّافذة: التَّقليم، والرِّعاية، والتَّغذية، والقطاف.

لم يخطر لي أنَّ أحداً غير غرانت يعتني بالمساحات الممتدَّة من الشَّتلات، لكن، ما إن شاهدت انشغال العمَّال حتَّى تجلَّى لي سخف ما ظننت، فكمُّ العمل هائل، والمهام كثيرة. وعلى الرَّغم من انزعاجي من مشاركة المكان مع أحد، لاسيَّما في أوَّل يوم يتركني فيه غرانت لوحدي، إلَّا أنَّني كنت ممتنَّة للعمَّال الَّذين اقتلعوا بلطف مئات الزُّهور المتفتِّحة والمتنوِّعة.

بدَّلت ملابسي وارتديت قميصاً قطنيّاً ونظَّفت أسناني. وخرجت بعدها وفي يدي رغيف خبز وآلة التَّصوير. حيَّاني العمَّال بإيماءة خفيضة وابتسامة لكنَّهم لم يحاولوا فتح حديث معي.

ألج أوَّل دفيئة. كانت هي الدَّفيئة الَّتي فتح غرانت بابها من

أجلي خلال نزهتنا الأولى، وهي تحوي الأوركيديا بالمقام الأول، وجانباً واحداً منها يحوي تشكيلة من زهور الكركديه والنَّرجس. بدت أكثر دفئاً، وكنت أشعر بالرَّاحة في قميصي القطني الرَّقيق. انطلقت من الرَّفِّ العلوي للجانب الشِّمالي، فقمت بترقيم دفتري، والتقطت صورتين لكلِّ زهرة، دوَّنت الاسم العلميَّ لكلٍّ منها بدلاً من أوضاع آلة التَّصوير. ومن ثمَّ، استعنت بواحد من كتب البستنة الَّتي يملكها غرانت لتحديد الاسم الشَّائع لكلِّ زهرة فسجَّلته على الهامش، وفتحت قاموسي لأضع إشارة «إلى جانب الزُّهور الَّتي صوَّرتها. استهلكت أربعة أفلام، ووضعت ستَّ عشرة إشارة» على صفحات قاموسي. سيستغرق تصوير كلِّ الزُّهور المتفتِّحة أسبوعاً، وكلَّ الرَّبيع إن أنا انتظرت تلكم الَّتي لم تتفتَّح. وحتَّى حينه سيكون احتمالاً وارداً أن أضيِّع عليَّ بعض الزُّهور.

على بعد خطوات من الجانب الخلفيِّ، تختفي عيني خلف محدِّد الرُّؤية، وهناك أتعثَّر بجسم كبير متوضِّع في منتصف الممر. أخفض نظري ليقع على صندوق كرتونيٍّ مغلق. وبقلم عريض الرَّأس أسود الحبر خربش أحدهم على غطائه كلمة نسرين.

أسترق النَّظر إلى ما يحويه الصندوق. كان فيه ستَّة أوعية خزفية رصَّت إلى بعضها البعض، وتبدو تربتها الرَّملية رطبة كما لو أنَّها سقيت في الصَّباح. أدخل إصبعي لمسافة بضعة سنتيمترات في التُّربة، على أمل أن أجد فسيلة على وشك البزوغ، لكن، لم يكن

هنـاك شيء. أغلـق الصُّنـدوق وأتابـع طريقـي، لتنطلـق آلـة التَّصويـر بالطَّقطقـة كلَّما وجـدت نبتـة جديـدة تفتَّـح فيهـا برعـم جديـد، ويلـفُّ الفيلـم.

تمـرُّ الأيَّـام عـلى هـذا النحـو. غرانـت يغـادر صباحـاً قبـل أن أسـتيقظ، وأنـا أمـضي معظـم أوقـات الظَّهـيرة لوحـدي في الدَّفيئـات، أمـرُّ بالعـمّال الدَّمثـين خـلال تنقُّـلاتي بـين ميـدان العمـل وبـرج المـاء. في معظـم الأحيـان كان غرانـت يجلـب معـه طعامـاً جاهـزاً في المسـاء، لكنَّنـا في مسـاءات أخـرى كنَّـا نتنـاول الحسـاء المعلَّـب وأرغفـة كاملـة مـن الخبـز، أو البيتـزا المثلَّجـة.

بعـد الطَّعـام، كنَّـا نقـرأ معـاً في الطَّابـق الثَّـاني، وفي بعـض الأحيـان كنَّـا نتشـاطر المقعـد الثُّنائـي. في تلـك المسـاءات، كنـت أتصـبَّر عـلى رغبتـي العارمـة في الانعـزال حـين تجتاحنـي. لكـن، مـا إن يـرقُّ الهـواء في الغرفـة حتَّـى يقـف غرانـت ويلقـي علـيَّ تحيَّـة النَّـوم، ليختفـي نـازلاً السُّـلَّم المـدوَّر. كان في بعـض الأحيـان يعـود بعـد سـاعة، وأحيانـاً أخـرى لم يكـن ليظهـر حتـى مسـاء اليـوم التـالي. لم أكـن أعـرف أيـن يذهـب أو أيـن ينـام في المسـاء، ولم أكُ أسـأل.

مـضى عـلى وجـودي في مزرعـة غرانـت أسـبوعان عندمـا جـاء عـصر أحـد الأيـام يحمـل دجاجـة .. نيِّئـة.

أسـأله، وأنـا أحمـل الطَّـير المثلَّـج والملفـوف بالنَّايلـون: «مـاذا سـنفعل بهـذه؟».

فيردُّ: «سوف نطبخها».

أسـألـه مسـتفسرة: «مـاذا تعنـي بـ(سـوف نطبخهـا)؟ نحـن لا نعـرف حتَّـى كيـف ننظِّفهـا».

يفتـح غرانـت وصفـة طويلـة، قـد سـجَّل عـلى قفاهـا تعليـمات تلاهـا عـلى مسـامعي بصـوت عـالي. كانـت تبـدأ بتحمية الفرن مسـبقاً، وتنتهـي بـشيء عـن إكليـل الجبـل والبطاطـا الجديـدة.

أشـغِّل الفـرن وأقـول: «هاهـي مسـاهمتي. ولـك حرَّيـة التَّصرف مـن الآن حتَّـى تنتهـي»، وأجلـس إلى الطاولـة.

يخـرج ورق زبـدة ويغسـل البطاطـا، ثـم يقطِّعهـا إلى مكعَّبـات ويـرشُّ عليهـا إكليـل الجبـل. يضعهـا في صينيَّـة مـع الدَّجاجـة ويسـكب زيـت الزَّيتـون عـلى كل المكوِّنـات مـع الملـح والبهـارات مـن إنـاء صغـير. يغسـل يديـه ويدخـل الصّينيَّـة إلى الفـرن.

«سـألت اللَّحـام عـن أسـهل وصفـة ممكنـة وهـذا مـا أمـلاه علـيَّ. مقبـول، أليـس كذلـك؟».

أهزُّ كتفي.

فيضيـف: «المشـكلة الوحيـدة أنَّهـا تسـتغرق أكثـر مـن سـاعة لكـي تنضـج».

«أكثـر مـن سـاعة». فكـرة الانتظـار أوجعـت رأسي. لم آكل منـذ الإفطـار، ومعـدتي كانـت خاويـة حـدَّ الغثيـان.

يشعل غرانت شمعة ويخرج أوراق لعب قائلاً: «كي نتلهَّى». يضبط الموقِّت ويجلس قبالتي.

لعبنا لعبة الحرب على ضوء الشَّمعة. هي اللُّعبة الوحيدة الَّتي نتقنها كلانا. جعلتنا نتسلَّى بما يكفي حتَّى نتجنَّب الإغماء فوق الطَّاولة. عندما رنَّ الموقِّت، وضعت الأطباق على الطاولة، فيما قام غرانت بتقطيع صدر الفرُّوج إلى شرائح رقيقة. أنتزع ساق الطير البنِّيَّة الذَّهبيَّة اللَّون، وأشرع بالأكل.

الوجبة لذيذة، والنَّكهة تتناسب عكسيَّاً مع كمِّ الجهد الَّذي بذل في التَّجهيز. كان اللَّحم ساخناً وناضجاً، فرُحت ألوك وأزدرد لقماً ملء الفم، ثمَّ أنتزع الدَّبُّوس الثَّاني قبل أن تمتدَّ يد غرانت إليه، وأشرع بالتهام الجلد المتبَّل.

قبالتي، يتناول غرانت شريحة من لحم الصَّدر بالشَّوكة والسِّكِّين، فيقتطع لقمة كلَّ مرة ويتناولها ببطء. ينعكس على وجهه تلذُّذه بالطَّعام والاعتزاز بالإنجاز. يضع الشَّوكة والسِّكِّين ويسرِّح نظره إلى الطَّرف الآخر من الطَّاولة. استطعت أن أرى علامات الفرحة ترتسم على وجهه لمرأى ما افترس جوعي، فتستفزُّني متابعته لي.

أضع الدبَّوس الثَّاني من يدي مجرَّد عظام، وأسأله: «أنت مدرك أنَّه لن يكون حالنا، أليس كذلك؟».

ينظر غرانت إليَّ باضطراب.

فأتابع: «الزَّوجان العجوزان، في المتجر، الصَّفع والغمز. هذا لن يكون حالنا. لن تستطيع التعرُّف عليَّ بعد ستِّين عاماً. وربَّما لن تتعرَّف عليَّ بعد ستَّة عشر يوماً».

تذوي ابتسامته: «لم أنت واثقة؟».

أقلِّب سؤاله في فكري. كنت واثقة، وإنَّني لعلى يقين أنَّه يعلم. لكن، كان من الصَّعب عليَّ تبرير ثقتي. «باستثناء المسؤولة الاجتماعية، فأطول فترة زمنيَّة قضيتها مع شخص أعرفه كانت خمسة عشر شهراً».

«ما الَّذي حدث بعد الخمسة عشر شهراً؟».

أنظر إليه بعينين متوسِّلتين. عندما أدرك الجواب أشاح بنظره بعيداً محرجاً.

«لكن، لم ليس الآن؟». كان سؤاله سليماً وفي أوانه، وعندما طرحه كنت أمتلك الرد.

أجيبه: «لأنَّني لا أثق بنفسي. كيفما تخيَّلت شكل حياتنا معاً، لا أجده ممكن التَّطبيق. سوف أفسده».

كنت أرى غرانت يفكِّر بالأمر، وهو يحاول أن يردم الفجوة بين الجزم الَّذي يطبع نبرة صوتي ورؤيته لمستقبلنا المشترك، ويمدُّ جسراً من أمل واختلاق فوق الهوَّة. يداهمني شعور بشيء ما حيال أوهامه البائسة، مزيج من شفقة وتحرُّج.

فأردف: «أرجوك، لا تضيِّع وقتك في المحاولة. أنا جرَّبت مرة وفشلت. الأمر غير ممكن بالنِّسبة لي».

عندما نظر غرانت إليَّ ثانية، كانت تعابيره قد تبدَّلت. بدا وجهه مشدوداً، وقد توسَّع منخراه.

يردُّ: «أنت تكذبين».

فأتساءل مندهشة: «ماذا؟». لم يكن هذا هو الجواب الَّذي توقعته.

يحكُّ غرانت الجلد عند منبت الشَّعر بأصابع يده، وعندما تحدَّث خرجت الكلمات من فمه ببطء وحذر. «لا تكذبي. قولي أنَّك لن تغفري لي بسبب ما فعلته أمي. أو أعلميني أنَّك تشعرين بالإعياء كلَّما نظرت إليَّ. لكن، لا تجلسي هنا وتكذبي عليَّ، وأنت تقولين أنَّها غلطتك أنَّنا لن نكون أبداً معاً».

ألتقط عظام الفروج وأقشِّر الدُّهن عن الأوتار. لم أستطع النَّظر إليه. احتجت إلى الوقت كي أدوِّر في رأسي ما تفوَّه به. كان هناك تفسير واحد لعبارة «**ما فعلته أمي**». عندما قابلت غرانت أوَّل مرَّة فتَّشت عن الغضب في قسمات وجهه، ولمَّا لم أجده تذرَّعت بالصَّفح. لكنَّ الواقع كان شيئاً آخر مختلفاً تماماً، فغرانت لم يكن غاضباً منِّي لأنَّه لم يك مطَّلعاً على الحقيقة حتَّى. لا أعرف كيفيَّة حدوث هذا، فهو عاش مع أمِّه تلك الفترة ومع هذا لم يعرف. لكنَّني لم أسأل.

«لست أكـذب». كان هـذا كلُّ مـا قـدرت عـلى التَّفكـير بـه كـي أقولـه.

يسقط غرانـت الشَّـوكة مـن يـده فترتفـع صلصلـة المعـدن نتيجـة ارتطامهـا بالبـلاط. يقـف ويقـول: «لسـتِ الشَّـخص الوحيـد الَّـذي أفسـدَت عليـه حياتـه»، ثـمَّ يخـرج مـن المطبـخ ويبتلعـه الظَّـلام.

أقوم وأقفل الباب خلفه.

(١٠)

سوق المزارعين مكتظٌّ بالنَّاس في شهر تمُّوز. المنتجات مكدَّسة في عربات الأطفال، والممرَّات مقطوعة بسبب تزاحم الصِّغار الملطَّخين بعصير الدُّرَّاق، فيما العجائز يجرُّون عربات اليد ويلوِّحون للأمَّهات الغافلات بأكفٍّ هجرها الصَّبر. تتكسَّر قشور الفستق الحلبي المرميَّة تحت قدمي، فأتخطَّاها لأحافظ على مسايرتي لخطو اليزابيث الَّتي كانت تشقُّ طريقها باتِّجاه ثمار العلِّيق.

أخبرتني اليزابيث أنَّنا سنحضِّر فطيرة العلِّيق والمثلَّجات المنزليِّة بعد الغداء. تلك كانت رشوة منها كي تبقيني داخل المنزل في منأى عن درجات الحرارة الَّتي سجلَّت أرقاماً قياسيَّة، وعن عناقيدها الَّتي راحت تنضج بسرعة، فأسايرها بفتور. عملت في الكرم أنا واليزابيث طوال الصَّيف، جنباً إلى جنب، ولم أكن أرغب بترك الشُّجيرات بمفردها لاسيَّما وأنَّه لا يوجد ما يمكن فعله الآن، اللَّهم إلَّا الانتظار. أفتقد الصَّباحات الطَّويلة الَّتي كنت أقضيها وأنا أقلِّم شجيرات الكرمة وأشذِّب الفسائل الَّتي تبزغ من أسفل السَّاق للحفاظ على تركيز النُّسغ في الجسم الأساسي للشَّجيرات. كما أشتاق إلى حمل سكِّين المطبخ وتتبُّع مسار الجرَّار الصَّغير الَّذي تستخدمه اليزابيث لقلب التُّربة في صفوف الكرم،

حين كنت أنزع بقايا الأعشاب بيديَّ كما علَّمتني، فأقطع جذور النَّبات بالرَّأس المدبَّب للسِّكِّين ثمَّ أنزعه من التُّربة. بقيت على استخدامي للسِّكِّين لأكثر من ثلاثة شهور قبل أن أخبر اليزابيث أنَّ السَّماح للأطفال باستخدام السَّكاكين في بيوت الرِّعاية يتعارض مع قانون تبنِّي الأطفال. لكنَّها لم تسحبها منِّي، بل قالت لي ببساطة **أنت لست في بيت رعاية**. ومع أنِّي لم أعد أشعر بنفسي كطفلة من أطفال بيوت الرِّعاية (بله أشعر في الواقع باختلاف شديد عن الفتاة الَّتي وصلت منذ ما يقرب السَّنة قبل أن أبدأ معظم الصَّباحات بتفحُّص وجهي في مرآة الحمَّام لفترة طويلة بعد أن تدعوني اليزابيث للإفطار، وأنا أفتِّش عن علامات التَّغيُّر الَّذي أدرك أنَّه يطرأ عليَّ). لكن، لم تكن هذه هي الحقيقة العارية. بل إنِّي لا أزال ربيبة، وسأبقى، إلى ما بعد المحكمة في آب القادم.

أشقُّ طريقي بين جمهرة كبيرة حتَّى صرت بجانب اليزابيث. تسألني اليزابيث وهي تناولني صينية ورقيَّة خضراء اللَّون: «علِّيق؟». على طاولة مغطَّاة بغطاء قماشي أحمر يعرض البائع أكواماً متكدِّسة من ثمار العلِّيق والعنبيَّة والتُّوت البرِّي والزَّعرور. ألتقط حبَّة من الصِّينية وأدسُّها في فمي. كانت ريَّانةً وحلوة المذاق، ولطَّخت رؤوس أصابعي باللَّون القرمزي حيث لمستها.

تفرغ اليزابيث محتويات ستِّ صوان ورقيَّة في كيس بلاستيكي وتدفع ثمن ما اشترت، لتنتقل بعدها إلى منصَّة العرض التَّالية. ظللت أتبعها في سياحتها في السُّوق الحامي وأنا أحمل الأكياس

الَّتي لم يعد لها مكان في حقيبتها المطرَّزة وقد فاضت بما تحوي. لدى الوصول إلى شاحنة تنقل الألبان، تناولني عبوة حليب زجاجها يرشح بقطرات الماء، فأسألها: «هل انتهينا؟».

تجيبني: «تقريباً. هيَّا تعالي»، وتقودني إلى النِّهاية البعيدة للسُّوق. قبل أن تتجاوز أيضاً منضدة مشمش بلينهايم، وهو آخر بائع نعرفه موجود في الصَّفِّ، أدرك الوجهة الَّتي نقصدها. أثبِّت القنِّينة الزَّلقة تحت إبطي وأثب باتِّجاه اليزابيث وأتمسَّك بكمِّها وأشدُّها إلى الخلف. لكنَّها سرَّعت خطاها أكثر ولم تتوقَّف حتى وصلت منصَّة الزُّهور.

كانت باقات الزَّهر قد ارتصَّت فوق الطَّاولة. ومن هذا القرب، تبدَّت دقَّة الصَّنعة بشكل أخَّاذ، فكلُّ بتلة بدت مشدودة القوام، ناعمة الملمس، وقد غفت الواحدة على الأخرى، فشكَّلت رؤوسها لفَّة منتظمة. جمدت اليزابيث في وقفتها وهي تتفحَّص الزُّهور وكذلك فعلت أنا. أشرت إلى باقة مشكَّلة على أمل أن تنتقي أضمومة فتدفع ثمنها ثم تستدير وتمضي دون أن تتكلَّم. لكن، قبل أن تشتري شيئاً يسحب الفتى الأزهار المتبقيَّة من على الطاولة ويرمى بها إلى ظهر شاحنته. تتَّسع عيناي. لم يكن يريد بيع اليزابيث. طالعت وجهها بحثاً عن ردَّة فعل لكنَّها بدت عصيَّة على القراءة.

تنطق باسمه: «غرانت؟»، لكنَّه لا يردُّ ولا ينظر في اتِّجاهها. تجرِّب ثانية: «أنا خالتك، اليزابيث. لا بدَّ أنَّك تعرف هذا».

يمدُّ غطاءً من القنَّب فوق طبقة الزُّهور وهو منحن فوق ظهر الشاحنة. كانت عيناه مثبَّتتين على الزُّهور، لكنَّ أذنيه ارتدَّتا إلى الوراء قليلاً وبرزت ذقنه. من هذا القرب بدا أكبر سنّاً، يغطّي زغب ناعم شفته العليا، بينما أطرافه الَّتي خلتها طويلة قد توضَّحت الآن. كان يرتدي قميصاً تحتانياً أبيض وحسب، فيما انحناءة لوحي الكتف سبَّبت بروزاً وهبوطاً في القماش الرَّقيق، وهو ما وجدتُّه ملفتاً.

تسأله اليزابيث: «هل ستتجاهلني؟». يتبدَّل صوتها عندما لم يرد، ويغدو مثلما أتذكَّره خلال الأسابيع الأولى لي في منزلها: صارماً وحليماً، ومن ثمَّ غاضباً، على غير المتوقَّع. «انظر إليَّ على الأقل، انظر إليَّ حين أخاطبك».

لا يفعل.

«لا علاقة لك بكلِّ هذا الأمر، ولن تكون أبداً. تابعتك لسنوات من على مبعدة وأنت تكبر، وما رغبت بشيء أكثر من الرَّكض إلى هنا وحملك بين ذراعيَّ».

يثبِّت غرانت الخيشة بحبل. بدت عضلات ذراعيه مشدودة. كان من الصُّعوبة بمكان تخيُّل أحد يقوم بحمله، كما كان من العسير تخيُّل أنَّه ليس قوياً دائماً هكذا. يلتفت بعد أن يربط آخر عقدة.

«كان عليك فعل هذا إذن ما دام ذلك ما رغبت به. لم يمنعك أحد». بدا صوته بارداً بلا عاطفة.

تردُّ اليزابيث وهي تهزُّ رأسها: «لا. أنت لا تدري عمَّ تتحدَّث». كانت كلماتها خفيضة تلوِّنها رجفة عميقة ميَّزتُها من خلال ظروفي السَّابقة الَّتي خبرتها في دور الرِّعاية، كالمتوثِّب للانقضاض، لكنَّها لم تنتقل إلى الهجوم عليه، كما هيِّء إليَّ، بل نطقت بكلمات مثيرة للدَّهشة لدرجة جعلت غرانت يستدير ليواجهني، لتقابل عيناه عينيَّ للمرَّة الأولى.

تهمس قائلة: «فيكتوريا تحضر فطيرة العلِّيق، فليتك تأتي».

(١١)

ارتسام الخيبة والقنوط على وجه غرانت أطارا النَّوم من عيني. قبل حلول الفجر أقلعت عن محاولة الإغفاء، وجلست إلى الطَّاولة أنتظر سماع صوت محرِّك الشَّاحنة. لكن، بدلاً من هذا، أجفلني صوت نقر خفيف. عندما أفتح الباب ينسلُّ غرانت نعساً ويتجاوزني ليصعد السُّلَّم. يصدر صوت الماء عن الحمَّام، فأعرف أنَّه يوم الأحد.

أتوق إلى العودة إلى الغرفة الزَّرقاء، إلى ريناتا، إلى يوم قبض الرَّاتب، وإلى الحمَّى المقتربة لترتيبات الأجازة. قد أمضيت في مزرعة غرانت وقتاً أكثر من اللَّازم، لكنَّه لم يذهب إلى المدينة. أفترش الدَّرْجة الأولى وأمضي أفكِّر بطريقة لإقناعه بالقيام برحلة تستغرق ثلاث ساعات في يوم إجازته.

كنت لا أزال أفكِّر حين دفعني غرانت بقدمه عند المثلَّث الواقع بين لوحي الكتف. جعلتني الدَّفشة المفاجئة أنزلق عن الدَّرجة السُّفلية إلى أرضيَّة المطبخ، فأهبُّ واقفة.

«هيَّا. سوف أرجعك».

كان لكلماته وقع مألوف. تعبرني تدبيجات العبارة الَّتي لطالما

سمعتها على مدار سنين: اجمعي حاجيَّاتك. لم تعد اليكسيس تريد أن تشارك غرفتها مع أحد بعد اليوم. لقد تقدَّم بنا العمر حتَّى نقدم على هذا الأمر ثانية. وأكثر من مرَّة كانت العبارة تقول ببساطة ميريديث قادمة، مع عبارة أعتذر العرضيَّة.

أردُّ على غرانت بالعبارة الَّتي اعتدت قولها دائماً: «أنا جاهزة».

ألتقط حقيبة الظَّهر الّتي باتت ثقيلة لوجود آلة التّصوير وعشرات الأفلام فيها، وأصعد إلى الشَّاحنة. يقود غرانت بسرعة على دروب الرِّيف الَّتي لا زالت العتمة تلفُّها، ثمَّ ينحرف إلى حيث نشطت حركة المرور ليتجاوز الشَّاحنات الصغيرة الملأى بالبضائع. يتَّجه صوب أول مخرج إلى الجنوب من الجسر، ويندفع إلى جانب الطَّريق المنحدر والمزدحم. لم يكن هناك موقف للحافلات على مرمى البصر، وبدون أن أتحرَّك عاينت الطَّريق من أوَّله إلى آخره.

«يجب عليَّ العودة إلى سوق المزارعين»، يقولها دون أن ينظر إليَّ.

يطفئ غرانت المحرِّك ويمرُّ من أمام مقدِّمة الشَّاحنة. يفتح باب الرُّكَّاب وينمطُّ إلى الدَّاخل ليلتقط الحقيبة من حيث كانت تستلقي على قدميّ. يمسُّ صدره ركبتيَّ، وعندما ينسحب معتدلاً تبدِّد هبَّة من ريح كانون الأول الحرارة الَّتي انحفظت بين جسدينا. أقفز نازلة وألتقط حقيبتي.

هي النِّهاية إذن، هكذا خطر لي وأنا أحمل آلة تصوير حبلى

بصور مزرعة الزُّهور الَّتي لن أعود إليها أبداً. دهمني شوق إلى الزُّهور من حينها، لكنِّي نهرت نفسي عن الإحساس بالاشتياق لغرانت.

تطلَّب منِّي المشوار ركوب أربع حافلات نقل للعودة إلى منطقة تلِّ بوتريرو، فقط لأنَّني ركبت المركبة رقم ٣٨ في الاتِّجاه الخاطئ، لينتهي بي المطاف في منطقة بوينت لوبوس. حين وصلت محلَّ الزُّهور كان الصَّباح في منتصفه، وريناتا لتوِّها تفتح باب المحل. تبتسم حين تراني، فتبادرني: «لا عمل ولا مساعدة لمدَّة أسبوعين. لقد ذهب الضَّجر بعقلي».

فأسألها: «لم لا يتزوَّج النَّاس في شهر كانون الأول؟».

«أيَّ رومانسية تحمل الأشجار العارية والسَّماء الرَّماديَّة؟ ينتظر العرسان الرَّبيع والصَّيف، والسَّماء الزَّرقاء، والزُّهور، والإجازات. ينتظرون كلَّ هذا».

كلا اللَّونين، الأزرق والرمادي، يتساويان في ناظري إذ لا يمتَّان إلى الرومانسية بصلة، حسبما خطر لي، كما أنَّ الضَّوء المبهر ليس محموداً في الصُّور. لكنّ العروسات بلا عقل. عرفت هذا من ريناتا وليس من أحد آخر.

أسألها: «متى ستحتاجين إليَّ في العمل؟».

«لديَّ زفاف ضخم يوم عيد الميلاد، وبعده سأحتاج إليك كلَّ يوم على مدار الأسبوع الأوَّل من كانون الثاني».

نتَّفق، فأسأل ريناتا عن الوقت الَّذي يجب عليَّ الحضور فيه.

«يوم عيد الميلاد؟ إيه، لك أن تنامي حتى الضُّحى. موعد الزَّفاف متأخِّر، وسأشتري الزُّهور في اليوم الَّذي يسبقه. تأكَّدي من وصولك إلى هنا في التَّاسعة وحسب».

أومئ برأسي. تسحب ريناتا ظرفاً يحوي مالاً من صندوق الدَّفع وتقول: «ميلاد مجيد».

حين فتحت الظَّرف فيما بعد، وقد صرت في الغرفة الزَّرقاء، وجدت أنَّها منحتني ضعف المبلغ الَّذي وعدتني به. أدسُّ المال في حقيبة الظَّهر وخاطرة هازئة تعبر تفكيري، أتى المال في وقته كي أشتري هدايا العيد.

أنفقت معظم المنحة على علبة أفلام اشتريتها من بائع لوازم تصوير بالجملة، والباقي صرفته في متجر للفنون يقع في ماركت. لن يكون قاموسي على شكل كتاب. عوضاً عن ذلك، اشتريت صندوقين للصُّور مغلَّفين بالقماش، أحدهما برتقالي والآخر أزرق، وبطاقات أرشفة سوداء مقصوصة على شكل مستطيلات بأبعاد خمسة في سبعة إنشات، وعبوة رشٍّ لتثبيت الصُّور، إضافة إلى قلم تخطيط فضِّي الحبر.

مازال هناك أسبوع يفصلنا عن عيد الميلاد. آخذ استراحة من التَّصوير، باستثناء التقاط صور لحديقتي المهملة في ميدان ماكنلي، حيث بقي كلٌّ من الخلنج والأقحوان على قيد الحياة على الرَّغم

من الجوِّ السَّيِّئ والإهمال. التقطتُّ خمسة وعشرين فيلماً في مزرعة غرانت، واستغرق الأمر أسبوعاً كاملاً حتى ظهَّرتها، وفرزت الصُّور، وثبَّتُّها على البطاقات، ووضعت مسمَّياتها. كتبت الاسم الشَّائع تحت كلِّ صورة لزهرة، وألحقته بالاسم العلمي، وعلى الظَّهر طبعت المعنى. عملت مجموعتين لكلِّ زهرة، ووضعت كلَّ مجموعة في صندوق.

في اليوم الَّذي يسبق عيد الميلاد، تمَّ تثبيت وتجفيف كلِّ صورة. كانت ناتاليا وفرقتها قد مضوا إلى حيث مضى النَّاس في الإجازات، فعمَّ الشقَّة هدوء رائع. أحمل الصُّندوقين إلى الأسفل وأفرد الصُّور في غرفة التَّدريب الفارغة على شكل صفوف منظَّمة، وأترك ممرَّات عريضة تكفيني للتَّنقُّل بينها. في بطاقات الصُّندوق البرتقالي وضعت جانب الزَّهرة إلى الأعلى، وفي بطاقات الصُّندوق الأزرق وضعت الجانب إلى الأسفل. أتنقَّل بين الممرَّات لساعات وأنا أرتِّب الزُّهور أولاً، ثم المعاني، حسب التَّرتيب الأبجدي. عندما انتهيت، أعدت كلَّ البطاقات إلى الصُّندوقين وفتحت قاموس اليزابيث الخاصَّ بالزُّهور لأبدأ بكيل المديح لما حقَّقت من تطوير. كان الأوان منتصف الشِّتاء، وقاموسي المزدان بالصُّور قد انتهى نصف العمل به.

كان مطعم البيتزا الَّذي يقع على رأس التل خاوياً، فأخذت بيتزاي ورحت أتناولها على سرير ناتاليا، وأنا أحدِّق في الشَّارع الفاضي، ثمَّ استلقيت في الغرفة الزَّرقاء. على الرَّغم من الهدوء

والدفء والعتمة، بقيت عيناي مفتوحتان. شعاع من نور أبيض شاحب ينِدُّ عن ضوء الشَّارع ويتسلَّل إلى غرفة ناتاليا ويشقُّ طريقه عبر الثُّلم الَّذي في باب الخزانة. كان الشُّعاع بقطر قلم رصاص، وقد خلَّف خطّاً على الجدار المقابل وعبر منتصف علبتي الصُّوَر. كانت زرقة الصُّندوق تماثل زرقة الحائط تماماً في درجة اللَّون، فيما بدا الصُّندوق البرتقالي المتوضِّع فوقه وكأنَّه معلَّق في الهواء. لم يكن ينتمي للمحيط الَّذي حوله، بل كان ينتمي إلى مكتبة غرانت، على الجانب الآخر من أريكته البرتقالية. اخترت اللَّون خصِّيصاً لهذا الغرض، مع أنَّني لم أقرَّ بذلك لنفسي.

لقد رحل غرانت، وانتفت الحاجة إلى تجنُّب التَّواصل المربك عبر لغة الزُّهور بعد الآن. وعلى الرَّغم من هذا، اشتريت صندوقاً إضافياً، صندوقاً برتقالياً، وعملت مجموعة ثانية من البطاقات. أفتح قفل نصف الباب الَّذي يؤدِّي إلى غرفة المعيشة وأضع الصُّندوق البرتقالي في الخارج.

(١٢)

مكتبة
t.me/t_pdf

لم يأت غرانت ليشاركنا في تناول فطيرة العلّيق. وفيما أنا ألعق قاع الصَّحن في صباح اليوم التَّالي، خطر لي أنَّه كان يجب أن يأتي، فالفطيرة كانت شهيَّة.

ما إن وضعت الصَّحن في المجلى حتَّى اندفعت اليزابيث عبر الباب الخلفي متقطِّعة الأنفاس. كان شعرها منثوراً على كتفيها، فانتبهت إلى أنَّني لم أرها أبداً، وعلى مدار سنة تقريباً، دون ربطة لشعرها عند مؤخَّر رقبتها. كانت تبتسم، وعيناها مليئتان بسعادة غامرة لم أشهدها من قبل.

«وجدتُّها. غريب أنَّني لم أفكِّر بها قبلاً».

أسألها: «ماذا؟». وتَّرتني سعادتها لسبب مبهم. أراقبها وأنا ألحس عصير العلِّيق المجمَّد على ملعقة.

«عندما كنت في المدرسة الدَّاخليَّة، كنت وكاثرين نتبادل الرَّسائل، إلى أن بدأت أمِّي برقابتها».

«رقابتها؟»

«يعني تأخذها. كانت تقرؤها كلَّها، فلم تكن تثق بي، وظنَّت

أنَّ رسائلي ستفسد كاثرين بشكل من الأشكال، مع أنَّني كنت لا أزال طفلة فيما كاثرين قد وصلت سنَّ البلوغ تقريباً. بقينا لسنوات لا نتبادل الرَّسائل. لكن، بعد عيد ميلاد أختي العشرين، اكتشفت وجود قاموس عن الزُّهور من العصر الفيكتوري في مكتبة جدِّي، فراحت ترسل إليَّ رسومات زهور والاسم العلمي مطبوع تقريباً في الزَّاوية السُّفليَّة اليمنى منها. أرسلت عشرات الرُّسوم وكانت تتبعها بملاحظة تقول: «هل تدركين ما أودُّ قوله لك؟».

أسألها: «فهل كنت تدركين؟»

تردُّ إليزابيث وهي تهزُّ رأسها وكأنَّها تتذكَّر إحباط المراهقة: «لا. سألت كلَّ مسؤول مكتبة أو مدرِّس استطعت مقابلته. لكنَّ أشهراً مرَّت قبل أن ترى الرُّسوم المعلَّقة على الجدار الَّذي خلفي الجدَّة الكبيرة لشريكتي في الغرفة، والَّتي زارتنا يوماً، فأخذت تعلمني عن لغة الزُّهور. وجدتُّ قاموسي الخاصَّ في المكتبة، فأرسلت في الحال رسالة موجزة إلى أختي مرفقة بزهور مكبوسة، وليس رسوماً، فأنا في الرَّسم ميئوس منِّي».

تمضي اليزابيث إلى غرفة المعيشة، لتعود بكومة من الكتب وتضعها على طاولة المطبخ. «بقينا على هذه الحال من التَّواصل لسنين عديدة. كنت أرسل لها الأشعار والقصص عبر ضمِّ الزُّهور المجفَّفة بالخيوط، ثمَّ ألفُّها بكلمات مطبوعة على قصاصات صغيرة من الورق مثل: و، هو، إذا، هي. فيما تابعت أختي إرسال الرُّسوم. كانت أحياناً ترسم منظراً كاملاً مع عشرات من الزُّهور المتنوِّعة،

وكلُّها مسمَّاة ومرقَّمة، فكنت أعرف بأيَّة زهرة أبدأ أوَّلاً حتَّى أفكَّ ترميز تسلسل الأحداث والعواطف في حياتها. لقد منحتني تلك الرَّسائل مبرِّراً لأحيا لأجله، فكنت أتفحَّص صندوق البريد عشرات المرَّات يوميَّاً».

أسألها: «فكيف سيساعدك هذا على كسب مسامحتها لك؟».

كانت اليزابيث متَّجهة صوب الحديقة حين توقَّفت فجأة واستدارت بنزق لتواجهني وتقول: «أنا الَّتي أسامحها. لا تنسي ذلك». ثمَّ تتابع، بعد أخذ نفس عميق: «لكنَّني سأخبرك كيف سيساعد هذا في حلحلة الوضع. ستتذكَّر كاثرين كم كنَّا قريبتين من بعضنا، ستتذكَّر كيف كنت أتفهَّمها أكثر من أيِّ شخص في العالم. حتَّى وإن كان ندمها شديداً لدرجة تمنعها من الرَّدِّ على الهاتف، لكنَّها ستتجاوب مع الزُّهور. أعرف أنَّها ستفعل».

تمضي اليزابيث إلى الخارج، وعندما تعود، كانت تحمل باقة من ثلاث زهرات، مختلفة عن بعضها. تسحب لوح تقطيع من فوق النُّضد وتضعه على طاولة المطبخ وقد اصطفَّت فوقه الزَّهرات إلى جانب سكِّين حادَّة.

توجِّه اليزابيث كلامها إليَّ: «سوف أعلِّمك، وستساعدينني».

أجلس إلى طاولة المطبخ. استمرَّت اليزابيث في تعليمي عن الزُّهور ومعانيها إنَّما بصورة تفتقر إلى الانتظام أو المنهجية. قبل أمس توقَّفنا عند جزدان نسائي معروض في سوق المزارعين. كان

مطبوعاً على القماش أزهار بيضاء صغيرة، فتقول اليزابيث وهي تهزُّ رأسها «فقر على جزدان». تشير إلى الزُّهور وهي تفسِّر السِّمات المميِّزة لزهرة ياسمين البرِّ.

أجلس قربها الآن والسَّعادة تغمرني لإمكانية أن أتلقَّى درساً نظاميّاً. أدفع مقعدي لأدنو من اليزابيث قدر ما يتيح المجال. تلتقط زهرة قرمزيَّة داكنة بلبٍّ أصفر مثل لون الشَّمس، وحجمها بحجم حبَّة الجوز.

«زهرة الرَّبيع»، تنطقها وهي تدوِّر الزَّهرة الَّتي تشبه دولاب الهواء بين إبهامها وسبَّابتها، قبل أن تضعها على راحتها البيضاء النَّاعمة، ووجهها إلى الأعلى. «**الطُّفولة**».

أنحني على يدها، وأنفي يبعد عن الزَّهرة بإنشات قليلة. لزهرة الرَّبيع رائحة قويَّة مثل الشَّراب المحلَّى بالسُّكر ورائحة أمِّ أحدهم. أبعد أنفي وأزفر الهواء من منخريَّ بقوَّة.

تضحك اليزابيث وتقول: «أنا أيضاً لا أحبُّ الرَّائحة. عطرها طاغٍ، كما لو أنَّها تودُّ أن تخفي رائحتها الحقيقيَّة المنفِّرة».

أومئ بالموافقة.

«حسن. إن لم نك نعلم أنَّ هذه هي زهرة الرَّبيع فكيف نكتشف الأمر؟». تضع اليزابيث الزَّهرة من يدها وتلتقط كتاباً بحجم الجيب. «هذا دليل ميداني عن الزُّهور البرِّيَّة في أميركا

الشِّماليَّة، وهو مقسَّم تبعاً للألوان. يجب أن تكون زهرة الرَّبيع ضمن اللَّون الأزرق-البنفسجي». تسلِّمني الكتاب. أتحوَّل إلى اللَّون الأزرق-البنفسجي، ثمَّ أبدأ بتقليب الصَّفحات إلى أن أجد الرَّسمة الَّتي تماثل شكل الزَّهرة.

أقرأ: «زهرة كعب الثلج. من عائلة أزهار الرَّبيع، من فصيلة الرَّبيعيَّات».

«جيِّد». تلتقط اليزابيث ثاني أزهار المجموعة الثُّلاثيَّة. كانت كبيرة وصفراء اللَّون بتلات ستٍّ مدبَّبة. «الآن هذه. تدعى السَّوسن، وتعني **العظمة**».

أبحث في اللَّون الأصفر فأجد الرَّسم المماثل. أشير إليه برأس إصبعي الرَّطب وألاحق بناظري تفشِّي النقطة المائيَّة. تومئ اليزابيث برأسها موافقة.

«والآن، لنفترض أنَّك عجزت عن إيجاد الرَّسم، أو أنَّك لم تكوني واثقة من أنَّ ما وجدت هو الرَّسمة الصَّحيحة. هنا يتطلَّب الأمر منك معرفة أقسام الزَّهرة. استخدام الدَّليل يشابه قراءة كتاب «اختر مغامرتك بنفسك». وهو ينطلق من سؤال بسيط: هل لزهرتك بتلات؟ فكم هو عددها؟ تنقلك كلُّ إجابة إلى مجموعة مختلفة من الأسئلة الأكثر تعقيداً».

تمسك اليزابيث بسكِّين المطبخ وتقطع الزَّهرة إلى نصفين،

فتتساقط بتلاتها على لوح التَّقطيع. تشير إلى مبيض الزَّهرة، وتضغط رأس إصبعي على الرَّأس الدَّبق من الميسم المتطاول.

نعدُّ البتلات ونصف شكلهم. علَّمتني اليزابيث تعريف التَّناظر، والفرق بين المبيض العلوي وذاك السُّفلي، واختلافات أشكال توضُّع الزُّهور على السَّاق. ثمَّ امتحنتني عبر الزَّهرة الثَّالثة الَّتي أتت بها، وكانت بنفسجيَّة اللَّون، صغيرة وذاوية.

«جيِّد»، تردِّد ثانية حين أجبت عن فيض من الأسئلة. «جيِّد جداً. أنت تتعلَّمين بسرعة». تسحب كرسيِّي فأنزل عنه. «اذهبي الآن واجلسي في الحديقة ريثما أجهِّز الغداء. أمض حصَّة من الوقت عند كلِّ نبتة تعرفينها، واسألي نفسك ذات الأسئلة الَّتي طرحتها عليك. كم عدد البتلات، وما هو اللَّون، وماذا عن الشَّكل. إن تحقَّقت من أنَّها وردة فما الَّذي يجعلها وردة وليس زهرة دوَّار الشَّمس؟».

كان صوت اليزابيث يجلجل وهي تطرح الأسئلة حين تحرَّكت خلسة باتِّجاه باب المطبخ.

تصيح عليَّ: «انتق شيئاً لكاثرين».

أختفي وراء درجات السُّلَّم.

(١٣)

بدت الدَّهشة على محيَّا ريناتا وقد رأتني أجلس على الرَّصيف عند السَّابعة صباحاً بعد أن ركنت شاحنتها في الطَّريق الخالية. بقيت مستيقظة طوال اللَّيل فانعكس ذلك على سحنتي. ترفع حاجبيها وتبتسم، وتسألني: «أبقيت مستيقظة في انتظار بابانويل؟ ألم يخبرك أحد قطُّ بالحقيقة؟».

فأجيبها: «لا. لم يحدِّثني أحد عنها أبداً».

أتبع ريناتا إلى المقصورة وأساعدها في سحب دلاء الورود الحمراء وزهور القرنفل البيضاء وزهرة شرش الحلاوة. تلك كانت أقلَّ الزُّهور محبَّة إلى نفسي. «أرجوك قولي أنَّك أحضرتها بناء على طلب عروس متهوِّرة».

فتردُّ: «لقد هدَّدت حياتي». كنَّا كلتانا نتشاطر النَّظرة الدُّونيَّة للورد الأحمر.

تغادر ريناتا، وعند عودتها مع فنجاني قهوة كنت قد انتهيت فعليَّاً من تحضير ثلاث أضمومات لوسط الطاولة.

أمدُّ يدي لأتناول الكأس الورقيَّة وأنا أقول: «سلمت».

«على الرُّحب والسَّعة. أبطئي. فكلَّما انتهينا أبكر كلّما سأقضي وقتاً أطول في حفلة عيد الميلاد عند أمِّي».

ألتقط وردة وأنزع شوكها بحركة بطيئة، وأرتِّب الإبر الحادَّة عاى الطَّاولة.

تعلِّق قائلة: «هذا أفضل. لكنَّه ليس بطيئاً كفاية».

تابعنا العمل بتلكُّؤ مبالغ فيه بقية الصَّباح، لكنَّنا على الرَّغم من هذا انتهينا مع الظَّهيرة. أمسكت بورقة الطَّلبيَّة وراجعتها، وأعادت مراجعة تنسيقاتنا. ثمَّ، وضعت القائمة من يدها.

«أهذا كلُّ شيء؟».

فتردُّ: «نعم للأسف. لم يبق سوى التَّسليم ومن ثمَّ حفل عيد الميلاد. وأنت سترافقينني».

«أشكرك، لكن لا». أعتذر وأنا أرشف آخر شفَّة من القهوة الباردة وأحمل الحقيبة على ظهري.

«وكأنَّني أسألك إبداء الرَّأي؟ الأمر ليس كذلك».

كان بمقدوري مجادلتها بهذا الشَّأن، لكنَّه الشُّعور بجميلها حيال المنحة هو ما ألجمني، كما أنَّني كنت في مزاج يتطلَّب طعام الأجازات، هذا إن لم نذكر البهجة الَّتي تولِّدها الإجازة. لم أكن أعرف شيئاً عن الطَّعام الرُّوسي، لكن، أكيد سيكون أطيب من اللَّحم الجاهز الَّذي كنت أنتوي تناوله مباشرة من عبوته.

أردُّ عليها: «كما تحبِّين. لكن، هناك مكان عليَّ الذَّهاب إليه في الخامسة».

تندُّ عن ريناتا ضحكة، فهي لا بدَّ تدرك أنَّ وجود مكان لأمضي إليه كي أحتفل فيه بعيد الميلاد أمر لا يصدَّق.

تقيم والدة ريناتا في منطقة ريتشموند، وللوصول إلى هناك اتَّبعنا أطول طريق متاح في المدينة.

تحدِّثني ريناتا: «أمِّي تبالغ جداً».

فأسألها: «بأيِّ معنى؟».

لتردَّ: «بكلِّ المعاني».

نتوقَّف أمام منزل لونه قرنفلي فاقع. كان هناك راية لعيد الميلاد تخفق على صارية خشبيَّة، فيما كانت الشُّرفة الصَّغيرة تعجّ بالمخلوقات البلاستيكية اللَّامعة: ملائكة، أيائل، سناجب تعتمر قبَّعة بابانويل، وبطاريق ترقص وهي تضع مناديل قماشيَّة.

تدفع ريناتا الباب وتفتحه لنعبر من خلال حائط من صهد. كان هناك رجال ونسوة يجلسون على وسائد وذراعي وظهر أريكة وحيدة، فيما انبطح صبية وفتيات في سنِّ المدرسة على بطونهم فوق سجَّادة طويلة، وأطفال رضَّع يزحفون على سيقانهم النَّحيلة. أدخل وأخلع سترتي ودرَّاعتي، لكنَّ الممرَّ المؤدِّي إلى خزانة المعاطف حيث ألقت ريناتا بالتَّحيَّة على شخص في مثل عمري، كان مسدوداً تماماً بسبب تراكم الأعضاء البشريَّة الصَّغيرة.

فيما كنت واقفة عند الباب تشقُّ نسخة أكبر من ريناتا، وأضعف منها، طريقها عبر الزِّحام. كانت تحمل صينيَّة خشبيَّة كبيرة تحوي شرائح برتقال وجوز وتين وتمر.

حين تراني تصيح مندهشة: «فيكتوريا!». تسلِّم الصِّينيَّة إلى ناتاليا المسترخية على الأريكة لتمرَّ فوق الأطفال الَّذين يسدُّون طريقها متَّجهة إلى حيث وقفت. عندما عانقتني انكبس وجهي على إبطها، فيما الأكمام المشدودة لكنزتها الصُّوفيَّة الرَّماديَّة التفَّت حول ظهري مثل المخلوقات الحيَّة. كانت امرأة طويلة وقويَّة البنية، وعندما تملَّصْت منها أخيراً أطبقت على كتفيَّ ورفعت لي وجهي لأنظر إليها. «عزيزتي فيكتوريا»، تردِّد وخصلات شعرها الطَّويل المتموِّج ذي اللَّون الرَّمادي تتدلَّى فتدغدغ وجنتيَّ. «بناتي أخبرنني عنك الكثير فأحببتك حتَّى قبل أن أراك».

تفوح منها رائحة زهرة الرَّبيع وعصير التُّفاح. أنتزع نفسي منها. «أشكرك على دعوتك لي للمشاركة في حفلتك سيدة ....». أتوقَّف، وقد تذكَّرت أنَّ ريناتا لم تخبرني أبداً باسمها.

ترد: «مارتا روبينا، لكنَّني لا أردُّ إلَّا على اسم الأم روبي». تمدُّ يدها وكأنَّها تريد مصافحتي، لتضحك مرَّة أخرى وتعانقني. انحشرنا في الزَّاوية، ولم يعنِّي على الاستمرار في الوقوف سوى الجدران الجبصينيَّة السَّميكة الَّتي ورائي. تسحبني إلى الأمام وذراعاها تطوِّقان كتفيَّ، وتدور بي في أرجاء الغرفة، فيتناثر

الأطفال مبتعدين عن الطَّريق، فيما قعدت ريناتا على كرسيٍّ قابل للطيِّ تراقب المشهد بابتسامة مستمتعة.

قادتني الأمُّ روبي إلى المطبخ حيث أجلستني إلى طاولة عليها طبقان تجمَّعت الأطعمة عليهما. احتوى الطَّبق الأوَّل على سمكة كبيرة مشويَّة، كاملة، ومنكَّهة بالبهارات مع الخضروات. واحتوى الثَّاني على الفاصولياء والبازلَّاء والبطاطا مع البقدونس. تناولني شوكة وملعقة وطبقاً من عصيدة الفطر وهي تقول: «أكلنا منذ عدَّة ساعات، لكنَّني أبقيت لك حصَّة من الطَّعام. أعلمتني ريناتا أنَّك ستكونين جائعة، وهذا أسعدني كثيراً. لا أحبَّ على قلبي من إطعام أفراد العائلة».

تجلس الأمُّ روبي قبالتي، فتنزع حسك سمكتي، وتجسُّ بأصابعها بازلَّائي، لتعيد تسخينها وهي تتساءل عن درجة الحرارة. تعرِّفني بكلٍّ من مرَّ بنا، البنات، الأصهار، الأحفاد، أصدقاء وصديقات معظم أفراد العائلة.

كنت أرفع رأسي وأومئ به لكن، دون أن أضع الشَّوكة من يدي.

نمت عند الأمِّ روبي. لم أكن أقصد ذلك، لكن، بعد الغداء انزويت إلى غرفة الضُّيوف الفارغة، وما بين تخمة الطَّعام وأرق البارحة أدخل في دوَّامة الإغفاء حتَّى قبل أن أستلقي.

تسحبني رائحة القهوة من سريري في الصَّباح التَّالي. أتمطَّى

وأهيم في الصَّالة حتَّى اكتشفت موقع الحمَّام. كان بابه مفتوحاً، وفي الدَّاخل، كانت الأم روبي تستحمُّ خلف ستارة بلاستيكيَّة شفافة. عندما وقع نظري عليها استدرت وأسرعت عائدة إلى الصَّالة.

تنادي عليَّ: «ادخلي. لايوجد سوى حمَّام واحد. لا تهتمِّي لوجودي».

وجدت ريناتا في المطبخ تسكب القهوة. تناولني قدحاً، فأخبرها: «والدتك تستحم».

تقول وهي تتنهَّد: «والباب مفتوح، أنا متأكِّدة».

أومئ بالإيجاب.

«أعتذر بشأن هذا».

أصبُّ فنجاناً من القهوة وأستند إلى مجلى المطبخ.

تخبرني ريناتا قائلة: «والدتي كانت قابلة في روسيا. لذا هي معتادة على رؤية النِّساء عرايا بعد دقائق من لقائهن. كان العمل في أميريكا في السَّبعينات مزدهراً بالنِّسبة لها، ولا أظنُّها تلق بالاً إلى تغيُّر الزَّمان».

في ذات اللَّحظة تلج الأمُّ روبي المطبخ وقد التفَّت بثوب قماشه وبريّ، لونه أرجواني زاه. تسأل: «ما الَّذي تغيَّر؟».

تهزُّ ريناتا رأسها وتجيب: «التَّعرِّي».

تـردُّ الأم روبي: «لا أظـنُّ أنَّ العـري قـد تغـيَّر مـذ ولـد أوَّل كائـن بـشري. الَّـذي تغـيَّر هـو المجتمـع وحسـب».

تـدوِّر ريناتـا عينيهـا وتتحـوَّل إليَّ. «أمِّـي وأنـا ندخـل في هـذا الجـدل منـذ أن بلغـت مـن العمـر مـا يتيـح لي المجـال للنِّقـاش. حـين كنـت في العـاشرة مـن عمـري أخبرتهـا أنَّنـي لا أنـوي إنجـاب أطفـال لأنَّنـي لا أودُّ أن أتعـرَّى أمامهـا ثانيـة. انظـري إليَّ، صرت في الخمسـين وبـلا أولاد».

تفقـس الأم روبي بيضـة في مقـلاة فيتعـالى صـوت فرقعـة القـلي. تخـبرني مزهـوَّة: «ولـد أحفـادي الاثنـي عـشر عـلى يـديَّ».

«ألازلت تعملين كقابلة؟».

تـردُّ عـليَّ: «ليـس بشـكل رسـمي. لكنَّنـي لازلـت أتلقَّـى الاتِّصـالات في الثَّانيـة صباحـاً مـن كلِّ أنحـاء المدينـة. وفي كلِّ مـرَّة أذهـب». تناولنـي صحنـاً مـن البيـض بهـدوء.

أشـكرها قائلـة: «سـلمت يـداك». أتناولهـا ثـمَّ أقطـع الصَّالـة إلى الحـمَّام وأقفـل البـاب ورائـي.

في وقـت لاحـق مـن الصَّبـاح، ونحـن في الطَّريـق إلى المحـلِّ، أوجِّـه كلامـي إلى ريناتـا قائلـة: «لـو تنبِّهيننـي أكثر في المـرَّة القادمـة». كان بانتظارنـا أسـبوع كامـل حافـل بالأعـراس، وكلتانـا كنَّـا مرتاحتـين ومتغذِّيتـين جيِّـداً.

تجاوبني: «لو أنَّني نبَّهتك لما قدمت. كنت بحاجة إلى قسط من الرَّاحة والتَّغذية. لا تحاولي إقناعي بالعكس».

أحجم عن المجادلة.

«والدتي تعتبر مثل الأسطورة في عالم القبالة. خبرت كلَّ شيء، ودخلها أفضل بكثير من دخل الأطباء الحديثين، حتَّى ولو أنَّه لا يجب أن يكون هكذا. من المحتمل أن تعجبك، فهذا شأنها مع معظم الناس».

أخمِّن الأمر قائلة: «مع معظم النَّاس، لكن، ليس معك».

تجيبني ريناتا وقد توقَّفت: «أحترم أمِّي، لكنَّنا مختلفتان وحسب. الجميع يفترض وجود التَّوافق العضوي بين الأمِّ وأبنائها، لكنَّ الحال لايكون هكذا على الدَّوام. أنت لا تعرفين باقي أخواتي، لكن انظري إلى ناتاليا، وإلى أمِّي وإليَّ». كانت محقَّة، فما من اختلاف أوضح من الاختلاف الَّذي بينهنَّ ثلاثتهن.

طوال اليوم، وفيما كنت أنظِّم الطَّلبيَّات وأعدُّ القوائم بالزُّهور المطلوبة والكمِّيات اللَّازمة للأفراح القادمة، كنت أفكِّر بوالدة غرانت. عادت بي الذَّاكرة إلى اليد الشَّاحبة الَّتي امتدت من خلال العتمة غداة زرناها أنا واليزابيث. كيف سيكون الحال لو كنت مكان غرانت الطِّفل؟ وحيداً إلَّا من رفقة الزُّهور، وأمُّه تتنقَّل بين الماضي والحاضر وهي تنتقل من غرفة إلى غرفة. قرَّرت أن أسأل غرانت إن كان سيعاود التحدُّث معي ثانية.

لكنَّـه لم يظهـر في سـوق الزُّهـور ذلـك الأسـبوع، ولا الأسـبوع الَّـذي يليـه. بقـي مكانـه فارغـاً، فيـما لـوح الخشـب يتسـاقط دهانـه وتظهـر عليـه علامـات الهجـر. تسـاءلت إن كان سيعود، أو إن كانـت فكـرة رؤيتـه لي ثانيـة كافيـة لإبقائـه بعيـداً عـلى طـول.

تأثَّـرت نوعيـة عمـلي نتيجـة اسـتغراقي في التَّفكـير بغيـاب غرانت. فصـارت ريناتـا تجلـس إلى جـواري عنـد طاولـة العمـل، وبـدلاً مـن صمتنـا المعتـاد، باتـت تقـصُّ عـليَّ قصصـاً طويلـة ومسـلِّية عـن أمِّهـا وأخواتهـا وأبنائهـنَّ وبناتهـن. كنـت أصغـي إليهـا بشرود، لكـنَّ السَّـرد المسـتمرَّ كان كافيـاً ليدفعنـي إلى التَّركيـز عـلى الزُّهـور.

حلَّـت ليلـة السَّـنة الجديـدة وانقضـت، وكذلـك فعلـت فـورة الأعـراس البيضـاء والباقـات المزيَّنـة بالأجـراس الفضيَّـة، لكـنَّ غرانـت لم يظهـر في سـوق الزُّهـور بعـد. أعطتنـي ريناتـا أسـبوعاً إجـازة، فبقيـت متقوقعـة في الغرفـة الزَّرقـاء، لا أخـرج إلَّا لتنـاول الطَّعـام أو للذهـاب إلى الحـمَّام. في كلِّ مـرَّة أخـرج مـن نصـف البـاب ذلـك يقابلنـي صنـدوق الصُّـور البرتقـالي ذاك، فتجتاحنـي موجـة ملتبسـة مـن الإحسـاس بالفقـدان.

لـن تحتـاج ريناتـا إلى مسـاعدتي حتَّـى الأحـد التَّالي، لكـن، في يـوم السَّـبت يتعـالى نقـر عـلى بـابي. أخـرج رأسي فـأرى ناتاليـا وهـي لا تـزال في لبـاس نومهـا، والانزعـاج بـاد عليهـا.

تقـول: «اتَّصلـت ريناتـا، وهـي تحتاجـك. طلبـت أن تسـتحمِّي وأن تـأتي إليهـا بـأسرع مـا يمكنـك».

أستحم؟ بدا طلباً غريباً من ريناتا. ربما تحتاجني لمرافقتها في توصيلة، وافترضت محقَّة أنّني نائمة ولم أستحمَّ طيلة الأسبوع.

أخذت كامل وقتي في الاستحمام وتنظيف أسناني بملء فمي بمياه ساخنة قدر تحمُّلي لحرارتها. عندما نشَّفت جسدي ببشكير، بدا جلدي أحمر مبقَّعاً. ارتديت أحلى حللي، بنطالاً أسود وبلوزة بيضاء هفهافة، والخامة قد حيكت على شكل ثنيات مثل قمصان البدلات الرَّسميَّة قديمة الطِّراز. قبل ترك الحمّام، طرَّفت شعري بدقَّة، ثمَّ نفخت على قصاصات الشَّعر لتتهاوى بعيداً عن قميصي.

ما إن اقتربت من المحلِّ حتى لمحت شخصاً مألوفاً يجلس على طرف الرَّصيف المهجور وفي حضنه صندوق بطاقات مفتوح. إنَّه غرانت. لأجل هذا استدعتني ريناتا. أتوقَّف عن السَّير وأطفق أراقب شقَّه الجاد واليقظ. يستدير نحوي فينهض.

نسير باتِّجاه بعضنا وقد تناغمت خطواتنا القصيرة، حتَّى التقينا في منتصف التَّل المنحدر. بدا لي غرانت كطيف غامض. كنَّا بعيدين عن بعضنا مسافة منعتني من رؤية ما في الصُّندوق الَّذي يحمله تحت ذقنه.

يتحدث إليَّ: «تبدين أنيقة».

«شكراً». كان بإمكاني ردُّ الإطراء بمثله، لكنَّه لم يُطر عليَّ. أمضى النَّهار بطوله وهو يعمل، بإمكاني تخمين الأمر من منظر القذارة الَّتي تعلو ركبتيه، ومن الطِّين الطَّريِّ العالق بجزمته.

حتَّى رائحته أيضاً لم تكن رائحة زهور بل رائحة إنسان متّسخ: فعلى جانبي وجهه تتهادى حبّات العرق بالتَّوازي ويرتفع شيء كالدُّخان، كما يتبدَّى طَفَش التُّربة.

الظَّاهر أنَّه انتبه فجأة إلى منظره فيقول: «لم أغيِّر ملابسي. كان عليَّ فعل ذلك».

فأردُّ: «لا يهمُّ». تقصَّدتُّ أن تبدو الكلمات رقيقة، لكنَّها بدت منفِّرة. تتبدَّل ملامح وجه غرانت، فتجتاحني موجة غضب (لا من غرانت بل من نفسي لأنَّني لم أستطع قط التَّمتُّع برقَّة النَّبرة). أخطو خطوة باتِّجاهه كبادرة اعتذار خرقاء.

ينبري إلى القول: «أعلم أنَّها لا تهم. مررت فقط لأنَّني ظننت أنَّك قد تودِّين الحصول على هذه، من أجل أصدقائك». يخفِّض الصُّندوق، فأرى داخله أواني ستَّ من الخزف تحوي على النَّرجس، أزهار صفراء طويلة ومتفتِّحة على شكل عناقيد متمايلة، ورائحة شذى قويَّة تنبعث عنها.

أمدُّ يدي إلى الدَّاخل وأمسك بالأواني محاولة إخراجها جميعها دفعة واحدة، فقد أردت أن أغمر نفسي باللَّون. يخفِّض غرانت الصُّندوق، ومن خلال جذبة لطيفة أنجح في رفعها جميعها، فأدسُّ وجهي بين البتلات. للحظة توازنت بين ذراعيَّ، ثمَّ انزلقت الواسطتان من قبضتي. تتبعثر العبوتان على الرَّصيف، فتنكشف التُّربة عن البصلات وتنكسر السُّوق بشكل زاوية. يجثو غرانت على ركبتيه ويبدأ بلملمة الزُّهور.

أضـمُّ الأربعـة المتبقيَّـة إلى جسـدي، وأخفِّضهـم بشـكل يمكِّنني مـن متابعتـه مـن فـوق البتـلات. تنكمـش يـداه القويَّتـان لحمـل البصـلات، ولتمسـيد السّـيقان. راح يمسِّـد الأوراق الطَّويلـة والمدبَّبـة حـول السِّـيقان حيـث أصابهـا الوهـن بسـبب السَّـقطة.

يرفع نظره ويسأل: «أين تريدين أن أضعها؟».

أنزل مثله وأنحني إلى جانبه.

«هنـا»، أقـول وأدلُّـه بحركـة مـن ذقنـي كـي يضـع الزُّهـور فـوق تلـك الَّتـي أحملهـا. يباعـد العناقيـد ويضـع البصـلات المكشـوفة عـلى التُّربـة، لتسـتقرَّ الأزهـار المتكسِّـرة بـين البقيَّـة. تتباطـأ يـداه بين السُّـوق، وفي أنفاسـه البطيئـة والمنتظمـة ألمـس الإحسـاس بتجهُّـزه للمغـادرة.

أرخـي يـديّ فتنزلـق الأصـص عـن حضنـي كـما في الحركـة البطيئـة، لتسـتقرَّ مـن فـوق فخـذيَّ عـلى الرَّصيـف المنحـدر. تنحـطُّ يـدا غرانـت عـلى ركبتـيَّ، فأمسـك بهـما وأدنيهـما مـن وجهـي وأضغطهـما عـلى شـفتيَّ وخـدَّيَّ وجفنـيَّ. ألـفُّ يديـه حـول مؤخِّـر عنقـي وأقرِّبـه منِّـي. تتلامـس جبهتنـا. أغمـض عينـاي وتتعانـق شـفاهنا. كانـت شـفتاه مكتنزتـين وطريَّتـين، عـلى الرَّغـم مـن خـدش شـفته العليـا لشـفتي. يمسـك أنفاسـه، فأقبِّلـه ثانيـة، بقـوَّة أكـبر هـذه المـرَّة، مثـل الجوعـى. أعتـدل عنـد التَّـلِّ وأنـا جاثمـة عـلى ركبتـيَّ، مسـقطة الأصـص، ورغبـة تدفعنـي لأكـون أقـرب إلى غرانـت، لأقبِّلـه بقـوَّة أكـبر، ولمـدَّة أطـول، لأريـه أيَّ مبلـغ بلـغ بي الشَّـوق إليـه.

أخيراً، وحين افترقنا، وقد تقطَّعت أنفاسنا، يتدحرج أصيص واحد إلى قاع التل، وأزهاره المستقيمة والطَّويلة ولونها الأصفر بادون بجلاء تحت شمس الشِّتاء.

عبرتني فكرة أنَّني قد أكون مخطئة وأنا أرقب العناقيد وهي تميس مع النَّسائم. ربَّما كان جوهر معنى كلِّ زهرة محتوى فعليَّاً في مكان ما من ساقها المتين، وفي التَّجمُّع اللَّيِّن لبتلاتها.

أيقنت أنَّ آنَّا ماريَّا ستكون راضية بالنَّرجس أيَّما رضا.

(١٤)

أدقِّق في كومة زهور البابونج البيضاء الصَّغيرة المتجمِّعة عند قدميَّ وأنا جالسة في الشُّرفة الأماميَّة. يمتدُّ خيط بطول خمس أقدام بيني وبين اليزابيث، وبطرف كلٍّ نهاية منه هناك إبرة. كنَّا نعمل بسرعة، فنغرز الإبرة في مركز الزَّهرة الأصفر الإسفنجي القوام، ثمَّ ندفع الزُّهور نحو الوسط. كنت أتوقَّف بين الفينة والأخرى وقد صرفت انتباهي حشرة ما أو شظيَّة من الخشب، لكنّ حركة اليزابيث لم تهدأ. انتهى العمل بعد ساعة من الزَّمن، وقد وصل بيننا حبل رقيق من البتلات.

أسألها: «هلا وضَّحت الأمر؟». كانت اليزابيث مطويَّة على نفسها وهي تسلك ورقة مربَّعة في نهاية الخيط. لمحت كلمة شهر آب ورقم اثنين، مع تكرار لكلمة **من فضلك**، وسطر فاجأني وكأنَّه كذبة: **لا أستطيع القيام بالأمر بدونك.**

تلفُّ اليزابيث حبل الأزهار. **الشَّدائد مهماز الهمم.**

لا يمكن لشيء أن يوجز ما يحتلُّ ساحة تفكيرها أفضل من هذا. فمنذ أن قرَّرت التَّواصل مع أختها من خلال الزُّهور واليزابيث في حركة دائبة لا تفتر، تزرع البذور وتسقيها، وتتابع

مقدار النُّموِّ الَّذي حقَّقته الأكمام شبه المتفتِّحة، وتنتظر الرَّدَّ. كان الانتظار بحد ذاته مثل الحركة، فعَّالاً وسريعاً.

«تعالي معي»، تقولها وتصعد إلى شاحنتها، وتضع حبل زهور البابونج الملتفَّ بيننا.

نتَّجه نحو بيت كاثرين. تترك اليزابيث المحرِّك شغَّالاً وتقفز خارجة، لتلفَّ خيط الزُّهور حول العمود الخشبي لصندوق بريد كاثرين، وتدسَّ بعدها الرِّسالة الموجزة داخله. تصعد إلى الشَّاحنة وتتابع قيادتها على الطَّريق، بعيداً عن كرم العنب.

أسألها: «إلى أين سنذهب؟».

فتردُّ اليزابيث: «لنتسوَّق». يتناثر شعرها فوق وجهها بفعل الرِّياح، فتربطه إلى الخلف بسرعة وركبتاها تتحكَّمان بالمقود. ثمَّ ترسل ابتسامة ماكرة باتِّجاهي.

أسألها: «وأين سنتسوَّق؟». كان هناك متجر عامٌّ يقع على مسافة أقلِّ من ميل حيث ابتاعت لي اليزابيث سترتي المطريَّة وجزمة البستنة، لكنَّه كان في الاتِّجاه المعاكس.

فتردُّ قائلة: «شارع تشيستنت في سان فرانسيسكو. عندهم تشكيلة كاملة من ملابس الأطفال، تلك الَّتي من صنف البدلات الجميلة المخملية الَّتي سعرها مائتي دولار لحديثي الولادة، وملابس لحديثي المشي مصنوعة من الأوركانزا الحريريَّة، ومثل

هـذه الأشـياء. ثـوب واحـد لمناسـبة تبنِّيك سيكلِّفني أكثر ممَّا أحصـل عليـه لقـاء طنَّين مـن العنـب. لكـن إن لم أفعـل هــذا الآن فمتـى؟ صرت في العـاشرة، أتعلمـين؟ سـتصبحين في الأسـبوع القـادم ابنتـي الصَّغيرة أنـا، لكنَّك لـن تبقـي طفلـة صغيرة أكثر مـن هـذا. سألبسك مـا استطعت». تبتسـم لي ثانيـة، وكانـت ابتسـامتها كالدّعـوة.

أقـترب منهـا أكثـر، وأوسِّـد رأسي كتفهـا وهـي تقـود. علَّمتنـي كيـف أسـتقيم في جلسـتي بعيـداً عنهـا ونحـن في الشَّـاحنة حتَّـى لا نتلقَّـى مخالفـة لعـدم وضعنـا حـزام الأمـان، لكـنَّ اليـوم كان اسـتثناء كـما أوحـت ابتسـامتها. تقـود السَّـيارة بيـد واحـدة ممسـكة بالمقـود، والأخـرى تحـوط بهـا كتفـيَّ وهـي تضمُّـني إليهـا. لم يأخـذني أحـد قـط ليبتـاع لي ملابـس جديـدة، ولا مـرَّة، فبـدت لي الطَّريقـة مثلى لأبـدأ حيـاتي كابنـة لأحدهـم. رحـت أدنـدن مـع الأغـاني الَّتـي يبثُّهـا المذيـاع ونحـن نمـضي فـوق الجسر إلى المدينـة، وأجاهـد العواطـف المتصارعـة بـين رغبتـي في أن يطـول اليـوم إلى الأبـد وحـرصي أن ينتهـي هـو واليومـان التَّاليـان أيضـاً، فموعـد محاكمتي يقـع عـلى بعـد ثلاثـة أيَّام فقـط.

عنـد شـارع تشيسـتنت تركـن اليزابيـث السـيَّارة، وأتبعهـا إلى مدخـل مفتـوح. كان المحـلُّ فارغـاً إلَّا مـن بائعـة تقـف عنـد نضـد زجاجـي ترتِّـب مشـابك مرصَّعـة بالمـاس عـلى جـذع مكسـو باللَّبَّـاد مقطـوع مـن شـجرة. تبادرنـا بالسُّـؤال: «كيـف أسـاعدكم؟ هـل تبحثـون عـن شيء محـدَّد؟». ابتسـامتها تغـرِّر بي إذ اتَّضـح أنَّ وراءهـا مصلحـة فعليَّـة.

تجيبها اليزابيث: «بلى. نبحث عن ثوب لفيكتوريا».

«كم عمرك يا حلوة؟ سبعة؟ ثمانية؟».

أردُّ: «عشر».

يظهر الإرتباك على البائعة، مع أنَّ كلماتها لم تزعجني، فتقول: «حذَّروني من القيام بالتَّخمين. دعيني أريك ما عندي من أثواب تناسب مقاسك». ألحق بها إلى آخر المخزن حيث يظهر صفٌّ من الأثواب معلَّق قبالة مرآة على عمود خشبي يستخدم في رقص الباليه. تمسك اليزابيث بالعمود وتقوم بالقرفصة المبالغ فيها بشكل برزت فيه ركبتاها كثيراً على شكل زاوية، وقد انبسط إبهاما قدميها. كانت نحيلة وحادَّة مثل راقصة باليه كلاسيكية، لكن تفتقر إلى الرَّشاقة. فنضحك كلتانا.

أقلِّب الأثواب مرَّة وثانية، فتخاطبني اليزابيث من ورائي: «إن لم تجدي ما يعجبك فهناك محالُّ أخرى».

لكن، لم تكن تلك المشكلة. كلُّ الأثواب أعجبتني، كلُّ واحد منها أعجبني. تستقرُّ يدي على شرائط من القطيفة البنيَّة لثوب بلا أكمام. أنزع الثَّوب عن العمود وأضعه على جسدي. كان بمقاس ثمانية لكنَّ طوله تجاوز ركبتيَّ. ظهر جزؤه العلويُّ السَّماويُّ اللَّون منفصلاً عن التنُّورة الموشَّاة بشريط مخمليٍّ بنِّيِّ اللَّون يربط إلى الخلف. وكانت التَّنُّورة الطَّويلة من الطِّراز الَّذي أميل إليه: أزهار نافرة من المخمل البنِّي على خلفيَّة زرقاء. ذكَّرتني البتلات

المتَّحدة المركز بالأزهار ذات البتلات الكثيرة أو بالأقحوان. أنظر إلى اليزابيث، فتقول: «جرِّبيه».

في غرفة القياس الصَّغيرة أنزع ملابسي. تجلس اليزابيث خلفي وأنا أقف أمام المرآة بلباسي الدَّاخلي القطني الأبيض، وأنا أتملَّى في صورتي الشَّاحبة، وبشرتي الفاتحة النقيَّة، وخصري المتطاول فوق ورك ضيِّق. تتفحَّص اليزابيث جسدي بزهو أحسبه الطَّريقة الَّتي تنظر من خلالها الأمُّ إلى ابنتها البيولوجيَّة، الَّتي تكوَّن كلُّ عضو فيها داخل أحشائها.

تطلب منِّي قائلة: «ارفعي يديك». تدخل الثَّوب في رأسي وتربط شرائط القسم العلوي الَّذي بلا أكمام تحت شعري، ثمَّ تربط المجموعة الثَّانية من الشَّرائط فوق خصري.

بدا الثَّوب ملائماً بمقاس مثالي. أنظر إلى انعكاس صورتي في المرآة، وذراعاي مشدودتان بثبات على جانبي التنُّورة الطويلة.

عندما التقت عيناي بعيني اليزابيث، بدت عواطف شتَّى تعتمل على ساحة وجهها فيعجزني تخمين إن كانت ستضحك أم ستبكي. تجرُّني إليها، وساعداها تحت إبطيَّ، ويداها معقودتان فوق صدري، فيستند مؤخَّر رأسي إلى أضلاعها.

تقول: «انظري إليك، يا طفلتي». في تلك اللَّحظة، وإلى حدٍّ ما، نطقت كلماتها بالحقيقة. يجتاح كياني إحساس غامض بأنَّني فتاة صغيرة جداً، بل حديثة الولادة، وقد أمسكت بي واحتضنتني

ذراعاها. بدا وكأنَّ الطَّفولة الَّتي عشتها تعود إلى شخص آخر، إلى فتاة لم يعد لها وجود، فتاة استُبدلت بهذه الَّتي تظهر في المرآة.

تهمس اليزابيث قائلة: «ستحبُّك كاثرين أيضاً. سترين».

(١٥)

قبيل انطلاق موسم الأعراس، توظِّفني ريناتا بدوام كامل. خيَّرتني بين أن يكون الأجر على شكل دفعات ماليَّة أو مكافأة. كانت صحَّتي ممتازة وقد سئمت من اتِّكالي على غرانت ليقلَّني من وإلى مزرعة الزُّهور، لذلك اخترت الدَّفع النَّقدي.

باعني ضارب الطَّبل في فرقة ناتاليا سيَّارته القديمة ذات المقصورة الخلفيَّة. مجموعة طبوله الجديدة، والَّتي بدا صوتها أعلى بكثير من تلك القديمة، لم تكن لتتَّسع فيها، لذا أخذ مكافأتي وأعطاني تحفته الزَّهرية. بدت المقايضة عادلة، مع أنِّي لم أكن على دراية بقيمة السَّيَّارات. لم يكن لديَّ رخصة قيادة، ولا أعرف السُّواقة، فقام غرانت بقطر السَّيارة من أمام محلِّ الزُّهور إلى المزرعة على ظهر شاحنته، ولم يسمح لي بتجاوز البوَّابة الخارجيَّة لأسابيع عدَّة. وعندما سمح لي بذلك، ما كان المشوار ليتعدَّى الوصول إلى المتجر الاستهلاكي والعودة. بقي الشُّعور بالرَّهبة يتلبَّسني، لذا، تطلَّب الأمر منِّي أسبوعاً آخر قبل أن أصبح جاهزة لأقود إلى المدينة بمفردي.

في ذلك الرَّبيع، قضيت فترات الصَّباح أعمل عند ريناتا، لأجوب في فترات بعد الظُّهر أبحث عن الأزهار المتبقِّية لإنجاز

قاموسي. فبعد التقاط الصُّور لكلِّ ما في مزرعة غرانت من زهور، انتقلت إلى متنَّزه البوَّابة الذهبيَّة والواجهة المائيَّة. كلُّ كاليفورنيا الشَّماليَّة كانت عبارة عن حديقة نباتيَّة، حيث نبتت الزُّهور البرِّيَّة بين الطُّرق السَّريعة المزدحمة، وتفتَّح البابونج طالعاً من بين تشقُّقات الأرصفة. كان غرانت يرافقني أحياناً، فقد كان ضليعاً في تمييز النَّباتات، لكنَّ الضَّجر ينال منه سريعاً بسبب مرائب المدينة بأبنيتها المربَّعة والصَّغيرة، وحمَّامات الشَّمس الَّتي تتعرَّض لها المناطق المكشوفة من البشرة.

في نهاية كلِّ أسبوع، وعندما ننتهي أنا وريناتا في الوقت المحدَّد، كنَّا نمضي أنا وغرانت للتَّنزُّه في الغابات الحمراء إلى الشَّمال من سان فرانسيسكو. لطالما جلسنا في ساحات ركن السَّيارات مطوَّلاً لنرى أيَّ الدُّروب المطروقة هي الأكثر ازدحاماً قبل أن نحدِّد اتِّجاهنا. عندما نصبح لوحدنا في الغابة، يركن غرانت لرؤيتي ألتقط الصُّور لساعات، وينبري ليتناول بالتَّفصيل كلَّ فصيلة نباتيَّة وعلاقتها بالفصائل الأخرى في النِّظام البيئي. وعندما ينتهي من إخباري بما يعرف، كان يسند ظهره إلى الطُّحلب الطَّريِّ الَّذي يغطِّي جذع شجرة حمراء ويرفع ناظريه ليرنو من خلال الغصون إلى السَّماء الشَّاحبة. يتمادى الصَّمت بيننا، ودائماً ما كنت أتوقَّع منه استحضار سيرة اليزابيث أو كاثرين، أو ذكرى اللَّيلة الَّتي اتَّهمني فيها بالكذب. كنت أقضي السَّاعات وأنا أقلِّب في فكري ما سيتوجَّب عليَّ قوله حينها، وكيف سأشرح له الحقيقة دون أن

ينقلب عليَّ. لكنَّ غرانت لم يقلِّب مواجع الماضي، لا في الغابة ولا في أيِّ مكان آخر. بدا مرتاحاً إلى الإبقاء على حياتنا معاً حبيسة الزُّهور واللَّحظة الَّتي نعيشها معاً.

كثيرة هي اللَّيالي الَّتي قضيتها في برج الماء، وقد أخذ غرانت على عاتقه أمر الطَّبخ بشكل جدِّيٍّ، فغصَّ نضد المطبخ عنده بكدسات من كتب الطَّبخ المصوَّرة. وفيما أجلس أنا إلى طاولة المطبخ لأقرأ، أو أنظر من النَّافذة، أو أسرد حكاية عروس بغيضة، كان غرانت يقطِّع ويتبِّل ويحرِّك. كان يقبِّلني بعد الغداء قبلة واحدة فقط، وينتظر ليرى ردَّ فعلي. كنت أحياناً أردُّ القبلة بمثيلتها، فيجرُّني إليه لنقف في الممرِّ نضمُّ بعضنا لنصف ساعة، وفي أحيان أخرى تبقى شفتاي باردتين لا تتحرَّكان. حتَّى أنا لم أك أعرف كيف سيبدو ردُّ فعلي في يوم بعينه. تساوت في دواخلي الَّتي لا يمكن التنبُّؤ بها مشاعر الخوف والرَّغبة حيال علاقتنا المتوطِّدة. وفي نهاية كلِّ ليلة كان يمضي إلى حيث كان ينام، وأقوم بإقفال الباب خلفه.

في ليلة من ليالي أواخر أيَّار، وبعد شهور قضيناها في ممارسة هذه الطُّقوس، مال غرانت إلى الأمام وكأنَّه يودُّ تقبيلي لكنَّه توقَّف على بعد إنشات قليلة من شفتيَّ. وضع كلا كفَّيه على الجزء الضيِّق من ظهري وجرَّني إليه حتى تلامس جسدانا فقط، بدون وجهينا، وقال: «أظنُّ أنَّ الوقت قد حان».

فأسأله: «لأجل ماذا؟».

«لأستعيد سريري».

أمسك لساني، وأرسل نظري عبر النَّافذة.

يسألني وقد طال أمد صمتي: «ممَّ أنت خائفة؟».

أروِّي في سؤاله. أعرف أنَّه كان محقّاً في أنَّ الخوف يفرِّقنا، لكن الخوف ممَّ بالتَّحديد؟.

أردُّ وأنا أكرِّر كلمات ميريديث الضَّارب رجعها في الماضي: «لا أحبُّ أن يمسَّني أحد». لكن، حتَّى وأنا أنطقها أدرك أنَّها بادية السَّخافة، فلقد التصق جسدانا ولم أنفر.

فيقول: «لن أمسَّك إذن إلى أن تطلبي منِّي ذلك».

«حتَّى وأنا نائمة؟».

«خصوصاً حينها». فعلمت أنَّه لن يفعل.

أومئ برأسي بالموافقة، وأقول: «يمكنك أن تنام في سريرك لكنِّي سأنام على الأريكة، والأفضل ألَّا أستيقظ وأجدك مستلقياً إلى جانبي وإلَّا، سأعود إلى البيت مباشرة».

فيجيب: «لن أدفعك إلى هذا، أعدك».

استلقيت على الأريكة الثُّنائيَّة ليلتها محاولة أن لا أغفو قبل أن يغفو غرانت، لكنَّه لم ينم هو أيضاً. سمعته وهو يتقلَّب في الطَّابق فوقي، ويعيد ترتيب الأغطية، وينقر على كومة من الكتب. في

النِّهاية، وبعد فترة طويلة من الصَّمت، وبعد أن تأكَّدت من أنَّه غفا، أسمع نقراً خفيفاً على السَّقف فوقي.

تنساب همسة من على السُّلَّم: «فيكتوريا؟».

«نعم؟».

يقول: «تصبحين على خير».

«وأنت بخير»، وأطبع ابتسامة على القطيفة البرتقالية.

بعد قضاء موسم كامل مع النَّرجس، بدت آنَّا ماريَّا شخصاً مختلفاً. صارت تأتي صباح كلِّ يوم جمعة طلباً لباقة جديدة، وقد أشرق لون بشرتها الورديُّ أكثر، وتدوَّر جسدها حسبما كشفت الكنزات القطنيَّة الرقيقة، وقد تخلَّصت أخيراً من المعطف ذي الحزام. أخبرتني أنَّ بيتاني سافرت إلى أوروبا مع راي وسيعودان مخطوبين. قالتها بيقين وكأنَّ الأمر قد وقع فعلاً.

أتت آنَّا ماريَّا بصديقاتها. كثيرات منهنَّ أمَّهات لفتيات صغيرات يرتدين أثواباً مزركشة، وكلُّهنَّ زيجاتهنَّ بائسة. كنَّ يتَّكئن على النُّضد فيما بناتهنَّ يسحبن الزُّهور الأطول منهنَّ من الدِّلاء ويدرن بها حول الغرفة. تأخذ النِّسوة بسرد دقائق علاقاتهنَّ، محاولات اختصار معاناتهنَّ بكلمة واحدة. أشرح لهنَّ أهمِّية الخصوصيَّة، فتتعلَّق السيِّدات بكلماتي. بدت الأحاديث حزينة ومسلِّية ومفعمة بالأمل بآن معاً، وإن بشكل غريب. كما

بدا الإصرار الَّذي تمسَّكت به تلكم السيِّدات في إصلاح علاقاتهن غريباً عليَّ، فلم أدرك لم لم ينفضن أيديهنَّ منها ببساطة.

كنت أعرف أن لو عاد القرار لي لنفضت يدي منه: أكان زوجاً، أو ابناً، ومعه النِّسوة اللَّائي أتحاور معهنَّ. لكن، ولأوَّل مرَّة في حياتي، لم تجلب لي هذه الفكرة الرَّاحة المرجوَّة. بتُّ أنتبه إلى كيفيَّة انزوائي بنفسي. كما أخذت أمور تتَّضح، مثل العيش في غرفة صغيرة لبابها ستَّة أقفال، وتصرُّفات تنجلي مثل العمل في الجهة المقابلة لريناتا من الطَّاولة، أو الوقوف وراء صندوق الدَّفع عندما أتحدَّث إلى الزَّبائن. كنت أضع حاجزاً بين جسدي وبين أولئك الَّذين يحيطون بي مثل جدران من الجبس، أو طاولات من الخشب المصمت، أو الأدوات المعدنيَّة الثَّقيلة، كلَّما تسنَّى لي ذلك.

لكنَّ غرانت قدر على اختراق هذا، إلى حدٍّ ما، على مدى ستَّة شهور من الأنس. لم أعد أمهِّد الطَّريق للمسته وحسب، بل صرت أحنُّ إليها، وصرت أتساءل إن كان احتمال حدوث التَّغيير وارداً بالنِّسبة لي. بدأت آمل أن يكون أسلوبي في الانسحاب شيئاً يمكن التخلُّص منه، مثل نفور الأطفال من البصل أو الطَّعام اللَّاذع.

مع نهاية شهر أيَّار أتممت قاموسي تقريباً. التقطت صوراً لكثير من النَّبتات المتبقِّية والبعيدة المنال في محميَّة الزُّهور عند متنزَّه البوَّابة الذَّهبيَّة. بعد تحميض وتثبيت وتسمية كلِّ صورة، كنت أضع إشارات - في قاموسي وأقوم بتفحُّص الصَّفحات

لأعرف عدد الزُّهور الَّتي تبقَّت. لقد تبقَّى واحدة فقط: زهرة الكرز. كنت غاضبة من نفسي بسبب إغفالها، فهناك الكثير من شجر الكرز في منطقة الخليج، عشرات الأصناف في حديقة الشَّاي اليابانيَّة، لكنَّ أوان تفتُّحها كان قصيراً، مجرَّد أسابيع أو أيَّام، بحسب العام، وقد كنت مشتَّتة الانتباه أكثر من اللَّازم بسبب الرَّبيع فغفلت عن التقاط صورة للحظة جمالها الهاربة.

أكيدة أنَّ غرانت سيعرف أين يجد زهور الكرز، حتَّى في هذا الوقت، على الرَّغم من مرور زمن طويل على انقضاء موسمها. كتبت اسم الزَّهرة الوحيدة النَّاقصة على قصاصة ورقيَّة وألصقتها على الصُّندوق البرتقالي من الخارج. قد حان الوقت كي أعطيه إيَّاه.

وضعت الصُّندوق على المقعد الخلفي لسيَّارتي، ولففته بحزام الأمان. إنّه يوم الأحد. أصل إلى برج الماء قبل أن يرجع غرانت إلى المنزل من سوق المزارعين. أدخل باستخدام المفتاح الاحتياطي، وأجهِّز لنفسي رغيفاً من الخبز بالزَّبيب. احتلَّ الصُّندوق، بلونه البرتقالي الفاقع على الطَّاولة الخشبيَّة الباهتة، حيِّزاً أكبر ممَّا ينبغي. بدا وجوده صارخاً وطارئاً في المطبخ الصَّغير ذي التَّجهيزات القديمة الهامدة. كنت على وشك حمله إلى الأعلى عندما تناهى إلى سمعي صوت شاحنة غرانت وهي تستقرُّ فوق حصى الممر.

فتح الباب واتَّجه مباشرة إلى الصُّندوق، وهو يسألني: «أهذا هو؟».

فأومـئ أن نعـم، وأنـا أسـلِّمه قصاصـة الـورق الَّتـي تحمـل اسـم الزَّهـرة المفقـودة. «لكنَّـه ليـس مكتمـلاً تمامـاً».

يـترك غرانـت قصاصـة الـورق تسـقط أرضـاً ويزيـح الغطـاء. يقلِّـب في البطاقـات وهـو يـصرِّح بإعجابـه بـكلِّ صـورة عـلى حـدا. أديـر واحـدة لأريـه معـاني الزُّهـور المطبوعـة، ثـمَّ أعيدهـا إلى مكانهـا وأطبـق بالغطـاء عـلى أصابعـه، وأنـا أقـول: «يمكنـك رؤيتهـا لاحقـاً».

أسـترجع الملاحظـة المكتوبـة مـن عـلى الأرض وأهزُّهـا في الهـواء أمامـه: «أحتـاج إلى المسـاعدة لإيجـاد هـذه الآن».

يمسـك غرانـت بالقصاصـة ويقـرأ اسـم الزَّهـرة النَّاقصـة، ويهـزُّ رأسـه: «زهـرة الكـرز؟ عليـك الانتظـار حتَّـى نيسـان القـادم».

ترتطـم آلـة التَّصويـر بالطَّاولـة. «تقريبـاً سـنة كاملـة؟ لا أسـتطيع الانتظـار كلَّ هـذه الفـترة».

يضحـك غرانـت. «مـا الَّـذي تريديـن منِّـي فعلـه؟ أنقـل شـجرة كـرز وأزرعهـا في دفيئتـي؟ حتَّـى ولـو فعلـت، فلـن تزهـر».

«فماذا أفعل إذن؟».

يفكِّـر لبرهـة وهـو يـدرك أنَّنـي لـن استسـلم بسـهولة، ثـمَّ يقـترح قائـلاً: «ابحثـي في كتـب النَّباتـات الَّتـي عنـدي».

أزورُّ بأنفـي وأنحنـي حتـى أصـير قريبـة بـما يكفـي لأن أقبِّلـه، لكنـي

لا أفعل. عوضاً عن ذلك، أحكُّ أنفي بخدِّه الخشن وأعضُّ أذنه.

«رجاءً؟».

يسألني: «رجاءً ماذا؟».

«رجاءً اقترح شيئاً أكثر جماليَّة من صورة في كتاب».

يسرِّح غرانت بصره عبر النَّافذة. كان يبدو وكأنَّه يقلِّب أمراً في دواخله. بدا الحال وكأنَّه يمتلك في جيبه صورة لشجرة كرز تأخَّر تفتُّحها ويحاول أن يروز مدى أهميَّتي وإن كنت أهلاً بما يكفي للحصول عليها. في النِّهاية يومئ برأسه، ويقول: «حسناً، اتبعيني».

يخرج غرانت من الباب فأضع آلة التَّصوير حول رقبتي وأسير في إثره. نعبر الممرَّ الحصويَّ ونصعد درجات المنزل الرَّئيسي. يخرج مفتاحاً من جيبه ويدير قفل الباب الخلفي، فينفتح هذا عن غرفة غسيل. فوق منشر التَّجفيف تتطاير بلوزة نسائيَّة قرنقليَّة باهتة اللَّون. يقودني غرانت إلى المطبخ حيث بدت السَّتائر مرفوعة والطَّاولات مغبرَّة وقاتمة. كانت قوابس الأجهزة الكهربائيَّة كلُّها منزوعة، فيما بدا السُّكون التَّام للثلَّاجة مربكاً.

نعبر باباً هزَّازاً من المطبخ إلى غرفة الطَّعام، فتظهر الطَّاولة وقد دُفِعت جانباً ليُفرش كيس نوم على الأرضيَّة الخشبيَّة. أنتبه إلى وجود البلوزة الثَّقيلة لغرانت وجوربه المكوَّر إلى جانبه.

«حدث هذا لأنَّك طردتني من منزلي»، يقول ويشير مبتسماً إلى الكومة.

«أليس لديك غرفة نوم هنا؟».

يومئ غرانت برأسه ويردُّ: «على الرَّغم من هذا لم أنم هناك منذ عقد من الزَّمان. ولأخبرك الحقيقة فأنا لم أصعد إلى الأعلى منذ وفاة والدتي».

كانت السَّلالم تمتدُّ عن شمالي، ودرابزين خشبي عريض ينحني عند جانب الغرفة. يخطو غرانت باتِّجاهها ويوجِّه كلامه إليَّ: «هيا بنا. هناك شيء أودُّ أن أريك إيَّاه». عند أعلى السُّلَّم نصل إلى قاعة طويلة، حيث الأبواب مغلقة على جانبي الممر. نتابع المسير ونلج باباً منخفضاً.

كانت الغرفة الصَّغيرة أدفأ من باقي البيت وقد امتلأت برائحة الغبار والطِّلاء الجاف، فأدركت قبل تحديد موقع النَّافذة الجملونيَّة والمستقلَّة أنَّنا في مرسم كاثرين. عندما اعتادت عيناي على الضَّوء، استوعبت الجدران المغطَّاة بألواح خشبيَّة، ولوح الرَّسم القائم، ورفوف لوازم الرَّسم. تصطفُّ قوارير زجاجيَّة نصف فارغة من اللَّون القرمزي فوق الرَّف العلوي، مع فراشي تلوين متيبِّسة في أحواض متحجِّرة من الخزامى وزهرة البفتة. يمتدُّ خيط على مدار الغرفة يحمل رسومات لزهور كبيرة منقولة بصورة معقَّدة بواسطة الغرافيت والفحم، ومعلَّقة بملاقط غسيل خشبيَّة.

يشير غرانت إلى الأعمال ويقول: «كانت أمِّي رسَّامة، فتقضي ساعات كلَّ يوم هنا. على امتداد جلَّ حياتي، ما كانت ترسم إلَّا الزُّهور، النَّادر منها، الاستوائيَّة، أو ذات أمد التَّفتُّح القصير، والرَّقيقة. كانت تتلبَّسها خشية من عدم انتقاء الزَّهرة الملائمة للتَّعبير عمَّا تريد قوله في لحظة معيَّنة».

يقودني إلى خزانة ملفَّات من خشب البلُّوط تنتصب في زاوية الغرفة ويفتح الجرَّار الأوسط. كان مرمَّزاً بحرفي «لام» و«قاف»، وقد تمَّ تعليم كلِّ ملف باسم نبتة، وكلٌّ منها يحمل مجلَّد ملفَّات تحوي رسمة واحدة: البقدونس، زهرة الآلام، النَّعناع، البفتة، الأناناس، والقرنفل. ينقِّل إصبعه على الملفِّ حتَّى يصل إلى الحور الأبيض. يسحب المجلَّد ويفتحه، فيظهر فارغاً. كانت الرَّسمة في الغرفة الزَّرقاء، لاتزال ملفوفة بشريطة حريريَّة تحمل وشم الحبر ليوم وتوقيت أوَّل لقاء لنا.

يغلق غرانت الجرَّار ويفتح آخر، ليبحث في الملفِّ حتَّى يجد رسماً لزهرة الكرز. ينصبه على لوح الرَّسم الفارغ ويختفي عبر الباب.

أجلس وقد شدَّتني اللَّوحة. كانت الخطوط رشيقة وواثقة، والظِّلال عميقة ومعقَّدة. ملأت الزَّهرة كامل الورقة، فكان جمالها أخَّاذاً. فأعضُّ شفتي.

يعود غرانت، ويراقب ما يعتليني من تعابير وأنا أتفحَّص الورقة. فيسألني: «المعنى؟».

أردُّ: «**ثقافة عالية**».

يهزُّ رأسه. «بل **الآنيَّة**. جمال وعرضيَّة الحياة».

كان محقَّاً هذه المرَّة، فأومئ بالموافقة.

يحمل غرانت مطرقة جلبها معه وينقب اللَّوح عن النافذة. يندفع النُّور من خلال الزُّجاج المكسور وينحطُّ على مقدَّم الطَّاولة مثل بقعة ضوء. يضع الرَّسمة في مستطيل الضَّوء ويجلس على طرف الطَّاولة، ليربِّت على آلة التَّصوير ومن ثمَّ على جسدي تحتها، ويقول: «صوِّري».

يتابعني وأنا أخرج آلة التَّصوير من علبتها وألتفت إلى اللَّوحة. أصوِّرها من كلِّ زاوية: وأنا أقف على الأرض، وأنا على كرسي، ومن ثمَّ من أمام النَّافذة وأنا أسدُّ على الضَّوء السَّاطع دربه. وأعدِّل سرعة المغلاق والتَّركيز، وعينا غرانت تلاحقان أصابعي ووجهي وقدميَّ المثنيَّتين فوق حافَّة الطَّاولة. أنهي فيلماً كاملاً، فلا يطرف له جفن وأنا أضع الفيلم الثَّاني، وبعده الثَّالث. تندفع بشرتي تحت تأثير نظرته وكأنَّ سطح جسدي كلِّه كان يمتدُّ نحوه دونما استئذان من عقلي.

عندما انتهيت، أرجع الرَّسمة إلى المجلَّد. في اليوم التَّالي، حين سأظهِّر الفيلم، سيكون قاموسي قد اكتمل. أدير آلة التَّصوير إلى حيث يقبع غرانت على الطَّاولة بلا حراك، وأتملَّى في وجهه عبر العدسة.

أثارت أشعَّة الشَّمس هالة من نور حول شقِّه. أتحرَّك بشكل دائري وألتقط صورة لوجهه الَّذي يتقاسمه النُّور والظِّل. كانت نقرات التَّصوير تتلاحق وأنا أدور حوله، بدءاً من يافوخه مروراً بمفرق شعره نزولاً إلى ياقة قميصه. أطوي كمَّيه وأصوِّر ساعديه، والعضلة المشدودة الناتئة عند معصمه، أصابعه السَّمينة وأظافره المحشوَّة بالقذارة. أخلع عنه حذاءه وأصوِّر باطن قدميه. وعندما فرغ الفيلم أنزع عنِّي آلة التَّصوير.

أحلُّ أزرار قميصي وأنزعه عنِّي هو أيضاً.

تختفي الاندفاعات عن جلد ذراعيَّ لتظهر على جلد غرانت. أصعد فوق الطَّاولة.

يطوي قدميه تحته ويتحرَّك لملاقاتي، ثمَّ يضغط براحتيه على بطني ويبقيهما عليه. كانت أنامله تعلو وتنزل فوق بطني وأنا أتنفَّس بعمق، فيما ابيضَّت أصابعي وهي تمسك بحافَّة الطَّاولة.

يحرِّك يديه على ظهري وصولاً إلى حمَّالة الصَّدر فيحلُّ مشابكها برفق، واحداً تلو الآخر. يرفع أصابعي عن مقدَّم الطَّاولة، وينزع الحمَّالة عن ذراع واحدة، ثمَّ عن الثَّانية. أمدُّ يدي إلى حافَّة الطَّاولة ثانية، وأضغطها كأنَّني أسعى إلى التَّوازن على سطح قارب يتخبَّط.

يسألني: «هل أنت واثقة؟».

أومئ بالإيجاب.

يمـدِّدني عـلى الطَّاولـة وهـو يوسِّـد رأسي كـي يسـتريح عـلى السَّـطح الصُّلـب، وينـزع عنِّـي بقيَّـة ملابـسي، ثـمَّ يخلـع ملابسـه.

يسـتلقي غرانـت إلى جـواري ويبـدأ بتقبيـل وجهـي. أديـر رأسي صـوب النَّافـذة خشـية أن أصـدَّ عنـه بسـبب عريـه. الأم روبي هـي الإنسـان البالـغ الوحيـد الَّـذي رأيتـه عاريـاً وقـد راحـت صـورة لحمهـا المبلَّـل والمترهِّـل تغـزو خيـالي لأشـهر عـدَّة بعدهـا.

تطـوف أصابـع غرانـت خارطـة جسـدي بمهـارة. كان يقظـاً في مـداورتي كيقظتـه في التَّعامـل مـع شـتلة حسَّاسـة، وبـدوري حاولـت التَّركيزعـلى لمسته، والـدفء الَّـذي نثره عـلى سـطح بـشرتي، ليتَّحـد جسـدانا معـاً. كان يريـدني، وكنـت أعلـم أنَّـه يريـدني منذ زمـن طويـل. لكـن، مـع امتـداد حديقـة الزُّهـور تحت النَّافـذة مباشرة، وعـلى الرَّغـم مـن تجاوب جسـدي مـع لمسته، بـدا فكـري وكأنَّـه يحلِّق بـين النَّباتـات الممتـدّة تحتنـا على بعـد ثلاثـين قدمـاً. يتغشَّـاني غرانـت. كانـت حديقـة الزُّهـور في عـزِّ إزهارهـا، فالأزهـار متفتِّحـة ومثقلـة. أعـدُّ وأصنِّـف الشـجيرات الفرديَّـة، فأبتـدئ بالحمـراء وأسرح وراء الصُّفـوف: سـتَّ عـشرة شـجيرة بـدءاً بـذات اللَّـون الأحمـر الخفيـف، وصـولاً إلى صاحبـة اللَّـون القرمـزي الغامـق. يصـل فـم غرانـت المفتوح والنَّـديُّ إلى أذني. هنـاك اثنتـان وعـشرون شـجيرة ورد قرنفليَّـة اللَّـون، هـذا إن لم أعـدَّ المرجانيَّـة اللَّـون بشـكل منفصـل. بـدأت حركـة غرانـت تتسـارع، وتطغـى شـهوته عـلى يقظتـه فأغلـق عينـيَّ بسـبب الإحسـاس الموجـع.

خلف جفنيَّ تمتدُّ الورود البيضاء، عصيَّة على العدِّ. أحبس أنفاسي حتَّى يبتعد غرانت.

يستدير جسدي لمواجهة النَّافذة، فيلصق غرانت جسده بي من الخلف. كان رجع ضربات قلبه يتردَّد على ظهري. أعدُّ الورود البيضاء البازغة تحت أشعَّة الشَّمس الغاربة. كان مجموعها سبعاً وثلاثين وردة، وقد طغى لونها على كلِّ لون آخر.

أتنفَّس بعمق، لتمتلئ رئتاي بالخيبة.

(١٦)

على مدار ثلاثة أيَّام محمومة تركنا رسائل عدَّة لكاثرين: قرن الغزال، وتعني **الشَّجن**، تمَّ إلصاقها إلى نافذة مطبخها على شكل صفٍّ من الشَّوكيَّات مثل سياج خشبي؛ وزهرة الثَّالوث بلون الدَّم، وتعني **اذكريني**، تجمَّعت في مرطبان زجاجي صغير عند شرفتها الأماميَّة؛ وأغصان من شجر السَّرو، وتعني **الحداد**، تمَّ تعشيقها على القضبان المعدنيَّة للبوَّابة المشغولة بالحديد.

لكن، لم يصدر عن كاثرين أيُّ مؤشِّر يدلُّ على تلقِّيها إيَّاهم، فلم تردَّ على اليزابيث.

مكتبة
t.me/t_pdf

(١٧)

انتقلت ملابسي إلى بيت غرانت في صندوق سيَّارتي. ثمَّ تبعتها أحذيتي، وبطَّانيتي البنِّيَّة، وأخيراً صندوقي الأزرق. كان هذا كلُّ ما أملك من متاع. داومت على دفع الإيجار لناتاليا عند أوَّل كلِّ شهر، وبين الفينة والأخرى كنت أقتنص قيلولات على فراشي الأبيض بعد الانتهاء من العمل. لكن، مع تقادم الصَّيف، صرت أقضي أوقاتاً أقلَّ في الغرفة الزَّرقاء.

أتممت العمل في قاموس الأزهار الخاصِّ بي، فقد أكملت الصُّور الَّتي التقطتها في مرسم كاثرين مجموعتي، ليتقاعد كلٌّ من قاموس اليزابيث عن الأزهار والدَّليل الميداني ويبتلعهما الغبار على ظهر مكتبة غرانت. توضَّع صندوقا الصُّور الأزرق والبرتقالي جنباً إلى جنب فوق الرَّفِّ الأوسط، وقد تمَّ ترتيب صندوق غرانت أبجديَّاً بحسب الأزهار، وتمَّ ترتيب صندوقي بحسب المعنى. ولمرَّتين أو ثلاث في كلِّ أسبوع، كنّا، أنا أو غرانت، نقوم بتزويق طاولة الغداء بالزُّهور، أو يترك أحدنا على وسادة الآخر شتلة لصنف ما، لكنَّنا نادراً ما كنَّا نرجع إلى صناديق الصُّور. كلانا حفظ كلَّ بطاقة، ولم نعد نتجادل بشأن التَّعريفات كما فعلنا عندما التقينا لأوَّل مرَّة.

الحقيقة أنَّنا لم نتجادل حيال أيِّ شيء. اصطبغت حياتي مع غرانت بالطُّمأنينة والسَّكينة، وكنت لأستمتع بها لولا يقيني الجارف بأنَّ كلَّ هذا سينتهي قريباً. ذكَّرني إيقاع حياتنا معاً بالأشهر الَّتي سبقت إجراءات التَّبنِّي حين كنَّا نقوم، أنا واليزابيث، بتشذيب الصُّفوف ووضع العلامات على التَّقويم والاستمتاع بوجودنا معاً. كانت حرارة ذلك الصَّيف الَّذي أمضيته مع اليزابيث لا تطاق، وكذلك هذا الصَّيف مع غرانت، يشابه ذاك. مع افتقاده للتَّبريد المركزي، امتلأ خزَّان المياه بالحرارة وكأنَّه امتلأ بالماء، فصرنا أنا وغرانت نستلقي ليلاً على أرضيَّات مختلفة ونحاول التَّنفُّس. باتت الرُّطوبة تثقل عليَّ مثلها مثل الكلمات الَّتي لم نبح بها لبعضنا، ولأكثر من مرَّة توجَّهت إليه قاصدة أن أعترف له بماضيَّ، لكنَّني لم أجرؤ على ذلك.

لقد أحبَّني غرانت. كان حبُّه هادئاً، إنَّما راسخ، ومع كلِّ تصريح به من طرفه أشعر بنفسي تتشظَّى بين الشُّعور بالسَّعادة والإحساس بالذَّنب. لم أكن أستحقُّ حبَّه. لو أنَّه اكتشف الحقيقة لكرهني، كنت واثقة من هذا أكثر من ثقتي بأيِّ شيء آخر في حياتي. وزاد الأمر سوءاً تعلُّقي به. تنامى تقاربنا فصرنا نتبادل القبل عند اللِّقاء وعند المغادرة، حتَّى إنَّنا صرنا ننام جنباً إلى جنب. كان يداعب شعري وخدَّيَّ وصدري عند طاولة الغداء وفي الطَّوابق الثَّلاثة جميعها لبرج الماء. نمنا مراراً مع بعضنا، وتعلَّمت الاستمتاع بالأمر. لكن، في اللَّحظات الَّتي تلي هذا، وحين كنَّا

نستلقي جنباً إلى جنب عرايا، كان تعلو وجهه معالم رضا صريح أعرفه دون أن أراه، لكن، ما كان وجهي يعكسه. كنت أشعر بذاتي الحقيقيَّة التَّافهة نائية عن قبضته المتشبِّثة بي، ومتوارية عن نظراته المعجبة. كذلك مشاعري بالنِّسبة لغرانت كانت متوارية أيضاً، فصرت أتخيَّل غلافاً يحيط بقلبي، غلافاً قاسياً وصقيلاً مثل سطح حبَّة البندق، لا يمكن اختراقه.

لم يشعر غرانت بنفوري في خضمِّ حال الوصال. ولو حدث مصادفة وشعر أنَّ قلبي بعيد عن متناوله، فما كان ليذكر الأمر أمامي. باتت إيقاعات لقاءاتنا وافتراقاتنا متوقَّعة. في أيَّام الأسبوع تتقاطع دروبنا لساعة من الزَّمن في اللَّيل. وفي أيَّام السَّبت، نقضي معظم اليوم معاً نتشارك العمل في الصَّباح لنتوقَّف بعد ذلك كي نأكل أو نتنزَّه أو نراقب الطَّيَّارات الورقيَّة عند مرسى القوارب. أمَّا في أيَّام الأحد فنبقى على مسافة بيننا. لم أكُ أرافق غرانت إلى سوق المزارعين، وعندما يعود أكون قد ذهبت، فأتناول الغداء في مطعم قرب الخليج أو أتمشَّى على الجسر لوحدي.

دائماً ما كنت أعود إلى البرج المائي في الوقت المحدَّد للطَّعام يوم الأحد كي أستمتع بوصفات غرانت المبتكرة والمركَّبة. صار يمضي معظم فترة بعد الظُّهر وهو يطبخ. وعندما ألج الباب أجد المقبِّلات على طاولة المطبخ. الأطعمة الَّتي تؤكل باليد، والَّتي تعلَّم تحضيرها، كانت كفيلة بردعي عن إزعاجه لحين اكتمال

الوجبة الرَّئيسة. وغالباً ما كان هذا يتمُّ بعد التَّاسعة والنِّصف بكثير.

في ذلك الصَّيف تجاوز غرانت كتب الطَّعام، والَّتي كان يحملها معه إلى الأعلى ويدسُّها تحت الأريكة الثُّنائيَّة، وراح يبتكر كلَّ وجبة من مخيِّلته. أخبرني أنَّه يشعر بضغط أخفَّ عندما لا يقارن نتاج عمله بالصُّور الموجودة إلى جانب الوصفة. لا بدَّ وأنَّه كان موقناً بأنَّ الوجبات الَّتي يحضِّرها كانت أشهى ممَّا يمكن أن يحضِّره مسترشداً بكتب الطَّبخ، وألذَّ من أيِّ طعام تذوَّقته مذ فارقت اليزابيث.

في الأحد الثَّاني من تمُّوز كنت أقود عائدة إلى المنزل بعد سير طويل عند شاطئ المحيط، وقد داهمني شعور بالجوع أكثر من المعتاد، فراحت معدتي تعتصر بسبب الخواء والتَّوتُّر. تجاوزت السَّكن المؤقت، بالشَّابَّات المتجمِّعات عند النَّوافذ، واللَّائي كنت أجهلهنَّ، ممَّن جعلن معدتي تعتصر ألماً. لن تسير حياتهنَّ كما تشتهي أحلامهن. أدركت ذلك مع أنَّ حياتي باتت أفضل حتَّى مما حلمت، هذا لو كنت تركت العنان لنفسي كي تحلم بأيِّ شيء على الإطلاق. كنت أعرف أنَّني استثناء، حتَّى حظِّي الجيِّد أيقنت أنَّه لحظة عابرة في حياة ستكون طويلة وقاسية ووحيدة.

كان غرانت قد وضع شرائح من الخبز الفرنسي المحشو بشيء ما، جبنة طريَّة أو مادَّة أشهى، مع رشَّات من الأعشاب المفرومة

والزَّيتـون والقبَّـار. كانـت المقبِّـلات مرتَّبـة عـلى شـكل صفـوف في صحـن مربَّـع مـن الخـزف، فانطلقـت مـن طـرف، ورحـت أمسـح الصُّفـوف جيئـة وذهابـاً، راميـة كلَّ دائـرة بحالهـا في فمـي. رفعـت ناظـري قبـل أن أتنـاول آخـر قطعـة. كان غرانـت يراقـب وهـو يبتسـم.

أسأله وأنا أشير إلى آخر شريحة: «هل تريدها؟».

«لا. عليـك انتظـار رِزقـك حتَّـى تجهـز الوصفـة التَّاليـة. الأضـلاع المشـويَّة مازالـت بحاجـة إلى خمـس وأربعـين دقيقـة حتَّـى تنضـج».

أتنـاول الشَّريحـة الأخـيرة متذمِّـرة: «لا أظنُّنـي سـأحتمل كلَّ هـذا الوقـت».

يتنهَّـد غرانـت قائـلاً: «تكرِّريـن نفـس الـكلام أسـبوعاً بعـد أسـبوع، وبعـد أن تـأكلي تقولـين إنَّـه يسـتحقُّ عنـاء الانتظـار».

«لا أفعـل»، أردُّ عليـه، لكنَّـه كان محقَّـاً. كانـت معـدتي تهضـم الجبن بانقباضـات عاليـة. أنحنـي فـوق المنضـدة وأغلـق عينيَّ.

«هل أنت بخير؟».

أهـزُّ رأسي. يجهِّـز غرانـت باقـي الطعـام في صمـت بينـما أنـا متهالكـة عـلى الطَّاولـة. عندمـا فتحـت عينـيَّ كانـت قطعـة اللَّحـم بجانبـي والبخـار يتصاعـد منهـا. أنثنـي فـوق مرفـق واحـد، وأطلـب منـه قائلـة: «هـلا قطَّعتهـا لي؟».

«بالتَّأكيـد». يربِّـت غرانـت عـلى رأسي ورقبتـي وكتفـيَّ، ويقبِّـل

جبهتي قبل أن يحمل السِّكِّين ويقطِّع اللَّحم إلى شرائح. بدت حمراء من المنتصف كما أحبُّها، وقد تحمَّصت بشيء مبهَّر. كما تكوَّنت الصَّلصة من مزيج من فطر غريب مع البطاطا الحمراء واللِّفت. كانت أشهى وجبة أكلتها في حياتي.

لكنَّ معدتي لم تساير تقييم فمي لنوعيَّة الطَّعام. تناولت بضع لقيمات عندما شعرت، بما لا يدع مجالاً للشَّكِّ، أنَّ ما تناولته لن يبقى ضمن جدران معدتي. أطير صاعدة السُّلَّم وأقفل على نفسي الحمَّام وأقيء محتويات معدتي في المرحاض. أدفق الماء فيه وأفتح صنابير المياه في المغسلة والدُّوش على أمل أن تخفي ضجة انصباب الماء صوت سلسلة الإقياءات الَّتي تتالت.

يقرع غرانت الباب لكنِّي لم أفتحه. يذهب ويرجع بعد نصف ساعة لكنِّي لم أردَّ على نقراته الخفيفة. لم يكن هناك حيِّز كاف كي أستلقي فوق أرض الحمَّام، لذا، استلقيت على جنبي وأنا مطويَّة على نفسي، وقدماي تدفعان الباب، وظهري المنحني يضغط على حوض السيراميك. تتبَّعت أصابعي البلاطة السُّداسيَّة لترسم أشكالاً لزهور بتيجان سداسيَّة البتلات، بلغ عددها إحدى عشرة عندما خرجت. انحفر شكل البلاطة عميقاً في لحم خدِّي وكتفي المكشوف.

تمنَّيت أن يكون غرانت قد نام، لكنَّه كان جالساً على الأريكة الثُّنائيَّة وقد أطفأ كلَّ الأنوار.

يسألني: «أهذا بسبب الطَّعام؟».

أهزُّ رأسي بالنَّفي. لم أكن أدري السَّبب، لكنَّه ليس الطَّعام بكل تأكيد. «طعم الشِّواء كان لا يصدَّق».

أجلس بقربه، فتتلامس فخذانا عبر قماش الجينز المتماثل الَّذي نرتديه كلانا. يستفسر سائلاً: «فماذا إذن؟».

«أنا مريضة»، أقولها وأنا أتجنَّب النَّظر في عينيه. لم أصدِّق أنَّها الحقيقة، وأعلم أنَّه لن يصدِّق أيضاً. مذ كنت طفلة كنت أقيء بسبب التَّماس: من لمسة أو من التَّهديد باللَّمس. حين ينحطُّ عليَّ الآباء الرَّاعون لي ليدخلوا يديَّ العنيدتين في كمَّي السُّترة، وحين ينزع المدرِّسون القبَّعات عن رأسي وتجثم أصابعهم دهراً فوق شعري المجدول، كلُّ هذا كان يجعل معدتي تنقبض بشكل خارج عن السَّيطرة. في إحدى المرَّات، بعد انتقالي إلى حضانة اليزابيث بوقت قصير، تناولنا الطَّعام خارجاً في الحديقة. أتخمت، كما كان دأبي في كلِّ وجبة في ذلك الخريف، حتَّى ما عدت قادرة على الحراك، فسمحت لاليزابيث برفعي وحملي إلى المنزل. ما كادت تنزلني عند الشُّرفة حتى رحت أقيء بجانب الدرابزين.

أنظر إلى غرانت. لشهور وهو يلمسني بحميميَّة. ودون إدراك منِّي، كنت أنتظر وقوع هذا.

أحدِّثه قائلة: «سأنام على الأريكة، لا أريد أن أعديك».

فيرد غرانت: «لن أتأثر»، ويأخذ بيدي وينهضني قائلاً: «هيَّا إلى الأعلى».

أفعل مثلما قال.

(١٨)

أستيقظ مع شروق الشَّمس. إنَّه صباح الاستماع لقضيَّة التَّبنِّي الخاصَّة بي. أنهض، وأستدير لأستند إلى الجدار ببرودته المنعشة، واللِّحاف يغطِّيني حتَّى ذقني. يتهادى ضوء النَّهار من خلال النَّافذة، والأشعَّة الواهية تتوهَّج على خزانتي وباب الغرفة المفتوح. بدت الغرفة، من أوجه عدَّة، كما كانت عليه عندما دخلتها قبل عام، ففيها نفس الأثاث، ونفس اللِّحاف الأبيض، ونفس كدسات الثِّياب، وكثير منها عليَّ أن أكبر كي يتناسب مع مقاسي. لكن، كلُّ ما يحيط بي كانت سمات للفتاة الَّتي صرتها: كتب المكتبة المكدَّسة على طاولة المكتب بعناوين مثل «**النَّباتات بين يديك**»، و»**المرجع الفصل في تخطيط الحديقة من العقل**»؛ صورة تجمعني واليزابيث التقطها لنا كارلوس، وقد تلاصق خدَّانا المحمرَّان بفعل برد الشِّتاء؛ وسلَّة المهملات الورقيَّة الملأى برسوم أزهار رسمتها لاليزابيث، لم تبد واحدة منها متقنة كفاية كي أقدِّمها لها. هذا آخر صباح لي في الغرفة كفتاة تحت الرِّعاية. أتملَّى بالمحيط من حولي كما اعتدت دائماً أن أفعل، وأعاين الأشياء كما لو أنَّها تعود لشخص آخر. غداً، تعبر اللَّحظة خاطري. **غداً سينتابني إحساس مختلف. سوف أستيقظ لأنظر من حولي، ولسوف أجد غرفة لي أنا، حياة لي أنا، لن يحرمني منها أحد.**

أتحرَّك بهدوء في البهو وأصغي لأسمع من اليزابيث. مع أنَّ الوقت لايزال مبكِّراً، فاجأني الهدوء الَّذي يلفُّ المنزل ورؤيتي لبابها مغلقاً. تخيَّلتها وقد جافاها النَّوم مثلي. يوم البارحة كان عيد ميلادي، ومع أنَّ اليزابيث حضَّرت كعكات القوالب وزيّنَّاها بورود أرجوانيَّة كثيرة، لكنَّ هاجس التَّبنِّي طغى على معظم الاحتفال بالمناسبة. بعد العشاء، قمنا بلعق الزِّينة بشرود ونحن نرسل أبصارنا من النَّافذة بانتظار تعتيم السَّماء معلنة بدء يوم جديد. أستلقي مستيقظة في السَّرير وجسدي ملفوف بثوب النَّوم الطَّويل المزهَّر الَّذي أهدته إليَّ اليزابيث. كانت حماستي تفضل على حماستي بكلِّ ليالي أعياد الميلاد الَّتي شهدتها حياتي مجتمعة. خطر لي أنَّ اليزابيث لم تستطع النَّوم أيضاً، لتصحو متأخِّرة كونها بقيت مستيقظة حتَّى منتصف اللَّيل.

في الحمَّام، يتدلَّى الثَّوب الَّذي اشتريناه معاً، مغلفاً بالنايلون ومعلَّقاً على مشجب خلف الباب. أغسل وجهي وأمشِّط شعري قبل أن أسحبه من على الحامل.

كان من الصَّعب لبسه دون مساعدة اليزابيث، لكنَّني كنت مصمِّمة على ارتدائه. أريد أن أرى النَّظرة الَّتي سترتسم على وجهها حينما تستيقظ وتجدني قد لبست، وأنا أجلس إلى طاولة المطبخ، أنتظر. أريدها أن تشعر بشعوري، بأنَّني جاهزة. أجلس على حافَّة حوض الاستحمام، أرتدي الثَّوب بالعكس وأرفع السَّحَّاب، ثمَّ أفتله حتَّى يعود إلى وضعه الطَّبيعي. كانت الشَّرائط

سميكة وقاسية على الرَّبط. بعد عدَّة محاولات فاشلة استطعت الحصول على عقدة رخوة مربَّعة الشَّكل عند مؤخَّر رقبتي. ثمَّ فعلت الشَّيء نفسه عند خصري.

حين نزلت السَّلالم، كانت السَّاعة الَّتي على المدفأة تشير إلى الثَّامنة. أفتح باب الثَّلاجة وأقوم بعمليَّة مسح لمحتويات الرُّفوف جميعها، ثمَّ أختار عبوة صغيرة من اللَّبن بطعم الفانيليا. أنزع ختم السُّدادة وأخرج طبقة كثيفة من الكريمة بملعقة، لكنَّني لم أك جائعة. كنت متوتِّرة. لم تطل اليزابيث النَّوم حتى وقت متأخِّر هكذا أبداً، ولا مرَّة طوال السَّنة الَّتي قضيتها معها. بقيت جالسة إلى الطَّاولة لساعة كاملة وعيناي معلَّقتان بالسَّاعة.

عند التَّاسعة صعدت السُّلَّم وقرعت باب غرفتها. العقدة الَّتي ربطتها حول رقبتي قد انحلَّت، وتراخى مقدَّم الثَّوب للأسفل كثيراً حتَّى برزت عظام صدري الناتئة. كنت موقنة أنَّ تلك الفتنة الَّتي بدوت عليها في المخزن قد ولَّت. وعندما لم يندّ عن اليزابيث ردٌّ أو صوت، أدير أكرة الباب. لم تكن مقفلة، فأدفع الباب بهدوء وألج الغرفة.

كانت عينا اليزابيث مفتوحتين، تحدِّقان بالسَّقف. لم تنقل بصرها حين عبرت الغرفة ووقفت بجانب سريرها.

أتحدّث إليها: «إنَّها التَّاسعة».

لا يصدر عن اليزابيث أيُّ رد.

«يجب أن نكون في حضرة القاضي عند الحادية عشرة. ألا ينبغي أن نمضي للقيام بإجراءات التَّحقُّق وما أدراك؟».

لاتزال على إغفالها لوجودي. أقترب أكثر وأنحني ظنَّاً منِّي أنَّها قد تكون نائمة، حتَّى وإن كانت عيناها مفتوحتين عن آخرهما. في زمن مضى كان لديَّ شريكة في الغرفة تنام هكذا، فكنت أنتظر إغفاءها كلَّ ليلة حتَّى أستطيع إطباق جفنيها. كان يؤرقني الشُّعور بأنَّني مراقبة.

رحت أهزُّ اليزابيث برفق، فلم تطرف لها عين. أناديها بصوت أقرب إلى الهمس: «اليزابيث، هذه أنا، فيكتوريا». أدسُّ أصابعي في الفجوة الَّتي بين عظمتي نحرها. كان نبضها منتظماً وهادئاً، ويبدو وكأنَّه يمرِّر الثَّواني المتبقِّية على إجراءات التَّبنِّي. أناجيها متوسِّلة بصمت، «انهضي». فكرة أن نفوِّت موعد المحكمة، أو أن يتمَّ تأجيله لشهر أو لأسبوع، أو حتَّى ليوم آخر، كانت أكبر من أن أستوعبها. بدأت أهزُّها، ويداي تتشبَّثان بكتفيها، فيتهدَّل رأسها برخاوة فوق رقبتها.

«توقَّفي». تنطق أخيراً، وصوتها بالكاد يسمع.

أسألها بصوت منكسر: «ألن تنهضي؟ ألن نذهب إلى المحكمة؟».

تطفر الدُّموع من عيني اليزابيث دون أن ترفع راحتيها

لمسحها. أتتبَّع مسارها بناظريَّ لأرى الوسادة وقد تبلَّلت بالفعل حيث استقرَّت. تنطق قائلة: «لا أستطيع».

«ماذا تعنين؟ أستطيع مساعدتك».

فتردُّ: «لا، لا أستطيع».

تبقى ساكنة لفترة طويلة. أنحني مقتربة أكثر لدرجة أن شفتيها مسَّتا أذني عندما نطقت أخيراً للمرة الثَّانية. تقول برفق: «هذه ليست عائلة. أنا وأنت فقط في البيت لوحدنا. هذه لن تكون عائلة. لا أستطيع فعل هذا بك».

أهمد عند رجل السَّرير. لم تتحرَّك اليزابيث، ولم تتحدَّث مرَّة أخرى، لكنَّني بقيت حيث جلست بقيَّة الصَّباح، أنتظر.

(١٩)

لم يختف الغثيان، لكنَّني انحنيت كي أخفيه. بقيت أتقيَّأ في الحمَّام كلَّ صباح إلى أن بدأ المصرف بالانسداد. بعد ذلك لم أعد أدخل الحمَّام، بل صرت أهرع إلى سيَّارتي قبل أن ينهض غرانت وأنا ألقي باللَّائمة على ريناتا وجدول أعراس الصَّيف البغيض. بقي الإحساس بالغثيان يلازمني طوال النَّهار، وزادته سوءاً روائح الزُّهور المنتشرة في مكان العمل. لكنَّ برودة المقصورة كانت تمنحني بعض الرَّاحة، فرحت أقتنص قيلولات ما بعد الظُّهر لأقضيها بين الدِّلاء المبرَّدة.

لم أدر لِكم من الوقت كانت الأمور لتستمرَّ هكذا لو لم تواجهني ريناتا في المقصورة. يُصكُّ الباب المعدني الثَّقيل خلفها مصدراً خبطة عالية، لتلكزني بمقدِّم قدمها كي توقظني، والعتمة تلفُّ المكان.

تطرح سؤالها: «أوتظنِّين أنَّني لا أعرف أنَّك حبلى؟».

تشتدُّ ضربات قلبي خلف قشرته الصُّلبة. حبلى. وتسبح الكلمة المُنكَرة في هواء الغرفة بيننا. تمنَّيت لو أنَّها تنزلق من تحت الباب وصولاً إلى الشَّارع لتلج جسد واحدة ترغب بها. هناك الكثير من النِّساء اللَّائي يحلمن بالأمومة، عداي أنا وريناتا.

أردُّ: «لست بحبلى». لكن، لم يكن الردُّ بذلك الحزم الَّذي أردته.

«لك أن تبقي على حال الإنكار قدر ما تشائين، لكنِّي سأحصل لك على تأمين صحِّي قبل أن يكتمل نموُّ ذلك الجنين فتقفي هناك تلدينه قبالة محلِّي».

لم أتحرَّك. مضت ريناتا لتلكزني ثانية، لكن، ظهر أنَّها نكزة لطيفة على ما انتبهت حينها أنَّه خصري وقد سمن.

تأمرني: «انهضي واجلسي إلى الطَّاولة. كومة الأوراق الَّتي عليك توقيعها ستستغرق منك معظم فترة بعد الظُّهر».

أنهض وأغادر المقصورة وأتجاوز الأوراق المكدَّسة على طاولة العمل، وأخرج إلى الرَّصيف. تجيش نفسي عند المزراب فأنطلق أجري. تنادي ريناتا عليَّ باسمي مراراً وبوتيرة مرتفعة، لكنِّي لم أنظر ورائي.

عندما وصلت إلى محل البقالة الواقع عند ناصية الشَّارع السابع عشر وشارع بوتريرو، بدوت منهكة ومقطَّعة أنفاسي. انهرت على الرَّصيف ورحت أتقيَّأ. تتوقف امرأة عجوز تحمل سلَّة مليئة بالخضراوات وتضع يدها على كتفي وتسألني إن كنت على ما يرام. أبعد كفَّها عنِّي بقوَّة فتوقع خضراواتها. من بين الفوضى الَّتي عمَّت الحشد المتجمهر أنسلُّ داخلة المتجر. أشتري ثلاثة اختبارات حمل وأقفل عائدة إلى الغرفة الزَّرقاء والصُّندوق

الكرتوني الخفيف الَّذي يحتويها بدا لي بثقل حجر وهو في حقيبة ظهري.

كانت ناتاليا ما تزال نائمة، وباب غرفة نومها مفتوح. توقَّفت عن إغلاقه من شهور عدة، منذ أن أقلعت عن البقاء هناك، لكنَّها كانت تصكُّه كلَّما فاجأتها بقدومي. أغلق بابها بهدوء وأقفل على نفسي باب الحمَّام.

أبول فوق الاختبارات الثَّلاثة وأصفُّها فوق حافة الحوض. يفترض أن يستغرق ظهور النتيجة ثلاث دقائق، لكنَّه لم يحتج إلى هذه المدَّة.

أفتح نافذة الحمَّام وأرمي بها واحداً تلو الآخر. ترتدُّ عن السَّقف الحصوي المستوي ثمَّ تستقرُّ فوقه على بعد قدم أسفل النَّافذة. لم تزل النَّتائج تظهر إيجابيَّة. أجلس على غطاء المرحاض ورأسي بين يديَّ. آخر ما كنت أحتاجه هو أن تعرف ناتاليا بالأمر، فريناتا كانت تكفي وتوفِّي. وإن اكتشفت الأمُّ روبي الأمر فستقيم معي في الغرفة الزَّرقاء، تطعمني البيض المقلي صباح مساء، وتضع يدها على بطني كلَّ خمس دقائق.

أدخل المطبخ وأتسلَّق النُّضد. غالباً ما كانت ناتاليا وفرقتها يصعدون إلى السَّطح بهذه الطَّريقة، لكنِّي لم أجرِّبها قط. كانت النَّافذة الموجودة فوق المجلى صغيرة لكن، لم يكن مستحيلاً المرور منها، حتَّى بحالة وزني الزَّائد.

بـدا السَّـطح كمكـبٍّ لأعقـاب السَّـجائر مـع قنينـة مـشروب فارغـة. أزحـف فوقهـا وأجمـع اختبـارات الحمـل الثلاثـة وأدسُّـها في جيبـي. أنهـض ببـطء، وأنـا أشـعر بـدوار بسـبب الإجهـاد والارتفـاع، وأنظـر حـولي.

كان المنظـر أخَّـاذاً كـوني لم أتابعـه أبـداً قـدر متابعتـي للمشـهد الفعـلي. يمتـدُّ السَّـطح الطَّويـل عـلى مسـاحة مبنـى ضخـم في مدينـة، وهـو محـاط بجـدار اسـمنتي واطـئ. مـن وراء الجـدار تمتـدُّ المدينـة. مـن وسـط البلـد إلى جـسر الخليـج إلى منطقـة بـيركلي، بـدا المشـهد كلوحـة رائعـة بحـدٍّ ذاتهـا، مـع حركـة الأضـواء الخلفيَّـة للعربـات عـلى الطُّـرق السَّريعـة وزيـغ البقـع الحمـراء. أتَّجـه نحـو حافـة السَّـطح وأجلـس، أعـبُّ الجـمال وأسـلو، للحظـة، حقيقـة أنَّ كلَّ شيء في حيـاتي سـيتغيَّر ثانيـة.

تنتقـل أصابعـي مـن رقبتـي إلى صرَّتي. لم يعـد جسـدي ملكـي. لقـد تـمَّ سـكناه واحتلالـه. لم يكـن ذلـك مـا أريـده، لكـن لا خيـارات أمامـي، فالجنـين سـينمو في أحشـائي. لـن أجـري عمليَّـة إجهـاض. لا أسـتطيع المـضيَّ إلى عيـادة لأتجـرَّد مـن ملابسـي، وأبقـى عاريـة أمـام غريـب عنِّـي. فكـرة التَّخديـر والغيـاب عـن الوعـي بحضـور طبيـب يفعـل مـا يريـد بجسـدي بـدت اجـتراءً يتجـاوز اعتبـاراتي. سـألد الطِّفـل وبعدهـا سـأقرِّر مـا أفعـل بـه.

طفـل. أردِّد الكلمـة في نفـسي مـراراً وتكـراراً بانتظـار موجـة مـن دفء أو دفـق عاطفـة يجتاحنـي، لكنِّـي أشـعر بالخـواء. في خضـمِّ

عجزي أتشبَّث بقرار واحد ووحيد: لا يجب أن يعرف غرانت بالأمر بتاتاً. فالفرح في عينيه، والصُّورة المباشرة الَّتي سترتسم في مخيِّلته عن العائلة الَّتي سنكونها معاً، كانا أكبر من أن أتحمَّلهما. كنت أستطيع تخيُّل سيرورة الأحداث: أنا، جالسة إلى طاولة النُّزهات، أنتظر غرانت كي يجلس حتَّى ألوك مرارة البوح بالكلمات الَّتي ستغيِّر حياتنا. وسأنفجر باكية قبل أن أنهي كلامي، لكنَّه سيعرف. وسيرغب به. لمعة عينيه ستكون انعكاساً لتفانيه في سبيل طفلنا الَّذي لم يولد بعد، ودموعي ستكون برهاناً على عدم أهليَّتي لأكون أمَّاً. معرفتي أنَّني سأخذله (مع الجهل بكيفيَّة وزمان وقوع ذلك) سيبقيني معزولة عن فرحته، وممنوعة عن نذور حبِّه.

عليَّ أن أرحل، بسرعة وبصمت، قبل أن يكتشف سبب رحيلي. سيؤلمه الأمر لكن ليس بقدر ألمه وهو يتابع عاجزاً توضيبي لحقائبي وأخذي لطفله بعيداً عنه إلى الأبد. الحياة الَّتي يريدها معي غير ممكنة.

من الأفضل له ألَّا يكتشف الحدَّ الّذي وصل إليه تقاربنا.

(٢٠)

إنَّها الرَّابعة عصراً، ومازالت اليزابيث في السَّرير. أجلس إلى الطَّاولة ألحس زبدة الفستق من قطرميز بسبَّابتي. فكَّرت بتحضير طعام الغداء لها، حساء الدَّجاج أو الفلفل الحار، أيَّ طبق برائحة جاذبة. لكنِّي ما تعلَّمت إلَّا تحضير الحلويَّات حتَّى الآن: فطيرة العلِّيق، فطيرة الخوخ، والقشدة المخفوقة مع الشوكولا. لا يبدو ملائماً تناول الحلوى بلا غداء، لاسيَّما اليوم، حين لا يوجد ما نحتفل به على الإطلاق.

أبعد زبدة الفستق وأبدأ بالتَّنكيش في غرفة المؤونة ليدهمني صوت نقر على الباب. لم أكن بحاجة إلى النَّظر عبر النَّافذة لأعرف من الطَّارق. سبق لي وأن سمعت هذا الطَّرق ما يكفي من المرَّات في حياتي لأخمِّن صاحبها. إنَّها ميريديث. راحت تقرع بشكل أقوى. وفي لحظة تالية تحاول فتح الباب، فينفتح، فأختبئ في غرفة المؤونة. يسري صوت الباب الأمامي وهو يصفق في العتمة، فتخشخش حبَّات البقول والرُّزِّ في علبها المرصوصة على الرُّفوف.

يرتفع صوت ميريديث: «اليزابيث. فيكتوريا»، وتعبر غرفة المعيشة باتِّجاه المطبخ. يتعالى صوت خطاها حول الطَّاولة ليتوقَّف عند النَّافذة الَّتي تعلو المجلى. أمسك أنفاسي وأنا أتخيَّل عينيها

تجولان في الكرم المورق بحثاً عن أثر لحركة ما. كان كارلوس قد اصطحب بيرلا في رحلتهما السَّنويَّة للتَّخييم مرَّة أخرى. سمعتها في النِّهاية تعود وتصعد السُّلَّم. تنادي ثانية: «اليزابيث؟ هل أنت بخير؟».

أرتقي السُّلَّم خلسة، وأتوقَّف عند الدَّرجة العليا وأميل على الحائط مستترة.

تقول اليزابيث بهدوء: «كنت أرتاح. كنت بحاجة لقليل من الرَّاحة».

تتساءل ميريديث: «ترتاحين؟». شيء ما في صوت اليزابيث استفزَّ ميريديث، فتتحوَّل نبرتها من الاهتمام إلى الاتِّهام. «إنَّها الرَّابعة عصراً، وقد فوَّتِّ موعد المحكمة. تركتنا أنا والقاضي نجلس هناك نتبادل النَّظرات، ونتساءل أينك وأين فيكتوريا..». تقطع جملتها وتسأل: «أين فيكتوريا؟».

تردُّ اليزابيث بصوت واه: «كانت هنا منذ لحظة». وددت لو أصرخ «**بل لساعات**»، بقيت هناك لساعات مضت وغادرت جانب سريرها عند الظَّهيرة، عندما أيقنت أنَّنا لن نذهب إلى المحكمة. «هل نظرت في المطبخ؟».

عندما تحدَّثت ميريديث ثانية بدا صوتها أقرب إليَّ وهي تقول: «نظرت، وسأعيد المحاولة». أعتدل وأبدأ بنزول الدَّرجات

علـى رؤوس أصابعـي، لكـنَّ الأوان كان قـد فـات. تنـادي ميريـدث: «فيكتوريـا، عـودي إلى هنـا».

أسـتدير وألحـق بميريديـث إلى غرفتـي. كنـت قد بدَّلـت ملابسي في وقـت مبكِّـر وارتديـت سروالاً قصـيراً وقميصـاً قطنيَّـاً، فيـما كان الثَّوب متوضِّعـاً علـى طاولتـي. تجلـس ميريديـث وتبـدأ بتمريـر أصابعهـا علـى الزَّهـرات المخمليَّـة. أنتـزع الثَّـوب منهـا، وألفُّـه مثـل الكـرة وأرميـه تحـت السَّـريـر.

«مـا الَّـذي جـرى؟». تتسـاءل ميريديـث وفي صوتهـا نـبرة اتِّهـام كحالهـا مـع اليزابيـث. أهـزُّ كتفـيَّ.

«إيَّـاك أن يخطـر لـك أن تقفـي هنـاك وتكتفـي بالسُّـكوت. كلُّ شيء علـى خـير مـا يـرام، اليزابيـث تحبُّـك، وأنـت سـعيدة، وفجـأة تمتنعـان عـن المجـيء لإتمـام إجـراءات تبنِّيـك؟ مـا الَّـذي فعلتـه؟».

أصرخ قائلـة: «لم أفعـل أيَّ شيء». ولأوَّل مـرَّة في حيـاتي أكـون محقَّـة في إنـكاري، لكـن، مـا مـن سـبب يمكـن أن يدفـع ميريديـث لتصديقـي. «اليزابيـث متعبـة. قـد سـمعتها، فدعينـا وشـأننا». أنسـلُّ باتِّجـاه السَّـريـر، فأرفـع الأغطيـة وأسـتدير مواجهـة الحائـط.

تنـدُّ عـن ميريديـث تنهيـدة تململ، وتنهـض. تتحـدَّث قائلـة: «هنـاك شيء مـا غلـط. إمَّـا أنَّـك ارتكبـت فعـلاً شـائناً، أو أنَّ اليزابيـث ليسـت مؤهَّلـة عقليـاً لأن تكـون أمَّـاً. بـكلا الحالـين لم تعـد عنـدي ثقـة أنَّ هـذا المـكان ملائـم لـك بعـد الآن».

يتهادى صوت اليزابيث قائلة: «لست مخوَّلة في أن تقرِّري ما هو المناسب أو غير مناسب لفيكتوريا». أنتصب وأستدير كي أراها. بدت تستند بصعوبة إلى هيكل الباب كما لو أنَّها ستسقط دون الاتِّكاء عليه. كانت تلفُّ حول جسدها ثوب حمَّام زهري فاتح اللَّون، فيما تهدَّلت خصلات شعرها المشعَّثة على كتفيها.

تردُّ ميريدث وهي تتَّجه صوب اليزابيث: «بل أنا مخوَّلة تماماً كي أقرِّر». لم تك أطول ولا أقوى منها، لكنَّها طغت على اليزابيث المنهكة. أتساءل إن تسرَّب الخوف إلى قلب اليزابيث. «ما كنت لأكرِّر فعل هذا لو أنَّكما حضرتما إلى المحكمة عند الحادية عشرة صباحاً، وصدِّقيني كنت على أتمِّ الجاهزيَّة للتَّخلِّي عن متابعة هذه الطِّفلة. لكن يبدو أنَّ هذا لن يحصل. ما الَّذي فعلته؟».

تجيبها اليزابيث: «لم تفعل شيئاً».

لم أكن قادرة على رؤية وجه ميريديث، فلم أستطع أن أتبيَّن إن كانت تصدِّقها. «إذا لم ترتكب فيكتوريا أيَّ مخالفة فسيتوجَّب عليَّ أن أكتب بحقِّك تقريراً. سأوجِّه إليك تحذيراً خطِّيّاً لتفويتك موعد المحكمة، ولشبهة الإهمال. هل أكَلَت شيئاً اليوم؟». أرفع قميصي عن جسدي حيث تظهر بقع من زبدة الفستق الَّتي تناولتها كوجبة خفيفة، لكن، لم تلق أيٌّ من اليزابيث أو ميريديث بالاً إليَّ.

تردُّ اليزابيث: «لا أعرف».

تهزُّ ميريديث رأسها. «هذا ما ظننته». تتَّجه نحو باب غرفة النَّوم وتتخطَّى اليزابيث. «سننهي حديثنا في غرفة المعيشة. لا ضرورة لتدخُّل فيكتوريا في نقاشنا الَّذي سنجريه».

لم أتبعهما إلى الأسفل، ولم أرغب في الاستماع. أردت أن يعود كلَّ شيء كما كان في اليوم السَّابق، حينما ظننت أنَّ اليزابيث ستتبنَّاني. أتكوَّر عند طرف السَّرير وأبحث تحته حتَّى أجد ثوبي الملموم كالكرة. أحمله معي إلى السَّرير، وأضمُّه إلى صدري وأدفن وجهي في القطيفة. لاتزال رائحة الثَّوب كما كانت في المتجر، رائحة منظِّف الخشب والزُّجاج، فأستذكر الإحساس بذراعي اليزابيث وهما تمرَّان تحت إبطيَّ لتستقرَّا بإحكام فوق صدري، وأسترجع التَّعبير الَّذي علا وجهها حين التقت نظراتنا من خلال المرآة.

تصلني من الأسفل شذرات من نقاش، كانت تصدر في غالبها عن ميريديث وقد ارتفع صوتها. **ليس لها إلَّا أنت**، تصدر عنها في مرحلة ما. **هراء منك أن تقولي أنَّك تريدين المزيد لها**. هذا **اختلاق أعذار**. ألا تدري اليزابيث أنَّها كلُّ ما أريد؟ أنَّها كلُّ ما قد أرغب به؟ أتكوَّر تحت اللِّحاف لتخنقني حرارة الصَّيف القويَّة، فأشقُّ لنفسي سبيلاً.

منحت فرصة، فرصة أخيرة، وضيَّعتها بشكل ما دون قصد منِّي. انتظرت أن تصعد ميريديث السلَّم وتلقي على مسامعي بالكلمات الَّتي لم يخطر لي أبداً أن أسمعها: **تمَّ إخطار اليزابيث. لملمي أغراضك.**

(٢١)

صباح يوم الأحد تناولت رقائق بالصودا وانتظرت على أمل أنَّ يهدأ الغثيان، لكنَّه لم يفعل. بكلِّ الأحوال ركبت سيَّارتي وقدتها في شوارع المدينة، حيث قئت عند مصارف مياه المطر ثلاث مرات وفي أماكن مختلفة. لم يكن النموُّ السُّكَّاني العالمي تلك الظَّاهرة الَّتي تهمُّني وأنا أتكوَّم بعد توقُّفي عند شبكات التَّصريف، واحدة تلو الأخرى.

لم يكن غرانت في البيت، وكنت أعرف أنَّه لن يكون هناك. سيكون خلف شاحنته يسلِّم الزُّهور المقلَّمة إلى طوابير أهالي المنطقة. لم أغب سوى لثلاث ليالٍ، وهو ليس بالوقت الطَّويل أو الملفت بالنِّسبة لي أو لعلاقتنا. كنت أتخيَّله ينشط في عمله، وهو يفكِّر في العشاء الاستثنائي الَّذي يخطِّط لتحضيره. لن يخطر له أنَّني سأفوِّت وجبة يوم الأحد. سبق وحذَّرته، هكذا خطر لي وأنا أدخل بواسطة المفتاح الاحتياطي. ليس ذنبي إن هو نسي.

ألملم أشيائي وأنا أنصت إلى صوت محرِّك شاحنته. أخذت كلَّ ما هو لي، وكثيراً ممَّا ليس لي، بما في ذلك حقيبة غرانت السَّميكة الأسطوانية الشَّكل والكبيرة ذات اللَّون الأخضر العسكري، فهي

ستتماهى بشكل مناسب مع الأرض العشبيَّة. حشوتها بالثِّياب والكتب ومصباح يدوي وثلاث بطَّانيَّات، إضافة إلى كلِّ الطَّعام الَّذي وضعه في الخزانة. وقبل إغلاق الحقيبة دسست فيها سكِّيناً وفتَّاحة علب والنُّقود الَّتي يحتفظ بها في الثَّلَّاجة.

أحشر أغراضي في المقعد الخلفي لسيَّارتي، وأرجع لأجلب صندوق صوري الأزرق، وقاموس اليزابيث، والدَّليل الميداني. أربطهم بحزام الأمان في المقعد الأمامي من السيَّارة، ثمَّ أعود لأصعد السُّلَّم إلى الطَّابق الثَّاني. أسحب صندوق غرانت البرتقالي من على رفِّ المكتبة. أقلِّب الصُّور بعد أن أفتحه وأنا أوازن أمر أخذه من عدمه. تمَّ البتُّ في الأمر: كلُّ ما فيه يعود لي، لكن، فكرة تأمين نسخة إضافيَّة في مكان آمن هدَّأت من هواجسي، خاصَّة وأنَّ الشُّهور القليلة القادمة من حياتي لن تكون مستقرَّة. فإن حدث مكروه لصندوقي الأزرق يمكنني دائماً العودة إلى الصُّندوق البرتقالي.

أحطُّ الصُّندوق وسط الأرضيَّة، وأسحب قطعة صغيرة من الورق من حقيبة ظهري. كانت مطويَّة من المنتصف فانتصبت على غطاء الصُّندوق مثل علامة تدلُّ على مكان محجوز في غداء رسمي. في الوسط، ألصق صورة صغيرة لوردة بيضاء حصَّلتها من كومة القصاصات الموجودة في الغرفة الزَّرقاء، وقد قمت

بقصِّها بعناية حتَّى لم يتبقَّ منها إلَّا الزَّهرة. كتبت جملة واحدة بالحبر تحت الصُّورة، في المكان الّذي يحتلُّه الاسم في العادة:

الوردة هي وردة وتبقى وردة.

سيفهم غرانت المعنى، هذا إن لم يتقبَّل أنَّها النِّهاية.

الفصل الثالث

الطُّحلب

(١)

عائـدة إلى الغرفـة الزَّرقـاء لأضـع الجنـين بـين جدرانهـا الرَّطبـة. كنـت متأكِّدة مـن هـذا قـدر تأكُّـدي مـن بحـث غرانـت عنِّـي، دونـما توافـر دليـل أو نيّـة شـكٍّ. يجهـل غرانـت مـكان الغرفـة الزَّرقـاء، لكـنَّ مـا يعرفـه يكفيـه كـي يسـتدلَّ عليهـا، أنـا متأكِّـدة مـن هـذا. ولحـين استسـلامه، عليَّ أن أبقـى بعيـدة. قـد يسـتغرق الأمـر شـهوراً أو معظـم العـام، وكنـت مسـتعدَّة للانتظـار.

انتفـى تهيُّـي مـن وجـود المراهقـين المخموريـن وقـد عـدت إلى حديقتـي في ميـدان ماكينـلي. بـتُّ مسـلَّحة بسـكِّين، وبـماضٍ مـن خـبرة جنسـيَّة. لـن يجترحـوا شـيئاً لم يمرَّ علي، ثـمَّ إنَّنـي أشـكُّ أن يقـدم أحدهـم عـلى فعـل شيء بعـد أن ألقيـت نظـرة عـلى شـكلي في مـرآة في محطَّـة الوقـود. مـع انتفـاء تحسُّـسي تجـاه التَّغـيُّر الَّـذي يطـرأ عـلى جسـدي وتجـاه تـشرُّدي، لم أعـد أبـدِّل ملابـسي، أو أنشـد الاسـتحمام أو أسـتهدف الأحيـاء الرَّاقيـة، فراحـت آثـار الزَّمـن تنطبـع عـلى بشرتي.

أفتقـد ريناتـا، وأحـنُّ إلى عمـلي، لكـن، لا يمكننـي العـودة إلى المحـل. هـو أوَّل مـكان سيزوره غرانـت بحثـاً عنِّـي. بـدلاً مـن ذلـك، التجـأت إلى شـجيرات الخلنـج الَّتـي نمـت وتكاثـرت أعدادهـا في غيـابي. يمكـن لبـذور الخلنـج أن تبقـى في التُّربـة لشـهور أو سـنين،

وحتَّى لعقود، قبل أن تظهر إلى الوجود من جديد. صار النَّبات المنتشر يغطِّيني حين أتكوَّر على نفسي وحقيبة غرانت تحت أغصانه. تركت باقي حاجيَّاتي في سيَّارتي الَّتي بتُّ أنقلها كلَّ يوم إلى شارع جديد. لو وقع نظر غرانت على السَّيَّارة فسيتعرَّف عليها حتَّى مع نزعي للنُّمرة وإخفائي للصُّندوق الأزرق تحت حاجيَّاتي. لذلك أبقيتها بعيدة عن تلَّة بوتريرو، في مرتفعات بيرنال أو متنزَّه غلين. في بعض الأحيان أبعدها قدر هانترز بوينت. داومت على النَّوم في المتنزَّه لأسابيع قبل أن تهبط عليَّ فكرة أن أنام في السَّيارة مساء. لكنِّي لم أرغب بذلك. رائحة التُّربة الَّتي أشبعت إرواء باتت تضمِّخ أحلامي، كما هدَّأت من حمَّى الكوابيس الَّتي تجتاحني.

حدث في منتصف آب أن كنت جالسة فوق بيت الأراجيح حين لمحت غرانت. كان قادماً مباشرة من شارع فيرمونت، يصعد التلّة وعيناه تمسحان العلاليَّ الجديدة والأبنية القديمة ذات الطِّراز الفيكتوري. يتوقَّف ويتجاذب أطراف الحديث مع دهَّان يعمل فوق سقالة مائلة. يسقط دهان فيروزي اللَّون عن الفرشاة ويحطُّ على قماشة تنظيف بالقرب من حذاء غرانت، فينحني ويلمس الدِّهان الدَّبق، ثمَّ يتوجَّه بكلمات ما إلى الدَّهَّان، ليرفع الرَّجل كتفيه باستهجان. كان غرانت على بعد ثلاثة مجمَّعات أسفل التَّلَّة، فلم أستطع سماع كلماته، لكنِّي انتبهت إلى أنَّ نفسه لم يتقطَّع حتَّى بعد أن تسلَّق المنحدر.

أندفع لأختفي بين الشُّجيرات، فأغلق حقيبتي وأسحبها على

طول الطَّريق إلى المتجر الَّذي عند النَّاصية. مع بداية عودتي إلى ميدان ماكينلي، أخبرت صاحب المتجر أنَّني هاربة من أهلي الَّذين يسيئون معاملتي، وطلبت منه أن يخبِّئني إن أتى أخي باحثاً عنِّي. رفض صاحب المتجر الفكرة لكن، مع مرور الوقت، وشرائي لكلِّ وجباتي من مخزنه القريب الفارغ على الدَّوام، أيقنت أنَّه لن يردّني.

يرفع المالك ناظريه ما إن دخلت راكضة وحقيبتي الثَّقيلة معي، ليفتح لي الباب بسرعة. أندفع والجة الباب وأدور حول طاولة العرض وأطير صاعدة السُّلَّم. أتهاوى على ركبتيَّ وأزحف باتِّجاه النَّافذة الأماميَّة للشقَّة الصَّغيرة ذات الأثاث القليل. كانت رائحة الأرضية الخشبيَّة مثل زيت اللَّيمون، تنزلق عليها قصبتا ساقي، والجدران مدهونة باللَّون الأصفر الفاقع. لن يرنو غرانت بنظره مرَّتين إلى الأعلى.

أجثم أسفل النَّافذة المطلَّة على الخليج، فيما تحدج عيناي من فوق حافَّة الشُّبَّاك. كان غرانت قد صعد بالفعل الدَّرجات المؤدِّية إلى المتنزَّه وتجاوز الأراجيح الَّتي تهتزُّ مقاعدها الفارغة بفعل النَّسيم. يلتفت التفاتة كاملة فأتوارى. عندما رفعت رأسي مرَّة ثانية، رأيته يقف عند حافَّة العشب حيث يلتقي المرج الكثيف بالغابة البرِّيَّة المتنامية. يسند حذاءه إلى جذع شجرة حمراء الخشب قبل أن يخطو فوق طبقة الفرش الحرجي الطريَّة لينحني أمام زهرة الملِّيسة البيضاء. أحبس أنفاسي عندما يحدِّق غرانت بالجانب

المنحدر من التلِّ خشية أن يلاحظ شجيرة الخلنج المنحنية وارتسام طبعة جسدي وبطني المكوَّر تحتها.

لكنَّه لم يتوقَّف عند الخلنج، بل عاد إلى حيث زهرة الملِّيسة وأحنى رأسه. كانت المسافة بعيدة جداً حتَّى أميِّز التِّيجان المتجمِّعة حيث دسَّ أنفه، وبعيدة جداً حتَّى ألتقط كلماته الَّتي يهمس بها، لكنِّي أدركت أنَّه كان يبتهل.

كانت جبهتي مستندة إلى الزُّجاج، فشعرت بقوة رغبتي الَّتي تشدُّ جسدي إليه. أفتقد رائحته العذبة، المطعَّمة برائحة الأرض، كما أفتقد طبخه ولمسته. وأحنُّ إلى كفَّيه المربَّعين حين يوسِّدهما طرفَيْ وجهي وهو ينظر في عينيَّ، وإلى رائحة التُّربة في راحتيه حتَّى بعد غسلهما. لكن، لا يمكنني الذَّهاب إليه. سيعدني، وسأكرِّر كلماته لأنَّني أريد تصديق رؤيته لحياتنا معاً. لكن، مع الوقت، سنكتشف كلانا خواء كلماتي. سأفشل، تلك هي المحصِّلة الوحيدة المرجَّحة.

أغلق عينيَّ وأدفع جسدي بعيداً عن النَّافذة. يتهدَّل كتفاي، ليتَّكئ بطني على فخذيَّ المتباعدتين، فيما الشَّمس تدفئ ظهري. لو كنت أعلم كيفيَّة الدُّعاء لانضممت إلى غرانت. لكنت دعوت لأجله، لخيره، لوفائه، ولحبِّه البعيد. لكنت دعوت له أن يقلع عنه، أن يستغني عنه، وأن يبدأ من جديد. لكنت حتَّى دعوت طالبة المغفرة.

لكن، ما كنت أعرف كيفيَّة الدُّعاء.

بـدلاً مـن ذلـك بقيـت كـما أنـا، مطويَّـة عـلى بـلاط غرفـة المعيشـة في منـزل رجـل غريـب، بانتظـار اسـتيئاس غرانـت، بانتظـار أن ينسـاني، وأن يعـود إلى بيتـه.

(٢)

«ستَّة شهور»، كذا تردِّد اليزابيث.

أتابع ميريديث وهي تبتعد بسيَّارتها. فبعد زياراتها الأسبوعيَّة على مدار شهرين قرَّرت في النِّهاية تحديد موعد جديد للمحكمة: بعد ستَّة شهور.

تضيف اليزابيث شريحة إضافيَّة من اللَّحم إلى شطيرة وتحطُّها أمامي. أتناولها وأقضم لقمة منها وأومئ برأسي. لم يوجَّه لها أيُّ إخطار، كما توقَّعت. لكنَّها باتت مختلفة عمَّا كانت عليه قبل إجراء التبنِّي الفاشل، وقد بانت عليها علامات العصبيَّة والنَّدم.

تتحدَّث قائلة: «سيمرُّ الوقت سريعاً، مع القطاف والعطلات وما شابه».

أومئ ثانية وأزدرد اللُّقمة بصعوبة، وأنا أمسح عينيَّ منكرة البكاء. منذ أن فوَّتنا موعد حضور المحكمة وأنا أدوِّر في رأسي بلا توقُّف مشاهد أحداث وقعت في العام المنصرم، بحثاً عن شاهد يدلُّ على الوزر الَّذي ارتكبته. تطول القائمة: قطع ورقة الصبَّار، ضرب سائق الحافلة على رأسه، والتَّصريح بالكراهية أكثر من مرَّة. لكنَّ اليزابيث بدت وقد سامحتني على سوراتي العنيفة، بل

بـدت متفهِّمـة لهـا. أنتهـي إلى خلاصـة مفادهـا أنَّ تردُّدهـا المفاجـئ سـببه تعلُّقـي الزَّائـد، وإلَّا، فهـي دموعـي. أتحسَّـس عينـاي جيِّـداً مـرة أخـرى، أطبقهـا وأنحنـي حتـى تسـتند جبهتـي إلى الطَّاولـة.

تتحـدَّث اليزابيـث بهـدوء: «أنـا آسـفة حقَّـاً». ردَّدتهـا لمئـات المرَّات عـلى مـرِّ الأسـابيع الماضيـة، وأنـا أصدِّقهـا، فالأسـف بـاد عليهـا. لكـن مـا لم أصدِّقـه هـو أنَّهـا مازالـت تريـد أن تصبـح أمِّـي عـلى الرَّغـم مـن كلِّ شيء. كنـت أعـرف أنَّ الشَّـفقة ليسـت صنـواً للحـب. فمـمَّا تناهـى إلى مسـامعي مـن نقاشـهما في غرفـة المعيشـة، وضَّحـت ميريديـث لاليزابيـث الخيـارات المتاحـة أمامـي، إمَّـا هـي أو لا أحـد. فجزمـت أنَّـه مـن بـاب الاعـتراف بالفضـل لهـا لم يرسـل الإخطـار إلى اليزابيـث. أنهـي شـطيرتي وأمسـح كفَّـيَّ ببنطـالي لأنظِّفهـما.

تبـادرني اليزابيـث: «إن انتهيـت فانتظرينـي عنـد الجـرَّار. سـأنظِّف المـكان وألاقيـك هنـاك».

في الخـارج، أسـتند إلى الإطـار الكبـير وأنـا أعايـن شـجيرات الكـرم. يبـدو أنَّهـا سـتكون سـنة خـير. اليزابيـث وأنـا قلَّمنـا وأضفنـا السَّـماد بالمقاديـر الصَّحيحـة، فالعناقيـد المتبقِّيـة بـدت ممتلئـة، وأخـذ طعمهـا يميـل إلى الحـلاوة. أمضيـت كلَّ الخريـف أعمـل إلى جانـب اليزابيـث في الكـرم، وأكتـب مقـالات مـن ثـلاث فقـرات عـن الفصـول، والتُّربـة، ونمـو العنـب، وأحفـظ الأدلَّـة الميدانيَّـة وعائـلات النَّباتـات. وفي أوقـات المسـاء أرافـق اليزابيـث في جولاتهـا التَّذوُّقيَّـة، كـما فعلـت في الخريـف المنـصرم.

أنظر في ساعتي. أمامنا ليلة طويلة من التَّذوُّق وكلِّي لهفة كي ننطلق. لكنَّ اليزابيث لم تظهر، لا بعد خمس دقائق ولا بعد عشرة دقائق. أقرِّر العودة إلى الدَّاخل. سأتناول بعض الحليب وأتابع اليزابيث وهي تنظِّف المطبخ.

لدى وصولي إلى الشُّرفة الأماميَّة يتناهى إلى مسامعي صوتها، يحمل مزيجاً من غضب ورجاء. كانت تتحدَّث عبر الهاتف، فأدركت في الحال لم أبقتني اليزابيث أنتظر عند الجرَّار، كما أدركت فجأة أنَّ فشل التَّبنِّي لم يكن ذنبي بل ذنب كاثرين. لو أنَّها ظهرت، لو أنَّها ردَّت بكلمات أو بزهور، لو أنَّها لم تترك اليزابيث وحيدة تماماً لاختلف كلّ شيء. لكانت اليزابيث غادرت سريرها وأحكمت ربط شرائط ثوبي ولمضينا إلى المحكمة، مع غرانت وكاثرين بالمعيَّة. أندفع إلى المطبخ والغضب قد أخذ منِّي كلَّ مأخذ.

أصرخ قائلة: «أنا أكره هذه المرأة اللَّعينة».

ترفع اليزابيث ناظريها وتحرِّك يدها لتغطِّي جزء التحدُّث من السَّمَّاعة. أنقضُّ وأنتزع السَّماعة من يدها، وأصرخ قائلة: «أيَّتها اللَّعينة لقد أفسدت عليَّ حياتي»، ثمَّ أصفق السَّماعة على القاعدة. تنقطع المكالمة لكنَّ السَّمَّاعة تنفلت عن الحامل وترتطم بالأرضيَّة الخشبيَّة لتتدلَّى على ارتفاع إنش من الأرض. تطأطئ اليزابيث رأسها وتضعه بين يديها وتنحني على الطاولة. لم تبد متفاجئة ولا مستاءة من سورتي اللَّامتوقَّعة. انتظرت كي تتحدَّث، لكنَّها بقيت هادئة لمدَّة طويلة.

تنطق اليزابيث أخيراً: «أعلم أنَّك غاضبة يا فيكتوريا، ولك كلُّ الحقِّ في أن تغضبي. لكن، لا تلق باللّائمة على كاثرين. أنا من أفسد الأمر، فلوميني أنا. أنا أمُّك، ألا تعلمين أنَّ الأمَّهات وجدن لهذا السَّبب؟». ترتسم على وجهها ابتسامة باهتة ومنهكة، وترنو ببصرها نحو عينيَّ.

أكوِّر قبضتيَّ وأتراجع، راجية ألَّا أنقضَّ عليها. حتَّى وأنا في قمَّة غضبي أدرك هذا أكثر من أيِّ شيء آخر، أدرك أنَّني أريد أن أبقى مع اليزابيث.

عندما أهدأ بما يكفي لكي أتكلَّم أردُّ: «لا، لست أمِّي. كنت على وشك أن تكونيها لو لم تخرِّب كاثرين حياتي».

أنطلق قافزة السُّلَّم لأفاجأ بوميض يتحرك عند النَّافذة الأماميَّة. كانت هناك شاحنة تقطع الدَّرب، وبصرت بشقِّ غرانت وهو منحن على عجلة القيادة. يرتفع صرير المكابح ويتطاير الحصى لدى ركنه للشَّاحنة أمام المنزل.

أعدو إلى الطَّابق العلويِّ في نفس الوقت الَّذي يجتاز فيه غرانت الشُّرفة الأماميَّة. في الأعلى أميل مستندة إلى الجدار، متوارية عن الأنظار. لم يقرع غرانت الباب كما لم ينتظر قدوم اليزابيث إلى المدخل.

يتكلَّم بأنفاس متقطِّعة: «عليك أن تتوقَّفي».

تعبر اليزابيث الغرفة. أتخيَّلها تقف قبالته لا يفصل بينهما إلَّا المنخل.

تردُّ عليه: «لن أفعل. في نهاية الأمر عليها أن تقبل بمسامحتي. عليها أن تفعل».

«لن تفعل. أنت لا تدرين كيف صارت أبداً».

«ماذا؟ ماذا تعني؟».

«هكذا وحسب. أنت لا تعرفينها».

«لا أستطيع فهمك». تهمس اليزابيث وبالكاد يسمع صوتها بوجود صوت نقر حثيث. بدا وكأنَّه يصدر عن قدم غرانت على الشُّرفة، أو عن مفاصل أصابعه فوق المنخل. كان الصَّوت ينمُّ عن توتُّر وضيق صدر.

«أتيت لأطلب منك التَّوقف عن الاتِّصال، من فضلك».

يحتلُّ الصَّمت الفراغ بينهما.

«لا يحقُّ لك أن تطلب منِّي نسيانها، فهي أختي».

يردُّ غرانت: «ربَّما».

يعلو صوت اليزابيث فجأة: «ربَّما؟». أستطيع تصوُّر وجهها وقد علته حمرة السُّخونة. هل كانت اليزابيث تلاحق المرأة الغلط؟ وهل كان غرانت ابن أختها أساساً؟.

«كلُّ مـا عنيـت قولـه هـو أنَّهـا لم تعـد الشَّـقيقة الَّتـي تعرفينهـا. رجـاء صدِّقينـي».

تـردُّ اليزابيـث: «البـشر تتغـيَّر. لكـنَّ الحـبَّ لا يتغـيَّر. والعائلـة كذلـك».

يهبط الصَّمـت ثانيـة. وددت لـو أستطيع رؤيـة وجهيهما، لأحكم إن كانـا يحمـلان معـالم الغضـب، أو اللَّامبـالاة، أو أنَّهـما عـلى وشـك البـكاء.

ينطـق غرانـت أخـيراً ويقـول: «بـلى. الحـبُّ يتغـيَّر». أسـمع وقـع أقـدام فأعـرف أنَّـه يغـادر. عندمـا وصلنـي صوتـه ثانيـة، كان بعيـداً جـدَّاً. «إنَّهـا تـداوم عـلى مـلء الجـرار الزُّجاجيـة بسـائل القدَّاحـات، وتصفُّهـا عـلى حافَّـة النَّافـذة. هـي تقـول إنَّهـا سـوف تحـرق كرمـك بهـا».

«لا». لم يظهـر عـلى اليزابيـث أثـر صدمـة أو خـوف، بـل عـدم التَّصديـق. «لـن تفعـل ذلـك. لا يهمُّنـي كـم تغـيَّرت خـلال خمـس عـشرة سـنة. لـن تفعـل ذلـك. هـي تحـبُّ هـذه الكـروم قـدر حبِّـي لهـا. ولطالمـا أحبَّتهـا».

يصفـق بـاب شـاحنته، ويقـول: «ارتأيـت أنَّـك يجـب أن تعـرفي». ينطلـق المحـرِّك مصـدراً عنعنـة خفيضـة ليتباطـأ هنـاك، عـلى الـدَّرب. أتخيَّـل نظـرات اليزابيـث وغرانـت تلتقـي، وواحدهمـا ينقِّـب عـن الحقيقـة في عينـي الآخـر.

تصيح بـه اليزابيـث في النِّهايـة قائلـة: «غرانـت، لا تذهـب. هنـاك بـواق مـن العشـاء، وأنـت في بيتـك هنـا».

تـدور العجـلات فـوق الحـصى. ويـردُّ: «لا، مـا كان ينبغـي عـليَّ أن آتي، ولـن آتي مـرَّة أخـرى. كـما لا يجـب أن تعلـم هـي بالأمـر».

(٣)

انتظرت شهراً ثانياً وثالثاً تحسُّباً، وأنا أمرِّر الإيجار لناتاليا عند استحقاقه من تحت الباب. مع نهاية تشرين الأول خفَّ الشُّعور بالغثيان. بات يعاودني عندما لا آكل جيداً، وهو ما كان نادر الحدوث. معي وفرة في المال للإنفاق على الطَّعام، فنقود غرانت مع ما وفَّرت كانت كافية لتأمين ما أشتهي طوال فترة حملي، لكنِّي كنت أدرك أنَّه ليس عليَّ الانتظار كلَّ هذه المدَّة.

مع تساقط أوراق الشَّجر بتُّ متأكِّدة من استسلام غرانت. رحت أتخيَّل أنَّني أنظر من نوافذ برج الماء وأتابعه وهو يرتِّب دواوين شعراء الرومانسيَّة في صناديق، ويغطِّي الصُّندوق البرتقالي بقماشة شافَّة، هي الخطوات الَّتي يقوم بها الرَّجل حين يريد نسيان ماضيه. أحدِّث نفسي أنَّه سريعاً ما سينسى. ستظهر الكثير من النِّساء في سوق الزُّهور، نساء أكثر جمالاً وظرافة وإثارة ممَّا يمكن أن أكونه في أيِّ وقت. وإن لم يجد امرأة بعد حتى الآن، فأكيدة أنَّه سوف يجد واحدة. لكن، حتَّى وأنا أحاول إقناع نفسي، تعبر صورة غرانت أفق خيالي وهو يخفِّض قلنسوة سترته فوق جبهته. لم يحدث ولو لمرَّة أن رأيته يرفع نظره ليتابع امرأة تعبر من أمام محلِّه.

عـدت إلى الغرفـة الزَّرقـاء في ذات اليـوم الَّـذي شـهد إحسـاسي برفـس الجنـين للمـرَّة الأولى. أجهـد في حمـل الحقيبـة السَّـميكة إلى الجانـب الآخـر مـن المدينـة وصـولاً إلى سيَّارتي لأقودهـا باتِّجاه الشَّـقَّة. أفتـح لنفسـي البـاب الأمامـي وأنقـل كلَّ شيء عـبر السُّـلَّم عـلى ثـلاث دفعـات. بـاب ناتاليـا مفتـوح، فأنتصـب عنـد سريرهـا أرقبهـا في نومها. قـد صبغـت شـعرها حديثـاً مجـدَّداً، فلـون الصَّـبغـة الزَّهـري تـرك آثـاره عـلى شـكل خطـوط فـوق كيـس المخـدَّة الأبيـض. تفـوح منهـا رائحـة كرائحـة النَّبيـذ والثُّـوم، ولم تـك تتحـرَّك. أهزُّهـا كـي تسـتيقظ.

وأسألها: «هل أتى؟».

تغطِّي ناتاليا عينيها بمرفقها وتتنهَّد.

«بلى، منذ أسابيع قليلة مضت».

«وبماذا أخبرته؟».

«أنَّك رحلت وحسب».

مكتبة
t.me/t_pdf

«رحلت».

«نعم. فأين قد تذهبين؟».

أتجاهل سؤالها. «هل أخبرته أنَّني ما زلت أدفع الإيجار؟».

تنهـض وتهـزُّ رأسـها بالنَّفـي. «لم أك واثقـة تمامـاً أنَّ المـال منـك». تمـدُّ يدهـا وتضعهـا عـلى بطنـي. في غضـون الأسـابيع القليلـة الماضيـة

تحوَّل بي الحال من السُّمنة إلى الحمل الَّذي لا يمكن إنكاره. تعلمني: «ريناتا أخبرتني».

يرفس الجنين ثانية، أصابعه وقدماه يضغطون على أجهزتي الدَّاخلية ويفركون كبدي وقلبي وطحالي. أسدُّ فمي وأهرع إلى المطبخ لأتقيَّأ في المجلى. أهوي على الأرض وأنا أشعر بغثيان يدهمني وينقضي حسب حركة الجنين. ظننت أنَّني تجاوزت دوار فترة الحمل المبكِّرة، كما ظننت أنَّني تخطَّيت دافع الإقياء كلَّما لمسني أحد. يبدو أنَّ واحداً من هذين الافتراضين يجافي الدِّقَّة.

ريناتا قد أخبرت ناتاليا. وفي حال أنَّها أخبرت ناتاليا فما من سبب يدفعني لعدم الظَّنِّ أنَّها قد أخبرت غرانت. أجرجرُ نفسي مستندة إلى خزانة المطبخ لأقيء في المجلى ثانية.

تظهر لافتة جديدة على واجهة المحل. أوقات عمل أقل، والعطلة يوم الأحد. حين وصلت مع بدء فترة ما بعد الظُّهر، بدت واجهة المحلِّ مظلمة ومغلقة، مع أنَّ اللَّافتة تشير إلى أنَّه يجب أن يكون مفتوحاً. أقرع الباب، وعندما لم تظهر ريناتا أقرعه ثانية. كان المفتاح في جيبي لكنِّي لم أستخدمه. أفترش قارعة الطَّريق وأنتظر.

تعود ريناتا بعد خمس عشرة دقيقة وفي يدها لفافة فضِّيَّة تغلِّف شطيرة البوريتو. أتابع انعكاس الضَّوء عن الألمنيوم على جدران الأبنية الَّتي تمرُّ بها. أقف لكنِّي لم أنظر إليها حتَّى حين

صارت قبالتي مباشرة. كانت عيناي تتفحَّصان قدميَّ اللَّتين لازالتا تظهران من تحت استدارة بطني.

أبادرها بالسُّؤال: «هل أخبرته؟».

«ألا يعلم؟». أتراجع بسبب الصَّدمة ونبرة الاتِّهام الَّتي تلوِّن صوتها. أنزل عن الرَّصيف إلى الشَّارع، فتوقفني ريناتا بوضع يدها فوق كتفي. حين رفعت ناظري بدت عيناها تحمل من الودِّ ما لم تحمله كلماتها.

تومئ إلى بطني: «متى سيحين موعد ولادتك؟».

أرفع كتفيَّ. لم أكن أعلم ولم يكن مهمّاً. سيأتي الطِّفل حين يحين أوانه. لن أعود طبيباً ولن ألد في مشفى. بدا أنَّ ريناتا تتفهَّم كلَّ هذا دون أن أبوح لها به.

«ستساعدكِ أمِّي. ولن تطلب منك فلساً. هي تعتبر هذا العمل رسالة خلقت لأجلها على هذه الأرض». بمقدوري أن أنصت إلى كلمات ريناتا تصدر عن فم الأمِّ روبي، بلكنتها الثَّقيلة ويداها على بطني. أهزُّ رأسي.

«فما الَّذي تريدينه منِّي إذن؟». تسألني ريناتا وهي تشدِّد على الكلمات الَّتي تحوَّلت إلى سبيل لتحرير قنوطها.

أجيبها: «أريد أن أعمل. وأريد منك ألَّا تخبري غرانت أنَّي قد عدت وأنَّني سأرزق بطفل».

تتنهَّد وتقول: «من حقِّه أن يعرف».

أومـئ بـرأسي بالموافقـة. «أعلـم أنَّ ذلـك مـن حقِّـه». يسـتحقُّ غرانـت الكثير مـن الأشـياء وكلُّهـا خـير منِّـي. «لـن تخبريـه؟».

تهـزُّ ريناتـا رأسـها بالنَّفـي. «لـن أفعـل. لكنِّـي لـن أكـذب مـن أجلك. لا يمكـن أن تعمـلي عنـدي، ليس وغرانـت يسـألني كلَّ أحـد إن كنـت عـدت إلى عملـك. لم أكُ في حيـاتي ناجحـة في الكـذب، ولا أريـد أن أتعلَّـم الآن».

أقعـي عـلى الرَّصيـف، فتجلـس ريناتـا إلى جـواري. أتحسَّـس ضربـات قلبـي مـن تحـت سـوار السَّـاعة فـلا أشـعر بالنَّبـض. لا يمكننـي الحصـول عـلى عمـل آخـر، حتَّـى قبـل وقـوع الحمـل كان الاحتـال ضعيفـاً، وسـيكون مسـتحيلاً في وضعـي الحـالي الَّـذي يزداد بـروزاً. سـتنفد النُّقـود الَّتـي وفَّرتهـا في نهايـة المطـاف، ولـن أسـتطيع تغذيـة نفسـي أو شراء أيَّ شيء، وهـو مـا يجعـل الأطفـال مكلفـين حـد الابتـذال.

«فـماذا سـأعمل إذن؟». يتحـوَّل يـأسي إلى غضـب وهـو يـذر كيـاني، لكـنَّ ريناتـا لم تتأثـر.

تردُّ قائلة: «اسألي غرانت».

أنهض كي أغادر.

تخاطبنـي ريناتـا: «انتظري لحظـة». تديـر قفـل بـاب المحـل وتفتـح

صندوق الدَّفع. ترفع درج النَّقد وتلتقط ظرفاً مغلقاً أحمر اللَّون، وقد كتب اسمي بعناية على وجهه، مع رزمة أوراق نقديَّة من فئة العشرين دولاراً. تعود إلى الخارج وتمدُّ يدها إليَّ بالظَّرف، وهي تخاطبني: «آخر دفعة لك». لم أعدَّ المبلغ الَّذي سلمتني إيَّاه. لكن كان باستطاعتي أن أخمِّن أنه أكثر بكثير مما أستحق. حين دسسته في حقيبة ظهري، تعطيني الظَّرف ومعه شطيرتها الَّتي لم تفتح، وتقول: «بروتين. هذا ما تردِّده أمِّي على الدَّوام. إنَّه يعزِّز بنية دماغ الجنين. أو ربَّما قصدت العظام. لا يمكنني التَّذكُّر».

أشكرها وأستدير كي أهبط التلَّ.

تنادي عليَّ قائلة: «إن احتجت إلى أيِّ شيء، تعرفين أين تجدينني».

أمضي بقيَّة النَّهار في الغرفة الزَّرقاء أقاوم نوبات الغثيان الَّتي تغشاني كلَّما تحرَّك الجنين في داخلي. استلقى الظَّرف الأحمر على الأرضيَّة الفرائيَّة البيضاء، فبدا كبقعة دم وأنا أجلس إلى جانبه واضعة ساقاً فوق ساق. لم أقرِّر إن كنت سأفتحه أم أدسُّه تحت البساط وأنسى أمره.

في النِّهاية اتَّخذت قراري بضرورة معرفة فحواه. سيكون صعباً قراءة كلمات غرانت، إنَّما الأصعب هو الخضوع لتجربة الحمل دون معرفة إن كان قد خمَّن سبب مفارقتي المفاجئة له.

لكن، حين فضضت الظَّرف لم أجد ما توقَّعت. كان دعوة

لحضـور زفـاف بيثـاني وراي، في أوَّل عطلـة مـن شـهر كانـون الأول، عنـد شـاطئ المحيـط. موعـد الزَّفـاف بعـد أقـلِّ مـن أسـبوعين، وأنـا مدعـوَّة كضيفـة حسـبما كتبـت بيثـاني عـلى ظهـر الدَّعـوة، فهـل أنـا مـن سينسِّـق الزُّهـور أيضـاً؟. كتبـت تقـول إنَّ جـلَّ مـا تنشـده هـو الدَّيمومـة، وبعدهـا يـأتي الشّـغف. **نقيـض زهـرة الكـرز**، هكـذا خطـر لي وقـد ازوررت مـن ذكـرى فـترة مـا بعـد الظَّهـيرة تلـك في مرسـم كاثريـن مـع كلِّ مـا حملتـه تلـك اللَّحظـة. يقـرُّ رأيـي عـلى أن أقـترح زهـرة العسـلة، رمـز **الإخـلاص**. القـوَّة الحقيقيَّـة الَّتـي تلمِّـح إليهـا الكرمـة هـي الدَّيمومـة، وهـي مـا لم أخبرهـا أبـداً لكنِّـي أملـت أن تختبرهـا بيثـاني.

كتبـت بيثـاني رقـم هاتفهـا وطلبـت منِّـي الاتِّصـال أواخـر شـهر آب. لقـد مـرَّ عـلى الموعـد وقـت طويـل، ولا بـدَّ أنَّهـا وجـدت منسِّـق زهـور آخـر، لكـن عـليَّ أن أجـرِّب. كان هـذا مصـدر الـرِّزق الوحيـد المتـاح للحصـول عـلى دخـل في مـا سـيبدو شـتاء طويـلاً بـلا عمـل.

ترتفـع السَّـمّاعة بعـد الرَّنَّـة الثَّانيـة، وتشـهق بيثـاني لـدى سـماعها لصـوتي قائلـة: «فيكتوريـا. كنـت قـد استسـلمت. ارتبطـت بمنسِّـقة أخـرى، لكـنَّ يبـدو أنَّ تلـك المـرأة عـلى وشـك أن تفقـد مهمَّتهـا، مـع عربـون المقـدَّم أو بدونـه».

تخـبرني أنَّهـا سـوف تلتقـي بـراي غـداً فأرشـدها إلى كيفيَّـة الوصـول إلى منزلي.

قبل أن تغلق تقول: «أرجو أن تبقي لحضور الزَّفاف. أتعلمين، أعزو بدء كلِّ شيء إلى باقتك».

فأجيبها: «سأبقى».

سوف أجلب معي ما يشابه بطاقات العمل.

***

أستأذن ناتاليا في مقابلة بيثاني وراي في الأسفل، فتوافق. في صباح اليوم التَّالي أبتاع طاولة قابلة للطَّيِّ وثلاثة كراسٍ مثلها من سوق للسِّلع المستعملة يقع في منطقة جنوب سان فرانسيسكو. وسعتهم السيَّارة من الدَّاخل بعد أن ربطت الباب الخلفي بحبل. إلى جانب الأثاث اشتريت مزهريَّة كريستالية مضلَّعة بلون الورد بها قطع مخفي لقاء دولار واحد، ومفرش طاولة مخرَّماً ببطانة بلاستيكية زهريَّة اللَّون بثلاثة دولارات. ألفُّ المزهريَّة بغطاء الطَّاولة وأنطلق على الطَّريق الجانبيَّة باتِّجاه البيت.

قبل وصول بيثاني وراي أفرد الطَّاولة في المكتب الخالي، وأغطِّيها بالمفرش، ثمَّ أضع المزهريَّة في منتصفها وقد ملأتها بالأزهار من حديقتي في ميدان ماكينلي. إلى جانب المزهريَّة أضع صندوق صوري الأزرق. أتحقَّق من ترتيبي، وأعيد التَّحقُّق وأنا أنتظر انفتاح الباب.

يفتح الباب أخيراً لتنتصب بيثاني في الممرِّ الخالي وهي تبدو

أكثر جمالاً ممَّا أذكر، وراي أكثر وسامة ممَّا تخيَّلت. سيكونان زوجين رائعين، وهما محاطان بصفوف طويلة من زهور العسلة تمتدُّ على طول المساحة الرَّملية البيضاء.

تفتح بيثاني يديها لتعانقني فأنوِّلها مرادها وبطني يبرز بيننا مثل الكرة. تنظر إلى الأسفل وتشهق ثمَّ تضع يديها على بطني. أتساءل كم مرَّة عليَّ أن أتحمَّل هذا الفعل خلال الأشهر القادمة من معارف وغرباء في الطَّريق. يبدو أنَّ الحمل ينحِّي الأعراف الاجتماعيَّة المتعارف عليها بشأن الخصوصيَّة الشَّخصيَّة. كرهت هذا التَّصرُّف قدر كرهي لشعوري بوجود كائن حيٍّ آخر ينمو في أحشائي.

تهنئني بيثاني قائلة: «مبارك»، وتعانقني ثانية. «متى ستلدين؟».

للمرَّة الثَّانية في يومين يطرح نفس السُّؤال، وأعلم أنَّ وتيرة الاستفسار ستزداد طرداً مع ازدياد حجمي. أعدُّ الشُّهور في عقلي، وأردُّ: «في شباط أو آذار، لم يحدِّد الأطبَّاء بعد».

تعرِّفني بيثاني براي فنتصافح. أتحرَّك باتِّجاه الطَّاولة والكراسي وأدعوهما إلى الجلوس. أحتل مقعدي قبالتهما وأنا أعتذر بشأن اتِّصالي المتأخِّر جداً بهما.

تجاوب بيثاني وهي تضغط على ذراع راي الممتلئة: «نحن سعيدان أنَّك اتَّصلت. أخبرت راي بكلِّ شيء عنك».

أدفع الصُّندوق الأزرق باتِّجاه الثُّنائي، فيلمع بتأثير ضوء نيونات المكتب. «يمكنني تجهيز ما يحلو لكما لحفلة زفافكما. كلُّ شيء متوافر تقريباً في سوق الزُّهور، حتَّى تلك الَّتي ليس هذا أوانها». ترفع بيثاني الغطاء فأزورُّ وكأنَّها تتحسَّس جسدي مرَّة ثانية.

يتناول راي أوَّل بطاقة. في السَّنوات اللَّاحقة أشهد كثيراً من الرِّجال وهم يتململون من قاموس صوري، والأضواء البيضاء تلقي بظلِّها الواهي على وجوههم المتشنِّجة. لكنَّ راي لم يكن مثلهم. كان حجمه خدَّاعاً، وقد راح يتناول العواطف كما فعلت صاحبات أنَّاماري، بثرثرة حماسية وحيرة. علقا عند الصُّورة الأولى، صورة زهرة الأكاسيا، مثلما حدث معنا أنا وغرانت، إنَّما لأسباب مختلفة.

يعلِّق عليها قائلاً: «حبٌّ سرِّي. أعجبني».

فتتساءل بيثاني بتهكُّم وازدراء وكأنَّه يلمِّح إلى إبقاء حبِّهم مخفيَّاً عن العالم: «سرِّي؟ ولم السِّرِّيَّة؟».

«لأنَّ ما نقوم به تحوطه السِّرِّيَّة. حين يتطرَّق أصحابي في أحاديثهم إلى صاحباتهم أو زوجاتهم، وهم يشتكون أو يتباهون، ألتزم الصَّمت وحسب. ما بيننا مختلف، وأريده أن يبقى هكذا، في الحفظ والصَّون: سرِّي».

تهمهم بيثاني ثمَّ تقول: «حسن». تقلب البطاقة وترى صورة

زهـرة الأكاسـيا، زهـرة ذهبيَّـة اللَّـون كرويَّـة الشَّـكل ريشـيَّة القـوام، تتـدلَّى مـن سـاق رقيقـة. كان هنـاك أكثر مـن شـجرة أكاسـيا في ميـدان ماكينـلي. ورجـوت لـو كانـوا في محـل ريناتـا، «نـوار». تسـألني: «مـا الَّـذي يمكـن أن تفعليـه بهـذه؟».

«يعتمـد الأمـر عـلى الصِّنـف الآخـر الَّـذي تريدينـه. فالأكاسـيا لا تعتـبر زهـرة أساسـيَّة. قـد ألفُّهـا حـول طـرف الباقـة الصَّغـيرة بشـكل يخفـي جزئيـاً كفَّيـك».

«أعجبتنـي الفكـرة»، تـردُّ بيثـاني وتسـتدير باتِّجـاه راي. «مـاذا أيضـاً؟».

في نهايـة المطـاف، أجمعـا عـلى زهـور الفوشـيا مـع اللَّيلـك الزَّهـري الفاتـح والأضاليـا الصَّفـراء الباهتـة والعسـلة والأكاسـيا الذَّهبيَّـة. صار عليهـم أن يعيـدوا أثـواب وصيفـات العـروس، فلـون الحريـر الخمـري سـيتضارب مـع ألـوان الزُّهـور. مـا طمـأن بيثـاني هـو أنَّهـا أتـت بهـا مـن متجـر متعـدِّد الأقسـام، ولم تطلبهـا بشـكل خـاص. الأزهـار هـي الأهـم، تقـول بثقـة ويوافقهـا راي الـرَّأي.

مـا إن ينهضـا كـي يمضيـا حتَّـى أخبرهمـا أنَّنـي سأسـلِّم الزُّهـور ظهـراً وأعـود عنـد الثَّانيـة لحضـور الزَّفـاف. ثـمَّ أخبرهـا مطمئنـة: «يمكننـا تعديـل باقتـك في أيَّـة لحظـة إن احتاجـت لأيِّ شيء».

تضمُّنـي بيثـاني ثانيـة وتقـول: «سـيكون ذلـك رائعـاً. أخشـى مـا أخشـاه هـو أن تتبعثـر فجـأة عندمـا تنطلـق الموسـيقى فيفسـد زفـافي وفـألي الحسـن كلاهمـا».

أطمئنها قائلة: «لا تقلقي. فالزُّهور لا تزلُّ من تلقاء نفسها». أنقِّل نظري من بيثاني إلى راي وأنا أقول هذا. تبتسم. كنت أعني راي وليس الزُّهور وقد استوعبت القصد.

تردُّ: «أعلم».

أسألها: «هل تمانعين إن أحضرت بطاقات تعريف؟. لقد انطلقت بعملي هنا لتوِّي». أومئ إلى الجدران البيضاء.

تجيب: «بالطَّبع، أحضري البطاقات. واجلبي معك ضيفاً فقد نسينا أن نعلمك بهذا». تومئ بيثاني إلى بطني وتغمزني. يرفس الجنين، ويعاودني الغثيان.

أردُّ: «سوف أحضر البطاقات، لا الضَّيف. أشكرك».

بدت بيثاني محرجة فيسحبها راي إلى الباب وقد احمرَّ وجهه. تقول: «شكراً لك. حقيقة لا أدري كيف أشكرك بما يفيك حقَّك».

أقف عند الباب الزُّجاجي وأرقبهما وهما يصعدان التَّلَّ ليصلا إلى عربتهما، وقد لفَّ راي ذراعه حول خصر بيثاني. كنت على يقين أنَّه يهدِّئها ويؤكِّد لها أنَّ تلك الشَّابة الغريبة والوحيدة ذات الأسلوب السِّحري في التَّعامل مع الأزهار سعيدة في حصولها على طفل بلا أب.

ولم أكن كذلك.

(٤)

أشتري ثوباً أسودَ من ميدان الاتِّحاد، وأربع دزِّينات من أزهار السَّوسن من دلو معروض في شارع ماركت. سيخفي الثَّوب الأسود انتفاخي وسيقلِّل من شحوب اليدين، وستكون السَّوسنات بطاقات عملي. أقصُّ ورقة بلون الخزامى إلى مثلَّثات وأصنع ثقباً في كلِّ واحدة منها. على أحد الجانبين أخطُّ كلمة «**رسالة**» بيد ألهمتها اليزابيث جمالية خطِّها، وعلى الجانب الآخر أطبع بكتابتي الواضحة «**فيكتوريا جونز، منسِّقة زهور**»، وأذكر رقم هاتف ناتاليا.

ما زال هناك حجر عثرة يقف في طريقي، وقد تبيَّن لي أنَّه أكثر تعقيداً ممَّا ظننت. كانت بطاقة شراء الجملة الخاصَّة بريناتا لا تزال معي، لكنِّي لا أستطيع شراء أزهاري من سوق الزُّهور. غرانت متواجد هناك يوميَّاً عدا يوم الأحد، ولن يكون بالإمكان شراء الأزهار يوم الأحد لزفاف سيجري السَّبت الَّذي يليه. أضع خطَّتي على أساس المضيِّ إلى سان خوسيه أو سانتا روزا للوصول إلى أقرب سوق جملة، لكن، عندما بدأت البحث علمت أنَّه لا يوجد سوق آخر في كلِّ كاليفورنيا الشَّماليَّة. يقطع منسِّقو الأزهار مئات الأميال في منتصف اللَّيل لشراء الزُّهور من سان فرانسيسكو.

فكَّرت بشراء الزُّهور من متجر بيع بالمفرَّق، لكن بعد حساب النَّفقات تبيَّن لي أنَّني لن أحظى بربح بهذه الطَّريقة، بل قد تؤدي بي إلى الدَّفع من جيبي. لذا، في يوم الجمعة الَّذي يسبق يوم الزَّفاف انطلقت إلى السَّكن المؤقَّت وصعدت الدَّرجات الاسمنتيَّة ثمَّ نقرت على الباب الثَّقيل.

تدخلني فتاة نحيفة بشعر أشقر مائل إلى البياض.

أسألها: «أيوجد هنا من تحتاج إلى عمل؟». تعبر الفتاة الشَّقراء الصَّالة ولا تعاود الظُّهور. تطالعني مجموعة من الفتيات جالسات على أريكة بعيون مرتابة، فأخبرهنَّ: «عشت هنا يوماً. أنا منسِّقة زهور الآن، ولديَّ حفل زفاف غداً، وأحتاج إلى من تساعدني في شراء الزُّهور». تنهض ثلَّة من البنات ويقطعن الغرفة لينضمُّوا إليَّ عند طاولة الطَّعام.

وعن طريق إجراء المقابلة، طرحت على الفتيات ثلاثة أسئلة، وأصغيت إلى إجابة كلِّ واحدة منهنَّ. كان السُّؤال الأول: هل لديك ساعة منبه؟ وهو ما استثار سلسلة متوازنة من الرُّدود. والسُّؤال الثاني: هل تعرفين كيف تستقلِّين الباص إلى تقاطع شارعي السَّادس وبرانان؟، وهو ما استثنى فتاة قصيرة وسمينة كانت تجلس في آخر الطَّاولة. أخبرتني أنَّها لا تركب الحافلة تحت أيِّ ظرف من الظُّروف، فقمت باستثنائها.

سألت الاثنتين المتبقِّيتين عن سبب حاجتهما إلى النُّقود. أوَّل

من ردَّت فتاة من أصول لاتينية تدعى ليليا سردت قائمة طويلة من الرَّغبات، بعضها أساسي، لكنَّ معظمها يتعلَّق بملذَّاتها الشَّخصيَّة. أخبرتني أنَّ تلوين خصلات شعرها قد بدأ يبهت، وقد نفد المستحضر تقريباً من عندها، وليس لديها حذاء يتماشى مع الثَّوب الَّذي جلبه صاحبها لها. ثمَّ ذكرت الإيجار بعد تفكُّر. أعجبني اسمها، لكنَّ إجاباتها لم تعجبني.

لم أستطع رؤية عيني الفتاة الأخيرة بسبب طول غرَّتها. وعندما ترفعها عن وجهها بين الفينة والأخرى كانت تضع يدها مكانها فوق جبهتها. لكنَّ ردَّها على سؤالي كان بسيطاً وكما كنت أتوقَّع بالضَّبط. تقول إنَّها إن لم تحصل على ما يسدُّ الإيجار فسيتمُّ إخلاؤها. يرتجف صوتها عندما تنطق بهذا، فتنكِّس رأسها نحو كنزتها ذات الياقة المدوَّرة، فلم يعد يبرز سوى أنفها فوق النسيج المحاك. كنت أفتِّش عن شخص معوز بشكل يدفعه إلى الانتباه إلى صوت المنبِّه ويقوم من فراشه عند الثَّالثة والنِّصف فجراً، ولن تخيِّب هذه الفتاة ظنِّي. اتَّفقت معها أن نلتقي في السَّاعة الخامسة صباح اليوم التَّالي عند محطَّة الحافلات في برانان، بصورة لا يفصلها عن سوق الزُّهور سوى مجمَّع واحد.

تأخَّرت الفتاة. لم تتأخَّر بشكل يعيق قدرتي على إنهاء التَّرتيبات في الموعد المحدَّد، لكنَّه كان كافياً لأن يقلقني. لم أضع خطَّة بديلة، بل إنِّي أفضِّل أن أترك بيثاني عند المذبح بدون باقة زهور على أن أقابل غرانت. في كلِّ مرَّة أفكر به يؤلمني جسدي وينتفض الجنين

داخلي. لكنَّ الفتاة تصل راكضة متقطِّعة الأنفاس وقد تأخَّرت عن موعدنا المتَّفق عليه خمس عشرة دقيقة. قد غفت في الحافلة وتجاوزت محطَّتها، لكنَّها ستعمل بسرعة وتعوِّض الوقت، حسب قولها. أسلِّمها بطاقة الشِّراء بالجملة، ورزمة من النُّقود، وقائمة بالأزهار المطلوبة.

حين كانت الفتاة في الدَّاخل قمت بالتَّجوُّل خارج البناء للمراقبة، خوفاً من أن تحاول الهروب بالنُّقود. أقلقتني كثرة مخارج الطَّوارئ، ورجوت أن تكون مزوَّدة بأجهزة إنذار. لكن، بعد مرور نصف ساعة تظهر الفتاة وذراعاها مغطَّاتان بالأزهار. تسلِّمني إياها مع الفكَّة المتبقيَّة، وتمضي ثانية إلى الدَّاخل لشراء النِّصف الثَّاني. وحين عادت قمنا بتحميل الأزهار في سيَّارتي، وعدنا إلى تلِّ بوتريرو والصَّمت يلفُّنا.

كنت قد غلَّفت أرضيَّة الطَّابق السُّفلي بمشمَّع واقي. أخبرتني ناتاليا أنَّني أستطيع القيام بما يحلو لي في الطَّابق السُّفلي خلال النَّهار، طالما أنَّ الأمر لن يؤثِّر في تمكُّن فرقتها من التَّدريب في اللَّيل. قمت بصفِّ المزهريَّات الَّتي اشتريتها من محلٍّ يبيع كلَّ شيء بدولار واحد في منتصف الغرفة، وقد ملأتها أصلاً بالماء، ووضعت إلى جانبها بكرة من الشِّرائط مع الدَّبابيس.

انطلقنا بعملنا مفترشتين الأرض. تراقبني الفتاة وأنا أعرض أمامها كيف نقتلع أشواك الزُّهور ونقلِّم الأوراق ونقطع السِّيقان بشكل مائل. ثمَّ قامت بتجهيز الأزهار أثناء بدئي بالتَّنسيقات.

ظللنا نعمل حتَّى خدرت ساقاي بسبب وزني الثَّقيل على الأرضيَّة. صعدت إلى الأعلى كي أتمدَّد وأصلح حال أزهار الأكاسيا والعسلة الَّتي جمعناها، لينتهي بها المطاف على الرَّف الأوسط من الثلَّاجة، إلى جانب لفافات القرفة وغالون من الحليب. أجمع كلَّ شيء وأحمله إلى الطَّابق السُّفلي، وأمدُّ يدي بعلبة المعجَّنات إلى الفتاة.

«شكراً»، تقولها وتتناول قطعتين. «اسمي مارلينا في حال نسيته».

قد نسيته فعلاً، فما يمكن تذكُّره عن مارلينا كان متواضعاً. كلُّ ما يتعلَّق بها بدا بسيطاً، حتَّى أنَّ بساطتها كانت تختفي وراء شعرها الطَّويل وثيابها الفضفاضة. تهزُّ رأسها وتنفخ بقوَّة على ما يتدلَّى فوق شفتها العليا لتتفرَّق الخصلات وتستقرَّ على جانبي عينيها البنِّيَّتين. بدا وجهها، الَّذي استطعت رؤيته أخيراً، مدوَّراً، وبشرتها ناعمة نقيَّة. كانت تلبس قميصاً سميكاً ضخماً من الصُّوف يمتدُّ تقريباً حتَّى ركبتيها، مما جعلها تبدو كطفلة تائهة. عندما أنهت طعامها عادت خصلاتها لتتدلَّى فوق وجهها، فلم تبعدها.

أبادلها التَّعارف: «وأنا فيكتوريا». أقدِّم لها سوسنة طويلة سحبتها من مزهريَّة قرب الطَّاولة. تقرأ ما على البطاقة، وتقول: «أنت محظوظة. سيِّدة أعمال وحامل بطفل قادم. لا أعتقد أنَّ الكثيرات منَّا سيحقِّقن ما حقَّقته».

لم أخبرها بالشُّهور الَّتي قضيتها في حديقة ميدان ماكينلي، ولا بالفزع الَّذي كان يستولي عليَّ كلَّما تذكَّرت أنَّ هذه الكتلة المتحرِّكة الَّتي تنمو داخلي ستغدو طفلاً، كائناً حيًّا يصرخ ويعضُّه الجوع.

أردُّ قائلة: «البعض سيفعل والبعض لا. الوضع نفسه في كلِّ حال». أنهي لفافة القرفة وأتابع عملي. تمرُّ السَّاعات الَّتي يتخلَّلها بين الفينة والأخرى سؤال تطرحه مارلينا أو إعجاب تطري به على تنسيقاتي، لكنِّي كنت أعمل إلى جانبها بصمت. كان رأسي يمور بذكريات عن ريناتا، عن أوَّل صباح لي معها عند سوق الزُّهور، وأنا أتعلَّم كيفية شراء الزُّهور، لأجلس من ثمَّ إلى طاولتها الطَّويلة في ذات اليوم وإيماءة استحسان تمتدح كلَّ باقة أقوم بتنسيقها.

عندما انتهينا، تساعدني مارلينا في تحميل الزُّهور في سيَّارتي، وأخرج لأعطيها الأجر. أسألها: «كم يلزمك؟».

كانت مارلينا مستعدة للسُّؤال فتجيب: «أحتاج ستِّين دولاراً لأدفع الإيجار أولاً، ولكي أستطيع الإقامة لشهر آخر».

أعدُّ ثلاث ورقات من فئة العشرين دولاراً وأتوقَّف، ثمَّ أمنحها رابعة. «هاك ثمانين. اتَّصلي بي على الرَّقم الموجود على البطاقة كلَّ يوم اثنين. سأعلمك حين يأتيني المزيد من العمل».

تردُّ: «شكراً لك». كان بإمكاني إيصالها إلى سكنها، فمكان الزَّفاف لا يبعد عن السَّكن المؤقت إلَّا ببضعة مجمَّعات، لكنَّني مللت من الصُّحبة. انتظرتها حتَّى لفَّت عند النَّاصية لأركب السيَّارة وأمضي إلى الشَّاطئ.

كان الزَّفاف رائعاً. لم تتناثر الزُّهور، انحنت زهور العسلة لكنَّ سوقها لم تتشابك. أقف لاحقاً عند مدخل ساحة المرآب وأقدِّم سوسنة لكلِّ ضيف. لم يلمس أحد بطني، ولم أحضر حفل الاستقبال.

لم أخبر ناتاليا بشأن عملي، لذا نادراً ما كنت أغادر المنزل ودائماً ما أردُّ على الهاتف. كنت أبدأ الردَّ بكلمة «رسالة»، ومزيج من الاستفهام والتَّصريح يلوِّن نبرتي. كان أصدقاء ناتاليا يتركون رسائل لها، وكنت أسجِّل الملاحظات وأحمل التَّسجيلات حتَّى باب غرفة نومها. صار الزَّبائن يعرِّفون بأنفسهم ويذكرون مناسباتهم، وكنت أدرج رغباتهم من خلال سلسلة من الأسئلة، أو أدعوهم إلى الأسفل للاستشارة. كان أصدقاء بيثاني أثرياء، فلم يستفسر أحد، ولا مرّة، عن ثمن زهرة. فبتُّ أرفع السِّعر حين أحتاج إلى نقود، وأخفِّضه مع تنامي عملي.

فيما كنت أنتظر الاتِّصالات وملء دفتر المواعيد، جهَّزت مجموعتين إضافيَّتين من الصُّور. لم تعجبني فكرة جلوس غرباء إلى الطَّاولة، يقلِّبون في صندوقي الأزرق، إلى جانب حاجتي إلى صندوق مرتَّب بحسب الزُّهور، مثلما كان صندوق غرانت. وعن طريق الصُّور السَّالبة الَّتي احتفظت بها، طبعت صوراً جديدة وألصقتها على بطاقات بيضاء وجعلت لها ملفَّات في علب أحذية وجدتها في القمامة. وضعت مجموعة على الطَّاولة في الطَّابق السُّفلي، والثَّانية سلَّمتها لمارلينا وطلبت منها حفظ كلِّ بطاقة. أعدت صندوقي الأزرق إلى غرفتي آمناً بحماية صفٍّ من الأقفال.

دعيت إلى حفلة استحمام طفل في منطقة تلال لوس ألتوس، وإلى حفلة عيد ميلاد طفل في شقَّة مكسوَّة أرضيَّتها بالخشب في جادَّة كاليفورنيا، وإلى حمَّام زفاف في مارينا، على الجانب الآخر من الشَّارع حيث يقع محل الطَّعام المفضَّل عندي. وكان لديَّ ثلاث حفلات في أيَّام العطلة وحفلة بمناسبة رأس السَّنة في منزل بيثاني وراي. حيثما ذهبت كنت أحضر دلواً فضِّيَّاً به أزهار السَّوسن، وكلَّها تحمل بطاقة التَّعريف. بحلول كانون الثَّاني وفَّرت مارلينا ما يكفي لتدفع إيجار أوَّل وآخر شهر لشقَّتها الخاصَّة، وقد أدرج على جدول مواعيدي ستَّة عشر زفافاً خلال الصَّيف.

لم أستقبل أيَّ طلبات لأيِّ مناسبة خلال شهر آذار، فارتباطاتي في شهر شباط وتَّرتني. توضَّعت أربع حاويات بسعة غالون واحد من نبات ريحان الأرض في زوايا الغرفة الزَّرقاء. بدون ضوء استحالة أن يزهر النَّبات، لذا أبقيت على النُّور مطفأً في مسعى منِّي لتأخير القدر المحتوم.

لكنَّ الجنين الَّذي في داخلي تابع نموَّه على الرَّغم من توجُّسي. كبر بطني كثيراً في أواخر كانون الثَّاني، فتوجَّب عليَّ تعديل مقعدي في سيارتي الصَّغيرة إلى أبعد مدى ممكن. وحتَّى والحال هكذا، بقيت المسافة الفاصلة بين بطني والمقود لا تزيد عن إنش. عندما يضرب الجنين بكوعه أو بقدمه كنت أشعر به وكأنَّه يتمطَّى ليستلم قيادة السيَّارة. صرت أرتدي ملابس الرِّجال، قمصان قطنيَّة وقمصان ثقيلة كبيرة الحجم جداً وطويلة جداً فيها تنسحب البناطيل ذات

الخصر المطَّاطي أسفل بطني. نادراً ما كانوا يظنُّوني سمينة جداً، لكن لمعظم الوقت بقيت أقع فريسة للأيادي الفضوليَّة.

في الشَّهر الأخير من حملي خففَّت من استقبال الزَّبائن قدر الإمكان، وصرت أسلِّم الزُّهور قبل وصول الضُّيوف بوقت كاف، واضعة دلو السَّوسن خلفي. لم يكن مظهري ملائماً للتَّواجد مع السَّيِّدات المتأنِّقات بهندامي الزَّاحل دائماً، وكنت ألمح عدم ارتياحهنَّ لهيئتي مع أنَّهنَّ كنَّ يتظاهرن بالعكس.

راحت الأم روبي تداوم التَّردُّد عليَّ، وتختلق الأعذار الواهيَّة لزياراتها. تبدو ناتاليا نحيفة، كذا أخبرتني في المرَّة الأولى، وقد خبزت طاجن التوفو. لا ناتاليا، الَّتي لم تكن نحيفة، ولا أنا، تذوَّقناه. كان التوفو من الأكلات القليلة الَّتي لا تتقبَّلها معدتي. عندما غادرت ناتاليا لتبدأ جولة تمتد لشهر، وقد اتَّسعت قاعدة معجبيها، رميت الطَّاجن بصحنه الزُّجاجي الثَّقيل. رحت أنظر من النَّافذة قبل أن أغادر، وقد بقيت لوحدي في الشَّقَّة، لأرى إذا ما كانت الأم روبي تجلس على الرَّصيف في الأسفل. حينها كنت سأعود إلى الغرفة الزَّرقاء وأصكُّ الأقفال السِّتَّة جميعها.

كنت أعرف أنَّ ريناتا أخبرت أمَّها بقصة الحمل. ما كانت ناتاليا لتتقبَّل تلك الزِّيارات المتكرِّرة، فيما ريناتا، رغم طردها لي، كانت تهتمُّ لأمري، كدأبها أبداً من لحظة التقائنا، لسبب غير مفهوم. منذ الصَّباح الباكر، حين أبدأ بترتيب الزُّهور في الأسفل، أراها تمرُّ بالقرب منَّا، وهي تقود شاحنتها الثَّقيلة في طريقها إلى

محلِّها. كانت عيوننا تلتقي فتلوِّح لي، فألوِّح لها أحياناً، لكنَّها لم تتوقَّف أبداً، وأنا بدوري لم أقف لها أبداً.

تحسُّباً لقدوم الطِّفل جمعت احتياجات حديثي الولادة بحدودها الدُّنيا: بطَّانيَّات، رضَّاعة، غذاء بديل عن الحليب، ألبسة النَّوم، وقبَّعة. لم يخطر في بالي أيُّ شيء آخر. ينتفي الحسُّ لديَّ وينشلُّ تفكيري، فأشتريها كلَّها دونما تقدير، أو لهفة. لم أكن خائفة من الولادة، فالنِّساء يلدن منذ بدء الخليقة. تموت أمَّهات ويموت أطفال، وتحيا أمَّهات ويحيا أطفال. تربِّي الأمَّهات الأطفال أو يهجرونهم، ذكوراً وإناثاً، أصحَّاء ومعتلِّين. قلَّبت كلَّ الاحتمالات في فكري، ولم يرجح واحد منها على البقيَّة.

***

أستيقظ يوم الخامس والعشرين من شباط فأجدني أسبح في الماء، ليباغتني الألم بعدها مباشرة.

ناتاليا لاتزال في جولتها، وكنت ممتنَّة لهذا. تخيَّلت نفسي سأعضُّ المخدَّات كي أكتم صرخات الولادة، لكن، لم يكن هناك حاجة لهذا. كان اليوم يوم سبت، ومجمَّعات المكاتب الملاصقة لعمارتنا مغلقة، كما أنَّ عمارتنا خالية. أفتح فمي عند أول انقباض ينتابني كالموجة، ليخرج هدير منخفض من مكان ما داخلي. لم أميِّز صوتي أو الألم الحارق الَّذي اجتاح جسدي. وعندما مرَّت، أغمض عينيَّ وأتخيَّل نفسي أطفو على سطح بحر أزرق عميق.

ظللت طافية لدقيقة، أو اثنتين ربَّما، قبل أن يعود الألم أشدَّ من ذي قبل. أستدير جانباً وأنا أشعر بجدران بطني قاسية كالحديد، وهي تطبق على طفلي وتدفعه نحو الأسفل. يتندَّى فراء الأرضيَّة بسبب قبض أصابعي، وعندما تلاشى الألم أضرب بقبضتيَّ المساحات العارية غضباً.

بدا وكأنَّ رائحة ريحان الأرض والتُّربة الرَّطبة تغري الجنين، فيما كلُّ ما كنت أطلبه هو أن أغادر. فحسبما خطر لي، سيكون الحال مختلفاً على الرَّصيف الاسمنتي البارد، وسط المرور والضَّجَّة. قد يستوعب الطِّفل أنَّ العالم لن يفتح له أبوابه بطيب خاطر، كما لا يوجد فيه شيء اسمه سهولة أو حفاوة. سوف أمضي إلى محلِّ ميشن لأشتري كعكة محلَّاة، فينتشي الطِّفل من طبقة الشوكولا اللَّمَّاعة ويقرِّر البقاء في الداخل. الجلوس في مغطس من البلاستيك القاسي سيوقف الألم، يجب أن يوقفه.

أزحف خارجة من الغرفة الزَّرقاء، وأحاول الوقوف، لكنَّني أعجز. كانت الانقباضات مثل تيَّارات تحتيَّة جارفة تجرُّني نحو الأسفل. أدبُّ على أطرافي الأربعة باتِّجاه المقعد الموضوع عند نضد المطبخ، ورقبتي متدلِّية على القضيب المعدني السُّفلي. قد تنكسر رقبتي، راودتني الفكرة مع شيء من التَّفاؤل. وقد يتدحرج رأسي، وقد اجتثَّ، فينتهي كلُّ هذا. أفتح فمي وأعضُّ على المعدن وقد دهمتني الانقباضة التَّالية.

عندما خفَّ الوجع شعرت بحاجة إلى الماء. أنزلق مستندة

إلى الجدار حتَّى أصل الحمَّام. أنحني على المغسلة وأفتح الصُّنبور، وأعبُّ الماء بكفّي في فمي المفتوح. لم يكن ذلك كافياً. أفتح الماء في الدُّوش وأدفع نفسي إلى حوض الاستحمام، فيما الماء المتدفّق يجري إلى فمي ومنه إلى حنجرتي. أستدير وأترك الماء يتغلغل في ملابسي وينساب على كامل جسدي. أبقى هكذا، يأفوخي يستند إلى الجدار والضَّغط ينقر عند أسفل ظهري، حتَّى تفرغ المياه السَّاخنة فأبقى واقفة أرتجف وملابسي تقطر ماء.

انحنيت خارج الدُّوش ورحت أقسم بصوتي العميق والغاضب. كرهت طفلي بسبب هذا. يجب أن تنقم الأمَّهات في سرِّهنَّ على أولادهنَّ بسبب ألم الولادة الَّذي لا يبرَّر. تفهَّمت حال والدتي في تلك اللَّحظة بوضوح وكأنَّنا التقينا للتَّو. تخيَّلتها تتسلَّل هاربة من المشفى لوحدها، وقد انشقَّ جسدها إلى نصفين، وتخلَّت عن طفلها الملفوف جيِّداً، الطِّفل الَّذي بادلته بجسدها الَّذي كان مثاليَّاً يوماً ما، وبوجودها المرتاح من الألم ولو لمرَّة. لا يمكن غفران الألم والتَّضحية. أنا لا أستحقُّ المغفرة. أنظر في المرآة وأحاول تخيُّل وجه أمِّي.

شدَّة الانقباض التَّالي جعلتني أنطوي نصفين وجبهتي تستند إلى الصُّنبور المعدني المنحني. عندما رفعت رأسي وأعدت النَّظر في المرآة لم أر وجه أمِّي، بل وجه اليزابيث. بدت عيناها تلتمعان بجموح والتَّرقُّب يسكنها، كما كانتا أثناء القطاف.

أردت أن أكون معها أكثر من أيِّ شيء آخر.

(٥)

أنادي: «اليزابيث».

بـدا صـوتي مضطربـاً ومفرطـاً. قـد بـزغ القمـر مبكّـراً فـوق مقصـورة بـيرلا، فألقـى البنـاء الواطـئ بظلّـه الدّاكـن عـلى أعـلى التّـلّ حيـث وقفـت. ردّت اليزابيـث عـلى صـوتي في الحـال والتفّـت لتجـري مـع حافّـة الظّـل. كانـت تظهـر وتغيـب في العتمـة حتّـى صـارت أمامي. بهـاء القمـر جعـل الشّـعرات القليلـة الشّـائبة تتوضّـح مجعّـدة حـول صدغيهـا، وبتأثـير الظّـلال بـدا وجههـا خليطـاً مـن زوايـا وخطـوط أكّدتهـا عينـان مدوّرتـان وحنونتـان.

أقـول لهـا: «هـاك»، ويطـرق قلبـي بشـكل مسـموع. أمـدُّ يـدي بعنقـود وحيـد يصلـح لتحضـير النّبيـذ، أمسـحه بقميـصي القطنـي المبلـول ثـمّ أعـاود تقديمـه إليهـا ثانيـة.

تتنـاول اليزابيـث العنقـود منّـي وتنظـر إليَّ. كان فمها يفتـح ويغلق. تلـوك مـرة واحـدة وتلفـظ البـذور، ثـمّ تلـوك وتبتلـع، لتعـاود اللّـوك ثانيـة. تتبـدّل معـالم وجههـا وينتفـي الإجهـاد. يبـدو وكأنّ حـلاوة العنـب قـد انتقلـت إلى بشرتهـا إذ تعلوهـا حمـرة نـضرة، فتبتسـم، وبـلا أدنـى تـردُّد تلفُّنـي بذراعيهـا القويّتـين. يتـمادى إنجـازي العظيـم مـع

انسياب الهواء الَّذي يحيط بنا حتَّى لفَّنا، وكأنَّنا حُفظنا في فقاعة أبدعتها فرحتنا المشتركة. أميل عليها فخورة متألِّقة وألفُّ ذراعيَّ حول خصرها، قدماي ثابتتان وقلبي قد تسارعت خفقاته.

تبعدني بطول ذراعها لتنظر في عينيَّ قائلة: «تمَّ، وأخيراً».

قضينا أسبوعاً تقريباً ونحن نفتِّش عن أوَّل عنقود ناضج. أدَّى ارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة إلى تصاعد غير متوقَّع أبداً في نسبة الحلاوة ممَّا جعل من المستحيل تقييم آلاف النبتات بشكل دقيق. راحت اليزابيث تلقي أوامرها عليَّ مهتاجة وكأنَّني تفريعة للسانها الذَّوَّاق. هناك مساحات كثيرة لم تمسَّ حين افترقنا أنا واليزابيث ورحنا نتنقَّل صفّاً صفاً ونحن نشفط من المنتصف ونلوك الغشاء الخارجي ونلفظ البذور. أعطتني اليزابيث عصاً مدبَّبة فصرت أضع علامة • أو X أمام كلِّ شجرة تذوَّقت ثمرها، وهما رمزاها للشَّمس والظلِّ، ويليهما نسبة الحلاوة والحموضة. أنطلق ابتداءاً من الطَّريق: • ٧١/ ٥، وأنتقل إلى خلف المقصورة: X ٦٨/ ٣، ثمَّ أعتلي التلَّة أعلى معمل النَّبيذ: • ٧٢/ ٦. كانت اليزابيث تغطِّي مساحات أبعد من حيث أتذوَّق، لكنَّها في النِّهاية عادت لتتبُّع ما غطَّته مسيرتي، وتقف عند كلِّ صفٍّ ثان أو ثالث وتتذوَّق وتقارن بنتائجي.

لم تكن بحاجة للشكِّ في قدرتي، وقد أيقنت من هذا الآن. تطبع قبلة على جبهتي، فأقفز قبالتها على أصابع قدميِّ. لأولِّ مرَّة منذ شهور أشعر أنَّ هناك من يريدني ويعتزُّ بي. تجلس اليزابيث

عند سفح التلِّ وتجرُّني إليها، فنجلس معاً صامتتين، نرقب شروق القمر.

نتيجة لتركيز اهتمامنا على موسم القطاف المقترب، سلونا تحذير غرانت. لم يكن هناك وقت للتَّفكير بكاثرين وتهديدها. إنَّما الآن، والعناقيد الناضجة تحيط بنا، وشراييننا تضجُّ بالحبِّ واحدتنا تجاه الأخرى، وتجاه الكرم، تعود كلماته إلى الواجهة، فتنتابني نوبة توتُّر. أتوجَّه إليها بالسُّؤال: «هل أنت قلقة؟».

بدت اليزابيث هادئة ويعلو قسمات وجهها أثر التَّفكير العميق. قبل أن تردَّ، تلتفت إليَّ وترفع عن عينيَّ خصلات شعري وتربِّت على طرف وجهي. تومئ برأسها وتقول: «بشأن كاثرين لا بشأن الكرم».

«لماذا؟».

تجيبني: «أختي ليست بصحَّة جيِّدة. لم يقل غرانت الكثير، ولم يكن عليه ذلك. كان خائفاً. لكنت فهمت ما أعني لو أنَّك رأيت وجهه، ولو أنَّك عرفت أمِّي أيضاً».

«ماذا تقصدين؟». لم أفهم علاقة أمِّ اليزابيث الرَّاحلة بحالة كاثرين الرَّاهنة، أو بالخوف المرتسم على وجه غرانت.

تجيبني اليزابيث: «كانت أمِّي مريضة عقلياً. لم أستطع لقاءها في آخر سنوات حياتها. وكنت خائفة جداً. لم تتذكَّرني، وإلَّا لكانت

استحضرت بعضاً من أفعالي الشَّائنة وألقت باللَّائمة عليَّ بشأن مرضها. كان الأمر مروِّعاً، لكن، ما كان عليَّ أن أتركها لوحدها هكذا، وأدع الشَّقاء على كاثرين بمفردها».

أسألها: «فماذا كنت لتفعلي؟».

«كنت اعتنيت بها. إنَّما فات الأوان الآن، فلقد رحلت منذ عقد من الزَّمان. لكن، لازال بإمكاني الاعتناء بأختي، حتَّى ولو لم تك ترغب بذلك. لقد تحدَّثت فعلاً مع غرانت بهذا الشَّأن وقد وافقني على صواب الفكرة».

«ماذا؟». أصاب بصدمة. لمدَّة اثنتي عشرة ساعة، وعلى مدار الأسبوع، قضينا الوقت أنا واليزابيث في تذوُّق العنب. لم أستطع أن أتخيَّل كيف وجدت الوقت الكافي لتتحدَّث إلى غرانت.

«إنَّه بحاجة لنا يا فيكتوريا، وكاثرين كذلك. بيتها بحجم بيتنا تقريباً، فيه ما يكفي من الغرف ليتَّسع لنا كلُّنا». أهزُّ رأسي إلى الأمام والخلف ببطء، ثم يتسارع هزُّ رأسي بعد أن تفكَّرت في تلميحها. تريدنا أن ننتقل للعيش مع كاثرين. تريدني أن أعيش وأمدَّ يد العون للعناية بالمرأة الَّتي تسبَّبت في تحطيم حياتي.

«لا، يمكنك الذَّهاب، لكنِّي لن أفعل»، أقولها وأقفز مبتعدة عن اليزابيث.

حين أنظر إليها تدير رأسها فتبقى كلماتي معلَّقة في الفراغ المحيط بنا.

(٦)

أريد اليزابيث.

أريدهـا أن تحضنني كـما كانـت تفعـل بـين شـجيرات الكرمـة، وتمسـح كتفـاي ووجهـي المبلَّلـين بالعـرق بنفـس الرِّقَّـة والاهتـمام الَّتي كانـت عليهـا لمستها وهـي تنظِّـف راحتـاي مـن الأشـواك الَّتـي شـاكتهما. أريدهـا أن تضمِّـدني وتحملنـي كـي أتنـاول الإفطـار وتأمرني ألّا أتسـلَّق الأشـجار. لكنَّهـا باتـت بعيـدة. وحتَّـى لـو وصلـت إليهـا بطريقـة مـا، فهـي لـن تـأتي.

أقـيء في المغسلة بـدون إنـذار فأشـهق طلبـاً للهـواء. مـا كان هنـاك حيِّـز زمنـي للتَّنفُّـس. تصدمنـي الانقباضـات كأنَّهـا جـدار مـن مـاء، فأتيقَّـن أنَّنـي سـأرحل. أرفـع السَّـمَّاعة وأتَّصـل برقـم المحـلّ، فـتردُّ ريناتـا. مـن خـلال شـهقاتي اليائسـة أسـمع صوتهـا يعلمنـي باسـتيعابها للوضـع. وتصفـق السَّـمَّاعة مغلقـة إيَّاهـا.

بعـد دقائـق أجدهـا في غرفـة المعيشـة. أدبُّ زاحفـة عـلى أطـرافي الأربعـة إلى الغرفـة الزَّرقـاء وقـد بـرزت قدمـاي مـن البـاب الواطـئ. تحدِّثنـي ريناتـا: «مسرورة أنَّـك اتَّصلـت». أسـحب سـاقيَّ إلى داخـل الغرفـة وأتكـوَّر عـلى شـقِّي. حـين حاولـت ريناتـا اختـلاس النَّظـر

أغلقت الباب في وجهها. أطلب منها قائلة: «اتَّصلي بوالدتك. عليها أن تأتي لتخرج الطِّفل من داخلي».

تردُّ عليَّ: «فعلت لتوِّي، وقد كانت على مقربة من هنا. ربَّما متعمِّدة. لديها حدسها تجاه هذه الأمور. ستصل إلى هنا في غضون دقيقة».

أصرخ وأنثني على يديَّ وركبتيَّ. لم أسمعها تدخل، لكنَّ الأم روبي وصلت، وراحت تجرِّدني من ملابسي. كانت يداها تتنقَّل داخل وخارج أنحاء جسدي، فلم أعارض. سوف تخرج الطِّفل. أنا جاهزة لكلِّ ما سيتوجب عليها القيام به، حتَّى لو شقَّت الموضع بسكِّين فلن أشيح بنظري.

تمدُّ يدها بكوب ورقي ومصَّاصة وتقرِّبهما من شفتيَّ. أرشف مادة باردة وحلوة. بعدها، تمسح طرفي فمي بخرقة.

أتوسَّل إليها قائلة: «أرجوك، افعلي أيَّ شيء، فقط أخرجيه».

فتجيب: «أنت تقومين بهذا. أنت الوحيدة القادرة على إخراج هذا الطِّفل».

أشعر بالغرفة الزَّرقاء تشتعل. لا يفترض بالمياه أن تشتعل، لكنّي كنت هناك، أغرق وأحترق بآن معاً. لم أكن قادرة على التَّنفُّس، كما لم أكن قادرة على الرُّؤية. لم يكن هناك هواء، كما لم يكن هناك مفرّ.

«أتوسَّل إليك»، أقولها بصوت منكسر.

تقرفص الأم روبي فتصبح عيناها على مستوى عينيَّ، وجبهتانا متماسَّتان. تلفُّ ذراعيَّ حول كتفيها فأبدأ بالنَّهوض من ركبتيَّ إلى قدميّ وكأنَّها تسحبني من ماء مغلي، لكنَّها لم تتحرَّك. كنَّا على الأرض وكانت تصغي.

تخبرني: «الطِّفل آت. أنت من سيخرجه إلى الدُّنيا. أنت فقط من يستطيع ذلك». حينها فقط استوعبت ما كانت تقول. طفقت أبكي، وأنيني يعول ندماً. ما من مفرٍّ هذه المرَّة. لا يمكن أن أدير ظهري، ولا يمكنني المغادرة دون التَّسليم بما ارتكبت. هناك صراط واحد يوصلني إلى الجهة الأخرى، وهو صراط الألم.

يستسلم جسدي في النِّهاية. أتوقَّف عن المقاومة ليبدأ الطِّفل يتحرَّك ببطء، وبشكل لا يطاق، عبر قناة الولادة ليستقرَّ فوق ذراعي الأم روبي.

(٧)

كانت أنثى. ولدت عند الظَّهيرة بعد ستِّ ساعات من تفجُّر ماء الرَّأس. مرَّت عليَّ وكأنَّها ستَّة أيَّام، ولو أخبرتني الأمُّ روبي أنَّها ستُّ سنوات لصدَّقتها. خرجت من الولادة بشعور من طمأنينة جذلى. لم تكن الابتسامة الَّتي استقبلتني مرحِّبة على مرآة الحمَّام بعد ساعات لاحقة لتعود إلى ذات البنت الغاضبة والطَّافحة بالكراهية، والَّتي تنقل دلاء الشَّوك من الخنادق المحفورة على طول جانب الطريق. لقد صرت امرأة، صرت أمَّاً.

قالت الأمُّ روبي إنَّ الولادة كانت نموذجيَّة وإنَّ الطِّفلة بصحّة جيِّدة، وأعلمتني أنَّني سأكون أمَّاً مثالية. غسَّلتها، فيما مضت ريناتا إلى المتجر لشراء الحفَّاضات، ثمَّ وضعت اللَّفَّة الدَّافئة فوق ذراعيَّ للمرَّة الأولى. توقَّعت أن تكون نائمة، لكنَّها لم تكن كذلك. كانت عيناها مفتوحتين، تتملَّى في وجهي المرهق، وشعري القصير، وبشرتي الشَّاحبة. يفترُّ وجهها عمَّا بدا وكأنَّه ابتسامة مشعَّة، وفي تعبيرها الصَّامت لمست الامتنان والعزاء والثِّقة. وأودُّ من كلِّ قلبي ألَّا أخذلها.

ترفع الأمُّ روبي قميصي وتكوِّر ثديي، ثم تقرِّب وجه الرَّضيعة من قربتي المرفوعة. تفتح الرَّضيعة فمها وتبدأ بالرَّضاعة.

تردِّد الأم روبي قائلة: «ممتاز».

كانت ممتازة. أدركت هذا لحظة خروجها من جسدي، بيضاء ولزجة وزاعقة. فإذا ما تجاوزنا لزوم وجود الأصابع العشر لليدين ومثيلاتها للقدمين، والقلب النَّابض، والرِّئتين الشَّغَّالتين، فإنَّ ابنتي كانت تتقن الصُّراخ. كانت تعرف كيف تلفت الانتباه إلى وجودها؛ وكانت تعرف كيف تمدُّ ذراعيها وتحكم قبضتها؛ كما كانت تعرف ما عليها القيام به كي تبقى على قيد الحياة. لم أدرك كيف يمكن لهذا الكمال أن يتطوَّر في جسد عائب كجسدي، لكن، حين تمعَّنت في وجهها رأيت إمكانية حدوث الأمر بوضوح.

عندما عادت ريناتا سألت: «ماذا ستسمِّينها؟».

فأردُّ: «لا أدري»، وأنا أمسِّد أذن الرَّضيعة الزَّغباء وهي تتابع الرَّضاعة. لم أفكِّر بالأمر. «أنا لم أتعرَّف عليها بعد».

لكنَّني سأفعل. سأحتفظ بها، وأربِّيها، وأحبُّها، حتَّى لو تطلَّب منها أن تعلِّمني ذلك. وأنا أحمل بين ذراعيَّ طفلتي الَّتي لم يتجاوز عمرها السُّويعات، شعرت أنَّ كلَّ شيء كان عصيّاً عليَّ يوماً في هذا العالم، صار في المتناول.

ظلَّ هذا الشُّعور يراودني لأسبوع.

بقيت الأم روبي حتَّى منتصف اللَّيل تقريباً وعادت باكراً صباح اليوم التَّالي. خلال السَّاعات الثَّمانية الَّتي قضيتها بمفردي مع

الطِّفلة، رحت أنصت إلى تنفُّسها، وأحصي دقَّات قلبها، وأراقب أصابعها وهي تنفرج وتنقبض. شممت رائحتها، وريقها، والمادَّة البيضاء زيتيَّة القوام الَّتي قاومت منشفة الأم روبي وتعشَّقت بين طيَّات ساعديها وساقيها. أجسُّ كلَّ بقعة في جسدها حتَّى صارت أصابعي تنزلق بسبب البقايا الكثيفة.

أخبرتني الأم روبي أنَّ الطِّفلة سوف تنام لستِّ ساعات أو أكثر في اللَّيلة الأولى بسبب إجهاد الولادة. **هي أولى هدايا الطِّفل لوالدته، ولن تكون الأخيرة، فاغتنميها ونامي**، هكذا قالت لي قبل أن تغادر. حاولت الإخلاد إلى النَّوم لكنَّ فكري كان مأخوذاً بأعجوبة وجود طفل، طفل لم يكن له وجود في العالم حتَّى اليوم السَّابق، طفل أشرقت حياته من أحشائي. أدركت وأنا أراقب طفلتي في نومها أنَّها في أمان، وأنَّها تشعر بذلك. شعرت بتدفُّق الأدرينالين فيَّ نتيجة لهذا المنجز البسيط. في الصَّباح التَّالي، ولحين سماعي الأم روبي تدخل المفتاح في قفل الباب السُّفلي، لم تكن قد غمضت لي عين ولو للحظة.

تجرُّ الأم روبي حقيبتها الخاصَّة بالتَّوليد على درجات السُّلَّم وتفتحها عند باب الغرفة الزَّرقاء. كانت الطِّفلة مستيقظة وترضع. بعد أن أبعدتها عن صدري أنصتت الأم روبي إلى دقَّات قلبها ثمَّ وضعتها في علَّاقة طبيَّة قماشيَّة لها نابض معدني كانت تنفع كميزان أيضاً بشكل من الأشكال. عبَّرت عن تعجُّبها من الوزن الَّذي كسبته الطِّفلة خلال أوَّل أربع وعشرين ساعة، على

غير المعتاد، حسبما قالت. نغرت الطِّفلة وراحت ترضع الهواء، فوضعتها الأم روبي عند ثديي الآخر وهي تتفحَّص قوَّة تمسُّكها بسبَّابتها، وتقول: «تابعي طعامك أيَّتها الفتاة الكبيرة».

تابع كلتانا الطِّفلة وهي ترضع، وعيناها مغلقتان، وقد أخذ صدغاها ينبضان. كان آخر ما توقَّعت أن أقوم به في الكون هو أن أرضع طفلاً من صدري. لكنَّ الأمَّ روبي أصرَّت أنَّه الأصلح لكلتينا: فالطِّفلة ستنمو، وارتباطنا سيقوى، وجسدي سيسترجع شكله. كانت الأم روبي تشعر بالفخر وقد أخبرتني بهذا لمرَّتين أو ثلاثة في غضون ساعة. أخبرتني أن ليس كلُّ الأمَّهات يتمتَّعن بالصَّبر أو بالتَّضحية. لكنَّها متيقِّنة أنَّني سأفعل. فلم أخذلها.

كنت أحسُّ بالفخر أيضاً. فخورة أنَّ جسدي ينتج كلَّ ما تحتاج إليه صغيرتي، وفخورة لتحمُّلي العضَّ القاسي للثَّة الطِّفلة، والإحساس بالسَّائل وهو ينتقل من مكان عميق في جسدي إلى مكان عميق في جسد ابنتي. بقيت الطِّفلة ترضع لأكثر من ساعة، ولم أتذمَّر. منحني الإرضاع الفرصة لأتمعَّن في وجهها، وأحفظ رموشها القصيرة المستقيمة، وجبينها المكشوف، والبقع البيضاء المتناثرة على أنفها وخدَّيها كآثار وخز إبر. عندما فتحت عينيها رامشة تأمَّلت اللَّون الرَّمادي الغامق باحثة عن آثارٍ للَّون البنِّي أو الأزرق الَّذي ستتحوَّل إليه. تساءلت إن كانت ستشبهني أم ستشبه غرانت، أو أنَّها ستأخذ ملامح أحد أقارب الأمِّ أو الأب، الَّذين لم أقابل أحداً منهم. لا أستطع تحديد شيء عنها حتَّى الآن.

راحـت الأم روبي تقـرأ بصـوت عـال في كتـاب عـن حديثـي الـولادة، وهـي تخفق البيض. ثـمَّ أخـذت تلقِّمنـي الطَّعـام لقـماً صغيرة وهـي تخـبرني بـما ورد في النَّـص. أصغيـت إلى كلِّ كلمـة، وردَّدت كلَّ جـواب حرفيـاً. توقَّفـت الأم روبي عـن القـراءة عندمـا غفـت الطِّفلـة ورفضـت المتابعـة، عـلى الرَّغـم مـن مناشـدتي إيَّاهـا أن تتابـع.

ردَّت الأم روبي وهـي تغلـق الكتـاب: «نامـي يـا فيكتوريـا، هـذا أهـمُّ شيء. هرمونـات مـا بعـد الـولادة قـد تشـوِّه الحقيقـة، إن لم تعدِّلها إغفـاءات طويلـة مـن النَّـوم». تمـدُّ ذراعيهـا لأعطيهـا الطِّفلـة. ومـع أنَّ النَّـوم كان قـد أخـذ منِّـي كلَّ مأخـذ، كنـت راغبـة عـن إعطائهـا ابنتـي. خشـيت أن يـدوم الفـراق، فالسَّـعادة الَّتـي وجدتهـا في لمسـة الطِّفلـة كانـت طارئـة عـليَّ ولا يعـوَّل عليهـا. كنـت أخشـى إن أنـا سـلَّمتها إيَّاهـا أن أعجـز عـن تحمُّـل لمسـها عندمـا تـردُّ إليَّ.

لكـنَّ الأم روبي لم تستوعب تـردُّدي، بـل مـدَّت يدهـا وسـحبت الطِّفلـة منِّـي، فغفـوت قبـل أن أبـدي أيَّ مقاومـة.

لم تكـن الأم روبي الشَّـخص الوحيـد الَّـذي زارني في الأسـبوع الأوَّل. فبعـد يـوم مـن الـولادة اشـترت ريناتـا فرشـاً ريشـيَّاً لوضعـه في الغرفـة الزَّرقـاء، وسـلَّة للطِّفلـة، وحملتهـما إلى الأعـلى عـلى دفعتيـن. كانـت تعودنـا يوميَّـاً بعـد الظُّهـر تحمـل غـداء لكلتينـا. اسـتلقيت عـلى فـراشي الجديـد تاركـة بـاب الغرفـة مفتوحـاً، وقـد غفـت الطِّفلـة وخدُّهـا متوسِّـد صـدري العـاري، وأنـا أتنـاول المعكرونـة أو اللَّفائـف بيـدي، بينـما تجلـس ريناتـا عـلى مقعـد معـدني. كنَّـا نـادراً مـا نتحـدَّث،

فلا أنا ولا هي كان بمقدورنا تجاذب أطراف الحديث في حضور عريي، لكنَّ صمتنا صار مريحاً أكثر مع مرور الأيَّام. أكلت الطِّفلة ونامت ثمَّ عادت للأكل ثانية. طالما أنَّها غافية على جسدي وجلدها يلامس جلدي، فهي مرتاحة.

يوم الثُّلاثاء، وبينما أنا وريناتا نأكل ويلفُّنا الصَّمت المعتاد، أتت مارلينا. كنت قد توقَّفت عن الرَّدِّ على الهاتف، وكان لدينا عشاء لمناسبة في اليوم التَّالي. أدخلتها ريناتا فسعدت بالطِّفلة. حملتها وهزَّتها وهدهدتها بفطرة جعلت ريناتا ترفع حاجبيها وتهزُّ رأسها تعجُّباً. طلبت من ريناتا أن تخرج نقوداً من حقيبتي وتعطيها لمارلينا، إذ كان عليها تحضير الزُّهور للمناسبة بنفسها.

فتجيب ريناتا: «لا، أبقها معك. أنا سأتولَّى أمر الزُّهور». تخرج النُّقود ومفكِّرة مواعيدي حيث سجَّلت قائمة المشتريات وعنوان المطعم. تلقي ريناتا نظرة على المفكِّرة. لا يوجد لديَّ ارتباطات أخرى قبل ثلاثين يوماً.

تستطرد: «سأعود غداً ومعي الغداء، وسأريك باقات الطَّاولات. ولك أن توافقي عليها».

تلتفت إلى مارلينا وتصافحها بشكل لا يلائم حالها وهي تحمل الطِّفلة النائمة كالكرة، وتوجِّه حديثها إليها: «اسمي ريناتا. ابقي اليوم هنا أطول فترة ممكنة. سأدفع لك ما تكسبين بالسَّاعة عادة».

فتتساءل مارلينا: «فقط لأحمل الطِّفلة؟».

تومئ ريناتا برأسها.

تعدها مارلينا قائلة: «سأفعل. شكراً لك». تدور ببطء فتندُّ عن الطِّفلة تنهيدة وهي غافية بعمق.

أتوجَّه بالكلام إلى ريناتا: «أشكرك، سآخذ قيلولة». لم أنم بعمق منذ أيَّام، وحتَّى في منامي كنت قلقة بشأن موضع الطِّفلة واحتياجاتها. يبدو أنَّني قد ورثت جينات الأمومة رغم كلِّ شيء، هكذا خطر لي وأنا أتذكَّر كلمات ريناتا حين كنَّا في طريقنا إلى أوَّل غداء لنا معاً.

تقترب ريناتا من مكان فراشي حيث أستلقي فتصل يدي إلى باب الغرفة وتتطاول إلى غرفة المعيشة. تنتصب أمامي وكأنَّها تبحث عن طريقة كي تعانقني، لكنَّها تقلع فتكز يدي بلطف بإبهام قدمها. أمسك بقدمها فتبتسم وتقول: «أراك غداً».

«حسن».

ينقر حذاء ريناتا على الدَّرجات وهي تنزل، ليرتفع صليل حاجب الباب المعدني بعد أن تغادر.

تسألني مارلينا وهي تقبِّل جبهة الطِّفلة: «ما اسمها؟». تجلس على أحد المقاعد المعدنيَّة لكنَّ الطِّفلة تتحرك، فتنهض ثانية ثم تقطع الغرفة جيئة وذهاباً وهي تهدهدها بهدوء.

أردُّ عليها: «لا أعرف. لازلت أفكِّر باسم لها».

في الحقيقة لم أفكِّر بأيِّ اسم، لكنِّي أعرف أنَّ عليَّ البدء بالأمر. وعلى الرَّغم من أنَّني لا أفعل شيئاً سوى إطعامها وتغيير حفاضها ولفِّ قماطها، لكن لم يكن هناك متَّسع في فكري أو ما شابه لأيِّ نشاط آخر. تقصد مارلينا المطبخ والطِّفلة مستكينة على صدرها، وخدُّها الأحمر متوسِّد كتف مارلينا، وتبدأ بتحضير الطَّعام بيد واحدة، بسهولة. ما كنت أعرف الطَّبخ، وبالتَّأكيد ما كنت لأطبخ بيد واحدة وهناك طفلة تتوسَّد كتفي.

أسألها: «أين تعلَّمت؟».

مكتبة
t.me/t_pdf

«الطَّبخ؟».

أومئ برأسي. «ومجالسة الأطفال».

«في آخر بيت رعاية أقمت فيه كانت هناك مهمَّة مجالسة يوميَّة. احتفظت بي المرأة لأنَّني أدرس في المنزل وأعينها في متابعة شؤون الصِّغار. لم أكن أمانع، فهذا كان أنسب لي من الذَّهاب إلى المدرسة الثَّانويَّة».

أستفسر منها: «أتدرسين في البيت؟». تلمع في رأسي قائمة الواجبات الملصقة على باب ثلَّاجة اليزابيث، فأنظر في السَّاعة بشكل تلقائي.

تجيبني: «بلى. في السَّنوات القليلة الأخيرة. كنت متأخِّرة جداً

فارتـأت المقاطعـة أنَّهـا قـد تسـاعدني للّحـاق بأقـراني، لكنِّـي تأخَّـرت أكثـر. عندمـا صرت في الثَّامنـة عـشر مـن عمـري نفضـت يـدي مـن موضـوع الدِّراسـة وانتقلـت إلى السَّـكن المؤقّـت».

فأخبرهـا: «وأنـا كنـت أدرس في المنـزل أيضـاً». السَّـاعة الواحـدة، حـين تكـون اليزابيـث عـلى وشـك تجفيـف والانتهـاء مـن آخـر طبـق، فتعلِّمنـي مـوادي الثَّـماني أو ربَّـما التسـع.

شيء مـا يغـلي عـلى الموقـد، فتضيـف مارلينـا الملـح. أدهشـني أنَّهـا وجـدت شـيئاً في الخزائـن الفارغـة لتطبخـه. تسـتيقظ الطِّفلـة جافلـة فتنقلهـا مارلينـا إلى كتفهـا الثَّـاني. حملـت الطِّفلـة بشـكل يمكنُّهـا مـن رؤيـة مـا تطبـخ وتدنـدن بنغـم عـذب، ترنيمـة أو أنشـودة، لم أسـتطع تحديدهـا، فتغلـق الطِّفلـة عينيهـا.

أخبرها: «أنت مع الأطفال أفضل منك مع الزُّهور».

فتجيبني مارلينا غير عابئة: «مازلت أتعلَّم».

أردُّ عليها، وأنا أتابع ما تفعل: «صحيح، وأنا أيضاً».

بينما كانت مارلين تقطِّع، راح رأس الطِّفلة يهتز برفق.

توجِّـه كلامهـا إليَّ: «ينبغـي أن تنامـي. الطِّفلـة مرتاحـة، وتعلمـين أنَّهـا سـتجوع ثانيـة قريبـاً».

أومئ وأردُّ: «حسن، أيقظيني إن احتاجت إلى شيء».

تستدير مارلين إلى الموقد وتقول: «أفعل».

أغلق الباب الصَّغير، بانتظار أن أغفو. يسري صوت ترنيمة مارلين من خلال شقِّ الباب بلحن بدا شائعاً. كنت لا أزال واعية حين تساءلت إن دندن لي أحد عندما كنت طفلة، أحد لم يحبَّني، أحد كان ليرجعني.

صباح يوم السَّبت، بعد مرور أسبوع على الولادة، تصل الأم روبي وتباشر عملها اليومي المعتاد. سألتني مائة سؤال عن نفاسي، وما تلا ألم المخاض، وعن شهيَّتي للأكل. تتفقَّد الوضع للتَّأكُّد إذا ما كنت تناولت طعام الغداء في اليوم السَّابق، وتنصت إلى ضربات قلب الطِّفلة قبل أن تضعها في قماشة الميزان.

تصرِّح الأم روبي: «ثماني أونصات. أنت تبلين بلاء حسناً». تفكُّ قماط الطِّفلة وتغيِّر لها حفاضها. خلال التَّغيير، يسقط حبل الصرَّة الَّذي لم ألمسه قط ولم أجرؤ على النَّظر إليه.

«تهانينا يا ملاكي»، تهمس الأم روبي بوجه ابنتي النَّائمة. تقوِّس الطِّفلة ظهرها وتتمطَّى، وعيناها لا تزالان مغمضتين.

تنظِّف مؤخرة الطِّفلة بمحلول معبَّأ في قارورة لا تحمل لصاقة. وتعيد تحفيض الطِّفلة وترجعها إليَّ، وهي تقول: «لا يوجد التهاب، تأكل وتنام وتكسب وزناً. هل هناك من يساعدك؟».

أجيبها: «ريناتا تحضر الطَّعام، ومارلينا أقامت هنا لبضعة أيَّام».

«هـذا جيِّـد». تطـوف في أرجـاء الغرفـة تلملـم كتبهـا وأغطيتهـا وفوطهـا وقواريرهـا وعصَّاراتهـا.

«هـل سـتغادرين؟»، أطـرح عليهـا السُّـؤال باسـتغراب. اعتـدت عـلى وجودهـا معـي معظـم الصَّبـاح.

تجيبنـي: «لم تعـودي بحاجـة إلى وجـودي يـا فيكتوريـا». تجلـس بجانبـي عـلى الأريكـة وتلـفُّ كتفـيَّ بذراعهـا. تجذبنـي إليهـا حتَّـى ينكبس وجهـي عـلى صدرهـا. «انظـري إليـك، صرت أمّـاً. صدِّقينـي إن قلـت لـك أنَّ هنـاك الكثـير مـن النِّسـاء بحاجتـي أكثـر منـك».

أومئ، ورأسي محشور في صدرها، دون أن أقاوم.

تنهـض وتقـوم بلفَّـة أخـيرة في الشـقَّة الصَّـغيرة. تقـع عيناهـا عـلى علـب الغـذاء البديـل الَّتـي اشـتريتها قبـل مولـد الطِّفلـة فتخـبرني: «سـأتبرَّع بهـذه»، وتدسُّـها في حقيبتهـا المحشـوَّة أساسـاً. «لـن تحتاجـي إليهـا. سـأعودك السَّـبت القـادم، وبعـده ليومـي سـبت لأتابـع مـا تكسـب الطِّفلـة مـن وزن. اتَّصـلي بي إن احتجـت إلى شيء».

أومـئ بـرأسي ثانيـة وأرقبهـا وهـي تنـزل السُّـلَّم بخفَّـة. لم تـترك رقـم هاتفهـا.

صرت أمّـاً، أردِّدهـا في داخـلي. وددت لـو أنَّ الكلـمات تطمئننـي، لكـن، بـدلاً مـن ذلـك، ينتابنـي شـعور مألـوف بارتجـاف شيء في

داخلي. بدأ عميقاً في معدتي ليكتسب زخماً وهو يندفع إلى الكهف الفسيح الَّذي احتوى يوماً الطِّفلة.

إنَّه الهلع.

أحاول أن أتنفَّس علَّني أتخلَّص منه.

(٨)

ندمت على إنذاري.

إمَّا أنا أو أختك، كذا ألمحت كلماتي. وقد وضَّحت اليزابيث موقفها بامتناعها عن اللَّحاق بي.

طوال اللَّيل وحتَّى مجيء النَّهار كنت أحيك الخطط. كان مبتغاي بسيطاً: أن أبقى مع اليزابيث، لوحدها. لكن، لم تخطر لي طريقة لإقناعها. ما كان لي أن أعبِّر عن الأمر بالانتحاب أو التَّضرُّع. ستتساءل **آ الآن تدركين من أنا؟**، وعيناها يلوِّنهما التَّشفّي، فيما أتوسَّل إليها كي أتناول فطيرتها المعجونة بمخيض اللَّبن. ولا جدوى من الاختباء، ستجدني اليزابيث كما تفعل دائماً. كما لا يمكنني ربط نفسي إلى السَّرير ورفض التَّحرُّك، لأنَّها ستقطع الحبال وتحملني.

هناك طريقة واحدة، وهي أن أوغر صدر اليزابيث على أختها. عليها أن ترى كاثرين على حقيقتها: امرأة أنانيَّة وحاقدة لا تستحقُّ اهتمامها.

عندها، هبط عليَّ الحلُّ فجأة. ارتفع صوت نبضي حتَّى كاد يصمُّني وأنا مستلقية، أدوِّر الفكرة في رأسي، وأقلِّب العواقب. لا

توجد عاقبة. بقدر تيقُّني من إفساد كاثرين لإجراء التَّبنِّي، بقدر ما منحتني المدد اللَّازم للدِّفاع عن بقائي مع اليزابيث، اليزابيث لوحدها. سأنتصر في الحرب الَّتي أشعلت أوارها عن غير قصد منها، حتَّى قبل أن تستوعب أنَّها أشعلتها. أنهض ببطء، وأخلع ثوب نومي لأرتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً قطنياً. في الحمَّام أفرك وجهي بالماء البارد والصَّابون بشدَّة أكثر من المعتاد، فيما أظافري ترسم خطوطاً في بقايا الصَّابون البيضاء. أنظر إلى نفسي في المرآة باحثة عن معالم خوف أو قلق أو خشية ممَّا سيأتي. لكنَّ عينيَّ بدتا جامدتين، ووجهي يعلوه التَّصميم. هناك طريقة واحدة لأحصل على مبتغاي، ولا يمكن إغفالها.

في المطبخ كانت اليزابيث تشطف الصُّحون، وهناك زبديَّة من عصيدة الشُّوفان الباردة على الطَّاولة.

تخبرني اليزابيث وهي تومئ برأسها باتِّجاه التلِّ حيث وقفنا في اللَّيلة السَّابقة: «الطَّاقم قد وصل. تناولي إفطارك وانتعلي حذاءك وإلَّا فسأتركك وأمضي». وتستدير باتِّجاه المجلى.

«لن آتي»، أقولها، وأرى خيبة الأمل، وليس التَّفاجؤ، تنعكس في تهدُّل كتفيِّ اليزابيث.

أفتح حجرة المؤونة وألتقط سلَّة مشغولة من على علاَّقة.

كان الجوُّ دافئاً عند الشُّرفة الأماميَّة، مع أنَّ الأوان لا يزال مبكِّراً. أمشي ببطء على الدَّرب المؤدِّي إلى الطَّريق الرَّئيسي. مرَّة

أخـرى لا تلحـق اليزابيـث بي. تمنَّيـت لـو أنَّ الجـوَّ كان أبـرد، أو أنَّنـي صررت بعضـاً مـن الطَّعـام. سأشـعر بالحـرِّ والجـوع وأنـا أجلـس في الخنـدق المواجـه لمزرعـة الزُّهـور، لكنِّـي سـأنتظر. مهـما اسـتغرقت مغـادرة غرانـت مـن وقـت، فسـأنتظر، حتَّـى لـو اضطُّـرَّني الأمـر إلى قضـاء اللَّيلـة عـلى قارعـة الطَّريـق. في النِّهايـة سـتقرقع شـاحنته وهـي تخـرج مـن البوَّابـة المفتوحـة الَّتـي تكشـف البيـت.

سأتسلَّل حينها إلى الدَّاخل لأنفِّذ مأربي.

(٩)

لم تـأت ريناتـا يـوم الأحـد، وكذلـك مارلينـا. قضيـت في الغرفـة الزَّرقـاء مـا ظننتـه معظـم النَّهـار، وقـد أمضيتـه في إرضـاع الطِّفلـة والنَّوم. لكـن، حـين خرجـت منهـا بمثانـة ممتلئة ومعـدة خاويـة كانـت السَّـاعة تشـير إلى العـاشرة صباحـاً وحسـب.

أسـتند إلى المقعـد المعـدنيِّ وأنـا أوازن بينـي وبـين نفـسي أمـر الاسـتحمام أو تحضـير وجبـة طعـام. كانـت الطِّفلـة نائمـة في الغرفـة الزَّرقـاء، وكنـت جائعـة، لكـنَّ الرَّائحـة الّتـي تفـوح مـن جسـدي، رائحـة الحليـب المحمَّـض المخلوطـة بعطـر زيـت الطِّفلـة المشـابه لرائحـة المشـمش، تفقـدني شـهيَّتي. فأقـرِّر الاسـتحمام.

أغلـق بـاب الحـمَّام وأقفلـه بحكـم العـادة. ثـمَّ أخلـع ملابـسي وأقـف تحـت المـاء الدافئـة. عينـاي مغمضتـان، وأسـتمتع في الوقـت المستقطع بالانفراد بنفسي، مع وخز ضميري. أتنـاول لـوح صابـون فأسـمع صرخـة عاليـة، خفَّـف البـاب المقفـل مـن وقعهـا، لكـنَّ حدَّتهـا بقيـت كـما هـي. أشـهق وأتابـع غسـل جسـدي بالصَّابـون. أقـول في نفـسي لحظـة واحـدة وحسـب، **حمَّـام سريـع وأعـود، فاصـبري.**

لكـنَّ الطِّفلـة لم تصطـبر. تعـالى صراخهـا ارتفاعـاً وحـدَّة، لتـأتي

عليها لحظات من الشَّهيق الهادئ اليائس. بدأت أغسل شعري بالشامبو بسرعة محمومة وأترك الماء يدخل في أذنيَّ في محاولة منّي لإخفاء الصَّوت. لكنَّ الأمر لم يفلح. اجتاحني إحساس غريب أنَّني لو نزلت الدَّرج، وخرجت من الباب، ومضيت عبر المدينة، لبقيت أسمع صوتها، وكأنَّ بكاءها موصول بجسدي بما يتعدَّى الموجات الصَّوتيَّة. إنَّها بحاجتي، تنهشني كالجوع، فينتقل الجوع من جسدها إلى جسدي.

أستسلم للصَّوت فأقفز خارجة من الحمَّام والرَّغوة تتجمَّع على شعري وتسرح فوق ساقيَّ مثل سَواقٍ بيضاء. أقطع غرفة المعيشة راكضة لأصل إلى الغرفة الزَّرقاء، فأحمل الطِّفلة الصَّارخة العنيدة. أقرِّبها من صدري المغطَّى بالصَّابون. تفتح فمها وتلهث ثمَّ تغصُّ وتلتقم الصَّدر، وتكرِّر الأمر مرَّتين أو ثلاثة قبل أن تهدأ بما يكفي لترضع. في الحمَّام، ينصبُّ الماء في الحوض الخزفيِّ الفارغ، ومنه إلى المصرف.

أنزلق مستندة إلى الحائط لأجلس في البركة الصَّغيرة المتجمِّعة عند قدميَّ. لو كان عندي فوطة تنشيف لكنت أصلحت الحال. لكنَّني لم أملك واحدة، ولن أمتلك واحدة حتَّى مرور فترة طويلة. لم أكن مثل مارلينا، لا أستطيع أن أحمل الطِّفلة وحقيبة الغسيل معاً إلى قمَّة التل، وأن أضع أرباع الدُّولارات في آلات الهزهزة، وهناك فم جائع عند صدري المكشوف. تمنَّيت لو أنِّي فكَّرت بأمر الغسيل قبل مولد الطِّفلة.

تمنَّيت لو أنَّني فكَّرت بكثير من الأشياء، لكن، فاتني القطار. كان عليَّ أن أشتري حفاضات، وخضروات، وملابس أطفال؛ وكان عليَّ تجميع قوائم الوجبات الخارجيَّة لكلِّ مطعم عند التلِّ وحفظ رقم اتِّصال خاصٍّ بتوصيل الطَّلبات؛ وكان عليَّ إيجاد مركز رعاية يومية، أو جليسة أطفال، أو كليهما. كما كان عليَّ شراء كومة من كتب الأمومة وقراءة كلِّ واحد منها. وكان عليَّ الاستقرار على اسم لها.

ولا يمكنني فعل أيٍّ من هذا الآن.

أنا والطِّفلة سنستعمل المناشف الوسخة، وننام على شراشف وسخة، ونرتدي ملابس وسخة. أمر القيام بشيء آخر عدا العناية بالطِّفلة وغذائها كان أكبر من أن أفكِّر به.

***

قضينا الاثنين والثُّلاثاء والأربعاء بمفردنا، اللَّهم إلا من زيارات ريناتا الخاطفة وهي تحضر الطَّعام. كان الأوان ربيعاً، والشُّغل قد نشط. ولم توظِّف ريناتا أحداً خلفاً لي. اتَّصلت مارلينا لتخبرني أنَّها ستزور أقاربها في كاليفورنيا الجنوبيَّة. وأخبرتني أنَّها ستعود في الوقت المناسب لتأدية التزاماتنا لشهر نيسان. ولم يرنَّ الهاتف ثانية.

في يوم الخميس ظلَّت الطِّفلة تأكل طوال اليوم. استيقظت بعيد السَّادسة صباحاً لتتناول رضعتها الأولى، وظلَّت ترضع

بشكل متواصل. كانت تغفو في وسط الرَّضعة كلَّ نصف ساعة، وحين أحاول إبعادها عن صدري كانت تجفل مستيقظة مع نغرة مكتومة. ما كانت تنام إلَّا ووجهها ملتصق ببشرتي المكشوفة، وعندما أحاول إبعادها، كانت تزعق طلباً للحليب مهما بدت مستغرقة في النَّوم.

استسلمت للجوع وأمضيت الصَّباح أنصت إلى أصوات الرَّبيع وهي تلج الشَّقَّة من نافذة المطبخ المفتوحة: زقزقة الطُّيور، صوت مكابح السيَّارات، هدير طائرة، ورنين جرس مدرسة. ربَتُّ على كتف الطِّفلة حين أغفت، وعزَّيت نفسي أنَّ معاناة الجُوع تضحية معقولة يمكن الإقدام عليها في سبيل طفلة بجمالها. لكن، مع تعاقب السَّاعات انتقل الخواء من معدتي إلى رأسي. صرت أتخيَّل روائح لا مناظر، خيالات كرات لحم مطبوخة بالصَّلصة على نار هادئة، مع حلوى مخبوزة بالشوكولا الدَّاكنة.

بحلول الظَّهيرة أقنعت نفسي بوجود وجبة من أطباق متعدِّدة في مطبخي. أخرج من الغرفة الزَّرقاء والطِّفلة لاتزال ترضع من صدري. عندما رأيت الموقد مطفأً، وعيونه خالية، والفرن خاو، كدت أنفجر بالبكاء. وضعت الطِّفلة على طاولة المطبخ ورحت أربِّت عليها وأنا أبحث عن شيء لآكله. في عمق الخزانة وجدت عبوة حساء. تتذمَّر الطِّفلة وتبدأ بالبكاء. أرخى الصَّوت عضلات يدي حتَّى بات من المستحيل عليَّ تدوير قفل العبوة. أستسلم في منتصف المسافة فأرفع غطاء العبوة بملعقة وأكرع الحساء بارداً

دون توقُّف للتنفُّس. عندما فرغت رميت العبوة المعدنيَّة في المجلى، فجفلت الطِّفلة من الصَّليل العالي وأقلعت عن البكاء لفترة كانت كافية كي أعيد وجهها ليلامس صدري من جديد. أحملها مجدَّداً إلى الغرفة الزَّرقاء دون أن أسكت جوعي.

بدأ الجمعة كالخميس، باستثناء أنَّ إرهاقي ازداد خلال الأربع وعشرين ساعة، وأنَّني جائعة مثل هذه الطِّفلة الَّتي لا تشبع أبداً. تناولت الفول السُّوداني في الفراش والطِّفلة ترضع. نبَّهتني الأم روبي إلى أنَّ الطِّفلة ستمرُّ بأطوار نمو فطمأنتُ بالي بهذه الفكرة. لا بدَّ أنَّ الخاتمة تقترب. لا يوجد عندي المزيد لأمنحها إيَّاه، هكذا خطر لي وأنا أمرِّر إصبعي تحت الطَّيَّة الجلدية الَّتي كنت يوماً ثدياً مدوَّراً ومكتنزاً.

عند الظَّهيرة أبعد الطِّفلة النَّائمة عن صدري فأرى شفتيها مصطبغتين باللَّون الأحمر. بدت حلمتاي جافَّتين، وقد تشقَّقتا بفعل الرِّضاعة المستمرَّة. كانت الطِّفلة تعبُّ دمي مع حليبي، فلا عجب أن داهمني الإرهاق. لن يبقى شيء منِّي في القريب العاجل. هدهدتها برفق ووضعتها في السَّرير وأنا أدعو أن تبقى نائمة فقط هذه المرَّة. كان هناك طبق واحد من طبخة مارلينا موجود في الثَّلاَّجة.

لكنَّ الطِّفلة استيقظت ما إن وضعتها، وراحت ترفع ذقنها بحثاً عن حلمتي المتقرِّحة، فأتنهَّد. لا يعقل أنَّها مازالت جائعة، لكنَّني حملتها وتركتها تحاول رضاع الحليب من صدري المنكمش.

رضعت الطِّفلة مرَّتين أو ثلاثة فقط قبل أن تغفو ثانية وفمها مفتوح، لكنَّها استيقظت مجدَّداً عندما حاولت تمديدها. تصدر صوت قرقرة ورضاعة ثمَّ تزمُّ شفتيها.

أحملها إلى صدري بعنف أكبر مما قصدت، وأتوَّجه إليها بالكلام، وقد تنامى نفاد صبري: «إن كنت جائعة تفضَّلي، لا تنامي». تكشِّر الطِّفلة ثمَّ تلتقم الصَّدر.

أتنهَّد آسفة على لمستي المتضجِّرة.

«هذا حسن أيَّتها الفتاة الكبيرة»، أتفوَّه بها وأنا أردِّد كلمات الأم روبي، لكنَّ رنَّتها على لساني بدت متكلِّفة ومرائية. أمسح شعر الطِّفلة الَّتي راح ينمو على أذنيها زغب أسود ناعم.

عندما أغفت ثانية نهضت ببطء وسرت بها نحو السَّلَّة. لربَّما تجد الرَّاحة في الحاوية الصَّغيرة المبطَّنة، هكذا خطر لي وأنا أنزلها رويداً رويداً. أنجح في تمديدها، لكنِّي لم أكد أسحب ذراعي بعد حين انطلقت بالبكاء من جديد.

أقف أمامها منصتة إلى بكائها. كنت بحاجة إلى الطَّعام. إدراكي للواقع يختلُّ مع كل ساعة إضافيَّة تمرُّ عليَّ ومعدتي فارغة، لكنَّني ما عدت أتحمَّل صوت زعيقها. الأمَّهات الصَّالحات لا يدعن أبناءهنَّ يبكون. الأمَّهات الصَّالحات يقدِّمن احتياجات أطفالهنَّ كأولويَّة، وأنا أتوق إلى أن أكون أمَّاً صالحة أكثر من أيِّ شيء آخر.

هـذا سـيعوِّض عـن كلِّ أذى سـبَّبته، في حـال اسـتطعت القيـام بعمـل نافـع لشـخص آخـر، فقـط هـذه المرَّة.

أحملها وأقطـع الغرفـة ذهاباً وإياباً مـرَّة أخرى. حلمتـاي بحاجـة إلى اسـتراحة. أدنـدن وأهـزُّ وأخبـو كـما رأيـت مارلينـا تفعـل، لكـنَّ الطِّفلـة لم تسـكن. كانـت تديـر وجههـا مـن جانـب لآخـر مسـتقصية، ثـمّ تمـصُّ الهـواء المنعـش. أجلـس عـلى الأريكـة وأضـع مخـدَّة ناعمـة مـدوَّرة تحـت خدِّهـا، فلـم أسـتطع خداعهـا. راحـت تزعـق أكثـر وهـي ترضـع الهـواء وتلـوك وتمـدُّ ذراعيهـا القصيرتـين فـوق رأسـها. أحـدِّث نفـسي مـرَّة أخـرى، مـن غـير الممكـن أن تكـون جائعـة، هـي ليسـت بحاجـة إلى الطَّعـام.

صـار وجـه الطِّفلـة أحمـر مثـل الـدَّم الَّـذي ينـزُّ مـن حلمتـي. أحملها إلى السَّـلَّة وأضعهـا فيها.

أهـوي عـلى النُّضـد المكسـوِّ بالقرميـد بقبضتـيَّ في المطبـخ. كنـت جائعـة، أمَّـا الطِّفلـة فليسـت كذلـك. عـليَّ أن أراعـي نفـسي. أحتـاج منهـا إلى مجـرَّد سـاعة مـن الصَّـبر حتَّـى أمـلأ معـدتي وأريـح حلمتـاي. أطالـع وجههـا عـبر الغرفـة وقـد صـار لونـه قرمزيَّـاً بسـبب خيبـة الأمـل. هـي تريـدني، ولا تسـتوعب أنَّ جسـدي ليـس ملـكاً لهـا.

أخـرج مـن الغرفـة بعيـداً عـن الضَّجَّـة، وأقـف عنـد نافـذة ناتاليـا. لم أسـتطع حملهـا إلى صـدري. ليـس بعـد إرضـاع دام تقريبـاً لسـتٍّ وثلاثـين سـاعة متواصلـة. أنـا متأكِّـدة أنَّهـا اسـتهلكت كلَّ حليبـي وهـي

تقصد شيئاً أعمق، أكثر تكلفة، شيئاً مرتبطاً بقلبي أو جهازي العصبي. لن تشبع حتَّى تزدردني، حتَّى تستهلك كلَّ سائل وكلَّ فكرة وكلَّ عاطفة فيَّ. سأتحوَّل إلى قوقعة فارغة، متشظِّية، وستبقى جائعة.

اتَّخذت قراري. لا، لا يمكن لها أن تحظى بالمزيد. لن تعود الأم روبي حتَّى الغد، ولا خبر من ريناتا. سأمضي إلى المتجر وآتيها بعبوة غذاء بديل وأطعمها بالرَّضَّاعة حتَّى تشفى حلمتيَّ. سأتركها في سلَّتها وسأقطع المشوار إلى السُّوق ذهاباً وإياباً ركضاً، فحملها إلى متجر البقالة مقامرة. قد يسمع أحدهم عويلها الَّذي يكسر القلب بسبب الجوع، ويدرك عدم كفايتي. وقد يأخذها أحدهم منِّي.

أحمل محفظتي وأنطلق نازلة الدَّرج قبل أن أغيِّر رأيي. أركض صاعدة جانب التلِّ وهابطة الجانب الآخر دون أن ألقي بالاً إلى سيَّارات أو مشاة. تجاوزت الجَّميع. شعرت بجسدي ينشطر، وهو الَّذي لازال يتعافى من آثار الولادة. تتفجَّر نيران بين ساقيَّ وتنتشر عبر نخاعي الشَّوكي إلى نقرتي، لكنِّي بقيت أركض. سأعود قبل أن تدرك الطِّفلة أنَّني غادرت، هكذا حدَّثت نفسي. سأطعمها من القنِّينة وهي بين ذراعيّ، وستشبع في النِّهاية، بعد أيَّام من الرَّضاعة.

كانت الإشارة حمراء عند التَّقاطع المزدحم لشارعي السابع عشر وبوتريرو. أقلعت عن الجري وانتظرت. ألتقط أنفاسي

وأراقب السَّيَّارات والمشاة ينتشرون في كلِّ اتِّجاه. سمعت سائقاً يزمِّر وهو يشتم، ومراهقاً على درَّاجة برتقاليَّة يغنِّي أغنية ما بصوت عال مبتهج، وكلباً بسلسلة قصيرة يطلق زمجرته على حمامة نحاسيَّة. لكنِّي لم أسمع صوت ابنتي، مع أنِّي أبعد بعدَّة تجمُّعات عن شقَّتي. تعلوني دهشة: بدا افتراقنا سهلاً وتامَّاً بصورة صادمة.

يعاود قلبي إيقاعه المعتاد. أتابع الإشارة وهي تتلوَّن بالأخضر، ثمَّ الأحمر، فالأخضر ثانية. العالم يتابع نواميسه منشغلاً وغافلاً عن الطِّفلة الباكية على بعد ستَّة مجمّعات، الطِّفلة الَّتي ولدتها لكنِّي لم أعد أسمع صوت بكائها. الحيُّ يبدو كما بدا منذ أسبوع مضى، ومنذ أسبوعين قبل ذلك، كما لو أنَّ شيئاً لم يكن. لم يهتم أحد إلى حقيقة انقلاب حياتي رأساً على عقب، وهنا على الرَّصيف، بعيداً عن بؤرة الانقلاب، بدا خوفي بلا مبرِّر. الطِّفلة بخير. هي قد تغذَّت جيداً وبإمكانها الانتظار.

عبرت التَّقاطع عند الانتقال الثَّاني للإشارة إلى اللَّون الأخضر، وسرت ببطء باتِّجاه السُّوق. ابتعت ستَّ عبوات من الغذاء البديل، وخلطة مكسَّرات، ونصف غالون من عصير البرتقال، وشطيرة لحم ديك رومي من مطعم. أقطع الطَّريق الطَّويل إلى المنزل سيراً على الأقدام، وأزدرد حفنة من اللَّوز والزَّبيب. يمتلئ ثدياي ويأخذان بتسريب الحليب. تهيَّأ لي أنَّني سأدعها ترضع لمرَّة أخرى وأخيرة، فيملأ الحنان المدى الَّذي خلقته بيننا.

أدخل العمارة وأصعد الدَّرج. كانت الشَّقَّة صامتة وبدت

فارغـة، وللحظـة خيِّـل إليَّ أنَّنـي أعـود إلى البيـت بعـد تسـليمي الزُّهـور كـي أسـتحم أو لأقيِّـل، بمفـردي. كانـت خطـواتي خرسـاء عـلى السَّـجَّادة، لكـنَّ الطِّفلـة اسـتيقظت بـكلِّ الأحـوال وكأنَّهـا تستشـعر قدومـي. وراحـت تبكـي.

أرفعهـا مـن السَّـلَّة لنسـتقرُّ عـلى الأريكـة سـويَّة، والطِّفلـة تحـاول الرَّضاعـة مـن فـوق القـماش المبلَّـل لقميـصي القطنـي. أرفـع قميـصي لتبـدأ الرِّضاعـة. يداهـا المتغضِّنتـان تطبقـان عـلى إصبعـي الممتـد وهـي تلتقـم صـدري، وكأنَّ حقيقـة وجـود حلمتـي في فمهـا ليسـت كافيـة لإثبـات عـودتي. وبينـما هـي ترضـع، أتنـاول أنـا شـطيرة الدِّيـك الرُّومـي. تفلـت مـن فمـي قطعـة لحـم رقيقـة فتسـقط عـلى صدغهـا، لتعلـو وتهبـط حسـب احتـدام الرِّضاعـة. أنحنـي وأتنـاول قطعـة اللَّحـم مـن عـلى وجههـا وأنفحهـا قبلـة بنفـس الوقـت. تفتـح عينيهـا وتنظـر في عينـيَّ. ومـن حيـث توقَّعـت الغضـب أو الخـوف، أتتنـي السَّـكينة وحسـب.

لن أتركها ثانية.

(١٠)

كان الظَّلام قد حلَّ حين عدت إلى بيت اليزابيث.

من التَّوهُّج الخفيف البادي من نوافذ الطَّابق العلويِّ تخيَّلتها تجلس إلى مكتبي، تترقَّب، وكتاب سميك مفتوح أمامها. ما فوَّتُّ الغداء قط، لذا ستقلق بشأني. أخبِّئ الحقيبة المشغولة الثَّقيلة تحت درجات الشُّرفة وألج إلى الدَّاخل. يصدر المنخل صريراً عندما أفتحته.

«فيكتوريا؟»، تناديني اليزابيث من فوق السُّلَّم.

فأردُّ: «نعم. لقد عدت».

(١١)

عادتنـا الأم روبي يـوم السَّـبت كـما سـبق وأن وعدتنـا. افترشـت الأرض خـارج الغرفـة الزَّرقـاء، فأديـر وجهـي بعيـداً. كان وزر مـا فعلـت يثقـل عـلى كاهـلي حـدَّ التَّعذيـب، وأنـا واثقـة أنَّ الأمَّ روبي ستكتشـف الأمر. المرأة الَّتي تطوف بحيٍّ ما وهي تستشـعر الـولادة قبـل اسـتدعائها سـتحدس حـين يتعـرَّض طفـل مـا للخطـر. فرحـت أترقَّـب الاتِّهـام.

تخاطبنـي، فتؤكِّـد مخـاوفي: «أعطنـي الطِّفلـة يـا فيكتوريـا. هيَّـا ناولينـي إيَّاهـا».

أمـرِّر خنـصري مـا بـين حلمتـي ولثَّـة الطِّفلـة كـما علَّمتنـي الأمُّ روبي، فيتوقَّـف الشَّـفط. أمسـح فـم الطِّفلـة بإبهامـي محاولـة إزالـة الـدَّم الجـافِّ عـن شـفتها العليـا لكـن، بـلا فائـدة. أناولهـا اللَّفَّـة مـن فـوق كتفـي دون أن أسـتدير.

تتلقَّفهـا الأمُّ روبي وتقـول: «أيَّتهـا الفتـاة الكبـيرة، لقـد اشـتقت إليـك».

انتظـرت حتَّـى تنهـض الأمُّ روبي وتخـرج مـن البـاب، آخـذة طفلتـي معهـا، لكنَّنـي مـا سـمعت إلَّا صـوت الميـزان ذي النَّابـض.

«اثنتا عشرة أونصة»، يتعالى صوت الأم روبي المبتهج. «هل تزدردين أمَّك وهي حيَّة؟».

فأهمس: «أؤكِّد لك ذلك». تتلقَّف الجدران كلماتي فلا يسمعها أحد.

تتوجَّه الأم روبي إليَّ بحديثها: «اخرجي من هناك يا فيكتوريا. دعيني أدعك قدميك أو أجهِّز لك لفافة جبن مسخَّنة. لا بدَّ أنَّ عنايتك بهذه الطِّفلة مثلما تبدو قد أنهكتك». لم أتحرَّك. أنا لا أستحقُّ ثناءها.

مدَّت الأم روبي يدها وراحت تربِّت على جبهتي: «لا تجبريني على الدُّخول إلى هناك، لأنَّك تعرفين أنَّني سأفعل».

بلى، أعرف أنَّها ستفعل. استلقت أوعية الغذاء البديل عند قدميَّ، وهي لاتزال في الكيس، شاهدة على ما اقترفت. أركلها كي أبعدها إلى الزَّاوية وأستدير لأزحف خارجة بقدميَّ أوَّلاً. أجلس على الأريكة وأنا أنتظر اكتشاف الأمِّ روبي للحقيقة، لكنَّها لم تنظر إلى وجهي، بل رفعت قميصي ودعكت حلمتاي المتشقِّقتين بمادة من عصَّارة برائحة الخزامى. تركت المادَّة شعوراً بالتَّبريد فانتفى الألم اللَّاذع.

«احتفظي بهذه»، تخاطبني الأمُّ روبي وهي تغلق راحتي على العصَّارة. تدير ذقني وتنظر في عينيَّ، عينيَّ الغارقتين في الذَّنب، وتسألني: «هل تنامين؟».

أقلِّب أحداث اللَّيلة السَّابقة في فكري. بعد أن أجهزت على الشَّطيرة، مضينا أنا والطِّفلة إلى الغرفة الزَّرقاء مباشرة، وهناك تلتصق بجسدي ثانية وتغمض عينيها. رضعت وابتلعت وأغفت بإيقاع موجع، فتركتها تفعل وأنا أتقبَّل الألم كعقوبة، ولم أنم.

أكذب قائلة: «نعم. أنام جيداً».

فتردُّ: «هذا حسن. ابنتك تنمو، وإنَّني لفخورة بك أيَّما فخر».

أرنو ببصري عبر النافذة دون أن أجيب.

تسألني الأمُّ روبي: «هل أنت جائعة؟ هل تتلقَّين المساعدة الكافية؟ هل تريدين منِّي القيام بشيء قبل أن أمضي؟». كنت أتضوَّر جوعاً، لكنِّي ما كنت في وارد تلقِّي إطراء آخر، فأهزُّ رأسي بالنَّفي.

تناولني الأم روبي الطِّفلة وتبعد ميزانها، ثمَّ تقول: «حسن إذن». كانت عيناها منحطَّتين على وجهي، تتمعَّنان به وكأنَّهما تفتِّشان عن دلائل، فألوي عنقي بعيداً. لم أكن أريدها أن تراني.

نهضت لتغادر، فأنتتر واقفة على نحو مفاجئ لأودِّعها. وبلا مقدِّمات، أشعر بانعدام الخوف إن هي تمعَّنت في وجهي واكتشفت ذنبي، بل أكثر ما أخافني هو أن يخطر لي أنَّها تغادر وهي غافلة، لا تعرف ما ارتكبت، دون أن تقدم على شيئ يردعني عن تكرار الفعلة. لكنَّ الأمَّ روبي ابتسمت لي وانحنت لتقبِّل خدِّي قبل أن تمضي.

أردت أن أخبرها كي أبرئ ذمَّتي وأطلب العفو، لكنَّ الكلمات هجرتني. كلُّ ما استطعت تدبُّره هو أن أقول: «إنَّه أمر صعب». همست بها فاستدارت وهي تنزل السُّلَّم، ولم تكن تسمن أو تغني.

تردُّ الأمُّ روبي: «أعلم يا حبيبتي، لكنَّك تتدبَّرين الأمر. أنت مطبوعة على أن تكوني أمَّاً، بل وأمَّاً صالحة أيضاً»، ثمَّ تهبط الدَّرج نازلة.

لا، لست كذلك، تخطر ني الكلمات بمرارة. أردت أن أخبرها أنَّني لم أحبب أحداً قط، وأطلب منها أن تفسِّر لي كيف يتوقَّع من امرأة عاجزة عن منح الحبِّ أن تكون أمَّاً، بله أمَّاً صالحة فوقها. لكن، وأنا أفكِّر بالكلمات كنت أعلم أنَّها لا تحمل الحقيقة. قد طرق الحبُّ باب قلبي أكثر من مرّة. في واقع الأمر لم أتعرَّف إلى كنه الشُّعور حتَّى فعلت كلَّ ما في استطاعتي لدحضه.

تتوقَّف الأمُّ روبي لدى وصولها إلى آخر الدَّرج، وتلتفت. بدت ضئيلة الحجم، غافلة، وبدا أنَّ اعتمادي عليها كان في غير محلِّه. ظهرت كعجوز متطفِّلة لا أكثر، هكذا خطر لي. هناك تحوُّل يطرأ على دواخلي، فأشعر بالطِّفلة الغاضبة الَّتي كنت عليها يوماً تعاود سكناي. كلُّ ما أردتُّه من الأمِّ روبي هو أن تغادر وحسب.

تنده عليَّ في الأعلى حيث وقفت: «ماذا عن الاسم؟ أليس للطِّفلة اسم بعد؟».

أهزُّ رأسي بالنَّفي: «لا».

فتردُّ: «سيوحى إليك باسم».

أردُّ عليها بفظاظة: «لا، لن يوحى إليَّ باسم».

لكنَّ الأمَّ روبي كانت قد خرجت من الباب فعلاً.

بعد مغادرة الأمِّ روبي وضعت الطِّفلة في سلَّتها وبمعجزة صغيرة غفت باطمئنان معظم فترة ما بعد الظُّهر، فأخذت حمَّاماً طويلاً وساخناً. يتلبَّس جسدي يأس صريح، إحساس بتنميل خدر، فأفرك أطرافي كما لو أنَّ السُّخط سببه خارجي ويمكن أن يشطف ليصرف في البالوعة. عندما خرجت من الحمَّام كان لون جلدي ورديَّاً، وبه انكشاطات كلطخ حمراء. انتقل اليأس إلى مكان أكثر سكوناً وأعمق غوراً. تظاهرت بالنَّظافة والانتعاش، وأنا أتجاهل وزَّه الخفيض واللَّجوج. أرتدي بنطالاً فضفاضاً وقميصاً سميكاً ثمَّ أفرك المرهم من عصَّارة الخزامى على بقع الجلد المسلوخ في ذراعيَّ وساقيَّ.

أصبُّ لنفسي كأساً من عصير البرتقال وأفترش الأرض، وأنا أناظر سلَّة الطِّفلة. حين تستيقظ سوف أرضعها، وحين تنهي رضعتها سنخرج لنتمشَّى. سأحمل السَّلَّة على الدَّرج ونخرج من الباب، وسيكون الهواء المنعش مفيداً لكلتينا. قد أصعد بها إلى ميدان ماكينلي وأعطيها درساً في لغة الزُّهور. لن تتجاوب لكنَّها ستتفهَّم. لديها عينان، حين تفتحهما، يجعلاني أوقن أنَّها تفهم كلَّ ما أقول وكثيراً مما لا أقول. في عينيها عمق وغموض كما لو أنَّها لازالت متَّصلة بالمكان الَّذي خرجت منه.

كلَّما طالت غفوة الطِّفلة، كلَّما انتحى اليأس، حتَّى إنَّني دفعت نفسي تقريباً للظَّنِّ أنَّني تغلَّبت على ثقله. قد لا يكون ركضي إلى محلِّ البقالة قد تسبَّب في ضرر دائم، وأنَّني قادرة على القيام بالمهمَّة الملقاة على عاتقي، كما صرَّحت الأمُّ روبي. ما كان من المنطقي التَّفكير بإمكانيَّة التَّخلِّي الكامل عن المنحى الَّذي انتهجته طيلة ثماني عشرة سنة. لا بدَّ من انتكاسات، فقد أمضيت حياتي ناقمة ووحيدة، ولا يمكنني أن أحبَّ وأرتبط بين ليلة وضحاها.

أجلس إلى جوار الطِّفلة على الأرض فأشتمُّ رائحة القشِّ الرَّطب الَّتي تفوح من السَّلَّة. سأنام. لكن، قبل أن أغمض عينيَّ يحلُّ الصَّوت المعتاد لفمها المفتوح والمستقصي محلَّ إيقاع تنفُّسها.

أتلصَّص عليها في السَّلَّة فتنظر إليَّ بعينيها المبحلقتين، وفمها يلوك. منحتني فرصة للنَّوم فضيَّعتها، ولن تسنح واحدة أخرى قبل مرور ساعات، إن لم نقل أيَّام. أحملها. تتفجَّر عيناي، وعندما تطبق فكَّها تنساب الدُّموع من مقلتيَّ فوق خدَّيَّ، فأمسحها بظاهر كفِّي. المصُّ المسعور لثديي استحضر اليأس من حيث استقرَّ، فيوسوس مثل الوشوشة الخفيضة للمحارة، وكأنَّه انعكاس لشيء أخطر.

رضعت الطِّفلة ما شاء اللهَّ لها أن ترضع، وأنا أنقِّلها من طرف إلى طرف وأتفقَّد ساعتي. انقضت ساعة كاملة وهي لم تسكت إلَّا شطراً من جوعها. تتحوَّل تنهيدتي إلى أنين منخفض كلَّما كرَّرت الإطباق على صدري.

عندما غفت أخيراً، حاولت تبديل الحلمة الَّتي ما زالت محشورة بين شفتيها بخنصري، لكنَّها تشقُّ عينيها المتعبتين وتفتحهما لتبدأ النَّغر متذمِّرة.

أخاطبها: «حسن، أنا انتهيت، وأحتاج إلى استراحة». أمدِّدها على الأريكة وأتمطَّى. تتحوَّل نغراتها إلى سلسلة من الصَّرخات الخافتة، فأتنهَّد. كنت أعرف ما تريد، وكنت أعرف كيف أمنحها ما تريد. بدا أنَّ الأمر ينبغي أن يكون بسيطاً. قد يبدو بسيطاً لأمَّهات أخر، لكن، ليس لي. خبرت أثره لساعات وأيَّام وأسابيع، وكلُّ ما أحتاجه هو بضع دقائق لنفسي. أثناء توجُّهي نحو المطبخ راحت تبكي بصوت أعلى، فردَّني الصَّوت.

أجلس وأحملها وأنا أخاطبها: «خمس دقائق أخرى، ثمَّ سنخرج. لست بحاجة إلى المزيد».

لكن، حين أضجعتها في السَّلَّة بعد مضيٍّ خمس دقائق، صاحت وكأنَّني سألقيها في النَّهر، ولن تراني بعدها أبداً.

أسألها، واليأس يرتع حول حمى الغضب: «ما الَّذي تريدينه؟». حاولت هزَّ السَّلَّة كما فعلت مارلينا، لكن، حين هززتها انتفضت وراحت تبكي بشدَّة أكبر.

أناشدها قائلة: «لا يمكن أن تكوني جائعة»، ثمَّ أنحني مقتربة من أذنها الصَّغيرة بشكل يجعل صوتي يطغى على صوت بكائها.

تدير وجهها نحوي وتحاول التقام أنفي. ينِدُّ عنّي صوت هستيري، شخير يحسبه المتابع ضحكاً، غير عابئ بانهياري القريب.

أقول: «حسن، تفضَّلي». أشمر قميصي وأدفعها بقوَّة إلى صدري. تعافر حتَّى تفتح فمها بسبب ضغط كفِّي. وحين تفتحه أخيراً، تتوقَّف عن البكاء وتبدأ الرَّضاعة.

أخبرها قائلة: «هو فصل الختام، فالأفضل أن تستمتعي». حملت كلماتي نبرة التَّهديد، وقد التقطتها أذناي وكأنَّها تصدر عن شخص آخر.

أسند الطِّفلة بيد واحدة، وهي لا تزال ترضع، وأزحف إلى الغرفة الزَّرقاء، لأتناول كيس الغذاء البديل وأفرغه، فتتناثر العبوات السِّتُّ على الأرض. أمدُّ يدي لألتقط واحدة فتملص الحلمة من فكِّ الطِّفلة، ليتعالى عويلها ملتاعة.

«أنا هنا»، أنطقها وأنا أعبر الغرفة وأضعها على نضد المطبخ، لكنَّ كلماتي لم تهدِّئ أيّاً منَّا. تلوَّت الطِّفلة فوق المنضدة وأنا أفرغ عبوة الغذاء البديل في قنِّينة وأحكم إغلاق الغطاء. أقرِّب الحلمة اللَّدنة من شفتي الطِّفلة، وأنتظر أن تفتح فمها. وعندما لم تفتحه، أباعد شفتيها بأصابعي وأدخل الحلمة غصباً، فتقيء.

ألتقط أنفاسي وأحاول تهدئة نفسي. أحمل القنِّينة والطِّفلة إلى الأريكة فأقعد وأعدِّل جلستها حتَّى يستقرَّ رأسها على ثنية مرفقي. أقبِّلها بين حاجبيها، فتحاول التقام أنفي ثانية، فأدفع

بحلمـة القنِّينـة إلى فمهـا المفتـوح. ترضعهـا مـرَّة واحـدة ثـمَّ تمجُّهـا لينسـاب الطَّعـام خارجـاً مـن طـرف فمهـا، وتعـاود الصِّيـاح.

أخبـط الرَّضَّاعـة جانبـي وأقـول: «أنـت لسـت جائعـة إذن. إن لم تتنـاولي هـذا فأنـت غـير جائعـة».

أعيدهـا إلى السَّـلَّة برفـق. سـأتركها تبكـي لدقيقتـين أو ثـلاث لأثبـت لهـا جدِّيَّتـي. وعندمـا أحملهـا ثانيـة سـتتقبَّل الرَّضَّاعـة إذ لا خيـار أمامهـا. لكنَّهـا لم تتقبَّلهـا.

تركتهـا تبكـي لخمـس دقائـق إضافيَّـة، ثـمَّ لعـشر؛ جرَّبـت حملهـا؛ جرَّبـت إطعامهـا في السَّـلَّة؛ جرَّبـت تمديدهـا عـلى فـراشي الرِّيـشي وتلقيمهـا الرَّضَّاعـة، لكنَّهـا بقيـت عـلى رفضهـا للرَّضـاع منهـا. أستسـلم في النِّهايـة فأغلـق البـاب. يتعـالى بـكاء الطِّفلـة في عتمـة الغرفـة الزَّرقـاء وهـي لوحدهـا.

أسـتلقي عـلى أرضيَّـة غرفـة المعيشـة فتنغلـق عينـاي لاإراديـاً. صـار صـوت البـكاء بعيـداً ومزعجـاً، لكنَّـه لم يعـد غامـراً. أتمـدَّد وأنسـى مصـدر الصَّـوت أو سـبب محـاولتي إسـكاته. يغشـى التَّنـاسي جسـدي ويتركنـي بكـر المشـاعر، وقـد بـدا الضَّبـاب المحيـق بإرهاقـي مسـتغلقاً.

لم أسـتيقظ مجفلـة إلى أن توقَّـف صـوت البـكاء. يـسري في جسـدي تيَّـار مـن خـوف أنَّنـي قتلـت ابنتـي. كان الظَّـلام قـد حـلَّ فلـم أعـرف كـم مـضى مـن الوقـت. قـد تكـون السَّـاعات الَّتـي مـرَّت بـدون أكل، إلى جانـب غرفـة بـلا ضـوء، كافيـة لقتـل طفلـة حديثـة الـولادة. كانـت

معلومـاتي ضحلـة عـن حديثـي الـولادة، وعـن البـشر كذلـك. أن أتـرك لوحـدي برفقـة رضيعـة، لتقـع عـلى كاهـلي مسـؤوليَّة نَفْس، بـدا لي كمزحـة مرعبـة. أندفـع إلى الغرفـة الزَّرقـاء فاتحـة البـاب، لكـن، قبـل أن أمـدَّ يـدي لأتحسَّـس نبضهـا، راحـت تبكـي.

كان جسـدي يجيـش بالعواطـف، وبالارتيـاح، ولكـن بقنـوط لا يمكـن إنـكاره أيضـاً، تـلاه مبـاشرة إحسـاس بالعـار. أضـمُّ الطِّفلـة إلى جسـدي، أقبِّـل رأسـها في محاولـة للتَّغطيـة عـلى خيبـة الأمـل الَّتـي لم يعد بمقـدوري طمسـها. ألصـق الرَّضَّاعـة بفـم الطِّفلـة. عليهـا أن تتعلَّـم أن تـشرب الطَّعـام البديـل، فإرضاعهـا أكـبر مـن تحمُّـلي، ولـن يمكننـي المواظبـة عليـه. إن أردت الاحتفـاظ بالطِّفلـة، عـليَّ إيجـاد طريقـة أتَّبعهـا لأصـير الأمَّ الَّتـي أسـتطيع أنـا أن أكونهـا. حاولـت الطِّفلـة هـذه المـرَّة أن ترضـع، لكـنَّ الجـوع أرهـق شـفتيها، كـما أنَّ الرّضَّاعـة بـدت قاسـية ولا تطاوعهـا.

لا بـدَّ أنَّ الحلمـة كانـت عاطلـة. كان هـذا التَّفسـير الجـلي لعنـاد طفلتـي في رفضهـا. مـن بـين المئـات المرصوصـة عـلى الـرَّفِّ أشـتري الأرخـص. أطـوِّح بالرَّضَّاعـة إلى المطبـخ لترتـدَّ عـن الحائـط وتسـقط عـلى الأرض، فتعـاود الطِّفلـة البـكاء.

أضعهـا في السَّـلَّة وأمـضي. كان ثديـاي ممتلئـين فراحـا يقطـران عـلى سـجَّادة المكتـب المبقَّعـة، لكنِّـي لـن أرضعهـا حليـب جسـدي. إنَّـه وضـع لا يحتمـل. سأشـتري لهـا رضَّاعـة جديـدة، وسـتتقبَّلها، لتهـدأ مخـاوفي.

أنـزل الـدَّرج درجتـين، ويعلـو صـوت بكائهـا أكثـر، فيـما المسـافة الَّتـي تفصـل بيننـا تـزداد. أخـرج راكضـة عـلى الرَّصيـف، فأقطـع المجمَّـع بـأسرع ممَّـا فعلـت أبـداً في حيـاتي. أجتـاز الشَّـوارع بتهـوُّر، وأنـا أركـض بنفـس الاتِّجاه الَّـذي اتَّبعتـه لـشراء الغـذاء البديـل قبـل يـوم فقـط. لكـن، لـدى وصـولي إلى شـارع فيرمونـت ألـفُّ يسـاراً بـدلاً عـن اليمـين. لم أفكِّـر إلى أيـن أتَّجـه، ولم أتوقَّـف عـن الجـري حتـى بلغـت درجـات ميـدان ماكينـلي. أدبُّ بشـدَّة عـلى العشـب المشـذَّب، وأنهـار فـوق أزهـار الملِّيسـة البيضـاء لأتدحـرج إلى حيـث كان مخبئـي تحـت شـجيرات الخلنـج وأغمـض عينـيَّ. سـأمنح نفسي خمس دقائـق، خمـس دقائـق وحسـب في المتنـزَّه، وعندمـا أرجـع إلى رضيعتـي سـأكون قـادرة عـلى التَّعامـل معهـا. أغطِّـي رأسي بذراعـي وأبحـث في العتمـة عـن البطَّانيَّـة البنِّيَّـة الَّتـي لم تكـن هنـاك. يغشـاني النُّعـاس ثانيـة، وقـد بـتُّ مطمئنَّـة، ومسـترخية، ومرتاحـة. لا شيء إلَّا العتمـة، والوحـدة، والتِّيجـان البيضـاء لزهـور الملِّيسـة وهـي تدعـو لي وللطِّفلـة الَّتـي لـن أتـرك لنفسي مجـالاً لتذكُّرهـا.

(١٢)

«افتقدتُّك اليوم»، توجِّه اليزابيث كلامها إليَّ لدى دخولي الغرفة.

لم تسأل أين كنت، ولم أقدِّم تفسيراً. أندسُّ في الفراش وأسحب الملاءات فوق رأسي وأتكوَّر مستلقية على جنبي، وأولِّي ظهري شطر المقعد حيث جلست.

تقول في هدوء: «أنا أحبُّك يا فيكتوريا، وكلِّي أمل أنَّك تدركين هذا». في المرَّة الأولى الَّتي صرَّحت بحبِّها، صدَّقتها. لكن الآن تنزلق كلماتها عن قلبي انزلاق الماء عن الحجر. يصدر كرسيُّ المقعد صريراً وهو يحتكُّ بخشب الأرضيَّة حين تنهض، وأشعر بالفراش ينخفض إذ انتقلت إلى حافَّة السَّرير. تضع يداً على كتفي، فأتساءل: «ماذا فعلت؟».

انطلق السُّؤال صادماً وعلى عواهنه، فشعرت بجسد اليزابيث ينكفئ. بقيت ساكنة لوقت طويل، ثمَّ، في النِّهاية، تتمدَّد إلى جانبي.

تخبرني ببساطة: «وقعت في حبِّ رجل يوماً. كان ذلك منذ زمن بعيد. كان انجليزيَّاً وقد تواجد هنا بغرض التَّدرُّب في واحد

من مصانع الخمرة الكبيرة، ويقع على بعد أميال قليلة من الطَّريق. غمرتني سعادة ما شعرت بها من قبل. ثمَّ، خطفته منِّي كاثرين، شقيقتي وأعزُّ صديقاتي».

تنقلب اليزابيث إلى جنبها وتضع ذراعها فوق جسدي. حرنت لكنّي لم أقاوم، وأنا أترقَّب منها المتابعة. «بعد سنة ولد غرانت. لم أستطع النَّظر إليه لسنوات دون أن أتذكَّر والده، ودون أن تعيد ذاكرتي شريط كلِّ ما فقدت. لكنَّ والده غادر، ولا أعرف إن كان على علم أساساً بحمل كاثرين. قامت بتربية غرانت بمفردها».

تدنو اليزابيث منِّي أكثر حتَّى تحتلَّ ركبتاها الفراغ الواقع خلف ركبتيَّ. عندما تابعت حديثها كان وجهها يستند إلى البطَّانيَّة الَّتي تغطِّي يأفوخي، فكان لزاماً عليَّ أن أجهد كي أقدر على سماع كلماتها.

تهمس قائلة: «واتتني الفرصة يوماً كي أسامحها. كان غرانت حينها لا يزال رضيعاً عندما اقتربت منِّي كاثرين في سوق المزارعين. اعتذرت لي وهي تبكي وأخبرتني بمقدار افتقادها لي. كانت فرصتي كي أستعيد وجودها في حياتي، لكن، بدلاً من ذلك، صددتها. ما قدرت على ذلك. أسمعتها كلمات قاسية، كلمات أبقتني متنبِّهة طوال اللَّيل».

هي تستحقُّ ذلك، هكذا قدَّرت. تستحقُّ كاثرين كلَّ كلمة تفوَّهت بها اليزابيث، بل وأكثر. ملأ قلبي غضباً فكرة أنَّ اليزابيث

على وشك الانتقال إلى منزل المرأة الَّتي خانتها. آخذ نفساً عميقاً وأتمسَّك بالصَّبر.

انتظرتُ اليزابيث كي تتحدَّث لفترة خلتها ساعات، وأنا عالقة بقبضتها الحانية، لكنَّها بدت هادئة وقد أنهت قصَّتها. مع سريان قلقي من احتمال نومها، تنهض وتغادر الغرفة على رؤوس أصابعها. ينفتح صنبور المغسلة الَّذي في الحمَّام وينغلق، يتدفَّق ماء المرحاض، ثمَّ يغلق باب غرفتها، ليسود الهدوء بعدها. فأنسلُّ نازلة عن سريري.

في الدَّور الأرضي، أتسلَّل عبر المطبخ وأخرج من الباب الخلفي. كانت الحقيبة المشغولة ما تزال قابعة أسفل الدَّرجات حيث خبَّأتها، وهي ممتلئة وثقيلة. أحملها وأضمُّها إلى صدري. ترنُّ العبوات الزُّجاجية داخلها ثمَّ تسكن.

حدَّدت وجهتي بالضَّبط مبكِّراً، حين كنت متكوِّرة على نفسي في الخندق، فتوجَّهت بسرعة صوب الطَّريق. لم يشرق القمر، لكنَّ النُّجوم أضاءت المكان فيما أنا اغذُّ السَّير باتِّجاه الزَّاوية الشَّمالية الشَّرقيَّة. هنا، ولأنَّها محشورة بين اسمنت سوق المزارعين والطَّريق السَّريع، تعلو الجفنات الموجودة غبرة وتظلُّ جافَّة على الدَّوام. وفي الخريف، تبقى العناقيد حامضة طويلاً بعد قطاف المساحات الأخرى.

أنزع غطاء العبوة الزُّجاجيَّة الأولى. فيسيل سائل الولَّاعات

على الحواف، وينسال بشكل حلزوني على ثلم الزُّجاجة من الأعلى. أفرغ محتواها ببطء على ساق الكرمة وأنا أمسك بالعبوة بعيداً عن جسدي حتَّى لا يرتدَّ السَّائل إلى أصابع قدمي العارية. حين أتمُّ إفراغ العبوة الأولى أقوم بفتح الثَّانية وأتحرَّك على طول الصَّف. خيِّل إليَّ أنَّ محتويات الحقيبة لن تنتهي، وأنا أنتقل بسرعة وبدون انتظام، وأرشُّ بيديَّ سائل الولَّاعات بشكل هستيري على الشُّجيرات. لدى وصولي إلى نهاية الصَّف، أعود من حيث أتيت وألتقط العبوات الزُّجاجيَّة الَّتي تبعثرت على الأرض.

عند الدَّرجة العليا من الشُّرفة، وفي نفس المكان الَّذي جلسنا فيه يوماً أنا واليزابيث لنسلك زهرات الأقحوان في خيط، أصفُّ العبوات الزُّجاجيَّة، واحدة تلو الأخرى، ثمَّ أمضي إلى المطبخ لجلب الكبريت.

أرجع إلى الطَّريق وأتلمَّس أثر الرُّطوبة لينتهي بي المطاف قرب الدّرب، فأعود أدراجي. أمسك بمجموعة من أعواد الثِّقاب معاً وأحكُّها على الشَّريط العريض والخشن للعلبة. يشتعل أحدها ليتلوه البقيَّة بتتابع سريع حتَّى صار في يدي كرة متلاعبة الألسنة وملتهبة. تهبط النَّار باتِّجاه رؤوس أصابعي فأنتظر حتَّى باتت الحرارة لا تحتمل، بله مؤلمة، فأرميها على الأرض.

يسود هدوء قصير، ثمَّ يعلو حسيس مسعور، مثل هدير نهر مندفع، وتليه سلسلة من الفرقعات العالية، لترتفع الحرارة بعدها. أستدير وأجري باتِّجاه البيت، كما خطَّطت، لجلب ماعون فيه ماء،

لكنَّ النَّار كانت أسرع منِّي. أنظر خلفي فأرى ألسنة اللَّهب تنطلق بعيداً عنِّي وهي تشقُّ درباً خفيَّة عبر الشُّجيرات والكرمة. توقَّعت أن تبقى النَّار في حدود السُّوق الَّتي بلَّلتها، لتستعر هناك حتَّى أجري إلى الدَّاخل لأجلب دلاء الماء، لكنَّ النَّار لم تنتظر.

أقفز الدَّرجات ثلاثاً ثلاثاً، وأهرع إلى المطبخ. أعيد علبة الثِّقاب وأصرخ على اليزابيث الَّتي فزَّت في الحال. أسمع وقع خطواتها يتَّجه إلى غرفتي، وهي تنادي عليَّ باسمي.

أزعق قائلة: «هنا في الأسفل». كنت عند المجلى أملأ طنجرة بالماء. تقرقع تمديدات الماء في المنزل القديم لتنساب المياه ببطء على شكل دفقات مترافقة بصوت الهواء المضغوط.

أمسك الإناء بإحكام وأعبر المطبخ في نفس اللَّحظة الَّتي تنزل فيها اليزابيث السُّلَّم، فنستدير معاً، جنباً إلى جنب، وأنظارنا مشدودة إلى مصدر الضَّوء.

صار لون السَّماء قرمزيَّاً، وقد اختفت النُّجوم. ونحن نتابع المشهد، تنتقل النِّيران إلى الخندق على جانب الطَّريق، على بعد ربع ميل من الشَّوك الجافِّ الَّذي تأتي عليه بطرفة عين. بدا جدار اللَّهب الَّذي ارتفع وكأنه يتصاعد إلى السَّماء، ومن ورائه اختفت العقارات المحيطة، لتبقينا أنا واليزابيث وحيدتين تماماً.

ومثل سريان الكهرباء في الأسلاك، تسري النِّيران في خطوط عبر الكرم.

(١٣)

استيقظت مع ارتفاع قرص الشَّمس. كان جسدي يؤلمني، وعلى خدِّي انطبعت آثار الغابة. قد غفوت لستِّ ساعات، أو لسبع ربَّما. أكافح كي اتَّخذ وضعيَّة الجلوس، فأعدِّل جلستي مبتعدة عن رامتي وحل دائريَّتين متجمِّعتين تحت شجيرة الخلنج.

المدينة تستيقظ. المحرِّكات تضجُّ بالحياة، والمكابح تزعق، والطُّيور تزقزق. في الشَّارع أدنى منِّي، تترجَّل طالبة مدرسة عن حافلة. كانت بمفردها، وتمضي لتمشي بسرعة في الشَّارع وهي تحمل في يدها باقة زهور. لم أستطع أن أتبيَّن ما تحمل.

أزفر. وددت لو كنت تلك الفتاة أكثر من أيِّ شيء آخر، وددت لو عدت طفلة فأحمل الزَّعفران أو الزَّعرور أو العايق بدلاً من دلاء الشَّوك. أردت أن أفتِّش في منطقة الخليج الشَّمالي حتَّى أعثر على اليزابيث، لأعتذر وألتمس الصَّفح. أردت أن أبدأ حياتي مجدَّداً، على مسار لن يؤدِّي بي إلى هذه اللَّحظة الَّتي أستيقظ فيها وحيدة في متنزَّه المدينة، وابنتي لوحدها في بناء من شقق فارغة. قد أودى بي كلُّ قرار اتَّخذته إلى هنا، وأريد أن أمحوها كلَّها، أريد أن أمحو الكراهية واللَّوم والعنف. أريد أن أتناول الطَّعام مع ذاتي

المغضبة بنت السَّنوات العشرة، كي أحذِّرها من هذا الصَّباح، وأقدِّم لها الزُّهور لتهديها سبيلاً مختلفة.

لكنِّي لا أستطيع التَّراجع. لا يوجد إلَّا الآن: هذه الغابة في المدينة، وابنتي الَّتي تنتظر. ملأتني الفكرة بالهلع. لم أدر ما يمكن أن ألاقي حين أعود إلى الشقَّة. لا أدري إن كانت لا تزال تصرخ، أو أنَّ الوقت والوحدة والجوع قد ذهبوا برئتي ابنتي تماماً مثل مدٍّ عارم.

لقد خذلت ابنتي. فشلت بعد مرور أقلَّ من ثلاثة أسابيع على الولادة وإطلاق الوعود لنا كلتينا، ثمَّ فشلت مرَّة أخرى. وسأبقى أدور في نفس الحلقة المفرغة: وعود وخذلان، أمَّهات وبنات، إلى ما لا نهاية.

(١٤)

أخـذت ذراعـاي ترتجفـان بشـدَّة، فراحـت الميـاه تندلـق عـلى اليزابيـث مـن الماعـون. تدفعهـا طشَّـات المـاء البـارد إلَّى التـصرُّف، فتهـرع إلى الهاتـف الموجـود في المطبـخ بينـما أعـدو أنـا خارجـة مـن البـاب الرَّئيسي لأتعثَّر بالعبوات الزُّجاجيَّة وأنا أطير نازلـة الـدَّرج.

لم تكـن الميـاه الموجـودة في الطَّنجـرة كافيـة لإنقـاذ كرمـة واحـدة حتَّـى. أتيقَّـن مـن هـذا وأنـا أنظـر إلى النَّـار. وعـلى الرَّغـم مـن هـذا كان علـيَّ أن أحـاول. أتـت النَّـار عـلى مسـاحات مـن الأرض فصـارت الحـرارة تصيـب المـرء بالـدُّوار. كلُّ مـا أفنـت اليزابيـث عمرهـا في رعايتـه سـوف يـزول إن لم أتـصرَّف. سـتبقى فـوق أرض محروقـة، بـلا مـأوى، ووحيـدة. علـيَّ إطفـاؤه، فـإن لم أفعـل، لـن أسـتطيع أن أرفـع نظـري إليهـا ثانيـة.

في منتصـف المسـافة باتِّجـاه الطَّريـق أصـبُّ المـاء عـلى صـفٍّ مـن الكرمـات المشـتعلة. لـو أنَّ هنـاك أزيـز، لـو أنَّ أحـد ألسـنة اللَّهـب ينطفـئ، لكنِّـي مـا سـمعت ولا رأيـت. فعـلى مقربـة، كان زفـير النـار يصـمُّ الآذان، ورائحـة الدُّخـان سـكّرِيَّة. تذكِّـرني الرَّائحـة باليزابيـث وهـي تكرمـل التُّفَّـاح فـأدرك أنَّ الرَّائحـة الحلـوة تصـدر عـن العناقيـد، العناقيـد الَّتـي اسـتوت تمامـاً، والَّتـي تفحَّمـت.

تناديني اليزابيث من على الشُّرفة، فأستدير. ينعكس الحريق في عينيها الملتمعتين والعاجزتين وهي تضع يداً على فمها والأخرى على قلبها، فأنصرف عنها. بشاعة فعلتي تعادل كثافة الدُّخان الَّذي يعشِّش في رئتيَّ. أنَّني لم أقصد التَّسبُّب في كلِّ هذا الخراب لم يعد له قيمة. وأنَّني ما فعلت ما فعلت إلَّا لأبقى معها، لأنَّني أحبُّها، لن يكون له قيمة أبداً. عليَّ أن أطفئ الحريق، فإن لم أفعل، سأخسر كلَّ شيء.

أخلع ثوب النَّوم وأبدأ أهوي به على ألسنة اللَّهب محاولة إخمادها دونما وعي منِّي لما أفعل. يفرقع الثَّوب القطنيُّ الرَّقيق في يدي وقد تبقَّع بسائل الولَّاعات. تجري اليزابيث باتِّجاهي مهتاجة، وتصرخ بي تسألني التَّراجع عن النِّيران، لكنِّي أتابع التَّلويح بثوبي المشتعل حول رأسي باهتياج. تتطاير الشَّرارات من الخامة المحترقة، فكان على اليزابيث أن تنحني لتزوغ عنها وهي تركض باتِّجاهي.

تصرخ اليزابيث بي: «هل جننت؟ عودي إلى البيت».

لكنِّي أقترب من النَّار أكثر حيث كانت الحرارة شديدة ومنذرة. تشعل بصَّة طائشة شعري فتسري النَّار في خصلة من الخصلات لتنسَّ حتَّى فروة رأسي. تضرب اليزابيث بيدها على شعري المشتعل فيأتيني أثر الضَّربة مريحاً، ومستحقَّاً.

أصرخ قائلة: «أنا سأطفئه، دعيني وشأني».

فتسأل اليزابيث: «بماذا؟ بيديك العاريتين؟ سيَّارات الإطفاء

قادمة. إن بقيت هنا فستموتين كحمقاء وأنت تلوِّحين بيديك في الهواء».

مع ذلك، لم أتراجع. تثب ألسنة اللَّهب مقتربة أكثر من مكان وقوفي.

تحدِّثني اليزابيث: «فيكتوريا». توقَّفت عن الصُّراخ وقد اغرورقت عيناها الواسعتان. جهدت كي أسمع الكلمات الَّتي تنطق بها من خلال هدير النَّار. «لن أفقد كرمي وابنتي في نفس الوقت. لا». وعندما لم أتراجع، تندفع إليَّ وتمسك بكتفيَّ وهي تهزُّني وتعول قائلة: «هل تسمعيني؟ لن أفقدكما معاً». أتملَّص من يديها، فتمسك بي بذراع واحدة وتجرُّني باتِّجاه المنزل.

كلَّما ازدادت مقاومتي كلَّما جرَّتني بشكل أقسى، حتَّى شعرت بكتفي ينخلع من مكانه. تصرخ بصوت يشبه العواء وتفلتني. أهوي على الأرض فأتكوَّم ضامَّة ركبتاي إلى صدري. تطبق عليَّ النِّيران مثل الغطاء، ومن قلب الحرارة أسمع صوتاً بعيداً لباب سيَّارة إطفاء يخبط. تصيح بي اليزابيث كي أنهض، تجرُّني من قدميَّ، وترفسني في ضلوعي. وحين حاولت حملي صرخت وعضضتها كحيوان متوحَّش.

في النِّهاية، تفلتني.

مكتبة
t.me/t_pdf

(١٥)

حين رجعت كانت الطِّفلة مستيقظة في السَّلَّة، وعيناها الواسعتان تنادمان إلى السَّقف. لم تبك لَمَّا رأتني. أسترجع رضَّاعتها من المطبخ وأفرغ في المجلى الطَّعام الَّذي مضى عليه يوم فيها، ثمَّ أملؤها بمحتويات عبوة جديدة. أقف أمام الرَّضيعة وأضعها على شفتيها. تفتح فمها لكنَّها لم ترضع. أعصر الحلمة وأتابع السَّائل يسري بدفق رقيق إلى لسانها المترقِّب. تبتلع مرَّتين قبل أن تغفو في السَّلَّة.

أغتسل وأتناول زبديَّة من الحبوب على السَّطح. في كلِّ مرَّة أمرُّ بجانب سلَّة الرَّضيعة أتوقَّف وأتمعَّن في وجهها، فإن فتحت عينيها أدسُّ الرَّضَّاعة في فمها. تعلَّمت أن ترضعها ببطء وبهدوء، بعيداً عن النَّهم الضَّاري الَّذي كانت تبتلع به صدري. كانت تستغرق يوماً كاملاً لتنهي عبوة من الطَّعام البديل. لم تعد تبكي، ولم تعد تنغر حتَّى.

قبل أن أمضي إلى السَّرير أغيِّر لها حفاضها المبلَّل دون أن أخرجها من السَّلَّة. بدت مرتاحة هناك، وكنت متوجِّسة من انتهاك حالة السِّلم الهشِّ الَّتي توصَّلنا إليها، متوجِّسة من أن يعاودني هلعي عند سماع أوَّل صرخة لها. عوضاً عن ذلك،

نقلت سلَّتها إلى الأريكة حيث استقرَّت في مربَّع خلَّفه بهاء القمر. قدَّمت لها رضعة جديدة فشكَّلت شفتاها دائرة كاملة حول المطَّاط الكهرماني اللَّون. تتشكل فقاقيع صغيرة على طول القنِّينة وهي تدفع الماء والحديد والكالسيوم والبروتين من خلال الثُّقوب المجهريَّة. بدت عيناها أوسع ممَّا سبق وأن رأيتهما عليه، دائرتان متَّحدتا المركز ومثلَّثات صغيرة من البياض تمسح وجهي. عندما انتهت من طعامها تنزلق الحلمة المطَّاطيَّة من فمها، وتمدُّ أناملها الدَّقيقة نحو وجهي. أخفِّض رأسي حتَّى ما عاد بين أنفي ويديها إلَّا بضعة إنشات، وعيناي تنظران في عينيها. تفرِّج أصابعها وتضمُّها في الحيِّز الفارغ بيننا، ثمَّ تلمُّها.

قبل أن أدرك أنَّني أبكي، تسقط دمعة من ذقني على خدِّ الطِّفلة. تنزلق في درب رقيق إلى حافَّة فمها. تزمُّ شفتيها الحمراوين متفاجئة، فأضحك، لتسيل الدُّموع مدراراً. هزَّني السَّماح الصَّريح الَّذي تفيض به عيناها، والحبُّ الصُّراح. تستحقُّ ابنتي أكثر بكثير مما يمكن أن أمنحها، مثلها مثل غرانت. أردت لها أن تحمل الزَّعرور، وأن تضحك بسلاسة، وأن تحبَّ بلا خوف. إنَّما ما كنت قادرة على منحها هذا، ما كنت قادرة على تلقينها ما أجهل. القضيَّة قضيَّة وقت قبل أن تفسد سمِّيَّتي كمالها. سترشح من جسدي، وستزدردها بترحاب رضيعة متعجِّلة. قد آذيت كلَّ شخص عرفته، فأستميت رغبة في تجنيبها مخاطر أن تكون ابنتي.

سآخذها إلى غرانت في الصَّباح.

سيحفظ لها طيبتها وسيعلِّمها كلَّ ما تحتاج إلى تعلُّمه. كانت ريناتا على حقٍّ، من حقِّ غرانت أن يرى ابنته. هو يستحقُّ أن يستمتع بعذوبتها، وجمالها، ووفائها الرَّاسخ.

عندما أشحت بوجهي عنها كانت الطِّفلة قد أغمضت عينيها. أترك السَّلَّة على الأريكة وأغلق على نفسي الباب في الغرفة الزَّرقاء.

في تلك اللَّيلة، شممت رائحة الطُّحلب، والأوراق الجافَّة، والتُّربة الرَّطبة في شقَّتي المبنيَّة من الجصِّ والإسمنت، والَّتي يفصل بينها وبين أيِّ خَضار أو نماء مجمَّعات ومجمَّعات.

***

أهرع مغادرة الشَّقَّة منذ الصَّباح الباكر. أطعم الطِّفلة ما بقي من الغذاء في قنِّينتها من اللَّيلة الماضية، وأحملها في سلَّتها إلى سيارتي. كانت مستيقظة وأنا أسوق قاطعة المدينة. قد نامت طوال اللَّيل، أو ربَّما لم تنم، لكنَّها لم تبك. نمت بعمق دون أحلام، لكنِّي انتبهت مُجفِلة ومتوتِّرة نتيجة الإنهاك. كان جسدي يؤلمني، وصدري يحترق، وكنت أشعر بالسُّخونة رغم الصَّباح المنعش. أنزل النَّوافذ، فتزورُّ الطِّفلة بسبب التَّيَّارات الهوائيَّة القويَّة.

أتَّجه صوب الشَّمال على الطَّريق السَّريعة فأعبر الجسر وأستلم أوّل مخرج مشجَّر. ما كان عندي وقت كي أتَّجه إلى واحد من متنزَّهات الولاية الخصبة، لكن لا يهم. كان الرَّبيع رطباً، لذا

بإمكاني إيجاد بغيتي في أيِّ غابة كثيفة وظليلة. توجَّهت إلى رحبة مرآب عند موقع يطلُّ على الخليج وجسر البوَّابة الذَّهبيَّة الَّذي كان يعلوه الصَّدأ ويتوهَّج تحت أشعَّة شمس الصَّباح. بدت ساحة التَّوقُّف شبه ممتلئة بالمتنزِّهين الَّذين يقطرون زوارقهم وقد ملؤوا بالماء عبوات بلاستيكيَّة ذات ألوان مبهجة.

أحمل السَّلَّة من ساعدها المحبوكة، وأنطلق عبر الطُّرقة الجانبيَّة. تتفرَّع الطُّرقة ثمَّ تتفرَّع ثانية. أختار الدَّرب الَّذي لا تطاله أشعَّة الشَّمس فأقشعرُّ وأنا ألج خميلة باردة. كان المتنزِّهون يمرُّون ويحادثون الطِّفلة بتودُّد حتَّى ابتعدت عن الدَّرب الرَّئيس إلى موقع عليه لافتة تقول **منطقة إعادة تحريج، ممنوع التَّجاوز،** فأرفع السَّلَّة فوق الحاجز الواهي وأختفي عن الأنظار في حلقة من الأشجار الحمراء.

لم ينِدَّ عن الطِّفلة أدنى صوت حين مدَّدتها على أرض الغابة، فقد كانت البقعة الصَّلعاء عند مؤخَّر رأسها تستند إلى عشب طري. تنظر إلى الأعلى تتمعَّن في الأشجار الحمراء، ونظر عينيها الزَّرقاوين الزَّائغ يمسح الأشجار الباسقة وبقع الضَّوء والسَّماء الرَّماديَّة، وربَّما يتجاوزها إلى ما يقع خلفها حتَّى. لم يساورني شكٌّ بشأنها.

أسحب ملوقة منبسطة وكبيرة كنت وضعتها في الجيب الخلفي لبنطالي الجينز، وأبدأ بتجريد جذوع الأشجار الحمراء من الطُّحلب الأخضر الاسفنجي القوام. يتهاوى الطُّحلب على

الأرض على شكل رقع طويلة زغبيَّة، فأقوم بترتيبها بحذر حول قاع وجوانب السَّلَّة وأحرص أن أحيط رأسها الصَّغير بأطرى الرُّقع وأطيبها رائحة.

عندما تغطَّت السَّلَّة بأكملها أعيد الملوقة إلى جيبي، وأحمل الطِّفلة الَّتي غفت، وأوسِّدها بلطف ملاءة الطُّحلب.

حبُّ الأم.

كان هذا كلُّ ما استطعت تقديمه لها. وكلِّي أمل أنَّها ستتفهَّم الأمر يوماً ما.

كان المفتاح الاحتياطي لباب بيت غرانت موجوداً حيث كان دائماً، داخل رشَّاش السِّقاية القصديريِّ الصَّدئ المتوضِّع على العتبة الخارجيَّة. أدير قفل الباب وأدخل المطبخ حاملة السَّلَّة المبطَّنة بالطُّحلب، وأضعها بجانب بيت السُّلَّم الملتف، عند زاوية الغرفة. حيث قبعت الطِّفلة يمكنها أن ترى الطَّوابق الثَّلاثة كلَّها، فبدا أنَّ المنظر يسلِّيها بشكل جيِّد بما فيه الكفاية. تتابع تحديقها الهادئ بينما أطوف أنا في أرجاء المطبخ، فأشعل الفرن بعود ثقاب، وأملأ الإبريق بالماء لتحضير الشَّاي. لقد مرَّ عام تقريباً منذ أن حضَّرت الشَّاي في هذا المطبخ لآخر مرَّة، لكن، بدا كلُّ شيء تماماً كما كان عليه من قبل.

أجلس إلى الطَّاولة في انتظار غليان الماء. بدت الطِّفلة هادئة جداً حتَّى ليسهل إغفال وجودها، فأتخيَّل أنَّني رجعت فقط كي

أفاجئ غرانت بكوب شاي عند الطَّاولة المشقَّقة. أشتاق إليه. وأنا أجلس في برجه المائي، وأطالع مزرعة الزُّهور الَّتي يملكها، كان من الصَّعب تجاهل الشُّعور بالشَّوق إليه. وقريباً سوف أشتاق إلى الطِّفلة. أطرد الفكرة من بالي وأركِّز على الزُّهور الممتدَّة على مساحة الحقول في الأسفل.

يندُّ عن الطِّفلة صوت هو بين التنهُّد والقرقرة حين بدأ الماء يغلي، ليغبِّش البخار نافذة المطبخ. أتساءل إن كانت قادرة على شرب الشَّاي بالنَّعناع. خطر لي أنَّها ستكون جيِّدة لمعدتها، ومهدِّئة، وقد جلبت الرضَّاعة شبه الفارغة لكنِّي نسيت عبوة الغذاء. أفرغ السَّائل المتخثِّر في المصرف، وأشطف القنِّينة، وأملأ نصفها ماء مغلياً ونصفها الآخر ماء من الصُّنبور، ثمَّ أضع كيس شاي فيها وأحكم إغلاقها. حين تذوَّقت الشَّاي تكرمش أنف الطِّفلة من المفاجأة، لكنَّ شفتيها مصَّت الحلمة بنهم وبلا تذمُّر. يلفُّنا البخار المتصاعد من الماء الَّذي لا يزال يغلي، فيبدو الطُّحلب أشدَّ اخضراراً بسبب الرُّطوبة الَّتي حملها الهواء.

أوازن القنِّينة على طرف السَّلَّة بشكل يساعد الطِّفلة على متابعة الرَّضاع، بينما أملأ طنجرة بالماء وأشعل عيناً أخرى من الفرن. أريد أن يبقى الطُّحلب نضراً ما أمكن. فيما الطِّفلة ترضع، يمتلئ البرج بالبخار الدافئ المتماوج. أحمل السَّلَّة وأصعد لفَّتين من السُّلَّم لأبلغ سرير غرانت. كانت الطِّفلة قد غفت حين وصلت إلى فوق. بدا نومها عميقاً وساكناً ممَّا أثار قلقي بشأن

اختياري لنوعيَّة الغذاء. أحطُّ السَّلَّة في وسط الفراش الاسفنجي، وأستلقي إلى جانبها، وأقرِّب وجهي حتَّى أشعر بنفسها السَّريع يصدم شفتي العليا.

بقيت هناك، وأنفانا متلامسان تقريباً، وأنفاسنا متعانقة، حتى تبدَّت الشَّمس في كبد السَّماء منذرة باقتراب عودة غرانت، فأغمض عينيَّ، وأبعد وجهي. تصدر عن الطِّفلة نغرة أتذكَّرها وهي ترضع الهواء بعد أن أملص حلمتي من فمها، فتؤلم الذِّكرى صدري. ألتقط قطعة صغيرة من الطُّحلب من حافَّة السَّلَّة وأمرِّرها فوق خدِّها وذقنها وأدسُّها في الثَّنيَّة حيث يجب أن تكون رقبتها حين تقوى بما يكفي لترفع رأسها يوماً ما. راح الطُّحلب يخفق مع نبضات قلبها.

أبتعد وأنزل السُّلَّم. كان الوعاء المحطوط على الموقد قد فرغ تقريباً، فأملؤه حتَّى الحافَّة وأعيده إلى الموقد، وأنسلُّ خارجة من الباب.

تتدحرج سيَّارتي على الدَّرب الترابي الطَّويل، فأتابع القيادة باتِّجاه الطَّريق السَّريع دون أن ألتفت. ما بدأ كوجع خفيف متبدِّل المكان، أضحى مركَّزاً في ثديي الأيسر. عندما ألمس الحلمة تنطلق شرارة الألم عبر لحمي حتَّى عمودي الفقري. أبدأ بالتَّعرُّق. كانت النَّوافذ مفتوحة، وقد شغَّلت التكييف أيضاً، ومع ذلك بقيت أشعر بالحرارة. أنظر في المرآة فأرى مكان الطِّفلة من المقعد خالياً.

لم يعـد هنـاك مـن أثـر سـوى نثار ضئيـل مـن الـتُّراب وضمَّـة واحـدة مـن الطُّحلـب الأخـضر.

أشـغِّل المذيـاع وأحـرِّك المـؤشِّر حتَّـى أجـد نغـماً عاليـاً وراقصـاً بإيقـاع مبالـغ فيـه وصـوت بـلا كلـمات، ممَّـا ذكَّـرني بفرقـة ناتاليـا. أقـود بسرعـة أعـلى فأطـير فـوق الجسر وأتجـاوز التَّقاطعـات، دون أن تدفعنـي إلى تخفيـف سرعتـي لا الإشـارت الحمـراء ولا الإشـارات البرتقاليَّـة. كنـت بحاجـة إلى الغرفـة الزَّرقـاء؛ كنـت بحاجـة إلى الاسـتلقاء وإغـماض عينـيَّ والنَّـوم. لـن أخـرج قبـل أسـبوع، هـذا إن خرجـت أصـلاً.

يرتفـع صريـر السَّـيَّارة حـين أوقفهـا أمـام المبنـى فأجـدني وجهـاً لوجـه أمـام عربـة ناتاليـا. كانـت الشَّـاحنة مفتوحـة وقـد تكدَّسـت صناديـق وحقائـب عـلى الرَّصيـف فصـار مـن الصَّعـب التَّخمـين إن كانـت قادمـة أم مغـادرة. أخـرج مـن السَّـيَّارة بهـدوء، عـلى أمـل أن أنسـلَّ إلى الغرفـة الزَّرقـاء وأصـكَّ كلَّ الأقفـال دون أن تنتبـه لي.

قطعـت المكتـب الفـارغ عـلى رؤوس أصابعـي فكـدت أصطـدم بناتاليـا عنـد أوَّل الـدَّرج. لم تنتـح جانبـاً، فرفعـت ناظـري لأخمِّـن ممّـا ارتسـم عـلى وجههـا أنَّ أثـر السُّـخونة بـاد عـلى وجهـي كـما أشـعر بـه.

تبـادرني ناتاليـا بالسُّـؤال: «هـل أنـت بخـير؟». أومـئ بـرأسي وأحـاول المـرور، لكنَّهـا لا تتحـرَّك. «وجهـك أكثـر حمـرة مـن شـعري».

تمـدُّ يدهـا وتلمـس جبهتـي وتردُّهـا كأنَّـما لسـعت. أندفـع

لأتجاوزها فأتعثَّر وأسقط على الدَّرجة السُّفليَّة. لم أحاول أن أنهض، بل أصعد السُّلَّم على يديَّ وركبتيَّ، فتتبعني ناتاليا. أهوي في الغرفة الزَّرقاء وأشدُّ الباب خلفي مغلقة إيَّاه.

تطرق ناتاليا على الباب، وتخبرني بصوت أقرب إلى الهمس، ويلفُّه الخوف: «تمَّ تمديد جولتنا، سأغيب لستَّة شهور على الأقل. أتيت لأجلب بعض الحاجيَّات وأخبرك أنَّ بمقدورك استخدام غرفتي إن أردت».

لا أقول شيئاً.

فتكرِّر القول: «عليَّ الذَّهاب الآن».

لأتمكَّن من الرَّد: «إذن اذهبي الآن».

شيء ما مدوي يخبط الباب، على الأرجح قدم ناتاليا. «لا أريد أن أعود بعد ستَّة شهور لتستقبلني رائحة جثَّتك المتحلِّلة»، تقولها وهي ترفس الباب ثانية. الشَّيء الآخر الَّذي سمعته كان نقر حذائها وهي تدبُّ نازلة الدَّرجات، تلاه صفق باب سيَّارة. يقرقر محرك سيَّارتها ويشتغل، فتمضي بعدها.

أتساءل هل ستتَّصل بوالدتها؟ هل ستنتبه إلى غياب الطِّفلة فتبلغ عنِّي السُّلطات؟ إن كانت ستتَّصل بأحد فآمل أن تتَّصل بالشُّرطة، أفضِّل قضاء مدَّة في السَّجن على مواجهة الأم روبي وخيبة أملها.

أضطَّجع على شقِّي الأيسر فوق الفراش الرِّيشي، وثديي الَّذي يبدو ككرة من المطاط القاسي يستند إلى المرتبة. لم أعد أشعر أنَّ جسدي لي، وهو يرتجف خارجاً على السَّيطرة. كنت أتجمَّد فارتديت كلَّ كنزة أملكها وتغطَّيت بالبطَّانيَّة البنيَّة. وعندما لم يوفِّر لي هذا الدِّفء أزحف تحت الفراش وأبقى هناك، بالكاد أتنفَّس. كان جسدي وعقلي كعاصفة ثلجيَّة فوقها غيمة مكفهرَّة. يتحوَّل إحساسي بالبرد إلى ما يشبه دوَّامة سوداء، وتراودني فكرة عابرة ومؤنسة أنَّ النَّوم الّذي يجتاحني سيكون أبدياً، سيغدو حالة لن أرجع منها أبداً.

من بعيد يرتفع صوت صفَّارات تنبيه يتعالى ويقترب حتَّى يبدو وكأنَّه يأتي من غرفة ناتاليا. يتسرَّب وميض الأضواء من تحت بابي. وعندها، وعلى حين غرَّة، تتوقف.

تسود الغرفة عتمة وسكون كالموت لدقيقة وحسب، ثم يدفع الباب فأسمع دبيب أقدام على السُّلَّم.

(١٦)

أتمدَّد في سيَّارة الإسعاف مثبَّتة إلى نقَّالة عليها قماش أبيض. لم أستطع تذكُّر كيف وصلت إلى هنا. كنت لا أزال في لباسي الدَّاخلي وحسب، وقد غطَّى أحدهم صدري برداء المشافي.

إليزابيث إلى جانبي تنوح، وصوت يسألها: «هل أنت أمُّها؟». أفتح عيناً واحدة لأرى شابَّاً ببدلة بحَّار يجلس قرب رأسي. أضواء دوَّارة تومض عبر النَّافذة، وتلتمع فوق وجهه المغرورق بالعرق.

تجيبه اليزابيث وهي لا تزال تبكي: «بلى. أعني لا، ليس بعد».

فيسأل: «أهي عهدة من المحكمة؟».

تومئ اليزابيث برأسها.

«عليك أن تعملي محضراً مباشرة، والحال هذه. أو أنا سأفعل». ظهر على وجه الرَّجل الأسف فيزداد نواح اليزابيث. يناولها هاتفاً ثقيلاً أسود اللَّون موصولاً بطرف سيَّارة الإسعاف بسلك ملفوف مشابه لذاك الَّذي في مطبخ اليزابيث. أغمض عيني ثانية. مضينا في اللَّيل لما بدا أنَّها ساعات، لم تتوقَّف خلالها اليزابيث عن النَّحيب.

حين توقَّفت سيَّارة الإسعاف، تدفع أياد ثوب المشفى تحت

ذراعيَّ، وتفتح الأبواب، فيسري تيَّار بارد. عندما أفتح عيناي أرى ميريديث بانتظارنا. كانت لاتزال في ثياب نومها، وقد ارتدت فوقها معطفاً مطريَّاً.

ونحن نمرُّ تنحني إلى الأمام وتمتدُّ يدها لتسحب اليزابيث بعيداً عنِّي، وهي تقول: «سأستلم الأمر من هنا».

فتردُّ اليزابيث: «لا تلمسيني. لا تتجرَّئي على لمسي».

«انتظري في الصَّالة».

فتجيب اليزابيث: «لن أتركها».

تردُّ ميريديث: «إمَّا أن تنتظري في الصَّالة أو سأجعل الأمن يخرجك».

أتابع المشهد من فوق أصابع قدمي المنخفضة إذ تترك ميريديث اليزابيث واقفة في الصَّالة مصدومة. تتبعني هي وتدخل الغرفة.

تفحص ممرِّضة جسدي وتسجِّل إصاباتي. أعاني من حروق في فروة رأسي وعلى بطني حلقة حيث ذاب مطاط لباسي الدَّاخلي القطني والتصق. تتهدَّل ذراعي المخلوعة إلى جانبي، وتظهر كدمات على ظهري وبطني حيث ركلتني اليزابيث. تقوم ميريديث بتسجيل تشخيص الممرِّضة في مفكِّرة.

لقد آذتني اليزابيث، ليس بالطَّريقة الَّتي ظنَّتها ميريديث،

لكنَّها مع ذلك، قد آذتني. كانت العلامات قرينة لا تدحض. سيتمُّ تصويرها لتدرج في ملفِّي. لن يصدِّق أحد أبداً قصَّة اليزابيث، وأنَّها كانت تحاول ثنيي عن الجري إلى الحريق المستعر، مع أنَّها كانت الحقيقة.

أجد فجأة في الكدمات الَّتي تملأ جسدي سبيلاً لا ريب فيه للخلاص، طريقاً للتملُّص من عيني اليزابيث المترعتين باللَّوعة، طريقاً للهروب من الذّنب، ومن النَّدم، ومن الكرم المحترق. ما كان بمقدوري مواجهة الوجع الَّذي تسبَّبت به لاليزابيث. لن أقدر أبداً على مواجهته. لم يكن الحريق وحده، بل عام كامل من التَّجاوزات، معظمها بسيط، وبعضها لا يغتفر. لقد غيَّرتها أمومتها لي. فبعد مضيٍّ سنة على انتقالي لعندها صارت امرأة مختلفة. وبوجودي في حياتها ستستمرُّ في المعاناة، وهي لا تستحقُّ هذا. لا تستحقَّ أيّاً منه.

تتَّجه الممرِّضة إلى الصَّالة، وتغلق ميريديث باب الغرفة الصَّغيرة خلفها بإحكام، لنبقى وحدنا.

تسألني: «هل ضربتك؟».

أعضُّ شفتي السُّفلى بشدَّة حتى تدمى. وعندما ابتلعت، ابتلعت الرِّيق والدَّم كليهما معاً. تحدِّق ميريديث بي، فأسحب نفساً عميقاً. تتفحَّص عيناي الفتحات الَّتي في الرُّقاقة السَّمعيَّة قبل أن أجيب على سؤالها بالطَّريقة الوحيدة المتاحة، وبالطَّريقة الَّتي تنتظرها ميريديث.

أجيب: «بلى»، فتغادر الغرفة.

كلمة واحدة وانتهى الأمر. قد تحاول اليزابيث زيارتي، لكنّي سأرفض لقاءها. ميريديث والممرِّضات سيحمينني منها وهنَّ تعتقدن أنَّها باتت تشكِّل خطراً.

في تلك اللَّيلة، وللمرَّة الأولى، أحلم بالحريق. كانت اليزابيث تحوم فوقي وهي تنتحب، فبدا صوتها بالكاد آدميًّا. أحاول الاقتراب منها لكنَّ قدميَّ ملتصقتان بالأرض وكأنَّ لحمي قد ذاب ولزق بالأرض. عندها راحت تصرخ وكلماتها يشوِّهها الحزن. يتفحَّم جسدي قبل أن أدرك أنَّها تعبِّر عن حبِّها لي، مرَّة بعد مرَّة. فكان هذا أقسى من النَّحيب.

أستيقظ وأنا أشعر بالاحتراق، وقد تبلَّل جسدي بالعرق.

(١٧)

قضيت ثلاثة أيَّام في المشفى أتعالج من خمج الثَّدي. كانت حرارتي تقارب الأربعين حين وجدني المسعفون. ولم تنكسر الحمَّى إلى أن مرَّت ثمان وأربعون ساعة من الحقن بالمضادَّات الحيويَّة عبر الوريد، وهي حالة لم تمرَّ عليهم أبداً كما صرَّح الأطبَّاء، فيما أنا أغطُّ في النَّوم وأصحو. خمج الثَّدي حالة شائعة من الالتهاب الَّذي يصيب الأمَّهات المرضعات. هو مؤلم لكنَّه موضعي وسهل العلاج. بالنِّسبة لحالتي تحوَّل خمج الثَّدي إلى التهاب أصاب تقريباً كلَّ جسدي. كان جلد صدري يغلي، وكذلك ما فوق ذراعاي ورقبتي وفخذاي من الدَّاخل. قال الأطبَّاء أنَّه لم يسبق أن سجِّلت حالة كحالتي.

عندما هبطت الحمَّى، حلَّت اللَّوعة على ابنتي محلَّ الاحتراق. توهَّج وجهي وصدري وأطرافي شوقاً إليها. أهرب قبل تخريجي بسبب قلقي من طرح الأطبَّاء أسئلة حول أمٍّ حديثة الولادة لوحدها في المشفى، بدون ظهور طفل أو زوَّار، فأسحب النَّباريج من وريدي وأتسلَّل عبر سلَّم خلفي.

أقلَّتني سيَّارة أجرة إلى الشَّقَّة الخالية، فاستدعيت فنِّي مفاتيح ليغيِّر القفل. حين تعود ناتاليا سأنسخ لها مفتاحاً. وحتَّى ذلك

الحين، لا أريد أن تزورني الأم روبي أو ريناتا، اللَّتان اعتادتا الدُّخول بدون استئذان، لرؤية الطِّفلة. لا طاقة لدي كي أشرح لهما ما فعلت.

جاءت الأم روبي ظهيرة ذلك اليوم تحديداً. قرعت الباب حتَّى خيِّل إليَّ أنَّ الأبواب الزُّجاجيَّة سوف تتكسر. تلصَّصت عليها من شبَّاك غرفة ناتاليا ثمَّ عدت إلى المطبخ لأرفع سمَّاعة الهاتف قبل أن أزحف إلى الغرفة الزَّرقاء وأغفو. أتت بعدها ريناتا الَّتي دقَّت بقوَّة أكبر ورمت بحصاة صغيرة على الزُّجاج العلوي. لم أبد أيَّ مؤشِّر على عودتي. في صباح اليوم التَّالي أيقظني نقر لطيف من نوم عميق فعرفت أنَّ مارلينا قد عادت. قد حان وقت العودة إلى العمل، ولسوف أخبرها بحقيقة ما جرى.

أترنَّح وأنا أنزل الدَّرج وأزمُّ جفناي بسبب الضَّوء. تندفع مارلينا عبر الباب وهي تستفسر: «لا بدَّ أنَّها كبرت، ما اسمها؟»، وتطير صاعدة الدَّرج. أتبعها ببطء. حين وصلت إلى الأعلى رأيت مارلينا تلفُّ وتدور في غرفة المعيشة. كان فراغ الشَّقَّة يطبق عليها، فتنظر إليَّ وفي عينيها يبرز تساؤل واحد.

أجيبها على سؤالها الّذي طرحته، لا عن ذاك الَّذي لم تسأله: «لا أعرف اسمها. لم أسمِّها». لم تتحرَّك عينا مارلينا عن جسدي، وهما تحملان نفس التَّساؤل: **أين هي؟**.

طفقت أبكي، فتقترب مارلينا منِّي وتضع يدها الناعمة على

كتفي. أردت أن أخبرها، أردتها أن تعرف أنَّ الطِّفلة بأمان وستنعم بالحنان، وقد تكون سعيدة حتَّى.

مرَّت دقائق قبل أن أستطيع الكلام، وعندما تكلَّمت أخبرتها بالقصَّة بكلِّ صراحة، بلا تزويق. تركتها مع والدها الَّذي سيربِّيها. لم أملك إمكانيَّة أن أكون الأمَّ الَّتي أردتها. الخسارة لا تعوَّض لكنَّني اتَّخذت القرار الأنسب لابنتي.

عندما أنهي قصَّتي أقول: «رجاء، دعينا لا نفتح سيرتها مرَّة ثانية». أمشي عبر الغرفة لأتناول علبة مناديل ودفتر المواعيد. أسجِّل على عجل قائمة قصيرة على ورقة مسطَّرة وأطويها وأضعها في يد مارلينا ومعها مبلغ كاف للشِّراء، وأقول: «أراك غداً». لم أنتظرها حتَّى تغادر بل زحفت إلى الغرفة الزَّرقاء وأقفلت الباب.

هدَّأني قول الحقيقة فغفوت.

لم تكن نقرات مارلينا اللَّطيفة تلك الَّتي أيقظتني في الصَّباح التالي، بل دقَّات ريناتا اللَّجوجة. أغطِّي رأسي بوسادة لكنَّ صوتها وصل إلى مسامعي مخترقاً الرِّيش.

تصيح قائلة: «لن أبارح هذا المكان يا فيكتوريا. رأيت لتوِّي مارلينا في سوق الزُّهور وأعلم أنَّك في الدَّاخل. إن لم تفتحي سأجلس هنا إلى أن تصل مارلينا وهي ستدخلني».

ما من طريقة لتفاديها بعد الآن، عليَّ مواجهتها. أنزل إلى الأسفل وأدير أقفال الأبواب المزدوجة الزُّجاج وأفتح إحدى الدَّرفات مواربة.

أسألها: «ماذا هناك؟».

تردُّ ريناتا: «رأيتها هذا الصَّباح في السُّوق. ظننتك غادرت مع الطِّفلة، غادرت دون أن تخطري أيّاً منَّا بوجهتك، لأراها هناك بين ذراعيه».

تغرورق عيناي، فأرفع كتفاي متسائلة عمَّا تريده منّي.

تسألني ريناتا: «هل أخبرته؟ هل أعطيته الطِّفلة؟».

أجيبها: «لم أخبره بشيء. ولا أريدك أن تخبريني بشيء. أبداً». أبتلع ريقي بصعوبة.

عندها تلين نبرة ريناتا وهي تخبرني: «كانت تبدو سعيدة، وبدا غرانت متعباً، لكن...».

أقول لريناتا وأنا أصكُّ الباب دونها: «أرجوك، لا أريد أن أعرف. لم أعد أحتمل الأمر».

أغلق الباب وأقفله. نقف أنا وريناتا على طرفين متقابلين من الزُّجاج، صامتتين. لم تكن الأبواب سميكة بما يكفي لتعيق الحديث، لكن، لم تنبس أيٌّ منَّا ببنت شفة. تنظر ريناتا في عينيَّ فأتركها تفعل. رجوت لو أنَّها ترى الشَّوق والخيبة. كان وقع ترك

ابنتي قاسياً عليَّ، وسيصبح أقسى مع نكء ريناتا المستمرِّ للجرح. عليها أن تدرك أنَّ الطَّريقة الوحيدة لجعل قراري قابلاً للاستمرار هي محاولة النِّسيان.

وصلت مارلينا وهي تقود سيَّارتي. كانت السَّيَّارة مفتوحة والزُّهور تبرز منها. في منتصف إفراغها للحمولة تتوقَّف وتحدجني وريناتا بنظراتها.

تتساءل: «أكلُّ شيء على ما يرام؟». تنظر ريناتا إليَّ فأشيح بوجهي عنها.

لم تجب ريناتا، بل استدارت صاعدة التلَّ باتِّجاه المحل، وذراعاها تتهدَّلان إلى جانبيها في استسلام.

الجزء الرابع

بدايات جديدة

(١)

توسَّع العمل في مشروع «رسالة» في الأشهر الَّتي تلت. لم أك أقبل إلَّا بالدَّفع النَّقدي، مقدَّماً، فيما اجتذب الوضع المستتر للمكان الزَّبائن مثل المريدين. لم أطبع إعلانات تسويقيَّة، فبعد توزيع محتوى الدِّلاء القليلة الأولى من زهور السَّوسن الموسومة، انتشر رقم هاتفي بأسرع ممَّا لو كنت اشتريت لوحة إعلانات ضوئيَّة عند مدخل جسر الخليج. لم ترجع ناتاليا من جولتها، فاستحوذت على الشَّقَّة، وأرسلت مع بداية شهر حزيران مظروفاً مليئاً بالأوراق النقديَّة من فئة المائة دولار لصاحب الشَّقَّة. تابعت مارلينا عملها كمساعدة لي، فصارت تنظِّم المواعيد، وتردُّ على الاتِّصالات، وتعبِّئ طلبات الشِّراء، وتقوم بالتَّوصيل. بقيت أتابع بنفسي تنسيق الزُّهور، وأستقبل الزَّبائن في بهو المكتب الفارغ على الكراسي القابلة للطيِّ الَّتي جلبتها من سوق الأثاث المستعمل، وأفتح العلب الَّتي كانت صناديق أحذية تحت الأضواء البيضاء المبهرة. بات الطَّلب على استشارات ما قبل الزَّفاف يعادل الطَّلب على تنسيق الزُّهور لدي. فكان الزوجان يتصرَّفان في مواعيدهما كما لو أنَّهما في زيارة لعرَّافة أو في حضرة رجل دين، ويخبرانني، على مدى ساعات أحياناً، بآمالهم العديدة الَّتي يعقدونها على ارتباطهما، والتَّحدِّيات الَّتي تواجههما. كنت أسجِّل ما يقوله

الزَّوجان وأكتب الملاحظات على ورقة شفّافة، وعندما ينهيان حديثهما أسلِّمهما الورقة على شكل لفافة مربوطة بشريطة. في النِّهاية، وحين يراجع الزَّوجان اللَّفافة لاختيار الزُّهور، والتَّفاهم حول الالتزام بالاتِّفاق بشأن ترتيبات الزَّفاف، كانوا يضمِّنون المبلغ أجر تنبُّئي لهما بحياتهما المشتركة. كان زواج بيتاني وراي سعيداً. كما أرسل لي عدد لا يحصى من الأزواج بطاقات من شهور عسلهم تصف علاقاتهم بكلمات مثل **سلام**، **شغف**، **إشباع**، مع عدد لا متناهي من الصِّفات المستوحاة من الزُّهور.

أحدث التَّنامي السَّريع لرؤية «رسالة» نقلة نوعيَّة، إنَّما راسخة، في صنعة الزَّهور في منطقة الخليج، مترافقة بالظُّهور الملفت لمنسِّقي الزُّهور الَّذين يقدِّمون الاستشارات في مجال لغة الزُّهور لطوفان العرائس اللَّائي كنَّا أنا ومارلينا نصرفهن. نقلت لي مارلينا أنَّ ورد الحميد والمخمليَّة والخزامى باتت تكسد في حاوياتها في سوق الزُّهور، بينما راجت أزهار الزَّنبق، واللَّيلك وزهرة الآلام حتَّى صارت تنفق قبل الشُّروق. ولأول مرَّة حسبما يذكر البعض، بات النَّرجس متوافراً لفترات طويلة حتَّى بعد انقضاء موسم تفتُّحه الطَّبيعي. ومع نهاية شهر تموز، راحت العرائس الجريئة تطوف بأوان خزفيَّة من الفريز، أو بباقات فوَّاحة من الشُّمرة، فلم يعد أحد يستفسر عن جماليَّتها، بل راحوا يتعجَّبون من بساطة الرَّغبة.

وحسبما تهيَّأ لي، فإن استمرَّ الحال على ما هو عليه، فإنَّ مشروع «رسالة» سيقلب كمَّ الغضب والحزن والشَّكِّ الَّتي تزرع

على نطاق واسع. راح المزارعون يقتلعون حقول القمعيَّة ليزرعوا مكانها القيصوم، بزهراته الرَّقيقة ذات الألوان الزَّهريَّة والصَّفراء والكريميَّة الَّتي تداوي القلب المعنَّى. وارتفعت بشكل مطَّرد أسعار المريميَّة والحوذان. وباتت أشجار الخوخ تزرع لغرض واحد وهو جني زهراتها المتجمِّعة والرَّقيقة، فيما تراجعت زهور دوَّار الشَّمس لتختفي تماماً من واجهات العرض ومن المتاجر المتخصِّصة ومطابخ البلد. كما تمَّ اجتثاث أشواك البلَّان عنوة من السَّاحات الفارغة والحدائق الَّتي نمت فيها بإفراط.

في أوقات العصر الصَّائفة، وأنا أعمل في البيت البلاستيكي الَّذي أنشأته على السَّطح من أنابيب وصفائح بلاستيكيَّة، وأرعى فيه مئات من الأصص الخزفيَّة الصغيرة المتوضِّعة على رفوف من الأسلاك، أحاول التماس السَّلوى في هذا الإسهام البسيط والهامشي في الحياة. حدثت نفسي أنَّ أحدهم، في مكان ما، سيغدو أخفَّ غضباً، وأقلَّ عرضة للحزن، بسبب النَّجاح الظَّاهر لمشروع «رسالة». ستغدو الصَّداقات أمتن، وستعمر الزِّيجات أكثر، لكنِّي لم أتيقَّن من هذا. لا يمكنني الاطمئنان إلى إسهام رؤيتي في الحياة، وأنا الَّتي لم أخلِّف إلَّا الألم في كلِّ اختلاط حقيقي لي بالبشر: مع اليزابيث من خلال الحرق المتعمَّد لممتلكاتها، والاتِّهام الزَّائف لها؛ ومع غرانت، من خلال الهجر، وطفلة بلا اسم وبلا سند.

ثمَّ، هناك ابنتي، الَّتي تخلَّيت عنها لكنَّها لا تبارح فكري، ولا للحظة حتَّى. لكنت انتقلت إلى غرفة ناتاليا القديمة، لكن، عوضاً

عـن ذلـك، بقيـت أنـام في الغرفـة الزَّرقـاء، حيـث أتكـوَّر عـلى نفسـي وحيـدة في الحيِّز الَّـذي كنَّـا نحتلُّـه معـاً، أنـا وهـي، في يـوم مـضى. عنـد استيقاظي في كلِّ صباح أحـصي عمرهـا بالشَّـهر واليوم. أجلس قبالة العروسـات الثرثـارات وأنـا أحـاول تذكُّـر حاجبيهـا الملـط تقريبـاً وهمـا يتقوَّسـان لي استـفهاماً، وشـفتيها اللَّتـين تفتحـان وتغلقـان بوقـع. بـدأ واقـع غيابهـا عـن الشَّـقَّة الفارغـة يرخـي بظلالـه كـما كـان حضورهـا في وقـت مـن الأوقـات، في قرقعـة الألـواح البلاستيكيَّة للدَّفيئة، ورشـح الضَّـوء مـن شـقٍّ بـاب الغرفـة الزَّرقـاء، حتَّـى في وقـع قطـرات المطـر عـلى السَّـطح المنبسـط، كنـت أسـمع صـوت رضاعهـا النَّهـم. في نهايـة كلِّ تسـعة وعشريـن يومـاً يتنقَّـل ضـوء القمـر عـلى شـكل تربيعـة عـبر الأريكـة حيـث جلسـنا في آخـر ليلـة لنـا معـاً، وفي كلِّ شـهر يـراودني أمـل مبتسر في أن يعيدهـا إليَّ. عوضـاً عـن ذلـك، ينـير القمـر وحـدتي، فأجلـس باسـتقامة ليغمـرني بهـاؤه الشَّـاحب، وأتذكَّرهـا كـما هـي، وأتخيَّلهـا كـما أصبحـت. عـلى الرَّغـم مـن الأميـال والأميـال الَّتـي تفرِّقنـا أشـعر بابنتـي تتغـيَّر، تنمـو وتكـبر كلَّ يـوم، بـدوني. أشـتاق إلى التَّواجـد معهـا، وأن أتابـع تبـدُّل هيئتهـا.

لكـن، عـلى الرَّغـم مـن عظيـم رغبتـي في الالتقـاء بهـا، مـا كنـت لأزورهـا. بـدا في رغبتـي بابنتـي شيء مـن الأنانيّـة. تركهـا مـع غرانـت كان أكثـر تـصرُّف محمـود قمـت بـه، ولم أنـدم عليـه. فبـدوني سـتكون ابنتـي في أمـان. سـيحبُّها غرانـت مثلـما أحبَّنـي، بإخـلاص نابـع مـن القلـب، وعنايـة لطيفـة، وهـذا جـلُّ مـا أرجـوه لهـا.

لكنِّي ندمت على شيء واحد لا علاقة له بابنتي. في حياة قضيتها بالتَّجاوزات، كنت في معظمها أتَّجه إلى العنف، وفي سوادها الأعظم منبوذة، ما ندمت إلَّا على الحريق. كميَّة من القوارير الزُّجاجيَّة، وحفنة من أعواد الثِّقاب، وحكمة غائبة، باجتماعها معاً خلَّفت جحيماً استعر إلى حدٍّ أوسع وتجاوز إطفاء اللَّهيب الأخير. بل إنَّه امتدَّ حدَّ الكذبة الَّتي فرَّقت بيني وبين اليزابيث، وأشعلت شرارات معارك تمادت على مدار ثماني سنوات من التنقُّلات بين أماكن الإقامة، لتخبو مع انعدام ثقتي بغرانت. رفضت أن أصدِّق حبَّه لي، أو أنَّه سيستمر في حبِّه لي إن اكتشف الحقيقة.

يظنُّ غرانت أنَّ أمَّه هي من أشعلت الحريق الَّذي دمَّر حياتينا. ومع أنَّه لم يتطرَّق إلى الأمر لكنَّني أدري أنَّه لم يسامحها. لكنَّها لم تكن هي الملوم، بل هو ذنبي أن اشتعلت النِّيران في الكروم، هو ذنبي أنَّ اليزابيث لم تزر كاثرين، هو ذنبي أنَّ غرانت أمضى ما تلا من سنوات وهو يعتني بوالدته المريضة، وحيداً. لا علم لي بتفاصيل انحلال مشكلة كاثرين، لكنَّ آثارها كانت جليَّة في حبِّ غرانت لي، برقَّة وتفرُّد. لقد كان بحاجة اليزابيث قدر احتياجي لها.

فات الأوان. قد احترق الكرم، وأمضى غرانت جلَّ حياته وحيداً، باستثناء الأشهر الستَّة الَّتي قضاها برفقتي، وأنا خسرت المرأة الوحيدة الَّتي حاولت أن تكون أمَّاً لي. قد فات أوان الرُّجوع، وفات أوان إنقاذ طفولتي. لكن، على الرَّغم من فوات

الأوان، فهذه الفكرة هي الَّتي أنزلت الكارثة بي. أردت الرُّجوع إلى اليزابيث، وأردت، أكثر من أيِّ شيء آخر، أن أغدو ابنة اليزابيث.

في منتصف شهر آب، أنسحب إلى الغرفة الزَّرقاء وقد أنهكني جدول مواعيد حفلات زفاف الصَّيف الَّذي لا يرحم، وأمضَّ بي التَّفكير المستمر بابنتي واليزابيث وغرانت على حدٍّ سواء. لأول مرَّة منذ انطلاقة «رسالة» أصكُّ الأقفال السِّتَّة وأنام متغافلة عن المواعيد الواردة في الجدول، لتغطِّي مارلينا غيابي. انتقل صفير إبريق الشَّاي إلى أحلامي، وهي تحضِّر الشَّاي لزبائننا، لكنَّني لم أخرج للقائهم. منعتني الأقفال من ركوب سيَّارتي والانطلاق بها مباشرة إلى برج الماء، والطَّيران إلى الطَّابق الثَّالث كي أسترجع طفلتي. في خيالاتي تتبدَّى وهي لا تزال تستلقي معدومة الحيلة في سلَّتها، تحدِّق في السَّقف. أمَّا في الواقع، فقد صار عمرها ستَّة شهور، فهي تجلس، وتتناول الأشياء، ولعلَّها تزحف على الأرض.

أمضيت في الغرفة الزَّرقاء أسبوعاً تقريباً، لم تزعجني خلاله مارلينا. لكنَّها كانت تمرِّر كلَّ صباح نسخة مصوَّرة من تحت عقب الباب، هي جدول التزامات شهر أيلول. كانت المربَّعات تزداد ازدحاماً باطِّراد مع مرور الأيَّام. توقَّعت تراجع وقع العمل مع ازدياد برودة الطَّقس، لكن، مع ذلك، بدا أنَّنا سننشغل أكثر، ليتغلَّب في النِّهاية قلقي بشأن العمل المتعاظم على إحساسي بخيبة الأمل. ألتقط موزة من صحن فواكه كانت مارلينا قد ملأته وأنزل إلى الطَّابق السُّفلي.

كانت مارلينا تجلس إلى الطَّاولة وهي تعضُّ مؤخِّر قلم. تبتسم لرؤيتي وتقول: «كنت على وشك الذَّهاب إلى السَّكن المؤقَّت لتوظيف مساعدة ثانية».

أهزُّ رأسي أن لا ضرورة، وأردُّ: «أنا هنا. ماذا لدينا أولاً؟».

تجري مسحاً للقائمة وتقول: «لا يوجد مناسبة كبيرة حتَّى يوم الجمعة. إنَّما بعدها علينا أن نعمل لستَّة عشر يوماً متواصلاً».

أتذمَّر، لكنَّني في الحقيقة شعرت بارتياح. كانت الزُّهور سبيلي للهروب. والزُّهور بين يديَّ، يمكنني أن أستمرَّ طيلة الخريف ربَّما. وربَّما، مع انقضاء الشُّهور، قد تغدو الأمور أسهل. وحدث ما توقَّعته. لكن، حتَّى حينه لم تثبت صحَّته، بل الحقيقة أنَّ العكس هو ما يجري. مع مضيِّ كلِّ يوم يزداد إحساسي بالكآبة، ويقلُّ صبري حيال تبعات قراراتي، فأعاود الصُّعود إلى الأعلى.

تسألني مارلينا وفي صوتها رنَّة خيبة: «عائدة إلى كهفك؟».

«ماذا أفعل غير هذا؟».

«لا أدري». تزفر مارلينا وتمسك عن الكلام. بدت تعرف ما عليَّ فعله لكنَّها تجد صعوبة في انتقاء الكلمات. لتنطق في النِّهاية: «هناك محلُّ شطائر جديد قرب محلِّ «نوار». خطر لي أن نطلب غداء منه لنمضي بعدها في نزهة بالسَّيَّارة».

«نزهة بالسَّيَّارة؟».

ترنو بنظرها إلى الشَّارع من خلال الواجهة الزُّجاجيَّة: «يعني، كي نراها».

قصدت مارلينا ابنتي. لكن، وقبل أن أدرك هذا، ظننتها لجزء من الثَّانية تعني اليزابيث، فبدا لي أنَّ هذا هو بالضَّبط الشَّيء الَّذي عليَّ الإقدام عليه. أعرف أين تقيم، وأعرف كيفيَّة الوصول إلى هناك. قد يكون الأوان قد فات كي أقيم كطفلة في بيتها، لكنَّه لم يفت بعد على الاعتذار عمَّا ارتكبت.

عندما لم أتجاوب مباشرة تنظر إليَّ مارلينا وتعلوها تعابير التَّفاؤل.

أهزُّ رأسي. طلبت منها ألَّا تذكر طفلتي أبداً، وحتَّى اللَّحظة فعلت كما طلبت. أجيبها: «أرجوك لا تفعلي».

تخفِّض رأسها، حتَّى تمسَّ ذقنُها صدرها، فتبدو للحظة بلا رقبة كحديثي الولادة.

أستدير لأصعد الدَّرج وأقول: «أراك يوم الجمعة».

بقيت طوال اللَّيل أتخيَّل أنَّني أقود سيَّارتي إلى مكان سكنى اليزابيث. يرتسم في مخيِّلتي الدَّرب التُّرابي الطَّويل، والكرمات المثقلة بالعناقيد الَّتي أنضجتها أواخر الصَّيف. ينعكس ظلُّ شمس الأصيل على شكل مثلَّث بسبب المنزل الأبيض المتقشِّر، وتقرقع درجات الفناء الخارجي وأنا أصعد عليها. عند طاولة

المطبخ تجلس اليزابيث وقد تكتَّفت، وعيناها على الباب، كأنَّها تنتظرني.

تتلاشى الرؤية مع إدراكي أنَّ كلَّ هذا قد يكون اختفى، لا الكروم وحسب، بل وطاولة المطبخ، وباب المنخل، والبيت بأكمله. مع كلِّ الوقت الَّذي قضيته بصحبة غرانت لم أسأله عن حجم الضَّرر الَّذي تسبَّب به الحريق، ولم أقد السَّيَّارة في الطَّريق الَّذي يمرُّ بمدخل مزرعة الزُّهور. لم أك أريد أن أعرف.

ولن أستطيع الذَّهاب. لن أستطيع أن أتحمَّل رؤية الوضع، ولا حتَّى الاعتذار إلى اليزابيث.

لكنِّي لن أتغاضى عن الفكرة وقد لمعت في ذهني. إن اعتذرت، فلربَّما أستطيع أخيراً أن أنسى. قد تتوقَّف ناماتي فأقضي حياتي مستقرَّة وهادئة، حتَّى ولو بقيت وحيدة، وأنا أعرف أنَّ اليزابيث ستتفهَّم ندمي. أنكمش في الغرفة الزَّرقاء أفكِّر في كيفيَّة تنفيذ المهمَّة. سيكون سهلاً أن أكتب رسالة. منذ أن عرفت العنوان، لم أنسه. لكنِّي لن أدوِّن عنواني على المكتوب خشية أن أجد اليزابيث تقف عند الباب. وبدون عنوان، لن تستطيع اليزابيث الردَّ على رسالتي. ومع أنَّني لا أعتقد أنِّي سأمضي حياتي وأنا أنظر من النَّافذة على الدَّوام شبه متيقِّنة من توقُّف شاحنتها الرَّماديَّة العتيقة أمام الرَّصيف، لكنِّي كنت متحرِّقة إلى معرفة جوابها. عبر الكتابة يمكنني مداورة غضبها وخيبة رجائها، كما أنَّها قد توفِّر لي بعض الطُّمأنينة بعد سنين من الشُّعور بالذَّنب.

عندما ارتفعت الشَّمس عرفت ما عليَّ فعله. سأكتب رسالة لاليزابيث وسأستخدم عنوان محل ريناتا لتلقِّي الرَّدِّ، وستوصل ريناتا الرِّسالة في حال وصلت. أشقُّ باب الغرفة الزَّرقاء وأصغي إلى صوت مارلينا. بدت الشَّقَّة هادئة، فأنزل إلى الأسفل وأجلس إلى الطَّاولة كما أفعل عند تقديم المشورة بشأن نوع الزُّهور، ثمَّ آخذ ورقة وقلماً أزرق. راحت يدي تهتزُّ وأنا أخطُّ بالقلم على الورقة.

أكتب التَّاريخ أولاً في الزَّاوية اليمنى كما علَّمتني اليزابيث. ثمَّ أذكر اسمها وأنا ما زلت على ارتجافي. لم أعد أذكر إن كان عليَّ وضع نقطة أم فاصلة بعد اسمها، وبعد إحجام، أضعهما كلتيهما. أنظر إلى ما كتبت، فيبدو خطِّي مفتقراً إلى الوضوح بسبب توتُّري، وبعيداً كلَّ البعد عن الإتقان الَّذي دائماً ما طلبته اليزابيث. أكرمش الورقة وأرميها على الأرض، وأبدأ من جديد.

بعد ساعة أتناول آخر ورقة عندي، وقد تكوَّمت الأوراق المكرمشة من حولي كالقمامة على أرضيَّة الغرفة. مهما كان، هذه ستفي بالغرض. ضغط الورقة الأخيرة جعل يدي ترتجف أكثر، فبدا خطِّي كخطِّ طفل صغير، غير متيقِّن من شكل كلِّ حرف. سيخيب ظنُّ اليزابيث، لكن، مع ذلك أتابع ببطء وبتركيز. في النِّهاية، نجحت في كتابة سطر واحد:

أنا من أشعل الحريق. وإنِّي لآسفة، ولن أتوقَّف يوماً عن الشُّعور بالأسف.

أوقِّع باسمي. كانت الرِّسالة مختصرة، فخشيت أن تعتبرها اليزابيث وقاحة أو استهزاء، لكن، لم يكن هناك المزيد لقوله. أطوي الورقة وأضعها في مظروف وألصقه. أكتب العناوين عليه وألصق الطَّابع. كانت الطَّوابع الَّتي اشتريتها في الرَّبيع الماضي تحمل صورة زهرة نرجس، أي **بداية جديدة**، صفراء وبيضاء بخلفية حمراء، والأحرف الذَّهبيَّة تحتفي بالسَّنة الصِّينيَّة الجديدة. ستنتبه اليزابيث إلى هذا.

أمضي بسرعة إلى آخر المجمَّع، أرفع اللِّسان الثَّقيل لصندوق البريد، وأدسُّ الرِّسالة فيه من خلال الفتحة، قبل أن يمنحني الوقت المجال لأغيِّر رأيي.

(٢)

في عصر يوم من أيَّام تشرين الأوّل أجلس في بهو المكتب الخفيض أقلِّب في التَّرتيب الهجائي لبطاقاتي من باب العادة، وأنا أنتظر وصول خطيبين. لن يرتبط الاثنان قبل شهر نيسان القادم، لكنَّهما أصرَّا على لقائي الآن. طلبت العروس المشورة في كلِّ شأن، من لون خلفيَّات المكان إلى كلمات أغنية رقصتهما الأولى، وصولاً إلى انتقاء الزُّهور. خلال الصَّيف تعاملت مع عدد لا يحصى من العرائس، لكن، ربط الموسيقى والزُّهور معاً كان أمراً جديداً حتَّى بالنِّسبة لي. ولم أكن متحمِّسة للمقابلة.

أنظر في ساعتي، إنَّها الرَّابعة وخمس وأربعون دقيقة. باقي على وصول الزَّبونين خمس عشرة دقيقة. هو أوان تحضير الشَّاي. كنت أشرب شاياً ثقيلاً بالبابونج اشتريته من سوق المدينة الصِّينيَّة، وكانت البراعم تنبسط وتتهدَّل في الشَّراب الغامق. وقد تحوَّلت تلك إلى لمسة جميلة تلوِّن جلساتي، ولفتة صار ينتظرها زبائني.

أخمِّر إبريقاً وأشرب كأساً في المطبخ قبل أن أنزل الدَّرج. تصل العروس وتجلس على بروز العتبة أمام الأبواب الزُّجاجيَّة. جلست وحيدة تناظر الطَّريق من أولَّه إلى آخره، ومن الخطِّ المستقيم لظهرها ألمح تبرُّمها. بدا أنَّ خطيبها متأخِّر أو لا أثر له.

كان هـذا مـؤشِّر سيِّء عـن العلاقـة، والعرائـس يدركـن ذلـك. كنـت قـد اتَّخـذت قـراراً قبـل عـدَّة شـهور، أنَّ النَّجـاح الطَّويـل لعمـلي يعتمـد عـلى القيـام بتنسـيق الزُّهـور لـلأزواج الَّذيـن سـتعمِّر زيجاتهـم. لـذا، رفضـت أكثـر مـن زوجـين بسـبب التَّلكُّـؤ، أو نتيجـة الأحاديـث الَّتـي تنتقـد البطاقـات بشـكل لاذع.

أضـع الصِّينيَّـة وأمـضي باتِّجـاه البـاب. مـا إن أسـند راحتـيَّ عـلى الزَّجـاج حتَّـى أتوقَّـف فجـأة. يتعـالى في الخـارج صـوت مكابـح، ثـمَّ، ومـن أمـام ناظـريَّ، تمـرُّ شـاحنة رماديَّـة عتيقـة واليزابيـث تجلـس وراء المقـود. عنـد شـارة التَّوقُّـف المنتصبـة عـلى زاويـة الشَّـارع ترجـع الشَّـاحنة إلى الخلـف قبـل أن تقتحـم التَّقاطـع لتختفـي أعـلى التَّـل. أسـتدير وأطـير عـلى السُّـلَّم وأدخـل غرفـة ناتاليـا القديمـة حيـث جثـوت تحـت النَّافـذة بانتظـار ظهـور الشَّـاحنة مـرَّة أخـرى.

في أقـلِّ مـن خمـس دقائـق تعـاود الظُّهـور. كانـت اليزابيـث تهبـط التَّـلَّ بسـهولة أكـبر ممَّـا فعلـت وهـي تصعـده، وفي طرفـة عـين كانـت قـد لفَّـت الزَّاويـة واختفـت عـن الأنظـار. طويـت الـدَّرج درجتـين درجتـين لأمـضي إلى الخـارج، فتنهـض العـروس الجَّالسـة عـلى الرَّصيـف عندمـا تـراني.

تقول بسرعة: «أعتذر منك. سيصل في أيَّة لحظة».

مـع هـذا، لـن يفعـل. كانـت هنـاك نغمـة مكـرَّرة تـتردَّد في اعتذارهـا، وكأنَّهـا اعتـادت اسـتخدام نفـس الكلـمات لتبريـر سـلوك خطيبهـا لشـهور أو لسـنوات.

أردُّ عليها: «كلّا، لن يأتي». لربَّما هو تأثير شاي الأقحوان، لكن، اجتاحتني رغبة مفاجئة تجاه هذه المرأة في تعرية الحقيقة أمامها. تفتح فمها، ربَّما لتحتجَّ، لكنَّ ما ارتسم على وجهي يردعها.

«لن تنسِّقي الزُّهور لنا، أليس كذلك؟»، وتستدير وتمضي بعيداً عنِّي وهي تعلم الإجابة عن سؤالها. ستمضي إلى ريناتا من بعدي، فهكذا يفعلون دوماً. كانت لدى ريناتا النُّسخة الوحيدة المماثلة لقاموسي. طلبت من مارلينا تجهيز نسخة لها قبل أشهر قليلة، بعد أن أخذ عملنا يتنامى أكثر من قدرتنا على تلبيَّته، فصرنا نوجِّه الزَّبائن يوميَّاً إلى محل «نوار».

أصعد إلى قمَّة التلِّ، ومن هناك ألمح ريناتا تهبطه. نلتقي في المنتصف، كما فعلنا مرَّة أنا وغرانت حين أحضر لي النَّرجس. كانت تحمل في يدها مظروفاً بلون زهريٍّ باهت. ترتجف أصابعي وأنا أستلمه. ثمَّ أقعي على الرَّصيف وأضع المظروف في حضني، فتجلس ريناتا إلى جانبي.

تسألني ريناتا: «من تكون؟».

أحسُّ بالمظروف حارَّاً فأضعه في الفراغ الَّذي بيننا على الرَّصيف. أتملَّى في الخطوط الظَّاهرة على باطن كفِّي وكأنَّني أفتِّش عن إجابة سؤالها هناك.

أردُّ بسرعة: «اليزابيث».

نصمت كلتانا. لم تطرح ريناتا المزيد من الأسئلة، لكن، عندما نظرت إليها كان وجهها لايزال يضجُّ بالتَّساؤل وكأنِّي ما أجبتها أبداً. أخفِّض ناظري إلى يديَّ. «أرادت أن تتبنَّاني في يوم من الأيَّام حين كان عمري عشر أعوام».

تصدر ريناتا صوت طقَّة بلسانها، وبظفر قصير تنكش قطعة معدنيَّة محشورة في الاسمنت، وبدون أن تلتفت تسألني: «إذن؟ ماذا فعلت؟».

هو سؤال كان لميريديث أن تطرحه، لكن، أن يصدر عن ريناتا فهذا يجعله أقلَّ اتِّهاماً مقارنة بالاهتمام.

«أشعلت حريقاً».

تلك كانت المرَّة الأولى الَّتي أنطق فيها الكلمات بصوت عال فأشعر بشيء يسدُّ حنجرتي بسبب الصُّورة الَّتي ترسمها، فأغمض عيناي بشدَّة.

«صغيرتي مشعلة الحرائق»، تقولها ريناتا وتلفُّ ذراعها بلطف حول كتفيَّ، وتجذبني إليها. «لم لم أتفاجأ؟».

ألتفت لأتمعَّن في ملامحها. لم تكن تبتسم، لكنَّ عينيها كانتا تفيضان حناناً. فأسألها: «إذن، لم لم تتفاجئي؟».

ترفع ريناتا خصلة من الشَّعر عن عينيَّ، فتمسح جبيني رؤوس أصابعها. كانت بشرتها ناعمة، فأميل عليها لتتوسَّد أذني

كتفها فتبدو كلماتها مكبوتة حين تتحدَّث. تسألني: «أتذكرين صباح التقينا، حين وقفت عند مدخل محلِّي تطلبين العمل، لترجعي بعد سويعات ومعك برهان على ما تستطيعين فعله؟ يومها أعطيتني تلك الزُّهور كاعتذار، مع أنَّك لم ترتكبي خطأ، حتَّى مع اقتراب باقتك من الكمال حسبما رأيت. أدركت حينها أنَّك تشعرين أنَّك بلا قيمة، وأنَّك تظنِّين نفسك برزايا لا تغتفر».

أتذكَّر ذلك الصَّباح جيِّداً. اتذكَّر قلقي من معرفتها حقيقة تشرُّدي، وحقيقة ماضيِّ، فأسألها: «فلم وظَّفتني والحال هذه؟».

تمرِّر ريناتا يدها على خدِّي، وعندما تصل إلى ذقني ترفع لي وجهي، فأنظر في عينيها.

«أوتظنِّين أنَّك المخلوق الوحيد الَّذي لا تغتفر عيوبه؟ والَّذي كان عرضة للإيذاء حدَّ الانكسار؟».

تنفحني نظرة عميقة، وعندما تشيح بنظرها أدرك أنَّها فهمت تلك الـ «بلى، أنا فعلاً أعتقد أنَّني الشَّخص الوحيد». «كان بإمكاني توظيف شخص آخر، شخص بعيوب أقلَّ ربَّما، أو أفضل في إخفائها على الأقل. لكنَّ ايَّاً منهم لن يملك الموهبة الَّتي تتمتَّعين بها في التَّعامل مع الزُّهور يا فيكتوريا. إنَّها حقَّاً منحة ربَّانيَّة. عندما تتعاملين مع الزُّهور يتحوَّل كلُّ شيء يحيط بك. يرتخي تقلُّص فكَّيك وتلتمع عيناك مع تركيزها. تعامل أصابعك الزُّهور باحترام ورقَّة يجعل من المحال التَّصديق بقدرتك على ممارسة

العنف. لن أنسى ما حييت أوَّل يوم رأيتك فيه، وأنا أراقبك تنسِّقين أزهار دوَّار الشَّمس على الطَّاولة الخلفيَّة. شعرت بأنَّني أرى فتاة مختلفة تماماً».

كنت أدرك من هي الفتاة الَّتي تعنيها. هي نفس الفتاة الَّتي لمحتها في مرآة غرفة تجربة الملابس مع اليزابيث، بعد الإقامة لسنة تقريباً في منزلها. ربَّما تقبع تلك الفتاة في مكان ما من دواخلي في النِّهاية، محفوظة كزهرة مجفَّفة، هشَّة وعذبة.

تلتقط ريناتا المكتوب وتلوِّح به في الهواء بيننا، وتسألني: «هل تسمحين لي؟».

(٣)

عنـد سماع صـوت المطرقـة أنفـخ عـن الطَّاولـة البراعـم القطنيَّـة البيضـاء الَّتي رتَّبتهـا في صـفٍّ، فتتناثـر على أرضيَّـة المحكمـة. وتنهض اليزابيـث.

حـين وصلـت، كانـت الزَّهـرات متوضِّعـة على مقعـدي كشـبكة متداخلـة مـن زهـور الرَّبيـع، وتعنـي **الحـبَّ الأبـديَّ**، وقـد انعكسـت خيالاتهـا عـلى السَّـطح الصَّقيـل للطَّاولـة مثـل كـرات دقيقـة ضاربـة عميقـاً في الخشـب اللَّمَّاع. بـدت متيبِّسـة وجافَّـة الملمس كأنَّما اليزابيث قـد اشـترتها لموعـد المحكمـة الأول، قبـل أن تسـتأنف جلسـات الاسـتماع، ثـمَّ تسـتأنف ثانيـة. لم تذبـل الزُّهـور ولم تتعفَّـن، لكنّهـا مـع مـرور الوقـت ازدادت هشاشـة، لكنَّهـا، مـن ناحيـة أخـرى، لم تتغـيَّر. مـا كان هنـاك مـن سـبب يدفـع اليزابيـث إلى شراء باقـة نـضرة.

حـين وقفـت أمـام القاضيـة لتنكـر بمنهجيَّـة قائمـة طويلـة مـن الاتِّهامـات، كنـت أنـا أقصـف السِّـيقان البنِّيَّـة الجـرداء لأرتِّبهـا مثـل عـشِّ الطَّائـر في وسـط الطَّاولـة. كان هنـاك توقُّـف فيخيِّـم الصَّمـت عـلى قاعـة المحكمـة. يـتردَّد صـدى طلـب اليزابيـث في مسـامعي: **أطلـب منكـم أن تعيـدوا فيكتوريـا إلى حضانتـي، وأن تضعـوا الأمـر موضـع التَّنفيـذ في الحـال.** لم أجـرؤ عـلى رفـع ناظـري خشـية أن تفشي

عيناي بمكنون رغبتي. لكن، حين تحدَّثت القاضية مرَّة أخرى كان فقط لتأمر اليزابيث بالعودة إلى مكانها. بدا أنَّ طلبها لا يستحقُّ عناء الرَّدِّ. فتعاود الجلوس.

احتلَّت ميريديث مكانها بين اليزابيث وبيني على المقعد الطَّويل المطوَّق بالمحامين. كان المحامي الموكَّل بقضيتي قصيراً وسميناً، ويظهر عليه الضِّيق من بدلته، فكان ينحني إلى الأمام كلَّما تحدَّثت القاضية ليبعد قميصه عن نقرته. بدت مفكِّرته فارغة، والظَّاهر أنَّه لا يملك قلماً. من تحت الطَّاولة راح يختلس النَّظر إلى ساعته كي يعرف الوقت. كان توَّاقاً إلى المغادرة.

كنت جاهزة للمغادرة أنا أيضاً، وأنا شبه مصغية إلى ميريديث والقاضية وهما تتجادلان بشأن مستوى الحاجة، فيما ألهو أنا بمجموعة السِّيقان المتكسِّرة فوق الطَّاولة فأرتِّبها على شكل سمكة بثلاث زعانف، وتاج مدبَّب، ومن ثمَّ أصنع منها شكل قلب مائل. ألهتني الكومة الهشَّة عن اقتراب اليزابيث لمسافة لا تزيد عن خمسة أذرع. تأمر القاضية بإيداعي في سكن جماعي من المستوى العاشر، مع انتظار تأمينه. تسجِّل ميريديث القرار على سجلِّ الحالة وتعبر قاعة المحكمة باتِّجاه منصَّة القاضية وبيدها كدسة سميكة من الأوراق. تصمت القاضية ثمَّ تأمر ميريديث بإدراج اسمي في كلِّ قوائم الانتظار الخاصَّة بالإسكان المؤقَّت، لتوقِّع بعدها على الورقة الأولى. عندما أنعتق بعد ثمان سنوات،

كنت لا أزال وحيدة. وبدون التَّعبير عنه بعبارات محدَّدة، أطَّرت كلمات القاضية حدود مستقبلي.

تتنحنح القاضية، فتعود ميريديث إلى مكانها. في الصَّمت الَّذي تلا أدركت أنَّ القاضية كانت تنتظرني لأرفع ناظري، لكنِّي لم أفعل. أنقب بإصبعي حفرة في القلب الَّذي شكَّلته من السِّيقان، وأتابع توسعتها حتَّى أرى انعكاس وجهي على الجزء الَّذي تحيط به من سطح الطَّاولة. راعني منظر تقدُّمي في العمر، ومقدار غضبي على حد سواء. ومع ذلك، لم أرفع ناظري.

تنطق القاضية في النِّهاية: «هل لديك ما تقولينه يا فيكتوريا؟».

لم أجب. على الجانب الآخر من محامٍ كانت وكيلة النِّيابة تنقر بأظافرها الطَّويلة واللَّامعة على الطَّاولة. كانت أشكالها بيضويَّة حمراء اللَّون ملصقة على أكفٍّ متغضِّنة، وقد طلبت منِّي أن أشهد على اليزابيث في المحكمة الجنائيَّة، لكنِّي رفضت.

أنهض ببطء وأخرج من جيوبي حفنات من القرنفل الأحمر برؤوس مائلة إلى السُّمرة كنت نتشتها من باقة للعيد معروضة في محلٍّ للهدايا تابع للمشفى. بعد شهرين من ليلة الحريق كنت لا أزال في المشفى، وقد تحوَّلت من قسم الحروق إلى جناح العلاج النَّفسي لحين إيجاد ميريديث لمكان أنتقل إليه.

أنزل من تحت المنضدة وأقطع قاعة المحكمة.

تطلب منّي القاضية وقد وقفت أمامها: «أريدك أن تتفكّري بتبعات رفضك للشّهادة. الأمر يتعدّى الشّهادة بشأنك، والشّهادة لتحقيق العدالة. بل هو يرقى إلى حدّ حماية أطفال آخرين».

بدا أنَّ البالغين في القاعة قد اعتبروا اليزابيث مصدر تهديد. كدت أضحك، فالفكرة بدت عبثيّة. لكنّي عرفت أنّني إن ضحكت فلسوف أبكي، وإن أنا بكيت، فقد لا أتوقّف أبداً.

بدلاً من ذلك، كوّمت القرنفل الأحمر على الطّاولة. **قلبي ينفطر**. كانت تلك المرّة الأولى الّتي أقدّم فيها زهرة إلى شخص لم يدرك معناها. بدت الهديّة مزعزعة ومؤثّرة بشكل مثير للعجب. عندما استدرت لأمضي تنهض اليزابيث وقد فهمت معنى الزُّهور. وفي هذه اللّحظة الوجيزة والصّامتة يتواجه جسدانا، لتستعر الطّاقة الكامنة بيننا بنفس حرارة الحريق الّذي فرّق شملنا.

أنطلق راكضة. تضرب القاضية بالمطرقة وتنادي ميريديث عليّ، فأدفع أبواب القاعة لأفتحها وأقطع ستّ لفّات من السّلالم جرياً، ثمَّ أدفع مخرج طوارئ وأمضي إلى الخارج، لأقف في ضوء الظّهيرة السّاطع. لم يكن مهمّاً في أيّ اتّجاه أمضي، فميريديث ستلحق بي. ستعيدني إلى المشفى، أو تلحقني بالسّكن الجماعي، أو تعمل على توقيفي في مركز احتجاز. لثماني سنوات رحت أتنقّل من مكان إقامة إلى مكان إقامة آخر، كلّما زارتني. ثمَّ، وفي عيد ميلادي الثّامن عشر، أنعتق، لأبقى وحيدة.

تدهمني قشعريرة. كان يوماً بارداً من أيَّام كانون الأوّل، بدت فيه السَّماء الصَّافية خدَّاعة. أستلقي على الأرض حيث وقفت، وأوسِّد خدِّي الاسمنت الدَّافئ.

أردت العودة إلى البيت.

(٤)

مكتبة
t.me/t_pdf

مرَّت عشر سنين ومازالت اليزابيث تريدني.

تماسَّت رسالتها مع جلدي وقد طويتها على شكل مربَّع صغير وحشرتها في حمَّالة صدري، وأنا أعمل مع مارلينا في ذلك المساء. كتبت فيها **لقد خذلتك، ولم أتوقَّف عن النَّدم أنا أيضاً.** ثمَّ، في أسفل الرِّسالة، كتبت فوق اسمها مباشرة: **أرجوك، أرجوك، عودي إلى المنزل.** تكاد لا تمرُّ ساعة إلَّا وأخرج الرِّسالة مرَّتين أو ثلاث لأعيد قراءة جملها القصيرة، حتَّى حفظت شكل كلِّ حرف فيها بحذافيره، لا الكلمات وحسب. لم تستفسر مارلينا، بل اجتهدت أكثر في عملها كي تسدَّ التَّقصير الَّذي يخلِّفه شرودي.

سأذهب إلى اليزابيث. قرَّرت هذا صبيحة قراءتي لرسالتها، حين كنت جالسة على الرَّصيف قرب ريناتا. أنهض وأنا أقصد المضيَّ إلى سيَّارتي مباشرة وأمضي بها لتوِّي فوق الجسر وأعبر الرِّيف وصولاً إلى كرمها. لكن، عوضاً عن ذلك، أرى مارلينا تعمل من خلال النَّافذة، فأنصرف إلى إعادة تنسيق باقة، لأتوقَّف وأمضي إلى أخرى، وتمرُّ السَّاعات. كنَّا منشغلتين بالتَّحضير لحفل بمناسبة ذكرى سنويَّة في اليوم التَّالي، وبعده مباشرة هناك زفافان، تباعاً. ازدحم موسم الخريف عن آخره كما كان الصَّيف، فطفقت

العرائس اللّجوجة الواهمة، ممّن يفضّلن الزّواج في أيّ يوم أحد في أواخر الخريف على استبدالي بمنسّقة أخرى، يتواردن علينا، وهؤلاء كنَّ آخر من أفضّل التّعامل معهن. ليسوا ثريّات بما يكفي ليزايدوا ببساطة على العرائس الأخريات لإقامة الحفلات في الصَّيف، والتَّجهيز لحفلات زفاف فخمة بكياسة وامتنان، لكنّهنَّ ثريّات بما يكفي للدّوران في نفس الدَّوائر المفرغة والشُّعور بالإحباط من المقارنات الدَّائمة. عرائس الخريف متقلّبات الأمزجة، والرِّجال الَّذين يريدون الارتباط بهن متساهلون كثيراً. في الشُّهور الماضية، تمَّ استدعاؤنا أنا ومارلينا لاستشارات السَّاعة الأخيرة من قبل عروسات ثلاث، تمَّ فيها نسف كلِّ ما خطَّطنا له لنبدأ من جديد قبل موعد الزَّفاف بيوم واحد.

لكنَّ ما جعلني أهمد بجانب مارلينا لم يقتصر على متطلَّبات جدول أعمالنا وحسب، بل زاد عليه الانفعال الَّذي خلَّفته معرفتي باستمرار رغبة اليزابيث فيَّ، وهو ما خفَّف من الوجع الَّذي لوَّن عقدي المنصرم، بل وخفَّف حتَّى من الألم الدَّائم شوقاً إلى ابنتي. طالما أنَّني لم أذهب إليها يبقى الوعد الَّذي تضمَّنته رسالة اليزابيث قائماً. فإن أنا قرعت بابها قد أخاطر بمواجهة امرأة مختلفة عن تلك الّتي أذكرها، أكبر عمراً بلا شك، إنَّما أشدَّ حزناً أو غضباً ربَّما، وهذه مخاطرة أكبر من أن أقدم عليها.

لم أنم بشكل منتظم تلك اللَّيلة، فرحت أصحو كلَّ بضعة ساعات وهناك ما ينخسني للذَّهاب إلى اليزابيث. لكن، مع حلول

الصَّباح ضعفت جاذبيَّة الكرم. سوف أنتظر أسبوعاً أو أسبوعين كأقصى حد، ثمَّ سأمضي إليها وأنا بأتمِّ جاهزيَّة لمواجهة ما قد ألقى، مهما كان. وعلى هذا استقرَّ قراري.

عندما رنَّ الهاتف كنت قد أنهيت حمَّامي وارتديت ملابسي. كانت كارولاين، وكنت أنتظر اتِّصالها. خلال جلستنا الاستشاريَّة لم تدر ما تريده من منسِّقة زهور أو من علاقة، واستمرَّت في نواحها كلَّما طرحت عليها سؤالاً لا تعرف الردَّ عليه. راق لي خطيبها، مارك، الَّذي أظنُّه السَّبب في رغبتي بالقيام بالمهمَّة، فقد عاملها بأسلوب بدا بطريقة ما مشجِّعاً أكثر منه مهيناً.

رددت على اتِّصالها من الرَّنَّة الأولى. وبينما كنت أقلِّب الأمر إن كنت سأطلب منها القدوم أو أكذب عليها وأخبرها بانشغالي، أعبر غرفة النَّوم لأراها تجلس على الرَّصيف المقابل. ترفع رأسها باتِّجاهي ومارك إلى جانبها. كانت قبضتاها مشدودتين، لكنَّها تفتح إحداهما ببطء لتلوِّح بها. أفتح النَّافذة وأضع السَّمَّاعة.

«حسن، امنحيني بعض الوقت»، أقول لها ما قالته لي ناتاليا في أوَّل مرَّة قرعت فيها الباب، ومثل ناتاليا، آخذ وقتي. أدخل المطبخ وأجهِّز كأساً من الشَّاي، وأسلق بيضاً، وأحمِّص الخبز. إن كنَّا سنناقش أمر باقات الزُّهور مجدَّداً، وأنا على يقين أنَّنا سنفعل، فمن المحتمل أن أستمرَّ في العمل للأربع وعشرين ساعة القادمة كلِّها. أخذت وقتي في تناول الطَّعام وشربت كأسَيْ حليب قبل أن أنزل الدَّرج.

عانقتني كارولايـن عندمـا فتحـت البـاب. ربَّـما هـي في الثَّلاثـين مـن عمرهـا لكـنَّ تصفيفـة شـعرها عـلى شـكل جديلتين جعلتهـا تبـدو أصغـر. عندمـا احتلَّـت مكانهـا مـن الطَّاولـة قبالتـي رأيـت عينيهـا الزَّرقاويـن دامعتـين.

«الزَّفـاف غـداً»، تخـبرني وكأنَّ هـذه الحقيقـة كانـت غائبـة عنِّـي بشـكل مـا. «وأظـنُّ أنَّ كلَّ شيء يمـضي في الاتِّجـاه الخطـأ». تشـهق وتـدقُّ عـلى قلبهـا براحتهـا.

يجلس مـارك إلى جانبهـا ويربِّـت عـلى ظهرهـا بقبضتـه. تضحـك وقـد أصابتهـا الفواقـة، فيقـول: «إنَّهـا تحـاول ألَّا تبكـي. إن بكـت في هـذا الوقـت القريـب مـن الزَّفـاف، فسـيظهر الأثـر في الصُّـور».

تضحـك كارولايـن ثانيـة، لتنفر مـن عينهـا دمعـة. تنقفهـا بظفـر مغطَّـى بالطِّـلاء وتقبِّـل مـارك، ثـمَّ تقـول: «لا يتفهَّـم أهميَّـة الأمـر، فهـو لم يقابـل أبـداً أليخانـدرا ولويـس، ولا يعـرف مـا حـدث في شـهر عسـلهما».

أومـئ وكأنِّي تذكَّـرت هذيـن الزُّوجـين والأزهـار الَّتـي اخترتهـا لهـما. «طيِّـب، مـاذا أسـتطيع أن أفعـل لـك؟»، أسـألها وأنـا أتـذرَّع بأقـصى درجـات الصَّـبر.

«هـل تعلمـين ذلـك السُّـؤال القديـم الَّـذي يقـول إن كان لـك أن تـأكلي خمسـة أنـواع مـن الطَّعـام فقـط طـوال حياتـك، فـماذا تختاريـن؟». أومـئ، مـع أنَّ أحـداً لم يسـألني ذلـك السُّـؤال. «حسـن، أنـا أفكِّـر

بذلـك عـلى الـدَّوام. اختيـار زهـور حفـل الزَّفـاف يماثـل انتقـاء الصِّفـات الخمـس الَّتـي تريديـن أن تتحلَّى بهـا علاقـة عـلى مـدى القـادم مـن عمـرك. فكيـف لـك أن تختـاري؟».

يعلِّـق مـارك قائـلاً: «تقـول عـلى مـدى القـادم مـن عمـرك وكأنَّ الـزَّواج مـرض عضـال».

تردُّ وهي تتفحَّص كفَّيها: «تعرف ما أعني».

كنـت بالـكاد أصغـي إلى نقاشـهما وأنـا أفكِّـر في الأطعمـة الخمسـة الَّتـي كنـت لأختارهـا. الفطائـر المحـلَّاة بـكلِّ تأكيـد. فهـل سـيتوجَّب عـليَّ اختيـار نـوع، أم أكتفـي بقـول مشـكَّلة؟ مشـكَّلة، هكـذا قـرَّرت، مـع التَّأكيـد عـلى القيقـب.

راح مـارك وكارولايـن يتجـادلان بشـأن الـورود الحمـراء والتوليـب الأبيـض، أي الحـب في مواجهـة التَّصريح بالحب. فتتسـاءل: «لكـن، إن كنـت تحبُّنـي دون أن تعلمنـي، كيـف سـأعرف؟».

يـردُّ مـارك وهـو يرفـع حاجبيـه وينقـل أصابعـه مـن ركبتهـا إلى أعـلى سـاقها: «أوه، سـتعرفين».

أرنـو بنظـري خـارج النَّافـذة. الفطائـر المحـلَّاة، فـرُّوج مشـوي، كعكـة الجبـن، وحسـاء الجـوز المهـروس، شـديد السُّـخونة. طبـق آخـر سـيكون فاكهـة أو خضـار إن توجَّـب عـليَّ العيـش أكثـر مـن عـام عـلى هـذه الحميـة الوهميَّـة، لكـن، لم يخطـر ببـالي أيُّ طبـق أفضِّلـه بـما يكفـي

كـي أتناولـه يوميًّـاً. أنقـر بأصابعـي عـلى الطاولـة القابلـة للطـيِّ وأرنـو إلى الخـارج حيـث بـدت السَّـماء الزَّرقـاء منشـقَّة عـن فصلهـا.

حينهـا فقـط تتلبَّسـني الفكـرة وأسـتيقن مـن ضرورة مغـادرتي في التَّـوِّ كـي أرى اليزابيـث. قـد نضجـت عناقيـد العنـب، إذ كنـت أحـصي أيَّـام الخريـف الدَّافئـة، اثنـي عـشر يومـاً عـلى التَّـوالي، والشَّـمس الآن تخـترق أشـعَّتها الغرفـة المعتمـة بزوايـا حـادَّة تعـجُّ بالغبـار، فأيقنـت أنَّ العناقيـد باتـت جاهـزة للقطـاف. كـما عرفـت أنَّ اليزابيـث لم تتفحَّصهـم بعـد. لا أدري كيـف عرفـت هـذا، لكنِّـي عرفـت، بالطَّريقـة الَّتـي سـمعت أنَّ الأمَّهـات والبنـات، اللَّائـي اتَّصلـن يومـاً بحبـل سري، كـنَّ يعرفـن بمـرض الأخـرى أو بتعرُّضهـا للخطـر، فأفـزُّ مـن مـكاني. انتقـل كلٌّ مـن مـارك وكارولايـن إلى المقارنـة بـين الحمحميَّـة وإبـر الرَّاعـي، لكنِّـي لم أتابـع مـن تغلَّـب رأيـه في الجـدل الَّـذي دار بشـأن الـورد الأحمـر والتوليـب.

أسـألها بفظاظـة مـا قصدتهـا: «لم تقيِّديـن نفسـك؟ لم أطلـب منـك أبـداً أن تتقيَّـدي بعـدد محـدَّد مـن الزُّهـور لباقتـك».

فتسـألني: «لكـن، مـن رأى عروسـاً تحمـل باقـة بأنـواع خمسـين مـن الزُّهور؟».

أجيبهـا: «ابدئـي أنـت هـذا الفتـح». كانـت كارولايـن مـن النَّـوع الَّـذي يحبِّـذ الإقـدام عـلى بـدء صرعـة جديـدة. آخـذ دفـتري المحلـزن وقلـماً: «تأمَّـلي في المجموعـة صـورة صـورة وسـجِّلي الصِّفـة الَّتـي

تريدينها أن تصبغ علاقتك. وسنولِّف معاً كلَّ ما بمقدورنا في اللَّحظات الأخيرة. لكن، توقَّفي عن المقارنات مع أقرانك من العرائس».

«الأثواب لونها أخضر مائل إلى الصُّفرة، ويمكن أن تتلاءم مع كلِّ شيء»، تقول كارولاين بامتثال وكأنَّها قد ابتاعتها متنبِّئة بهذه اللَّحظة.

كنت قد صعدت إلى منتصف الدَّرج فعليَّاً. عليَّ الاتِّصال بمارلينا، فهي قادرة على ملء الطلبيَّة بدوني وستقوم بالواجب بسرعة وكفاءة. لم تك تنسيقاتها للزهُّور جميلة، مع أنَّها تطوَّرت قليلاً مع الوقت، لكنَّها حفظت أنواع الزُّهور ومعانيها عن ظهر قلب ولن تخلط ما بين ورقة البلُّوط وورقة إبر الرَّاعي. تعتمد سمعة المحل على محتويات الباقة وليس على اللَّمسة الفنيَّة للتَّنسيقات، و في ما يخصُّ المحتوى كان عمل مارلينا بلا عيوب.

تجيبني بعد رنَّة واحدة، فعرفت أنَّها كانت تترقَّب هذا الاتِّصال، هي أيضاً.

أقول لها: «تعالي»، فتضجُّ مارلينا. أغلق السَّماعة دون أن أخبرها أنَّني لن أكون موجودة عندما تصل، وأنَّ كارولاين ومارك في خضمِّ انتقاء ما يمكن أن يعتبر الباقة الأكثر تعقيداً الَّتي يشهدها تاريخ حفلات الزَّفاف في سان فرانسيسكو. فما من داع لتنبيهها.

ألتقـط مفاتيحـي وأنـزل الـدَّرج درجتـين درجتـين. «مارلينـا قادمـة»، هكـذا أخـبر مـارك وكارولايـن وأنـا أمـضي متجـاوزة المنضـدة وأخـرج مـن البـاب.

قـدت في الـدُّروب الرِّيفيَّـة كـما اعتـدت أن أفعـل عـلى الـدَّوام، مـع غرانـت، ولوحـدي، ثـمَّ مـع الرَّضيعـة، في آخـر مـرَّة قدمـت بهـا. أمـرُّ بمزرعـة الزُّهـور، فأضـع كفِّـي عنـد صدغـي كـي أمنـع نظـري مـن مسـح المحيـط. لم أر بيـت المزرعـة، ولا بـرج المـاء، ولا حتَّـى الزُّهـور. قـد وفَّـرت الشَّـجاعة لرؤيـة اليزابيـث، لكنِّـي لم أحتمـل فكـرة أن ألمـح غرانـت أو ابنتـي في ذات اليـوم.

عـلى الطَّـرف الآخـر مـن الـدَّرب المـؤدِّي إلى مـكان اليزابيـث قـدت إلى جانـب الطَّريـق. تمـرُّ حافلـة مدرسـة وبعدهـا سـيَّارة مغلقـة بنيَّـة اللَّـون مكتظَّـة. عندمـا يفـرغ الطَّريـق، أخـرج إلى المنطقـة الرِّيفيَّـة الهادئـة وأرسـل نظـري إلى الطَّـرف الأخـر مـن الطَّريـق.

مـن النَّظـرة الأولى رأيـت الكـرم كـما أذكـره تمامـاً. الـدَّرب الـتُّرابي الطَّويـل، وبيـت المزرعـة في المنتصـف، وشـجيرات الكرمـة ممتـدة في صفـوف تـوازي الطَّريـق. أسـتند إلى سـيَّارتي وأنـا أبحـث عـن آثـار للخـراب الَّـذي تسـبَّبت بـه. قـد تـمَّ نصـب الكـرم مـن جديـد، وقلبـت التربـة المتفحِّمـة، كـما اختفـت بقايـا الرَّمـاد منـذ فـترة طويلـة، حتَّـى أنَّ شـوك البـلَّان عـاد ليظهـر في الخنـدق بنفـس الطُّـول واليبـس الَّذيـن كان عليهـما ليلـة أشـعلت الحريـق. فقـط ثخانـة شـجيرات الكرمـة هـي الَّتـي توحـي بـأوان وقـوع الحريـق، فجـذوع الكرمـات بـدت بنصـف

ثخانة تلك الواقعة على الجانب الآخر من الدَّرب. كانت خضرة الأوراق في النبتات اليافعة أفتح، ويلاحظ وجود ثمار أكثر تتهدَّل عن الشُّجيرات. فأتساءل إن حقَّقت نوعيَّة ثمار الكرمات الجديدة معايير اليزابيث.

أقطع الطَّريق فيبدو البيت كما هو، لكنَّ صفَّ الحظائر قد زال، احترق تماماً كما تهيَّأ لي. كما اختفت مقصورة كارلوس هي الأخرى، لكنِّي شكَّكت بذوبان المعدن، الأكثر ترجيحاً أنَّه وجد عملاً آخر أو أنّه انتقل، فتخلَّصت اليزابيث من المقصورة. بدون المباني الملحقة والمهلهلة، بدا البيت كنزل للمبيت والإفطار أكثر منه بيتاً في مزرعة للعنب. كما ظهر الدِّهان أبيضاً بلا بقع، مع زوج من الكراسي الهزَّازة من الخشب الأحمر تتمايل على الشُّرفة الأماميَّة. ومن خلال النَّافذة المغطَّاة بالسَّتائر يتسرَّب ضوء المطبخ المنار.

أتوقَّف عند الدَّرجة السُّفلى، فيتناهى إلى سمعي صوت رقيق مثل هبَّة هواء، يتلوه نضح ماء مكتوم. إنَّها اليزابيث في الحديقة. يلتصق ظهري بلوح خشبي أبيض، فأناور متسلِّلة من طرف البيت. كانت اليزابيث مقرفصة عارية القدمين على التُّراب، وهي على بعد خطوات فقط من حيث وقفت، وقد أولتني ظهرها. تعشَّق الطِّين في تغضُّنات كاحليها من الخلف، وعندما مالت إلى الأمام رأيت قوسي قدميها نظيفين وزهريَّي اللَّون.

كانت تتساءل: «مرة ثانية؟»، وهي تحمل حلقة من السِّلك المبروم لها قبضة خشبيَّة متآكلة.

أبتعد عن الجدار كي أحظى بمجال رؤية أفضل للحديقة. على ممرٍّ أمام الأزهار الحمراء يظهر حوض مطليٌّ ممتلئ حتَّى منتصفه بسائل الفقاقيع، ودوَّامات بألوان قوس قزح تتبدَّى على السَّائل السَّميك. وهي تتشبَّث بحافة الحوض بيد واحدة، تمدُّ طفلة مدوَّرة العينين يدها الأخرى إلى الحلقة المعدنيَّة. كانت تجلس على الأرض ولا ترتدي إلَّا حفاضاً، فيما جسدها العاري يتمايل، وبطنها الممتلئ يهتزُّ بحسب تحرُّك مؤخِّرتها. تمدُّ اليزابيث يدها خلف ظهر الطِّفلة لتسندها، وفي لحظة سهو تنجح الطِّفلة في الإمساك بالحلقة وتجرُّها إلى فمها وهي لا تزال مغلَّفة بالصَّابون، لتأخذ بعضِّها بقوَّة. تتوجَّه اليزابيث بحديثها إليها، وهي تسحب المقبض الخشبي دون فائدة: «عفوك أيَّتها الصَّغيرة، فهذه الحلقة لصنع الفقاعات وليست لحكِّ الأسنان».

لم يبدر عن الطِّفلة أيُّ ردِّ فعل على التَّنبيه. تدغدغ اليزابيث بطنها العاري، بعد توقُّف، حتَّى تقهقه، فتحرِّر الحلقة المعدنيَّة من إطباق فكِّها عليها. تمسح اليزابيث بقايا الصَّابون عن فم الطِّفلة بإصبعها.

«راقبي الآن»، تقول اليزابيث وتغمس الحلقة ثمَّ تنفخ فيها لتهطل الفقاقيع على الطِّفلة، لتفرقع على كتفيها وجبهتها، مخلِّفة وراءها دوائر رطبة.

قد نما شعرها، فلفافات داكنة تغطِّي النِّصف الأعلى من أذنيها، وتلتفُّ عند مؤخِّرة رقبتها من الخلف. تصوَّرت أنَّ بشرتها قد اسمرَّت وتحوَّلت إلى لون أغمق من اللَّون اللَّبني نتيجة التَّواجد لساعات في الحديقة. كما بزغ لها سنَّان سفليَّان، فشهور قد انقضت دون أن أمرِّر إصبعي فوق لثَّتها اللَّزجة. ما كنت لأعرفها لولا عيناها، عيناها المدوَّرتان العميقتان بلونهما الأزرق المائل إلى الرَّمادي، واللَّتان تحوَّلتا إليَّ وتركَّزتا على وجهي متسائلتين، كما في صبيحة اليوم الَّذي تركتها فيه داخل السَّلَّة المبطَّنة بالطُّحلب.

أتراجع بهدوء، ثمَّ أستدير وأجري إلى الطَّريق.

(٥)

أجلس بين النَّباتات الموغلة في القدم، أفتِّش عن البراعم النَّادرة، وقد قلَّم غرانت الزُّهور. على بعد ربع إنش من أسفل كلِّ نهاية مقلَّمة يبزغ برعم أحمر ممتلئ من طرف السَّاق، حيث ستتفتَّح وردة جديدة. يسعى غرانت وراء الورود الحمراء، كما يفعل كلَّ عام، تحضيراً لعيد الشُّكر.

بعد خمس وعشرين سنة قضاها بمفرده، يعيد الصِّلة باليزابيث. أقود باتِّجاه مزرعة الزُّهور مباشرة وأنا مأخوذة، وأترك سيَّارتي على الطَّريق لأتسلَّق بوَّابة غرانت المقفلة، فقد تخلَّصت من المفتاح منذ زمن طويل. لكن، عوضاً عن دقِّ باب برج الماء أنسحب إلى حديقة الزُّهور. كانت ابتسامة ابنتي الخجولة لا تزال مطبوعة في ناظري، وقد أترعتني فرحتها وهي تبرم مثل الماء الممتزج بالصَّابون في الحوض. هي برفقة اليزابيث، وتبدو سعيدة. اليسر الَّذي لوَّن تفاهمها جعلني أقتنع أنَّ منزلها سيكون الكرم أبد الدَّهر، فجعلتني الفكرة أحدس بوحدة غرانت كما خبرت فعلياً فرحة ابنتي.

تمضي ساعة. كنت ما أزال منتشية برؤيتي الفجائيَّة لابنتي، حين يطرق مسامعي وقع حذاء غرانت الثَّقيل وهو يقترب من

ورائـي. تـدوِّي خفقـات قلبـي كـما حـدث في سـوق الزُّهـور حـين التقينـا للمـرَّة الأولى، فأتقوقـع عـلى نفسـي علَّنـي أخفِّـف مـن رجـع الصَّـوت. يـوازي غرانـت حـذاءه مـع حذائـي ويجلـس إلى جانبـي، لتتـماسَّ أكتافنـا. يـدسُّ شـيئاً خلـف أذني فأسـحبه، لأجـده وردة بيضـاء. أرفعهـا باتِّجـاه الشَّـمس فيسـقط ظلُّهـا علينـا كلينـا. ويلـفُّ جلسـتنا صمـت طويـل.

في النِّهايـة أنزلـق وأسـتدير إليـه. مضـت أكثـر مـن سـنَّة منـذ أن رأيـت غرانـت لآخـر مـرَّة. يبـدو عليـه التَّقـدُّم في العمـر أكثـر ممَّـا يجـب أن يوحـي بـه الزَّمـن، فقـد انحفـرت أخاديـد دقيقـة عـلى امتـداد حاجبيـه الوقوريـن، لكـنَّ رائحـة التُّربـة الَّتـي تصـدر عنـه بقيـت كـما حفظتهـا ذاكـرتي. أعـاود الاقـتراب حتَّـى تتلامـس كتفانـا مجـدَّداً.

أسأله: «كيف شكلها؟».

يـردُّ بصـوت هـادئ وعميـق: «جميلـة. عـادة مـا يعتريهـا الخجـل في البدايـة. لكـن، عندمـا يحـين الوقـت، وتمسـك كلتـي أذنيـك بيديهـا الصَّغيرتـين المكتنزتـين، فلـن تجـدي في الدُّنيـا مـا يماثـل هـذا الشُّـعور». يتمهَّـل لهنيهـة ويقتطـع بتلـة مـن الـوردة الَّتـي أحملهـا ويقرِّبهـا مـن شـفتيه: «تحـبُّ الزُّهـور هـي أيضـاً، تقتلعهـا وتشـمُّها، وقـد تأكلهـا إن لم تكـوني تراقبينهـا عـن كثـب».

فأسأله: «أحقَّاً تحبُّها كما نحبُّها؟».

يومـئ غرانـت. «لـو ترينهـا كيـف تبتسـم وأنـا أنطـق الأسـماء

اللَّاتينيَّة لأنواع الأوركيديا الموجودة في الدَّفيئة: أونسيليوم، ديندروبيوم، بالبوفيلوم، إبيديندروم، وأدغدغ وجهها بكلِّ زهرة منها. لن أُفاجأ إن كانت كلمة أوركيديسي أوَّل كلمة تتلفَّظ بها».

يتراءى لي وجهها المدوَّر، بخدَّيها المتورِّدين بسبب حرارة الدَّفيئة، وقد استند إلى صدر غرانت لتتجنَّب الزُّهور المدغدغة.

يخبرني غرانت: «أحاول تدريسها العلوم المتعلِّقة بالنَّباتات أيضاً». بدت الابتسامة الَّتي افترَّت عنها شفتاه تفيض بالذِّكرى. «لكن، حتَّى الآن لا تسير الأمور كما ينبغي. تغفو حالما أبدأ في الرَّغي عن تاريخ فصيلة البتوليَّات أو عن نمو الطُّحلب بلا جذور».

الطُّحلب ينمو بلا جذور، تقطِّع كلماته أنفاسي. طوال حياتي الَّتي قضيتها في دراسة علم النبات، أسقطت هذه المعلومة البسيطة، لتبرز الآن كأوَّل حقيقة أحتاجها، وبشدَّة، كي أستوعب.

أسأله: «ما اسمها؟».

يرد غرانت: «هيزل». أي **الوفاق**. ينتش جذراً مستعصياً لنبات نجيلي، متجنِّباً نظراتي: «خطر لي أنَّها ستعيدك إليَّ يوماً ما».

في هذه اللَّحظة هي قد فعلت ذلك ولمَّت شملنا. ينقلع جذر النَّبات النَّجيلي فيلاحق غرانت الشَّتلة اليابسة وصولاً إلى نقطة التحامها التَّالية بالتُّربة.

أسأله: «هل جننت؟».

لم ينطق غرانت بالجواب لوقت طويل. ينقلع جذر آخر، فيسحب النَّبتة بأكملها ويلفُّ ساق النَّبات المجدول حول سبَّابته الثخينة.»يجب أن أجن».

يعود إلى سكونه ثانية وينقل نظره باتِّجاه أملاكه. «قد سكَّنت غضبي مئات المرَّات منذ أن اكتشفت وجود هيزل. وحقِّي عليك أن تسمعيني».

فأجيبه: «أعلم هذا، تابع». أنظر إليه، لكنَّه لم يبادلني النَّظرات. لن يقول الكلمات الَّتي تدرَّب على تردادها. مع أنَّ لديه كلَّ الحقِّ لأن يغضب، لكن، لم يبد غاضباً، ولم يبغ أن يجعلني أعاني. لم تكن تلك نيَّته.

بعد فترة يهزُّ غرانت رأسه وهو يزفر، ويقول: «فعلت ما توجَّب عليك فعله، وأنا فعلت ما توجَّب عليَّ فعله».

أوَّلت كلامه على أنَّه يعني أنَّني كنت محقَّة حين خمَّنت أنَّ ابنتي تعيش في الكرم. قد وضعها غرانت في رعاية اليزابيث.

يسألني غرانت فجأة: «أتأكلين؟»، ويلتفت إليَّ.

فأسأله: «وهل تطبخ؟».

يومئ برأسه فأنهض.

أتّجه ناحية برج الماء، لكنَّ غرانت يمسك بيدي ويقودني إلى الشُّرفة الأماميَّة للمنزل الرَّئيسي. أتركه يقودني لأنتبه للمرَّة الأولى أنَّ المنزل قد تمَّ طلاؤه من جديد، وأنَّ النَّوافذ قد أعيدت إلى مكانها.

يتمُّ تجهيز طاولة الطَّعام الخشبيَّة الطَّويلة والصَّقيلة، والمكشوفة إلَّا من مكانين يقعان في طرف واحد، بفوط قماشيَّة مطويَّة، وأوان فضِّيَّة لَّامعة، وأطباق خزفيَّة بيضاء رقيقة بأزهار زرقاء غير محدَّدة النَّوع تحيط بالحافَّة. أحتلُّ مكاني فيصبُّ غرانت الماء من إبريق في كأس كريستاليَّة قبل أن يختفي عبر الباب الهزَّاز الَّذي يؤدِّي إلى المطبخ. يعود وقد حمل فرُّوجاً مشويَّاً كاملاً على صحفة فضِّيَّة.

أسأله: «هل تطبخ كلَّ هذه الكمِّيَّة لك وحدك؟».

فيجيب: «أحياناً، عندما لا أستطيع طرد ذكراك من تفكيري. لكنِّي اليوم جهَّزته لأجلك. عندما رأيتك تقفزين السِّياج أشعلت الفرن».

يقطع الفخذين بسكِّين ويضعهما في صحني الفارغ قبل أن يبدأ بتقطيع الصَّدر إلى شرائح. ومن المطبخ يحضر مسكبة فيها صلصة اللَّحم وصينيَّة طويلة من الخضار المشويَّة: شمندر، بطاطا، وفليفلة بألوان مشهِّية. حين قدَّم لي الخضار كنت قد انتهيت من تعرية اللَّحم عن عظام الفخذ الأوَّل. أضع العظم المشفَّى في بركة من الصَّلصة، في الوقت الَّذي يحتلُّ فيه غرانت مكانه على الكرسي المقابل لي.

كان لـديَّ الكثير مـن الأسئلة لأطرحهـا. وددت لـو أنَّـه يصـف كلَّ يـوم مـرّ منـذ أن وجـد الطِّفلـة في السَّـلَّة المبطَّنـة بالطُّحلـب. أردت أن أعـرف شـعوره حين نظـر في عيني ابنتـه للمـرَّة الأولى، أكان شـعوراً بالحنـان أم بالرَّهبـة، وكيـف صـارت تعيـش مـع اليزابيـث.

أردت أن أسـأل، لكـن بـدلاً مـن ذلـك رحـت ألتهـم الفـرُّوج بنهـم وكأنَّـني لم أتنـاول وجبـة منـذ أن طهـى غرانـت لي الطَّعـام لآخـر مـرَّة. تناولـت كلا الفخذيـن، وكلا الجناحـين، وانتقلـت إلى الصَّـدر. كان مـذاق الوجبـة متداخـلاً في ذاكـرتي مـع ذوق غرانـت، بقُبَلـه بعـد الطَّبـخ، بكيفيَّـة مباشرتـه لي، عندمـا أطلـب ذلـك وحسـب، في المرسـم وفي الطَّوابـق الثَّلاثـة لخزَّان المـاء. تركتـه، لكـنَّ لمسـته، كـما طهيـه، لم يحـلَّ شيء أبـداً محلَّهـا. عندمـا رفعـت ناظـري كان يراقبنـي وأنـا آكل، كـما فعـل في مناسـبات عـدَّة مـن قبـل، ويمكنني أن أحكـم مـن نظرتـه في عينـيَّ أن لا شيء احتـلَّ مكانتـي، أنـا أيضـاً.

عندمـا أنهيـت طعامـي كان الفـرُّوج المسـجَّى عـلى الصَّحفـة الفضِّيَّـة قـد تحـوَّل إلى نُصُـب مـن عظـام. أطالـع طبـق غرانـت. كان مـن الصَّعـب الحكـم إن تنـاول شـيئاً، فأملـت أنَّـه فعـل؛ أملـت أنَّـني لم أزدرد الطَّائـر وحـدي. لكـن، حـين سـألني إن كنـت أريـد رؤيـة غرفـة هيـزل وحاولـت النُّهـوض، شـعرت بثقـل الوجبـة في معـدتي. تركـت غرانـت يسـندني، وهـو أقـرب إلى حمـلي، كـي أصعـد الـدَّرج. يفتـح آخـر بـاب في الـرُّواق الطَّويـل ويعينني عـلى الوصـول إلى حافَّـة سريـر مـزدوج. يمسـك غرانـت بـرأسي ويضـع وسـادة تحـت رقبتـي،

ثـمَّ يعبر مـن أمـام كـرسي هـزَّاز ويسـحب سـجلَّ قصاصـات بجلـد زهـري مـن عـلى رفٍّ للكتـب.

«لقـد صمَّمـت اليزابيـث هـذا مـن أجلهـا»، يقـول وهـو يفتـح السِّـجل. حملـت الصَّفحـة الأولى رسـماً لزهـرة بنـدق بريشـة كاثريـن، وقـد سـحبت مـن ملفِّهـا وغلِّفـت بغـلاف شـفَّاف وثبِّتـت بالدَّفـتر بزوايـا ذهبيَّـة خاصَّـة للصُّـور. تحـت الرَّسـمة يـبرز اسـم ابنتـي، هيـزل جونـز هاسـتينغز، مكتـوب بخـطِّ اليزابيـث الأنيـق، مـع تاريـخ ميلادهـا، الأوَّل من آذار، الَّـذي لم يكـن تاريـخ ميلادهـا نهائيـاً. ويقلب الصَّفحـة.

في صـورة مثبَّتـة بـدت هيزل مستلقية في سـلَّتها المبطَّنة بالطُّحلب، كـما كانـت حـين تركتهـا تمامـاً. جعلـت الصُّـورة معـدتي تهتـاج، وعينيَّ تغرورقـان، وقـد اسـترجعت ذكـرى حنـاني الغامـر والعاجـز تجاههـا في تلـك اللَّحظـة. في الصَّفحـة التّاليـة، يظهـر رأس هيـزل متوسِّـداً صـدر غرانـت وهـي في حمَّالـة أطفـال وعـلى رأسـها قبَّعـة بيضـاء عريضـة مربوطـة أسـفل ذقنهـا، وقـد بـدت نائمـة. كان هنـاك صورتـان أو ثـلاث ملتقطـة في كلِّ شـهر مـن عمرهـا، تـؤرِّخ لأوَّل ابتسـامة وأوَّل أسـنان تبـزغ لهـا، وأوَّل طعـام تتناولـه، وقـد التقطـت جميعهـا باهتـمام شـغوف.

أغلـق الكرَّاسـة وأعيدهـا إلى غرانـت. كان هـذا كلُّ مـا أردت الاطِّـلاع عليـه.

أسأله: «أهذه غرفتها؟».

فيردُّ: «حين تأتي للزِّيارة، عادة عصر السَّبت، أو بعد انتهاء سوق المزارعين أيَّام الأحد». يمرِّر يده على حاجز سرير أطفال فارغ وهو يعيد مجمع الصُّور إلى رفِّه. عندما استلقى إلى جانبي بدا جسده ساخناً إذ مسَّ ذراعي. أنقِّل نظري في الغرفة: رسومات كاثرين الَّتي تصوِّر الزُّهور في مربَّعات بمساحة قدم واحدة مرسومة بالرَّصاص ومعلَّقة في حاشية ثخينة بيضاء للصُّور ذات الإطار الخشبي زهريِّ اللَّون. كانت الإطارات تتماشى مع الأثاث الزَّهري، السَّرير، والكرسي الهزَّاز، والمنضدة الجانبيَّة، ورفُّ الكتب، جميعها تحمل نقش زهرة الرَّبيع البيضاء.

أتحدَّث قائلة: «يبدو المنزل بحالة جيِّدة. قد أنجزت الكثير خلال عام».

يهزُّ غرانت رأسه: «بل عام ونصف. بدأت بالأمر في اليوم التَّالي لرؤيتك مرسم والدتي. كنت تتأخَّرين في عملك بعد الظُّهر فكنت أهرع إلى المنزل لأنزع ورق الجدران، وأعيد طلاء الطَّوابق. كنت أجهِّزه كمفاجأة، فلطالما أملت أن نعيش هنا سويَّة يوماً ما».

غادرت دون وداع، دون أن أخبر غرانت بحملي حتَّى. وخلال كلِّ هذه المدَّة كان يؤسِّس لي بيتاً، دون أن يدري إن كنت سأرجع، أو متى سأرجع.

«أنا آسفة». في الصَّمت الَّذي تلا تتلاحق ذكريات الأشهر

الأولى من حملي، ونومي للمرَّة الثَّانية في ميدان ماكينلي، والغثيان الَّذي كان ينتابني، والقذارة، وشعري المشعَّث، فجعلتني الذِّكرى أضطرب. كنت تحت تأثير الصَّدمة إلى درجة انعدام الخوف لديَّ وانتفاء الإحساس بضرورة المحافظة على النَّفس.

يردُّ غرانت: «وأنا آسف أيضاً».

أبتعد عنه لأنظر في عينيه. كان يتحدَّث عن ابنتنا في غرفتها الفارغة الَّتي تحتوينا.

أسأله: «هل تخلَّيت عنها؟». لم يكن هذا اتِّهاماً، ولأول مرَّة تحمل نبرة صوتي الرِّسالة الَّتي أردت إيصالها، أنَّ فضولي كان للمسايرة وحسب وليس لإلقاء اللَّوم.

يومئ غرانت: «لم أكن أرغب بذلك. وقع حبُّها في قلبي لحظة رأيتها. أحببتها جدَّاً لدرجة أنستني أن آكل وأعتني بزهوري طيلة شهر آذار». خطر لي أنَّ غرانت مرَّ بنفس التَّجربة، وكانت أكبر من قدرته.

يستدير إليَّ فينحشر جسده الثَّخين بين الجدار وبيني، ويقول: «أردت كثيراً أن أسعدها، لكنِّي بقيت أرتكب أخطاء. كنت أطعمها أكثر من اللَّازم، أو أغفل عن تغيير حفاضها، أو أتركها لمدَّة طويلة جداً تحت أشعَّة الشَّمس وأنا منهمك في عملي. لم تبكِ أبداً، لكنَّ الشُّعور بالذَّنب كان يبقيني مستيقظاً طوال اللَّيل. بدا لي أنَّني أخذلها، وأخذلك أنت أيضاً. لم أستطع أن أكون لها الأب

الَّذي أردته. لم أستطع ذلك وأنا بمفردي، بدونك. كما أنَّني كنت خائفاً ألَّا تعودي أبداً، حتَّى عندما أسميتها».

يرفع غرانت كفَّه الثَّقيلة ويمرِّرها على شعري. يوسِّد خدَّه يافوخي، فأشعر بشعر ذقنه يخز جلدي. ويتابع: «حملتها إلى اليزابيث. كان هذا الحلُّ الوحيد الَّذي خطر لي. عندما ظهرت عند شرفتها الأماميَّة والطِّفلة في السَّلَّة، بكت وأدخلتنا كلينا إلى مطبخها. بقيت في منزلها لمدَّة أسبوعين، وعندما غادرت، لم آخذ الطِّفلة معي. ابتسمت هيزل لأوَّل مرَّة وهي بين ذراعي اليزابيث، فلم أطق التَّفكير بتفريقهما». يلفُّ غرانت ذراعيه حولي ويميل برأسه على أذني، ويهمس: «قد يكون هذا مجرَّد عذر قنعت به كي أتركها، لكنِّي لم أنجح». أخفِّض ذراعي دون صدره. وعندما لفَّني إليه، لففته.

«أدري». لم أنجح أنا أيضاً، وقد أدركها دون أن أنطق بها. تعانقنا كما لو كنَّا نغرق، دون أن يبحث أحدنا عن شاطئ، وبقينا على هذه الحال لمدَّة طويلة، دونما كلام، وبالكاد نتنفَّس.

أسأله: «هل أخبرت اليزابيث عنِّي؟».

يومئ غرانت برأسه. «أرادت أن تعرف كلَّ شيء. اعتقدت أنَّه عليَّ ذكر كلِّ لحظة من كلِّ يوم عِشتِه مذ رأتك لآخر مرَّة في المحكمة، وبقيت خائبة الرَّجاء إذ لم أفعل». أخبرني غرانت بشأن جلوسه إلى طاولة اليزابيث، وهناك قدر يشوى في الفرن،

فيما هيزل غافية بين ذراعيه. لم لم تسأل؟ كانت لتقول حين حار غرانت جواباً بشأن ما فعلته في عيد ميلادي السَّادس عشر، إن كنت التحقت بمدرسة ثانويَّة أو حيال أكثر ما أحبُّ تناوله على الفطور. «ضحكت حين أعلمتها أنَّك لا تحبِّين الزَّنبق، فأخبرتني بأنَّك لا تحفلين كثيراً بالصَّبَّار أيضاً». أرفع رأسي عن صدر غرانت لأنظر إليه. يرتفع طرف فمه فأدرك أنَّه عرف القصَّة بأكملها.

أسأله: «هل قصَّت عليك كلَّ شيء؟». فيومئ برأسه. أحدر رأسي ثانية وأنطق كلماتي التَّالية مكتومة في مواجهة صدره: «حتَّى أمر الحريق؟».

يومئ ثانية، وذقنه تضغط على جبهتي، فنصمت لوقت طويل. في نهاية المطاف أطرح السُّؤال الَّذي احتفظت به مطوَّلاً: «كيف لم تدرك الحقيقة؟».

لم يجب غرانت مباشرة. وعندما أجاب، خرجت الكلمات مترافقة بتنهيدة طويلة: «كانت أمِّي قد ماتت».

اعتبرت تصريحه مؤشِّراً على إنهاء سلسلة تساؤلاتي، فلم أضغط عليه. لكنَّه بعد صمت تابع كلامه.

«كان الأوان قد فات على سؤالها، وإن كنت أظنُّها اعتقدت أنَّها من أشعل الحريق. في ذلك الحين، لم تعد تتعرَّف عليَّ معظم الأيَّام. باتت تنسى تناول الطَّعام وترفض أخذ دوائها. في ليلة الحريق، وجدتها في مرسمها، تراقب، والدُّموع تسيل على وجهها

مدراراً. راحت تسعل بشكل متقطِّع، ثمَّ شرعت تختنق، كما لو أنَّ الدُّخان يملأ رئتيها. اتَّجهت إليها ولففت كتفيها بذراعيَّ فبدت ضئيلة جداً. ربَّما طولتُ قدر قدم منذ آخر مرَّة لفَّتني بذراعيها. من بين نشجها تمتمت بنفس الجملة مرَّات ومرَّات **لم أقصد ما فعلت**».

أتخيَّل السَّماء القرمزيَّة، وصورة كاثرين وغرانت في النَّافذة، فيعاودني الشُّعور بالعجز الَّذي خبرته حين تعرَّضت لصهد الحريق. كاثرين قد شعرت به، هي أيضاً. في تلك اللَّحظة تشابهنا، كلتانا هدَّها إدراكها المحدود للحقيقة.

أسأله: «ثمَّ ماذا؟».

«أمضت عاماً وهي ترسم زهرة المكحَّلة، بقلم الرَّصاص، بالفحم، بالحبر، وبالألوان الشَّمعيَّة. في نهاية الأمر راحت تلوِّن سيقاناً أرجوانيَّة طويلة ومئات الزَّهرات الصَّغيرة على كلِّ شيء يقع تحت يدها، بدءاً من اللَّوحات القماشيَّة الكبيرة وصولاً إلى طوابع البريد الصَّغيرة، وكلُّها لأجلي حسبما قالت. لم تكن واحدة منها مناسبة لاليزابيث. وفي كلِّ يوم كانت تعاود الكرَّة».

المكحَّلة، أي **أسألك العفو**. أتذكَّر عبوات التَّلوين الأرجواني على الرَّف العلوي في مرسم كاثرين.

يصرِّح غرانت: «كان عاماً جيِّداً، بل من أفضل الأعوام الَّتي قضيناها. صارت تأخذ دواءها وحاولت الأكل. في كلِّ مرَّة أمرُّ

من تحت شبَّاكها المكسور، كانت تصرِّح بحبِّها لي. لازلت أرفع نظري بين الحين والأخر كلَّما عبرت من أمام الباب وأنا أتوقَّع رؤيتها».

لم تترك كاثرين غرانت إطلاقاً، ولا حتَّى في مرضها. استطاعت أن تتدبَّر أمرها لوحدها بلا معيل، وهو ما عجزنا أنا وغرانت عن فعله، أن نحتفظ بطفل ونربِّيه. الشُّعور بالتَّقدير الَّذي انتابني كان عميقاً ومفاجئاً. أنظر إلى غرانت لأرى إن هو أحسَّ به بدوره. رأيت عينيه الكامدتين والمستغرقتين مركِّزتين على رسومات والدته، فأقول: «كانت تحبُّك».

يخرج لسانه من فمه ويلويه حتَّى يمسَّ شفته العليا. «أعلم».

يتردَّد في صوته صدىً للتَّفاجؤ، ولم أتبيَّن إن كان تفاجؤه نتيجة معرفته بحبِّ والدته الكبير له، أم لأنَّه استوعب أخيراً عمق مشاعرها. لم تكن أمومتها مثاليَّة، لكنَّ غرانت، الَّذي كبر الآن، كان قويَّاً وحنوناً ومزارعاً ناجحاً. كانت آثار السَّعادة تبدو عليه حتَّى. لم يقل أحد أنَّها لم تربِّه جيداً، أو على الأقل بشكل جيِّد إلى حدٍّ معقول. شعرت بموجة من الامتنان تجتاحني تجاه المرأة الَّتي لن أقابلها أبداً، المرأة الَّتي أنجبت الرَّجل الَّذي أحببت.

أسأله: «فكيف ماتت؟».

«في يوم لم تنهض من سريرها. عندما اقتربت منها لم تكن تتنفَّس. المتسبِّب في موتها هما الكحول والوصفات الطبِّيَّة، حسبما

قال الأطبَّاء. كانت تعرف أنَّها لا ينبغي أن تحتسي الكحول، لكنَّها غالباً ما كانت تهرِّب قارورة إلى السَّرير. في النِّهاية، تجاوز الأمر الحدَّ المقبول».

مكتبة
t.me/t_pdf

«آسفة».

بلى، كنت آسفة. كنت آسفة بسبب غرانت، وآسفة إذ لم ألتق بها، وآسفة أنَّ هيزل لن تعرف جدَّتها.

أضمُّ غرانت للمرَّة الأخيرة. أسحب ذراعي من تحته وأقبِّل جبهته، وأقول بصوت متهدِّج: «عاملت هيزل جيِّداً، جيِّداً جداً. بوركت». أزحف فوق جسده وأنهض، فيقول: «لا تذهبي. ابقي معي هنا. أرجوك. سأحضِّر لك العشاء كلَّ مساء».

أمسح بناظري الرُّسومات الَّتي على الجدار: الصَّبَّار، زهرة الرَّبيع، والأقحوان، كلُّها زهور تناسب فتاة شابَّة. لم أستطع النَّظر إلى غرانت، ولم أستطع التَّفكير بطبخه. إن أنا نظرت في عينيه ثانية، أو حتَّى شممت رائحة تصدر عن الفرن، فمن المحال أن أغادر.

أردُّ عليه: «عليَّ الذَّهاب. لا تسألني البقاء رجاء. اهتمامي البالغ بابنتي يحتِّم عليَّ عدم التدخُّل في حياتها الآن وهي ترفل في السَّعادة وتحظى بالرِّعاية والحب».

ينهض غرانت. يلفُّ ذراعيه حول خصري ويجرُّني إليه قائلاً: «لكنَّ أمَّها ليست معها. وهذا لا يمكن تعويضه».

أتنهَّد، فليس فيما قال تحميل ذنب أو إكراه أو كلمات هدفت الإقناع، بل كانت حقيقيَّة.

أنزل الدَّرج وغرانت يتبعني كظلِّي. لدى وصولنا إلى غرفة الطَّعام يتجاوزني ويفتح الباب الخارجي، فأجتاز الممرَّ بسرعة.

يقول لي: «تعالي في عيد الشُّكر. سيكون هناك زهور».

أسير باتِّجاه الطَّريق بخطى بطيئة ومتثاقلة. مع أنِّي رفضت دعوة غرانت لي للبقاء، لكنَّني في الحقيقة لم أرغب في المغادرة. فمع سماعي لضحكة ابنتي، ورؤيتي لاليزابيث كأمٍّ مرَّة أخرى، بصوتها الحازم واللَّطيف الَّذي ما بارح ذاكرتي، لم أستطع إجبار نفسي على المغادرة. لم أكن أبغي أن أقفل عائدة من فوق الجسر وأعتزل في غرفتي الزَّرقاء. وقبل كلِّ شيء، أدركت، لدهشتي، أنَّني لا أريد أن أبقى لوحدي.

أنتظر سماع صوت إغلاق الباب الخارجي، وعندما أغلق أستدير وأتوارى في أوَّل دفيئة. كنت في حاجة الزُّهور.

(٦)

كانـت الباقـة الَّتـي جمعتهـا مـن مزرعـة غرانـت تترجـرج بـين ركبتـيَّ وأنـا أقطـع المسـافة القصيـرة عائـدة بسـيَّارتي إلى منـزل اليزابيث.

أركـن عنـد مدخـل العقـار وأهـرول فـوق الـدَّرب الطَّويـل. يتوهَّـج نـور مصبـاح برتقـالي مـن نافـذة المطبـخ. توقَّعـت أن أجـد اليزابيـث في هـذا الوقـت المتأخِّـر مـن شـهر تشريـن الأوَّل وهـي تقـوم بجولـة التَّذوُّق المسـائيَّة، وهيـزل في ركابهـا، لكـن، بـدا أنَّهـا لاتـزالان تنهيـان طعامهـا. تسـاءلت عـن قدرتهـا عـلى رعايـة شـؤون الكـرم ومعهـا طفلـة، وإن تأثَّـرت نوعيَّـة المحصـول نتيجـة لهـذا. لم أتخيَّـل أنَّهـا سـترضى بـأيِّ تقصـير.

توقَّفـت عنـد الشُّرفـة أسـترق النَّظـر مـن النافـذة الأماميَّـة لأرى هيـزل تجلـس إلى طاولـة المطبـخ، وقـد ثبِّتـت إلى كـرسي مرتفـع. قـد استـحمَّت وارتـدت ملابسـها بعدمـا لمحتهـا في الحديقـة. شـعرها الرَّطـب قـد فـرق عـن جنـب وشُـدَّ بمشـبك، وقـد بـدا أدكـن وملفلفـاً. هنـاك مريلـة خـضراء لَّماعـة مثبَّتـة خلـف رقبتهـا وقـد تبقَّعـت بـمادة بيضـاء كريميَّـة اللَّـون، وهـي تلعـق عـن رؤوس أصابعهـا مـا بقـي عليهـا مـن طعـام كانـت تتناولـه. كانـت اليزابيـث تـولِّي ظهرهـا لي

وهـي تغسـل الصُّحـون عـلى المجـلى. عندمـا ينقطـع صـوت المـاء أتـوارى خلـف البـاب الأمامـي المغلـق.

أحني رأسي وأدسُّ أنفي في الباقة الَّتي جمعتها. كان هناك زهرة الكتَّان وزهرة أذن الفأر والبندق. كما كان هناك زهرات بيض وأخر زهريَّة، الهيلينيوم والبفتة وزهرة الرَّبيع والكثير من زهور الجرسيَّة. حزمت الطُّحلب المخملي، الَّذي بالكاد يرى، بين السِّيقان المربوطة بقوَّة، وقمت بنثر الباقة بالبتلات القرمزيَّة والبيضاء للمريميَّة المكسيكيَّة الَّتي يزرعها غرانت. بدت الباقة كبيرة، لكن غير كافية. آخذ نفساً عميقاً وأنقر على الباب.

تعبر اليزابيث من أمام النَّافذة وتفتح الباب. كانت هيزل تعتلي وركها، وخدُّها على كتف اليزابيث، فأمدُّ يدي بالزُّهور.

ترتسم ابتسامة على وجه اليزابيث. تعكس تعابيرها فرحها وأنَّها عرفتني، لكن لم تحمل المفاجأة الَّتي توقعتها. تمرِّر نظرها عليَّ من رأسي حتَّى قدميّ فينتابني شعور الابنة الَّتي ترجع من معسكر صيفي إلى أمِّها القلقة بلا ضرورة. إلّا أنَّ مخيَّم الصَّيف في حالتي كانت فترة مراهقتي كلُّها، الاستقلاليَّة، والتَّشرُّد، والأمومة الوحيدة، فلا يمكنني أن أقول بحقٍّ أنَّ قلق اليزابيث كان بلا مبرِّر. لكن الآن، بدت السُّنون الَّتي مرَّت على مغادرتي لبيتها قصيرة وبعيدة.

تدفع باب المنخل فاتحة إيَّاه وتمدُّ يدها متجاوزة الباقة لتلفَّ

ذراعها حول عنقي. أسند رأسي إلى الكتف الَّذي لا تحتلُّه هيزل، ونقف هناك في عناق مربك إلى أن راحت هيزل تنزلق عن خصر اليزابيث. تنتعها إلى الأعلى فأبتعد لأراهما معاً. كان وجه هيزل متواري، واليزابيث تمسح دموعاً تجمَّعت في مآقيها، وهي تنطق قائلة: «فيكتوريا».

تطبق راحتها على أصابعي لنتمسَّك كلتانا بالباقة، لتأخذها منِّي في نهاية المطاف. «اشتقت إليك».

تمسك اليزابيث بباب المنخل وتشير إليَّ برأسها كي أدخل. «هل أكلت شيئاً؟ يوجد بعض من حساء العدس، كما حضَّرت مثلَّجات بطعم الفانيليا عصر هذا اليوم».

أجيبها: «قد أكلت لتوِّي. لكن سأتناول المثلَّجات».

ترفع هيزل رأسها عن كتف اليزابيث وتصفِّق بيديها. فتقول اليزابيث: «قد تناولت حصَّتك يا صغيرة»، وتطبع قبلة على أعلى رأس هيزل وتدخل المطبخ. تضعها على الأرض فتتعلَّق الطِّفلة بساقي اليزابيث من الخلف. تميل من الثَّلَّاجة إلى الخزانة دون أن تخطو، فتنجح اليزابيث في الوصول إلى وعاء معدني فيه المثلَّجات، وطبق، وملعقة.

عندما تمتلئ الزِّبديَّة تقول: «هيَّا». ترفع هيزل يديها فتنحني اليزابيث وتحملها بذراع واحدة. «لنجلس إلى المائدة مع والدتك».

تسارعت دقّات قلبي حين أشارت اليزابيث بشكل عفوي إلى أمومتي، لكنَّ هيزل لم تهتمَّ للأمر طبعاً.

أغسل يديَّ عند المجلى وأجلس. تسحب اليزابيث الكرسيَّ العالي المقابل لي، لكن، حين انحنت لتضع الطِّفلة فيه تزعق هذه وتتمسَّك برقبة اليزابيث. تنطق بهدوء لتقطع صرخة هيزل: «لا يوجد شكراً لك عمَّة اليزابيث»، ثمَّ تسحب الكرسيَّ العالي بعيداً وتجرُّ كرسيّاً عاديّاً مكانه، لتجلس بعدها وهيزل متعلِّقة بها وصدرها على صدرها.

تخبرني اليزابيث قائلة: «ستعتاد عليك. تحتاج إلى قليل من الوقت حتَّى تألفك».

«أخبرني غرانت».

«هل قابلت غرانت؟».

أومئ برأسي. «الآن. أتيت إلى هنا أولاً، لكن، عندما رأيتك في الخارج مع هيزل تفاجأت لدرجة أنَّني استدرت وجريت».

«سعيدة بعودتك».

«وأنا ايضاً».

تدفع اليزابيث بزبديَّة المثلَّجات فوق الطَّاولة، وتتلاقى نظراتنا. لقد عدت. ربَّما لم يتأخَّر الوقت رغم كلِّ شيء.

أتناول لقمة من المادَّة الباردة المرهميَّة القوام. عندما رفعت نظري كانت هيزل قد التفتت، وراحت تسترق النَّظر إليَّ بخجل، وقد انفرجت شفتاها الرَّقيقتان. أعيد ملء الملعقة وأرفعها ببطء إلى شفتيَّ، وقبل أن أضع اللُّقمة أدير الملعقة باتِّجاه لسانها المترقِّب. تزدردها وتبتسم وتدفن وجهها في صدر اليزابيث. ثمَّ تنظر وتفتح فمها ثانية. أغرف لقمة أخرى من المثلَّجات وأدسُّها بين شفتيها.

تتنقَّل نظرات اليزابيث بين وجه الطِّفلة ووجهي، ثمَّ تسألني: «كيف تجري الأمور معك؟».

أردُّ وأنا أتحاشى نظرتها: «على ما يرام».

تهزُّ رأسها. «ما في مجال. أريد أن أعرف بالضَّبط كيف سارت أمورك، منذ اللَّحظة الَّتي رأيتك فيها آخر مرَّة في المحكمة. أريد أن أعرف كلَّ شيء، بدءاً من الوجهة الَّتي قصدتها عندما هربت من المحكمة».

«لم أبتعد كثيراً، فقد أمسكت بي ميريديث وألحقتني بسكن جماعي كما توعَّدت».

تسألني اليزابيث: «هل كان سيِّئاً؟». يطلُّ جزع في نظراتها فأعلم أنَّها تتوقَّع منِّي أن أؤكِّد أسوأ كوابيسها بشأن مجريات حياتي الَّتي عشتها في العقد المنصرم.

أجيبها بتهكُّم: «بالنِّسبة لبقيَّة الفتيات في السَّكن»، وتطوف

بذاكرتي المراهِقة الَّتي كُنتُها، ومجمل الأذى الَّذي تسبَّبت فيه. «بالنِّسبة لي كان سيِّئاً فقط لأنَّني لم أكن هنا، معك».

تغرورق عينا اليزابيث. راحت هيزل تدقُّ على الطَّاولة بقبضتيها تبرُّماً، وهي في حضنها. ألقمها لقمة ثانية، فتمدُّ ذراعيها وكأنَّها تريدني أن أحملها، فأنظر إلى اليزابيث.

تومئ مشجِّعة: «هيَّا».

بيدين مرتجفتين، أمسك هيزل من تحت إبطيها، وأرفعها، وأسحبها باتِّجاهي. بدت أثقل ممَّا توقَّعت. عندما أجلستها في حضني تدفع مؤخِّرتها الملفوفة بالحفاض باتِّجاه بطني، وتدسُّ رأسها تحت ذقني. أميل بوجهي على مؤخَّر شعرها فأشتمُّ منها رائحة تشابه رائحة اليزابيث، زيت القلي، والكمُّون، وصابون برائحة اللَّيمون. أتنشَّقها وألفُّ ذراعيَّ حول خصرها.

تلتقط هيزل الزِّبديَّة، وتغمس أصابعها في المثلَّجات المائعة. نرقبها أنا واليزابيث وهي تأكل، والمثلَّجات تقطر فوق ثوبها الكتَّاني بلا مريلة. بدا حاجباها وهي في حالة الانهماك تلك كحاجبي والدها.

تسألني اليزابيث: «أين تقيمين؟».

«لديَّ شقَّة، ومشروع أيضاً. أنسِّق الزُّهور للأفراح، وأموراً من هذا القبيل».

«يقول غرانت أنَّك موهوبة. أخبرني أنَّ النِّساء يصطففن في طوابير على امتداد مجمَّعات، وينتظرن بالشُّهور ليشتروا منك الزُّهور».

أهزُّ كتفيَّ استهجاناً وأقول: «كلُّ ما أعرفه تعلَّمته هنا».

أنظر حولي وأسترجع ذكرى ذلك العصر، حين شرَّحت اليزابيث زنبقة فوق لوح تقطيع على ذات طاولة المطبخ هذه. بدا كلُّ شيء كما أذكره، الطَّاولة والكراسي، النُّضد النظيف، وحوض المجلى الخزفي العميق الأبيض. الإضافة الوحيدة كانت لوحة تعرض لزهرة مكحَّلة قرمزيَّة بحجم علبة الثِّقاب، تتقلَّب في إطار زجاجي أزرق اللَّون فوق حافَّة النَّافذة إلى جانب صفٍّ من القناني الزَّرقاء.

فأسأل: «من كاثرين؟»، وأومئ إلى الرَّسمة.

تهزُّ اليزابيث رأسها: «بل من غرانت. توفِّيت كاثرين قبل أن ترسم صورة مكحَّلة تعجبها بما يكفي كي تقدِّمها إليَّ. لكنَّ هذه هي المفضَّلة عند غرانت، وطلب منِّي أن أحتفظ بها».

«إنَّها جميلة».

تومئ اليزابيث: «وأنا أحبُّها». تنهض وتحضرها إلى الطَّاولة وتضعها بيننا. أتمعَّن في طريقة تجمُّع الزُّهور الإفراديَّة على ساق واحدة، واستطالاتها الحادَّة الملتئمة معاً كقطع المتاهة. شيء ما في

تشكيل البتلات جعلني أؤمن أنَّ السَّماح يجب أن يصدر تلقائيَّاً، لكنَّه في هذه العائلة لم يكن كذلك. رحت أفكِّر في عقود من الخلافات مرَّت، بدءاً من الوردة الصَّفراء وانتهاء بالحريق، ومحاولات إعاقة المسامحة والتَّسامح.

تعبِّر اليزابيث وكأنَّها تجيب عن خواطري: «كلُّ شيء قد تغيَّر. التمَّ شملنا أنا وغرانت بعد سنوات طويلة. وكلِّي رجاء أنَّك رجعت لتكوني جزءاً من العائلة. لقد افتقدناك جميعاً بما يكفي، أليس كذلك يا هيزل؟».

كان انتباه هيزل منصبَّاً على الزِّبديَّة الَّتي باتت فارغة الآن، وقد قلبتها رأساً على عقب، لترفعها ثانية وتتأمَّل في الحلقة الَّتي خلَّفتها المثلَّجات على الطَّاولة. وبأصابعها، تمدُّ المادَّة في دوائر كلوحة تجريديَّة جامحة من الحلو على الخشب.

تدفع اليزابيث يدها نحو يدي فوق الطَّاولة. تفتحها لي فتبدو وكأنَّها تمهِّد لي طريق العودة إلى حضن العائلة، العائلة الَّتي أحبَّتني كابنة، وكشريكة، وكأم. أتناول يدها فتدسُّ هيزل يديها الدَّبقتين والدَّافئتين بين راحتينا.

لكن، ومع التَّصريح الواضح بالسَّماح الَّذي حملته كلمات اليزابيث، كان عندي سؤال واحد آخر. فأسألها: «ما الَّذي جرى للكرم؟».

الجزء الَّذي اعتراني كان مشابهاً للجزء الَّذي اعترى صوت

اليزابيث حين سألتني عن فترة مراهقتي في السَّكن الجماعي. كلتانا تخيَّلنا الأسوأ.

«أعدنا نصبه. كانت الخسارة كبيرة لكنَّها تضاءلت تماماً أمام خسارتي لك. بقيت شجيرات الكرمة نحيلة الجذوع، بعرض الأعشاب. ما غادرت المنزل حتَّى الخريف للقيام بعمليَّة التَّذوُّق، فقط لأنَّ كارلوس كسر بابي بمعنى الكلمة وهو يطرقه كلَّ مساء».

كانت المقصورة قد اختفت، وكارلوس أيضاً.

توضِّح لي اليزابيث الوضع قائلة: «عاد إلى المكسيك قبل عام، بعد أن التحقت بيرلا بالجامعة. والداه قد هرما واعتلّا. استطعت في النِّهاية مداواة حزني وكرمي أيضاً. ولم أعد بحاجته بعدها».

إذن، ففقداني لابنتي بدا أكثر يسراً، لو أنِّي صبرت بما يكفي. لكنَّ العقد زمن طويل على الانتظار. أدسُّ أنفي في شعر هيزل الملفلف وأتنشَّق رائحتها الطيِّبة مرَّة أخرى.

أحادثها: «لا بدَّ أنَّ العنب على وشك النُّضوج».

«ربَّما. لم أتحقَّق منه منذ ثلاثة أيَّام. الأمر بات أصعب الآن (وتومئ إلى هيزل) لكنَّه يستحق».

أسألها وأنا أشير إلى الكرم: «أتحتاجين مساعدتي؟».

تبتسم اليزابيث وتقول: «نعم. هيَّا بنا». تتناول قطعة قماش

مبلَّلة من على رفِّ التَّجفيف وتمسح بها يدي ووجه هيزل وهذه تتلوَّى.

في الخارج نرتقي جميعاً جرَّاراً أحمر، اليزابيث أوَّلاً، ثمَّ أتبعها أنا، بعد أن أناولها هيزل. تجلس هيزل في حضن اليزابيث، وتمدُّ ذراعيها كي تمسك بعجلة القيادة. لكن، عندما اشتغل المحرِّك تستدير وتدسُّ رأسها في صدر اليزابيث وتسند إحدى أذنيها إلى إبطها لتخفِّف من صوت الضَّجيج. نرتجُّ ونحن نصعد الطَّريق مخلِّفين وراءنا مكان وجود المقصورة، ونتَّجه إلى التَّلِّ حيث اكتشفت العنب النَّاضج في السَّنة الَّتي أشعلت فيها الحريق. ثمَّ تطفئ اليزابيث المحرِّك.

كان الكرم ساكناً. تبتعد هيزل عن اليزابيث وتنظر من فوق شجيرات العنب إلى المنزل. تقتفي عيناها النَّاعستان أثر الواجهة وصولاً إلى نوافذ الطَّابق العلوي. عندما تستدير باتِّجاهي تجفل وكأنَّها نسيت وجودي، لتبتسم بعدها ابتسامة متوهِّجة وخجولة ومتمهِّلة. تمدُّ ذراعيها إليَّ وتصيح فرحاً فتترك صيحتها الحادَّة شرخاً دقيقاً في قشرة قلبي بحِرَفيَّة كما لو أنَّها ستقسم كريستالة دقيقة.

أشدُّها إليَّ وننزلق معاً نازلتين عن الجرَّار ونتكوَّم في الكرم. تسند هيزل وجهها إلى عنقود عنب فأنضمُّ إليها. ننتش حبَّة فأفلقها بأسناني كي أفتحها وأعطي قطعة صغيرة منها إلى هيزل.

قـد تعلَّمـت الأمـر بالفعـل. نمضـغ كلتانـا الغـلاف، ونقلِّـب اللُّـبَّ الطَّـري مـن جهـة إلى جهـة.

أبتسم، وأرقِّم ٧/ ٧٥.

لقد نضج العنب.

(٧)

مكتبة
t.me/t_pdf

أركـن صندوقـي الأزرق عـلى رفِّ الكتـب، في الفـراغ الموجـود إلى جانـب صنـدوق غرانـت البرتقـالي. اسـتقرَّت الصَّناديـق المغطَّـاة بالقـماش بـين كتـاب عـن البسـتنة ومجموعـة شـعريَّة، في المـكان الَّـذي احتلَّتـه حـين عشـنا أنـا وغرانـت معـاً في بـرج المـاء قبـل عـام.

إنَّـه يـوم عيـد الشُّـكر. قضيـت الصَّبـاح كلَّـه وأنـا أسـاعد غرانـت في تقطيـع الخضـار وخفـق البطاطـا وقطـف الزُّهـور لتزيـين الطَّاولـة، فاليزابيـث سـتصل في أيَّـة لحظـة ومعهـا هيـزل أيضـاً. أراد غرانـت أن يبـدو كلُّ شيء مثاليَّـاً. عندمـا تركتـه في المطبـخ كان يمـرُّ مـن أمـام مـرق اللَّحـم وهـو يتأكَّـد مـراراً مـن حـرارة الفـرن كـي يخـرج معظـم الهـواء السَّـاخن. لـن يجهـز الدِّيـك الرُّومـي إلا في وقـت متأخِّـر مـن اللَّيـل. لكـنَّ الأمـر لم يزعجنـي، فلـم أكـن سـأغادر إلى أيِّ مـكان.

منـذ أن تذوَّقـت العنـب مـع ابنتـي لم أغـادر الكـرم إلَّا مرَّتـين، مـرَّة لأسـاعد مارلينـا في التَّحضـير لحفـل زفـاف فيـه خمسـمائة مدعـوَّاً، وهـو الأكـبر حتَّـى الآن بالنِّسـبة لنـا، ومـرَّة أخـرى كـي أحـزم أغـراضي. بعـد تفريـغ الشَّـقَّة، قـدت سـيارتي باتِّجـاه السَّـكن المؤقَّـت وطرقـت البـاب الأمامـي، وقدَّمـت عرضـاً بسـكن مجَّـاني مقابـل العمـل كمسـاعد منسِّـق زهـور. تطوَّعـت فتاتـان فشـغَّلتهما فـوراً، وعـدت بهـما إلى

الشَّـقَّة. كانـت مارلينـا تنتظـر وهـي متوتِّـرة، فتابعتهـا وهـي تـري الفتاتـين المـكان ثـمَّ اتَّجهـت صـوب الروزنامـة. أنصتتـا بهـدوء وهـي تعـدِّد الواجبات الكثيرة الَّتي ستقومان بها. ثـمَّ استدرت كـي أغـادر وأنـا واثقـة أنَّهـنَّ لـن يكـنَّ بحاجتي في المستقبل القريـب، لكـنَّ مارلينا انـزوت بي جانبـاً والقنـوط يرتسـم في عينيهـا وتهمـس: «لكنَّهـما لا تعرفـان أنـواع الزُّهـور». فأذكِّرهـا قائلـة: «وأنـت لم تكـوني تعرفينهـا»، إلّا أنَّهـا لم تبد مرتاحـة. وعدتهـا أن أعـود قريبـاً، فقـط أحتـاج إلى مزيـد مـن الوقـت.

أجـرُّ حقيبـة غرانـت الخضراء السَّـميكة إلى الطَّابـق الثَّالـث وأنـا أفكِّـر بالوعـد الَّـذي قطعتـه لمارلينـا. أحـبُّ مشروع «رسـالة»، وأحـبُّ النَّظـرة الَّتـي تنطبـع عـلى وجـوه عرائـسي عندمـا أسـلِّمهنَّ لفافـات أعراسـهنَّ، وأحـبُّ بطاقـات الشُّـكر الَّتـي كانـت تتدفَّـق كلَّ يـوم في البريـد. كنَّـا نبنـي شـيئاً، أنـا ومارلينـا. كـما حجـز بيتـاني وراي «رسـالة» بالفعـل لذكـرى زواجهـما الأولى والخامسـة والعـاشرة، فبيتـاني تنسـب إليَّ الإنجـاز الَّـذي حقَّقتـه في علاقتهـا، وأنـا أنسـب إليهـا النَّجـاح المتنامـي لعمـلي، ولـن أخذلهـا، كـما لـن أخـذل مارلينـا أيضـاً.

سـيكون ممكنـاً في يـوم مـا أن يكـون لـديَّ عمـلي وعائلتي. سـأمضي يوميَّـاً إلى سـان فرانسيسـكو في الصَّبـاح وأعـود في وقـت الغـداء مثـل أيِّ أمٍّ عاملـة. سـآخذ هيـزل مـن بيـت اليزابيـث وأربطهـا بحـزام الأمـان إلى مقعدهـا في السَّـيَّارة وأعـود بهـا إلى مزرعـة الزُّهـور، وأجلـس معهـا إلى طاولـة الطَّعـام الطَّويلـة. سـيجهِّز غرانـت الطَّعـام وسـنقطِّع طعـام

هيزل إلى قطع صغيرة ونحن نتحدَّث عن يومنا، ونتعجَّب من نماء أعمالنا، ونمو ابنتنا، وتنامي حبّنا. في أيَّام العطلات سنأخذ هيزل إلى الشَّاطئ ليحملها غرانت على كتفه حتَّى تصبح كبيرة بما يكفي لتجري بأمان بين الأمواج، وآثار قدميها على الرِّمال تكبر مع تقادم الشُّهور.

يوماً ما سأكون قادرة على فعل كلِّ هذا.

مكتبة
t.me/t_pdf

لكنَّ الأوان لم يحن بعد.

حاليَّاً، سيستنفد أمر الانضمام إلى عائلتي كلَّ طاقتي وتركيزي. وعلى الرَّغم من قلقها، إلَّا أنَّ مارلين تفهَّمت الوضع، فالمهمَّة الَّتي تنتظرني جسيمة. عليَّ أن أتقبَّل حبَّ غرانت وحبَّ اليزابيث، وأن أكسب حبَّ ابنتي. لن أترك أحداً منهم أبداً، تحت أيِّ ظرف من الظُّروف، مرَّة أخرى.

غمرتني الفكرة بالفرح والهلع بآن معاً.

قد عشت مع غرانت من قبل وفشلت. كما عشت مع اليزابيث، وكذلك مع هيزل، وفشلت. أحدِّث نفسي، وأنا أتأمَّل في غرفة غرانت القديمة، **هذه المرَّة ستكون مختلفة**. هذه المرَّة سأخطو خطوات صغيرة، وأدخل عائلتنا العجيبة بطريقة تمكِّنني من التَّعامل معها. من الرَّضاعة عرفت مخاطر أن أغرق نفسي بالكامل في قضيَّة ما والمخاطرة بحدوث انهيار كامل. لهذا السَّبب اتَّخذت قراراً، وهو أن أعيش الآن في برج الماء لوحدي. ستبقى

هيزل مع اليزابيث على أن تكثر زياراتها وتطول. ومع تحوُّل خوفي بالنَّتيجة إلى ثقة بعائلتي، وأكبر منها بنفسي، سأنتقل للعيش في المنزل الرَّئيس مع غرانت، وسنجلب هيزل لتعيش معنا. وستكون اليزابيث، الَّتي تبعد عنَّا بما يقلُّ عن مسافة ميل، سندنا. وعدني غرانت أن يبقى برج الماء لي وحدي كملاذ بسيط، طلباً لشيء من العزلة. كان هذا كلُّ ما طلبته للبقاء.

أفتح حقيبتي وأبدأ بنقل حاجيَّاتي، فأكوِّم بناطيل الجينز والقمصان القطنيَّة والأحذية في الزَّاوية، وأعلِّق القمصان والحزامات على صفٍّ من المسامير الصَّدئة مثبَّتة على الحائط. في الخارج، يرتفع صرير البوَّابة الأماميَّة وهو يفتح، فأتوجَّه إلى النَّافذة لأرى اليزابيث تدفع عربة أطفال من خلال الحيِّز الَّذي انفرج عنها، ثمَّ تعود لإحكام إغلاقه. يبرز حذاء هيزل بجلده اللَّمَّاع من تحت قبَّعتها المطرَّزة العريضة، والَّتي أنزلت لحماية وجهها من الشَّمس.

وجدت ثوبي الوحيد في الحقيبة القماشيَّة فأخرجه. أخلع ملابسي بسرعة وأدكُّه على عجل. كان الثَّوب قطنيَّاً أسود اللَّون، وله حزام رقيق مغطَّى بنفس القماش. أدسُّ قدميَّ في حذاء أحمر داكن بلا كعب وأثبِّت بإحكام حول رقبتي عقداً من الكريستال كانت قد أعطتنيه اليزابيث، وهو ما تحبُّ هيزل التَّمسُّك به.

أمرِّر أصابعي في شعري القصير وأعود إلى النَّافذة. كانت اليزابيث قد وصلت إلى عتبة الشُّرفة الدُّنيا حيث أوقفت العربة

ورفعت المظلَّة. تحوِّل هيزل عينيها بسبب سنا الشَّمس، فتسافر بهما إلى أعلى برج الماء لألوِّح من خلف نافذة الطَّابق الثَّالث. تبتسم وتمدُّ ذراعيها وكأنَّها تريدني أن أحملها من عربتها.

ترى اليزابيث ذراعيها الممتدَّتين فتنحني لتحملها. وبوجود الطِّفلة فوق خصرها، تمدُّ يدها أسفل العربة وتسحب شيئاً من السَّلَّة الَّتي تقع تحت المقعد، وترفعه كي أراه.

كان حقيبة ظهر على شكل دعسوقة. في داخلها، حسبما فهمت، كانت لوازم نوم هيزل وحفاضاتها، وغيار من الملابس. بدا وجه اليزابيث طافحاً بالسَّعادة وتظهر عليه بحزم سيماء التَّحدِّي، ووجهي، كما أعرف، كان مثله. ملأتني رؤية ابنتي بحنان ظننتني في مرحلة ما غير قادرة على الشُّعور به، فخطر لي ما قاله غرانت غداة ظهوري من جديد في حديقة زهوره. إن كان صحيحاً أنَّ الطُّحلب لا جذور له، وأنَّ حنان الأمِّ يبرز تلقائيَّاً وكأنَّه يولد من لاشيء، فلربَّما أخطأت حين ظننت نفسي غير مؤهَّلة لتربية طفلتي. ربَّما أنَّ اللَّامنتميَّة، والمنبوذة، والمكروهة قد تصبح نبع حنان غزير مثل أيِّ أمٍّ أخرى.

ستمضي ابنتي اللَّيلة معي لأوَّل مرَّة. سنقرأ الكتب ونتأرجح في كرسيِّها الهزَّاز. ثمَّ سنحاول النَّوم. قد تفزع، وقد أرتبك، لكنَّنا سنحاول ثانية في الأسبوع المقبل والَّذي يليه، ومع الوقت ستفهم إحدانا الأخرى، سأتعلَّم كيف أحبُّها مثلما تحبُّ الأمُّ ابنتها، حبَّاً لا يخلو من أخطاء، وينمو بلا جذور.

مكتبة
telegram @t_pdf

فانيسا ديفينبو

ولدت في سان فرانسيسكو عام 1978 وترعرعت في تشيكو بولاية كاليفورنيا. بعد تخرجها من جامعة ستانفورد عملت في قطاع المنظمات غير الرِّبحيَّة وقامت بتدريس الفن والتكنولوجيا للشَّباب في التَّجمُّعات ذات الدخول المنخفضة. بعد نجاح روايتها الأولى لغة الزهور شاركت بتأسيس شبكة الكاميليا وهي مشروع غير ربحي مهمَّته التَّشبيك بين كل شاب يتخرَّج من نظام الرِّعاية والمصادر والفرص والجهات الدَّاعمة الَّتي يحتاجها كي يثبت نفسه في حياته المستقبليَّة. تقيم حالياً في مونتيري بكاليفورنيا مع زوجها وأبنائها الأربعة. في رصيدها كمؤلفة روايتان: لغة الزهور 2011، بلا أجنحة 2015.

لغة الزهور

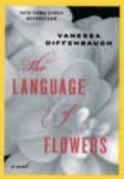

تحوَّلت الأزهار بالنِّسبة لفيكتوريا جونز إلى رسول حقيقي يحمل رسائل هواجسها عن الشَّك والوحدة والخوف والمجتمع المحيط بها، ومن ثمَّ شق طريق النَّجاح والصُّعود على الرَّغم من كلِّ الظُّروف العصيبة الَّتي مرَّت بها أو عصفت بحياتها المتمرِّدة.

بعد قضاء طفولة خاضعة لمعايير نظام الرِّعاية والحضانة، كانت عاجزة عن بناء حالة تواصل فعليَّة مع أحد، أكانت تلك الحالة تواصلاً بصرياً أم لفظياً، فأجوبتها دائماً مبتورة، ووجها المطأطئ أبداً مغطّى بخصلات شعرها. كان أسلوبها الوحيد للتَّواصل مع العالم أو للتَّعبير عن مشاعرها وأفكارها يمرُّ من خلال الزُّهور ومعانيها.

حين تبلغ الثامنة عشرة من عمرها يتم إخراجها من نظام الكفالة لبلوغها السِّن القانونية، دون وجهة تقصدها. تدرك فيكتوريا أنَّ الله حباها بهبة فريدة فتستغلُّها لمساعدة نفسها ومساعدة الآخرين في التَّعبير عن عواطفهم عبر اختيارها للزُّهور المناسبة لحالاتهم، وذلك حين سنحت لها الفرصة المواتية للعمل في محل ريناتا لتنسيق الزُّهور. لكنَّ ظهور شخص غريب غامض في حياتها جعلها تراجع ما تفتقده ويعيد إلى الواجهة مجدَّداً تلك الحياة الَّتي حلمت بها يوماً وحرمت منها نتيجة خطأ طفولي كلَّفها الكثير.

عندما تجبرها الأيام على كشف سر موجع من غياهب ماضيها، تضعها في مواجهة مباشرة مع سؤال لطالما هربت منه، سؤال يتعلَّق بخياراتها المتاحة للقضاء على التَّأثير السَّلبي لظروفها الَّتي مرَّت بها، وإن كان الأمر يستحقُّ المخاطرة بكلِّ شيء في سبيل منح نفسها ومن حولها فرصة ثانية مع تجربة السَّعادة.

ISBN 978-614-429-790-2
9 786144 297902
Madarek مدارك